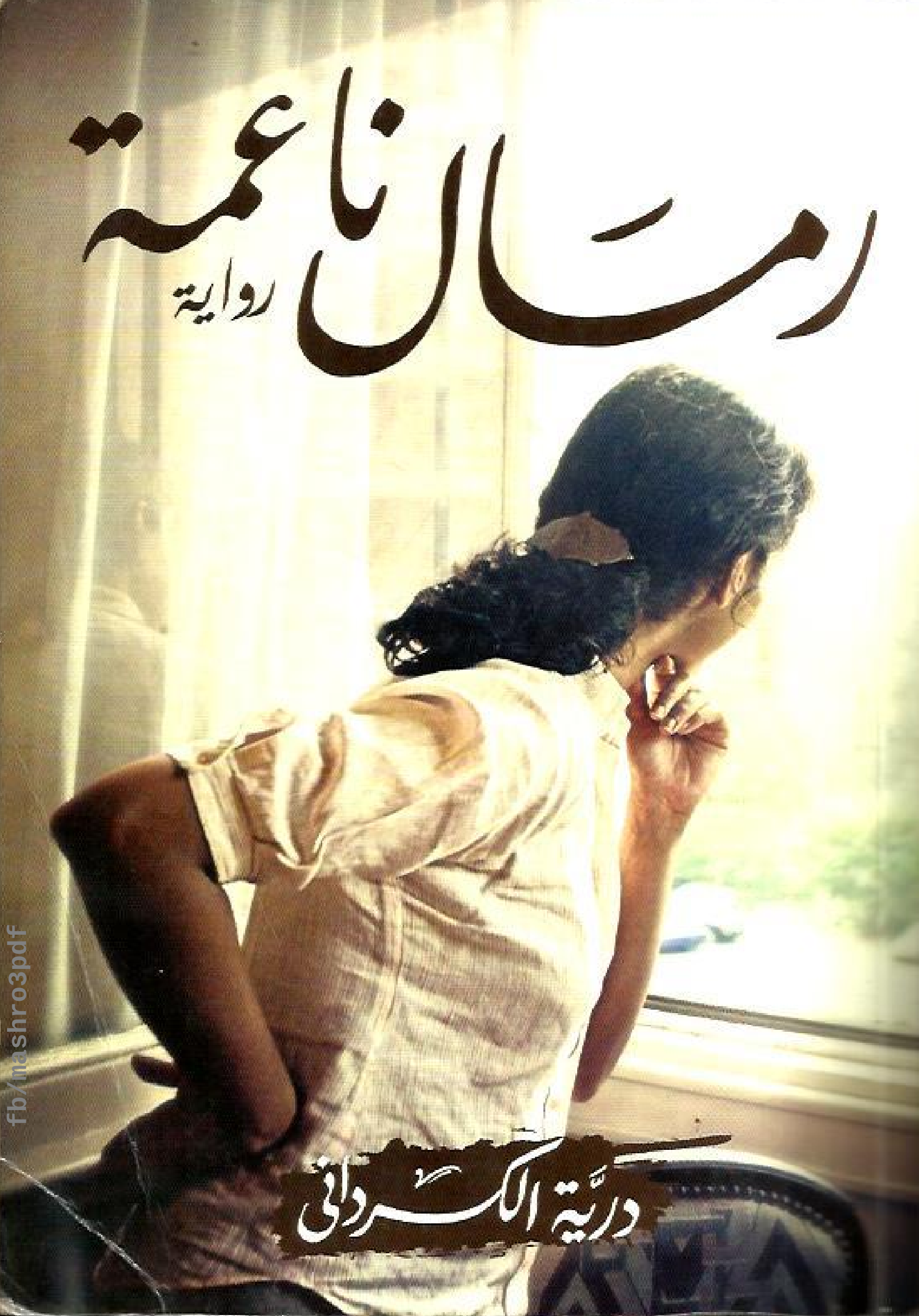

fb/mashro3pdf

fb/mashro3pdf

# رمال ناعمة

( رواية )

# رمال ناعمة

(رواية)

دربة الكردانى

الطبعة الأولى ٢٠١١ م

© حقوق النشر محفوظة

الناشر/

**دار الثقافة الجديدة**

" شركة ذات مسئولية محدودة "

٣٢ ش صبري أبو علم، باب اللوق، القاهرة

ت وفاكس ٢٣٩٢٢٨٨٠

e-mail: elguindimohamed@hotmail.com

صورة الغلاف مهداة من الفنانة / **راندا شعث**

تصميم الغلاف / **أحمد مراد**

fb/mashro3pdf

# درية الكردانى

# رمال ناعمة

(رواية)

fb/mashro3pdf

دار الثقافة الجديدة

fb/mashro3pdf

# ١

هل تستطيع لوحة أن توقف سير الزمن؟ وهل الواقع هش إلى هذه الدرجة؟ صورتي، في سن الثامنة عشرة، ملتحفة بشال أحمر كبير من الصوف المشغول بالكروشيه صنعته لي أمي مباشرة قبل قدومي للقاهرة للالتحاق بالجامعة، وأخرى فوتوغرافية لي وأنا أجلس ساكنة حتى يرسمني، وجدها هو وكبرها بعد احتراق اللوحة الزيتية، على أمل.. أي أمل؟!. الشال الأحمر يغطي تماما نصفي الأعلى ويمثل مثلث يحتل أغلب مساحة الصورة. رأسي مطأطأ فوق الشال والظل يغمر وجهي. يحب الفنان أن يرسم وجوهه في الظل. كفاي يخرجان من تحت الشال، أضعهما فوق بعضهما فوق ساقاي جالسة بالبنطلون الأسود، والفنان يهمس: سأرسم كفاك كما لو كنت أقبل كل أصبع من أصابعك الطويلة الجميلة.

(أمشي بهمة ونشاط في اتجاه المرسم بعد أن نزلت من الأتوبيس في ميدان التحرير، أسابق الزمن. آخذ طرقا صغيرة جانبية وممرات بين عمارات كبيرة لأختصر الوقت وأبتعد عن زحام الشارع والناس. في منتصف الطريق تظهر العمارة العالية من بعيد. أرفع رأسي وأدقق النظر لأرى نوافذه مشرعه، فأفرح. أدق دقتان باليد النحاسية التي تمسك بكرة صغيرة على الباب الخشبي. أسمع صوت أقدامه المكتوم يقترب من الباب فأعرف أنه يلبس الخف العراقي المريح المشغول بالخيوط القطنية. يفتح

fb/mashro3pdf

الشراعة. يبتسم. يبدو في كل مرة كما لو كان قد فوجئ بمقدمي. يغلق الشراعة ويفتح الباب بسرعة. يستدير بمجرد فتح الباب ويتحرك للأمام ليوسع الطريق لدخولي في الممر الذي ضاق برفوف الكتب على الجانبين وإلى السقف. في مدخل الحجرة في نهاية ذلك الممر القصير يستدير فجأة ليجدني خلفه مباشرة فأرجع أنا خطوة للوراء. يتناول يدي ويقبل ظهرها بخشوع فتغلبني الانفعالات المتناقضة بين الخجل والزهو. يتجه مباشرة للمطبخ الضيق ليصب قهوته الايطالية في الفنجان الأبيض الواسع ، ويتكلم عن المخرج، الذي لا يتذكر اسمه، الذي قام بعمل فيلم قصير عن فنجان القهوة يتصاعد منه البخار، واللبن المكثف المحلى وهو ينزل من العلبة المعدنية في القهوة الساخنة فيصنع خطوطا ودوائر مع الموسيقى. أستند لباب المطبخ وأسمعه وأراقب اللبن المكثف المحلى وهو ينزل في فنجان قهوته ويصنع خطوطا ودوائر تتناغم مع الموسيقى الكلاسيكية التي تصدح من البيك آب في الغرفة الأخرى.)

هل تستطيع لوحة أن تجمد الماضي؟ تنسيك التاريخ الذي صنع الواقع الآن؟ من أكون أنا، ومن يا ترى يصنع صورتي؟!.

(يقلب في الأوراق المتراكمة جوار السرير الذي يحتل أغلب مساحة الحجرة الصغيرة. الأوراق تصنع كومة يقول أنه يعرف كل ورقه فيها، مرتبة فوق بعضها تتنافس مع ارتفاع الطاولة التي تحمل الأباجورة. يجد ورقة، ينظر فيها بسرعة نظرة من يعرفها جيدا. يلقيها برفق في اتجاهي دون ان ينظر لي. يقول باتيستا ألبرتي في كتابه "عن الرسم On Painting" إن الرسم يمتلك سلطة إلهية بحق، ليس لأنه يجعل الغائب حاضرا فحسب، ولكن لأنه يعرض الأموات أمام نظر الأحياء بعد مدة قد تصل لقرون. إن قيمة الأشياء تتغير فتصبح أثمن إذا ارتبطت بالرسم وبما أن الفنان يتحكم في صورة الجمال، فان حريمه مكان مأمون لا يمكن للنساء المستعبدات فيه أن يتمردن. لقد أعاد الفنان خلقهن، عاريات وصامتات، وسيبقين كذلك). إن



fb/mashro3pdf

هذه الصورة التي رسمها لي الفنان أملت عليّ، ولمدة طويلة، نموذج الأنوثة الذي كان عليّ أن أقارن نفسي به وأسعى إليه. أنظر للصورة وأتذكر كيف تمنيت، أملت، أن يراني، حقيقة، أن يعرفني، أكثر مما أعرف نفسي!

(يقول وهو يرسم وكأنه يحادث نفسه، إلا أنه يتعمد أن اسمع بوضوح: "سأرسم الأصابع الطويلة، وكأني أقبل بوله كل واحد منها على حدة، الوجه يغمره الظل إلا أن العينين الخضراوين المنسدلتين تنظران للأسفل تملآن اللوحة بالحنان. الشعر ببقعة الشمس تنير طرف كتلته حول وجهك يغمر الصورة بالدفء. عجينة اللون غنية الاحمرار أضع فيها أزرق كوبالت وأصفر ساخن ... ، أكشطها بالسكين بجنون وشبق لتنقل ما في نفسي من مشاعر تتوهج". لا أعرف ماذا أقول. أنبهر. أظل على إطراقي كما لو كنت لم أسمع. تغمر شمس شتاء القاهرة أكتافي ورأسي وأنا أجلس على الكرسي الأسود الهزاز الذي جلس عليه كثير ممن رسمهم، قبلي وبعدي. تطول فترات الصمت التي لا يقطعها إلا حديث الفنان لنفسه عما يجب أن يفعل في الصورة أو صوت إلقائه لأدواته بمد ذراع على الطاولة المجاورة لحامل الرسم بصخب المنتصر عندما يعجبه ما يفعل. أرفع رأسي لأنظر ماذا يحدث فيشير بيده آمرا أن أبقى في نفس الوضع الذي ثبتني فيه، فأمتثل فورا. ينظر إليّ وهو يرسم كما لو كان ينظر لأي شيء، زهرية أو قطة أو سور الشرفة، يقيس المسافات باستخدام اليد الخشبية لواحدة من الفراشي الملطخة بالبوية الجافة. يفرد ذراعه ممسكا بالفرشة بشكل أفقي ومغلقا إحدى عينيه ليدقق. يقول فجأة: "والآن أرى أنك تمردت على أهلك وعلى قيم الطبقة المتوسطة التي خرجت منها. يا ترى متى تبدأين في التمرد عليّ أنا أيضا؟!". أرفع رأسي لأنظر إليه وأهُم بالتساؤل عن السبب الذي ربما سيدفعني للتمرد عليه فيسكتني بحركة من



fb/mashro3pdf

يده معناها أن أحني رأسي في نفس وضع الرسم في اللوحة ، فأطأطئ وجهي بسرعة، وأسكت دون أي مشكلة).

هل يمكن أن نضع ثقتنا في ذاكرتنا. إن الذاكرة تعطينا إحساسا باستمرار وتواصل الحياة على أساس ما حدث، ما مر بنا. ولكن الذاكرة تخون، وتشوش. أحيانا ما أشعر أن حياتي كانت سلسلة من الأحداث المتوهمة، صور للأحاسيس، متتابعات لا رأس لها أو رجلين، أم أني أنا التي لم أفهمها. إن هذه القصص التي تبدو كالقصاقيص، ليست بأي حال كل قصصي، فلقد استخدمت طبعا القصص التي أحب أكثر، والتي أتذكر بوضوح، والتي أرى أنها ستقول الشيء الذي أود قوله، واستبعدت أخرى تناسيتها، أو نسيتها فعلا، ربما لأني لست معجبة بها، أو لأنها لا تعني لي شيئا، أو بمعنى أصح: لم تعد تعني لي شيئا الآن بعد أن مر كل هذا الماء تحت الجسور كما يقولون. نتأمل داخلنا. نكتشف مناطق يغمرها الضوء، ومناطق مظلمة، مناطق تمتلئ بالناس، ومناطق هي كصحراء ساكنة، نخاف منها إذا كنا نخاف من مواجهة أنفسنا، إذ لا يوجد أحد هناك إلا وجوهنا.

جمعت أكواما من المذكرات من وقت أن وصل ليدي ذلك الكتاب عن الإبداع الذي يطلب أن تسود كل يوم "على غيار الريق" ثلاث صفحات بأي شيء وكل شيء. إلا أن صفحات المذكرات في الحقيقة بدأت قبل ذلك بكثير، فقد آمنت دائما أنها الحرز ضد النسيان، ضد فناء الزمن، ضد الإحساس بعدم الجدوى، ضد انقضاء العمر كأن لم يحدث فيه شيء. الطريقة التي ترد بها الذكريات على ذهني عجيبة. سلسلة، حلقة تقود لحلقة أخرى. اللحاف القديم على السرير، المنقوش بوردات كبيرة ملونة، حمراء وصفراء وزرقاء، يحيطها ورق شجر ضخم أخضر زرعي منتشر على أرضية بلون السمن وشمس الصباح التي أغرقت الحجرة الكبيرة لحظة فتحت الشيش ذكرتني بتلك الصباحات البديعة، أيام الجمع في مدينتنا



fb/mashro3pdf

الجميلة في الدلتا. نقبع ثلاثتنا، الصغار، تحت اللحاف، نرفعه بأيدينا ورؤوسنا، وننظر لقبة الألوان التي أنارت عندما سقطت الشمس على اللحاف، كأننا نعوم معا في بحر من الأضواء والألوان والزخارف. أرى الدولاب الأبيض القصير وقد انتقل للمطبخ في الدور الأسفل في بيتنا في القرية. فتحته هي لي بفخر عندما تساءلت لتريني الحلل والطاسات المجلوة مرصوصة بنظام، فنقلتني مباشرة إلى عالم آخر وتذكرت. كان هذا الدولاب نفسه في الحجرة البلاط الصغيرة زمان وكانت ماما تضع فيه ملابس وأحذية الموسم الآخر. أشياء الشتاء في الصيف، وأشياء الصيف في الشتاء. لا أذكر من كان يشاركني من إخوتي في التسلل بهدوء للحجرة، نجرب الأحذية ذات الكعب العالي، الرفيع. أحذية من الساتان الأسود أو القطيفة الأرجوانية ذات بوز مدبب ، مشبوك فيها توكة من الألماظ البراق. أحاول المشي منتصبة القامة، فلا أستطيع، ولكن حذار أن أقع لئلا يكتشفوا وجودنا في الحجرة الصغيرة.

الذاكرة، ما هي الذاكرة؟ إن ذاكرتي مشروطة بالمشاعر. لذلك فأنا بالتأكيد أتذكر بشكل أفضل، تفاصيل أحداث صاحبتها مشاعر قوية: سعادة في اعتراف بالحب. يوم الولادة وهو يمسح وجهي بعينيه الرائعتين بامتنان صادق لم أرى مثيله أبدا. جدتي وقد جاوزت التسعين في غيبوبة والجميع حولها ينتظرون، بينما قرح الفراش تنز. وقع الجرح، جرحي، وهو يدير ظهره كما لو كان ما بيننا لم يكن. إن الذاكرة تنطبع وغالبا منذ البداية بطابع شخصي. فنسختي التي أحكي عنها من ذكريات الطفولة والشباب تختلف عن نسخ حكايات أخوتي رغم أننا عشنا معا معظم تلك الذكريات. وأيضا نسختي التي أحكي منها عن العشرة اللصيقة المشتركة مع الفنان تختلف بالتأكيد عن نسخته. الحقيقة: ما هي الحقيقة؟ انتبهي، الحقيقة ببساطة أنه لا وجود للحقيقة. قال لي: "أنا لن أؤلمك أبدا، هذا هو الشيء الوحيد الذي يمكن أن أعدك به". بررت الكثير لنفسي: "ربما أنت التي أخفيت ألمك



fb/mashro3pdf

ولم تشعريه به، ثم أنك أنكرت، حتى لنفسك، ولمدة طويلة أنك متألمة. وأرد على نفسي: ولكنه كان، ومنذ البداية، مملوءً بذاته. أعتقد أنه لم يرك أصلا. إلا أنه تبقى الحقيقة بالنسبة لي: أنه وعد، و الحقيقة بالنسبة لي هو أني تألمت. أما الحقيقة بالنسبة للفنان والتي طالما كررها هي أني أنا من خيبت أمله. يشير بأصبعه متهما: "لم تقدمي بشكل كافٍ، لم تضحي بشكل كاف. ألم أحكي لك مرارا حكاية باندورا والهولندي الطائر؟، وكيف قدمت حياتها بدون تردد؟". لقد تبنيت لمدة طويلة جدا، ربما أطول من اللازم، ما رآه هو كحقيقة. كنت صغيرة، ولم أكن قد فكرت بالأمر بعد.

(باندورا استسلمت - رغم التحذيرات - لحب الاستطلاع المغوي ففتحت الصندوق. انطلقت كل الشرور ولم يبق لها إلا الأمل. اما الهولندي الطائر فهو شخصية استخدمت كرمز في الفن والأدب من وحيّ الفلكلور، قتل زوجته البريئة بعد أن شك في خيانتها له، فحكم عليه أن يبحر دون أن يرسو أبدا، وللأبد، في سفينة بحارتها من الأشباح، ولا تنتهي لعنته إلا إذا وجد امرأة تحبه لدرجة أن تقدم حياتها من أجله، فيموتان معا. تبين لي فيما بعد أن باندروا لم تقابل الهولندي الطائر إلا في فيلم أفا جاردنر وجيمس ماسون المسمى بذات الاسم والذي انتهى بأن انتشل الصيادون جثمانهما معا بعد أن حاول الهولندي الطائر أن يبتعد، إذ أحبها كثيرا، ليحميها من لعنته).

من حق نفسي عليّ أن أنسى ما يزعجني. أنسى وأحتفي بسعادتي اليومية التي اصنعها الآن بلا منغصات. ولكن هل يمكن أن نسعد دون أن نكون قد تعلمنا؟، وهل يمكن أن نتعلم دون أن نتذكر؟ المحلل النفسي يكرر وهو يهز رأسه ويشعل سيجارة من سيجارة وأنا أكاد أختنق في الحجرة الصغيرة مبطنة الجدران بالخشب "وما فائدة تذكر ما حدث، وتحليله. ما فائدة النظر والبحث الدقيق فيما تقيأته عما كان سبب القيء وما أهمية ان تجدي أثر ما كان طيبا فيما أكلتيه؟". يقلب شفتيه فينقل لي القرف: " الشاطر لا ينقب في الطراش".



fb/mashro3pdf

ولكن: من هو الشاطر أو الشاطرة؟ شاطر في المدرسة. شاطر مع الناس. شاطرة في البيع والشراء. أو شاطرة في الطبيخ. أم أن الشاطرة هي التي تستطيع أن تأخذ ما تريد؟. ولكن: ما هو هذا الذي تريد؟ هل هو الأفضل لها؟ بأي مقياس؟ مقياس المجتمع؟ أم المقياس الشخصي؟ آه: السؤال الكبير: ماذا نريد؟ طبعا أن نكون سعداء! ولكن السعادة وهم كبير، تتغير مقاييسه وأسبابه ومظاهره من وقت لآخر. تعتقد في أوقات كثيرة أنك سعيد. وبعدها، ربما بسنين، تكتشف أنك كنت في وهم صنعته لنفسك لسبب أو لآخر، أو نجح محيطك أن يقنعك به، مادامت موافقة الآخرين عليك كانت هي الأهم. أما أنا، فقد فضلت دائما ومنذ صغري أن أوصف بـ (الشاطرة)، أكثر من أي وصف مدح آخر. ظللت طويلا أحاول إثبات أن قيمتي ليست في ( الشكل) فقط.

(بكت حين سمعت أنها بنت اخرى وهي على سرير الولادة في المستشفى، فأخذ المولد الايطالي يحاول التخفيف عنها "لا تبكي ماما، دي تشبه الإحنا، بصّي، شوفي الكرز في الشفايف، شوفي عينيها....) كرهت القصة، وقضيت وقتا طويلا أحاول إثبات أني أحسن من أي ولد، ثم عندما وعيت توقفت، فقد اكتشفت أن ما أحب أن أقوم به في الحياة سيختلف عما قد تريد العائلة من "ولد". أردت أن أترك لحالي لأكون ما أحب، ألا أخضع لمقاييس عائلية ومجتمعية، أردت أن أكون شاطرة بمقاييس يخضع لها الأولاد والبنات سواسية دون تفرقة. وأرد بعناد عندما يُشار لي أن أشد طرف الفستان لأخفي جزءً ظهر من فخذي بأن: كنوزي ليست "هناك" بل هي "هنا" وأشير لعقلي. وتخفي ماما ابتسامة إعجاب وتدير رأسها عندما تطمأن أني في الواقع وفعلا قد عدلت بسرعة من جلستي لدرجة اعتبرتها مرضية وأقرب للاحتشام.

شاطرة؟ بأي مقاييس؟ ومن أين نستمد مقاييسنا نحن الشخصية عن الشطارة؟ بالنسبة لي أخذت مقاييسي الأولى من ماما: "الشاطر هو الذكي،

fb/mashro3pdf

الذكاء ليس في الدراسة فقط. الذكي هو الشخص الذكي مع نفسه، الذي يعرف كيف ينفع نفسه ويحافظ عليها" إذا أهملت صحتك وتركت نفسك ضحية لمن يضغطون على أعصابك فأنت بالنسبة لماما شخص غبي حتى لو كنت عالم ذرة. من ماما جاء إيماني بأن المرأة، بل الإنسان بوجه عام، قادر على أن يخلق سعادته بنفسه، وأن كل شيء مهما كان من الممكن تحقيقه والوصول إليه، بشرط أن نكون مستعدين للعمل ولبذل الجهد المخلص. وأنظر كيف دخلت هي بخلفيتها البسيطة في عائلة أبي المنظمة ذات التقاليد فتاة عمرها أقل من العشرين فتعلمت من كل منهم أو منهن ما امتاز أو امتازت به، ثم فاقتهم جميعا في الإتقان والشطارة، بشهادتهم هم أنفسهم.

حصلت دائما على كل ما أردت. أفكر مسبقا فيما أود ثم أبذل الجهد اللازم فأحصل عليه. ربما كان ذلك لأني لم أرد إلا ما كان ممكنا، فلم يكن لدي أبدا أحلاما خطيرة أو رغبات خيالية. في بداية المراهقة والشباب، وقبل سماعي بأي شيء عن حقوق المرأة والمساواة آمنت في داخلي بالرغبة في الاستقلال، والاعتماد على النفس كطريق للحرية الحقيقية، وإلا فسأصبح تحت سيطرة أو رحمة أحدهم. فهل عندما جاء وقت الاختيار في الحب والزواج كانت اختياراتي تمضي بي في طريق الحرية والاستقلال؟ سمعت أخيرا أن أحد أقاربي تراجع عن التقدم لخطبتي لأني تحدثت أمامه بحماس عن المساواة وحقوق المرأة، فآثر السلامة مع زوجة تقليدية لا تسبب له "وجع الراس". وعندما رآني بعد سنوات، متزوجة، أمسح الأرض وأغسل وأطبخ، قال للآخرين متعجبا: "عادية إذن هي!، كان كلاما كبيرا وخطبا وفقط!". إذ بمجرد وقوعي في الحب، تبخرت كل أفكار تحقيق المساواة والاستقلال. تبنيت وجهة نظره في تحقيق زوجة الفنان لذاتها. (حافظي عليّ كفنان، فيصبح مجدي وما أحقق لنا نحن الاثنين معا). تنازلت عن المطالبة بأي حقوق، إذ آمنت أنه سوف يمنحني إياها وأكثر، فانتظرت.



fb/mashro3pdf

أين ذهب بجواره شعوري بالتميز الذي تعزز دائما في مواقف كثيرة على مر طفولتي ومراهقتي؟ في المدرسة الابتدائية الأستاذ يسامح الفصل كله من أجلي. كنت في مدرسة نموذجية جديدة في مدينتنا ذات الجمال الآسر التي تطل على النيل. كانت المدرسة تبعد عن بيتنا كثيرا وتقع في منطقة شعبية. اجذب العين بشكلي الذي يختلف عن الآخرين ومريلتي "تيل نادية" فائقة النظافة التي فصلتها ماما بإتقانها المشهور عنها. والأستاذ الآخر ينظر لي بطرف عينه وأنا اقف بجوار ماما، وهو يسد الباب بطوله الفارع دون أن يسمح لنا بالدخول في فصله في المدرسة الجديدة الصغيرة القريبة من البيت: "ولكن، لا تؤاخذوني، هذا الفصل لا نقبل فيه إلا المتفوقين...." فأنظر له وأنا أغلي دون أن يظهر علي وجهي أي شيء. ثم في السنة نفسها أصبح الأولى على الفصل وعلى المدرسة كلها بفارق كبير ، فيحلف بحياتي من بعدها الأستاذ نفسه. مفتش اللغة العربية في ثانوي يلاحظ أنني الوحيدة التي أقرأ بنطق واضح وسليم فيطلب مني أن اذهب خصيصا لشكر مدرسي في الإعدادي والابتدائي فأفعل. كيف نجحت أن أصنع تلك الشبكة الواسعة من أصدقاء المراسلة في كل أنحاء العالم باللغة العربية والإنجليزية وأمضي في العمل الاجتماعي واتحادات الطلاب حيث كان التعامل والصداقة مع شباب من كل مراكز محافظتي ومن كل محافظات مصر ومنهم ذلك الرائع الذي جعل هدفه في الحياة فكرة نشر السعادة. كنا نتراسل بانتظام مقررين أن نصنع نموذجا للصداقة الحقيقية الممكنة بين الولد والبنت دون الانزلاق لضرورة تحولها لعلاقة حب. كانت فكرة جميلة نفذناها بكل حماس وإخلاص حتى ظهر الفنان في حياتي في أول الدراسة الجامعية فانقطعت عن كل ما عداه.

كنت دائما أطول واحدة في الفصل في كل المراحل. فبينما كل التلاميذ سيحاولون من أول يوم الاستحواذ على الصفوف الأولى، تعودت



fb/mashro3pdf

أن أدخل حجرة الفصل الجديد فأتجه بهدوء لآخر صف فيه وأجلس ، إذ أعرف أن بمجرد دخول المدرس أو المدرسة الفصل فسيكون أول شيء يفعلونه أن يعيدوني لآخر مقاعده حتى لا أعيق رؤية الجالسين خلفي. ثم تبدأ عملية تغيير فكرة المدرسين الشائعة أن "كل من يجلس في آخر الفصل فهو بليد" فاستمتع بمفاجئتهم. وفي سن العاشرة بلغت، بينما الجميع مازالوا أطفالا في المظهر والمخبر وأنا أخجل من صدري النامي فأمشي محنية الظهر وماما تزغر لي بعينها تارة وتهمس تارة أخرى بلهجة آمرة "إفردي ظهرك". المدرسة الابتدائية كانت مشتركة ومازلت اندهش لما كان يحدث، فالفصل مقسم لولد وبنت "لايقين" على بعض، ويتبادلان الاهتمام والدلع، ما عداي، وما عدا يحي "قبضاي" أو فتوة الفصل الذي يتطوع لنصرة المظلومين. كنت أعود للمنزل مع زميلة تسكن في نفس العمارة ليس بيني وبينها من مشترك إلا تفصيلة أن نحكي لبعضنا تفاصيل القبلة الوحيدة التي تكون في نهاية كل حلقة من حلقات المسلسل الأجنبي "الهارب" الذي يسمح لنا أهلنا بمشاهدته بخلاف مسلسل "بيتون بليس" الذي يذاع في موعد متأخر في المساء. ظللت طوال السنتين في تلك المدرسة أحاول جذب انتباه أبلة عفاف مدرسة الموسيقى التي لم تر موهبتي كافية لأن تتبناني كما تبنت أخريات في عزف الإكسليفون والأكرديون حتى أتيت أنا بأكرديون بنت الجيران التي تزوجت فوافقت أبلة عفاف أن أعزف مع الفريق طالما سأتدرب في بيتي على أكرديوني الخاص. وهكذا ساعد إضافة إحباط الموسيقى لإحباط الرقص الذي فشلت دوما فيه في حفلات المدرسة "مخشبة أوي، ماتنفعش" أن أقتنع أني "بتاعة المخ والشطارة وبس". ثم تعزز ذلك عندما أجريت لي عملية الزائدة الدودية فكانت بداية انحدار لياقتي البدنية خاصة مع فشلي في لعبة كرة السلة في الإعدادي رغم طولي الفارع فقد كان صعبا علي فكرة الاحتكاك الجسدي. كنت عاجزة عن اختطاف الكرة



fb/mashro3pdf

من إحداهن، وكان عجزي أكبر إذا شعرت بالتهديد والعدوانية الذي تمارسه من تريد اختطاف الكرة مني، فأتركها لها وأمضي.

نعم، الشطارة تعطي ثقة في النفس، ولكن إذا ثبت المقياس على شطارة "المخ" تجد نفسك تتجاهل جسدك أكثر وأكثر، تتمادى في تغليب العقل على العواطف. وهكذا بالتدريج تطورت تلك السمعة التي لازمتني بعدها "البنت دي جدعة، ولا أجدع راجل". "تحطها في وسط ميت راجل ماتخافش". يلتف الزملاء من مدارس مراكز وقرى المحافظة حولي، يوسطونني في مطالبهم من الإدارة التعليمية ويأخذون رأيي في قصصهم العاطفية،. نعم كانت لدي قصة حب أول. ننظر لبعضنا من الشرفة وفقط. ثم في سن معينة تحول هو عني. لم يعد يستكفي بالشبابيك والبلكونات، لم يعد مجرد التقاء النظرات يسبب له النشوة التي كانت، فبدأ يلتقي مع أصحابه بشلل البنات على البحر، وانتهت علاقتنا، أو الذي كنت أسميه علاقتنا.

في كل سنوات المدرسة الإعدادية والثانوية كنت أعود من المدرسة كل يوم مع بنت معينة من فصلي مشيا على الأقدام، حوالي عشر دقائق نختار فيها موضوعا للحديث ننشغل فيه فلا أنتبه لما يحيط مدارس البنات من شباب ينظرون، خاصة إذا كان الجو ممطرا وهو ما كان يحدث تقريبا بلا انقطاع في مدينتنا، فنقضي المسافة نحاول المحافظة على أنفسنا من الطين الذي يملأ الشوارع. كانت ملابس المدرسة الإعدادية عبارة عن تايير كحلي صنعته لي خياطة لأول مرة. كانت (أنجيلا) عانس أرمنية قصيرة جدا بدون أسنان أمامية تقف على كرسي حتى تضبط لي البروفة. كان جاكت التايير مبطنا والصدر محشو كجاكتات البدل والجونلة بكسرات أمامية طولها على الركبة مباشرة. تعلمت من بابا وقتها أن أربط الكرافات الكحلي بنفسي، كرافات حقيقي، وليس المشبوك بأستك حول العنق كالذي تستخدمه البنات الأخريات. لم تكن البنطلونات قد شاعت بعد في مدينتنا في



fb/mashro3pdf

الدلتا. كنا نلبس البنطلونات فقط في المصيف حتى استوطن كثير من أهل بورسعيد الذين هاجروا إلى مدينتنا بعد حرب ١٩٦٧ فتغيرت أشياء كثيرة. ثم تغيرت فكرة الحشمة بعد ذلك بسنوات، فأصبح البنطلون والقميص الطويل هو لبس المدرسة.

لم أشعر بالاندماج أو الانتماء للفتيات في سني، اهتماماتهن، حياتهن. إلا أني لم أشعر بالتعاسة، بالعكس، كنت دائما كائنا سعيدا، مثل ماما، نصحو ضاحكتين بينما أبي وإخوتي يصحون بعبوس ينقشع خلال اليوم. حاولت مجاراة البنات من سني بسماع راديو مونت كارلو وإرسال الرسائل التي تطلب الأغنيات من سناء منصور، إلا أني في نفس الوقت كنت أسجل أغاني أم كلثوم القديمة جدا، وأغنيها، وأسجل أغاني فيروز، التي لم تكن شائعة إطلاقا في مصر وبالتأكيد في مدينتي الصغيرة في ذلك الوقت. أنتظر يومها المحدد في إذاعة الكويت، التي أقضي الوقت بصبر ودأب بجوار الراديو لضبط موجتها لتكون أوضح ما يمكن. كنت بعيدة عن حكايات الفتيات في سني. ادعيت، صدقا أو زورا لا أعرف بالضبط، أنه لا يهمني إن لم يقع في حبي أحدهم، ولا يهمني أنه لم يحدث أبدا أن أرسل إليّ أحدهم أي جواب غرامي رغم حكايات الأخريات عن ذلك. غلفت نفسي بكبرياء. قلت "أنا لا أريد خطابات غرامية أبدا، ولكن أتساءل فقط لماذا لم يصلني أحدها أبدا!". الآن أعرف أنه ربما حدث أن أعجب بي أحدهم، ولكني أنا التي لم تكن منفتحة لفهم أو تلقى، أو لتشجيع إشارة إعجاب أو معاكسة. إلا أني أعتقد أنه ربما كانت تلك العزلة هي السبب لأن أصبحت أشعر بتلك الراحة مع جسدي، لا أخجل منه، ولا أنتظر رأي الآخرين، إعجابا أو نقدا. كنت مغلفة بنفسي، مبتعدة، مترفعة. وعندما حكى لي الفنان عن تلك التي دهنت وجهها باللون الأزرق حتى لا يرى جمالها إلا من يستحقها فعلا، من يستطيع أن يرى ما هو أبعد من الجمال في الشكل،

fb/mashro3pdf

رأيت في هذه الحكاية البسيطة ضالتي، واعتبرت أنه هو من أنتظر ليرى ما وراء القشرة الخارجية، مهما كان بريقها.

بالتأكيد، ككل الآخرين، عقدي كثيرة، ولكنها لحسن الحظ لم تترك جروحا لم يستطع الزمن أن يعتني بها. متى تعلمت العزلة للقراءة؟ قضيت مراهقتي في تلك البلكونة الخلفية التي حولت بألواح من الخشب والحصير إلى حجرة لا تحجب الضوء تماما وسمتها لي عائلتي الصومعة. كانت الروايات هي "القراءة" حتى دخل حياتنا من سألني عن نوع القراءة الذي أحب. عرفت بعدها لأول مرة أن هناك أنواع أخرى كثيرة لم أرها في حياتي: التاريخ، الاقتصاد. لم تكن الكتب شيئا متداولا في بيتنا. كان لدى ماما قصصا معدودة لإحسان عبد القدوس أما بابا فلم يقرأ في حياته غير الكتب الدراسية. عندما نفذنا أنا وصديقتي الصغيرة وكنا في آخر المرحلة الإبتدائية مشروع "مكتبة الاستعارة" كانت عجبة عند العائلة والأصدقاء. وجدنا كشك زجاجي صغير مهجور قريب من بيوتنا فنظفناه واتخذناه مقرا وبدأنا في عرض كتبنا الشخصية نعيرها للراغبين مقابل قرش أو تعريفة ثم نشتري بالحصيلة كتابا جديدا نقرأه ثم يضاف لمشروعنا الصغير. وعندما قرر أبوها الطبيب الهجرة بزوجته الأجنبية للكونجو في كتمان شديد لعدم موافقة الحكومة وقتها على ذلك، أمنتني صديقتي الصغيرة التي كانت مريضة بالصرع على السر ومنحتني في لحظة تفيض بالمشاعر ونحن جالستان في الليل على سلم بيتنا كتبها كلها من روايات عالمية ومغامرات أرسين لوبين المترجمة بإهداء رقيق مكتوبا على الصفحة الأولى لكل كتاب. اكتشفت وقتها قدرتي على كتمان السر مهما حدث. وعندما أخفيت تماما وأنا في المرحلة الإعدادية معرفتي بمن يريدون خطبة أختي الشابة من العائلة ومن خارج العائلة، اندهشت ماما لقدرتي على الكتمان، وبدأت بيننا علاقة من الفضفضة. حكت لي عن حبها الأول، عن بداية زواجها وعلاقتها بعائلتها وعائلة زوجها. كتمت ما عرفت عن خطبة أختي رغم



fb/mashro3pdf

اندهاشي واعتراضي على قبول ماما وبابا الكلام عن زواجها وهي مازالت في الثانوي. ولم أحب أبدا أن يدفعنا ليلة الدخلة بابتسامة ماكرة خارج حجرة الفندق الفاخر في القاهرة، ولا صورتها في اليوم التالي بانكسارها والباروكة تغطي شعرها المبلول، تسند رأسها علي سور بلكونة حجرة الفندق المطل على النيل. غضبت ، ووعدت نفسي ألا يحدث هذا أبدا لي.

الفروق بين أعمار أخوتي صغيرة. أتت بنا جميعا في سنوات قليلة، وعندما أتى الولد في النهاية قررت أنه "كفاية كده". من البداية في صبانا وبمجرد أن ظهرت اختلافاتنا الشخصية انقسمنا إلى: أولاد بابا (يسمعون الكلام)، وأولاد ماما ومنهم أنا هم (مجموعة: ناقشني واقنعني) كما يسميهم بابا. يبتسم ويرفض تماما الدخول في أي مناقشة، فهو لا يحبها ولا يقوى عليها، ورغم ذلك فهو يعجب بنا ويراقب مناقشاتنا مع ماما بحدب. واحد من "أولاد بابا" كان أخي الذي أتى بعد انتظار، إلا أن حرص والديّ كان واضحا على ألاّ يكون ابنهما الوحيد "دلوع". أدخل مدرسة رهبان فرنسية ملابسها سوداء كئيبة كرهناها جميعا بينما كانت البنات في "مدارس أولاد الشعب" كما سماها بابا. يذاكر له على مائدة السفرة وهو يقوم بقيد حسابات الزراعة. يربط رجله في رجل الكرسي ليتوقف عن الحركة والشقاوة، ويمتلئ جو البيت كله بالتوتر. ثم قرروا نقله لمدرستي الحكومية وبدأت أنا في مساعدته في المذاكرة. كانت مشاكله كثيرة. نوبات الربو التي كنا نتألم ونحن نسمع صوت تنفسه في الليل حيث ننام أربعتنا في حجرة واحدة واسعة، وطقوس بخار الماء المخلوط بصبغة الجاوي ورأسه تحت الفوطة، فنمتلئ خوفا من المجهول، وأسماء أطباء حساسية، وأطباء أمراض صدرية، وقلق أن يكون الابن الوحيد قد ورث ضعف الصدر من أبيه. كان كثير الحركة، متعبا، لا يترك أحدا في حاله، يعاكسنا فنبعده بإلقاء الأشياء عليه فتتكسر أشياء أخرى في البيت فنعاقب جميعا. يعطلنا عن المذاكرة



fb/mashro3pdf

فتهدد أختي المتفوقة دائمة التوتر بالانتحار "حاشرب الحبر" رافعة قنينة الحبر لفمها وهي تنظر لنا بطرف عينها. ويظل هو يأتي من المدرسة بأنواع الشنكلات الجديدة ليجربها علينا، فنشكو منه ونضج. فتطلب ماما في النهاية عقد "اجتماع عيلة" دون بابا طبعا، فليس له في هذه الأشياء. تقول هذه هي "قعدة الصراحة". تطرح المشكلة "لو واحد منا عيان نعمل إيه؟" فننظر لبعضنا ثم ننظر في الأرض ونسكت جميعا. "طبعا لا يمكن نتخلى عنه، لن نرميه في الشارع، كلنا نترابط لنساعده. هذا ما سنعمله من هنا ورايح بدل الشكوى منه طول الوقت". الكلام مع ماما لم ينقطع منذ ذلك الوقت إلا أنه بزواجي من الفنان لم تجد كلتانا ما تقوله للأخرى، فسكتنا. أما يوم الولادة فكان كاستئناف لحواراتنا الطويلة التي استمتعنا بها طوال صباي وشبابي. حوار لا ينقطع حتى ونحن لا نتحدث.

لا أظن أن بابا آمن أبدا بالمساواة بين الجنسين، من منطلق أن لكل منهما دورا مختلفا في الحياة. كان يستقبل تمردي ومناقشاتي، ذكائي وتفوقي الدراسي بحب استطلاع. كان يبتسم بدهشة وشيء من الاستخفاف الذي يتسلى به عندما أتحدث عن المساواة. لذلك تضايقت ولكن لم أندهش عندما أعطى أخي الأصغر مني مصاريف رحلتنا السنوية لمعرض القاهرة الكتاب. جنيها ثمن تذكرة الأتوبيس ذهاب وعودة للقاهرة لكل منا وعشرة قروش ثمن التاكسي ذهاب وعودة من محطة أتوبيس الأقاليم في القللي إلى أرض المعارض بالجزيرة. تضايقت لكن سكت. فأنا أعرف أن أخي سيعطيني النقود بمجرد خروجنا من البيت. فقد كانت هذه هي أول مرة يسافر معنا، قريبنا المماثل لي في العمر وأنا، حيث نسافر كل سنة لمعرض الكتاب ونعود في نفس اليوم حاملين حقائب كبيرة مملوءة بتموين العام من كتب متنوعة اشتريناها بمدخراتنا طول السنة.

وعيت لأجد نفسي في عائلة منظمة، تسعى للمثالية. خط الحياة واضح. نؤهل أنفسنا بالتعليم، ثم نتزوج وننجب، وتمضي الحياة. لم أعرف



fb/mashro3pdf

في طفولتي وشبابي أي حالات عنوسة، أو طلاق. ينادي أفراد عائلة بابا بعضهم بيا أخويا فلان ويا أختي فلانة، ويا ابن عمتي فلان ويا ابن خالي فلان. يقولون عن أنفسهم أنهم يمشون في منتصف الطابور:لا في الطليعة ولا في الذيل. يتبعون مبدأ خير الأمور الوسط. احتفظوا بكثير من تقاليدهم التي جاءوا بها من بلاد الشام في القرن الثامن عشر. في طفولتي كان بابا يصلي الصبح فقط ويقول أن بقية اليوم "الدين المعاملة"، ثم أصبح يصلي الفروض دون أي سنن بعد أن أدى فريضة الحج وقد تخطى الخمسين. أما ماما فجاءت من خلفية تدينها أكثر التزاما بالطقوس. كنا نلاحظ الفروق بين العائلتين فننتحيز حسب طبائعنا الشخصية ولكن قلوبنا كانت دائما مع عائلة ماما. تلك العائلة التي تقلب العزاء، مهما كانت درجة حزنهم على المتوفي، إلى جلسة للضحك والسخرية من أنفسهم ومن الدنيا بمجرد أن ينصرف المعزون ويغلق الباب عليهم. وهاهي تنط ميمي تجلس جوار البنات في العزاء فتضحكنا بكلام جنسي ووجهها جامد تماما لا يظهر عليه أيِ تعبير بينما نحن لا نقوى على مقاومة الضحك. مصدر المخترعات الحديثة في بيتنا دائما كان عائلة ماما، مجددين ومغامرين عكس عائلة بابا. الميلامين والأكواب البلاستيكية الملونة، اللعب الكهربائية الجديدة. بيت خالتي الوحيدة يتغير بمعدل سريع على الموضة، ليس غال الثمن أو القيمة ولكن على الموضة. وهي تحب الأحمر وتلبسه، وتضحك وتتكلم كثيرا رغم ظروف حياتها الصعبة، العكس تماما من عائلة بابا المتحفظة. والأختان تظهران مشاعرهما لبعضهما (تبدآن التليفون الترنك بين المحافظات: "ولمّا أسمع صوتك..."، فترد الأخرى على الجانب الآخر من الترنك: "أحس بنشوة...."، فتقول الأولى: "نشوة كبيرة..."، فتختم الأخرى: "تملأ كياني وروحي..."، ثم تستأنف المكالمة بالتحيات والسلامات والسؤال عن الأولاد) ونحن نبتسم ونتأثر. كل سنة تدعونا لقضاء عشرة أيام في نهاية السنة

fb/mashro3pdf

الدراسية وتجتهد رغم إمكاناتها المحدودة لنسعد بكل الطرق: سينما ومسرح وفسح مسلية.

لم تكن لأي من العائلتين علاقة بالسياسة. في عائلة ماما تناقش الأحداث السياسية الساخنة همسا في جلساتهم الضيقة حيث يستأذن بابا بمجرد أن يبدءوا لأن موعد نومه قد حان، أما في عائلة بابا، فالأمر غير وارد أصلا إذ كلامهم قليل وغالبا يصطبغ بصبغة رسمية لا حميمية فيها. وفي حرب ١٩٦٧ فرضت السياسة على عائلة ماما فرضا فقد كان بعض أعضائها في الجيش. كان جو بيتنا غريبا بين انقطاع ماما في حجرتها للبكاء والصلاة، والبيانات الحربية الهستيرية، و"فكرية" خياطة قمصان النوم الشابة تحكي بالتفصيل عن ذكرياتها عن بيتهم في بورسعيد والرصاصة التي اخترقت ركبة أبوها في العدوان الثلاثي سنة ١٩٥٦، والخادمة الصغيرة التي عادت بعد أن أجروا لها عملية الختان. عادت قبل أن تتحسن جروحها من أجل التليفزيون والتمثيلية الدرامية التي كانت فيها زيزي مصطفى صغيرة ورقيقة جدا تبكي وتتزوج بعمدة قاسي. تشكو الخادمة طول الوقت لأن "تقبها جه على شونة" فالحكومة أوقفت إذاعة كل التمثيليات الدرامية من التليفزيون والراديو. وعندما عاد الضباط مشيا على الأقدام من سيناء أخذتنا ماما معها للقاهرة. سافرنا يومها في سيارة أجرة بين الأقاليم مع أحد أقاربنا وكان صاحب مطبعة. كنت أحبه كثيرا، هو وبيته المليء بالكتب ومجلدات المجلات القديمة كسندباد وسمير التي أغطس فيها عندما أزورهم. جاكتاته تبدو دائما أكبر من مقاسه فهو رفيع جدا، وجيوبه دائما كبيرة جدا يحمل فيها نسخة من القرآن في حجم كراس المدرسة. كنا نجلس على الكنبة الخلفية، ماما تنظر طول الوقت من شباك السيارة بجانبها وتمسح الدموع من تحت نظارة الشمس الكبيرة التي تغطي عينيها وقريبنا بجوار الشباك على الناحية الأخرى يقرأ من مصحفه وهو يهتز، وأنا وأخي في المنتصف نلعب مع بعضنا ونتكلم بصوت لا يكاد يسمع. وهناك في بيت



fb/mashro3pdf

العائلة، جلس الجميع وكأن على رؤوسهم الطير يستمعون للحكايات الكابوسية عن عودة الضباط والجنود المصريين من سيناء على أقدامهم، وقد احترقوا بالشمس واعتلوا بالمرض والاحساس بالخيانة والاهانة. تكرر أن تحبس ماما نفسها في حجرتها عندما مات عبد الناصر. ظللنا نسمع طول الليل صوت صفارات القطارات الهادرة التي حملت الناس بالمجان للقاهرة لحضور الجنازة. ألقت ماما بنفسها على بابا منتحبة ساعة عودته آخر الليل من حضور الجمعية العمومية للشركات في الإسكندرية، أما هو فأزاحها برفق وهو متجهم.

ما هو الوطن بالنسبة لي؟ الوطن هو المكان الذي أعرف تماما كل ما فيه: ناسه، فأستطيع مثلا أن أقرأ تعبيرات الوجوه، أتوقع ردود الأفعال، وأفهم بعمق معاني الإشارات، فترات الصمت، طرق المجاملة، السخرية، الاتهام، الإهانة. في وطني أشم رائحة الجو وأتوقع المطر أو درجة الحرارة وأفهم معنى الغيام. ولكن هل أنا قوية الجذور؟ متى إذن بدأ إحساسي بالغربة؟، وهل كان الحريق تتويجا لهذا الإحساس؟، أم بداية الاستقرار الذي أتى من اكتشافي واقتناعي في النهاية بأنه في الحقيقة لا يوجد ما يسمى بالاستقرار، إذ لا توجد ملكية حقيقية.

هل الأماني أسهل ونحن أطفال؟ الأطفال يعتقدون أن لا شيء مستحيل. كلما كبروا تقلص عدد الأشياء التي يحلمون بالحصول عليها، إذ يتعدد كلما كبرنا الممنوع والخطأ وغير المهذب. بالنسبة لي اعتقدت أنه بإرادتي أحرر نفسي أكثر: أعمل أكثر فاحصل على أكثر، وما لا يمكن الحصول عليه بالعمل الدءوب فلن أرغبه منذ البداية. من أين أتى ذلك التواضع، الذي يقترب في أحيان كثيرة من عدم تقييم الذات تقييما سليما موضوعيا. من أين أتى ذلك الزهد في الفاخر والغالي وصعب المنال. نقرر ألا نرغب فيما هو صعب أو مستحيل الحصول عليه، حتى لا نشقى بالحرمان. من أين أتى ذلك الرضا بالقليل. تعلمنا من ماما أننا يجب ألا



fb/mashro3pdf

نفاخر بأننا ميسورو الحال، أننا يجب ألا "تتمنظر" بما لـدينا ولـيس لـدى الآخرين، وأن نشرك الآخرين فيما أعطانا الله قدر الإمكان. كانت جدتي أم أبي تقول أنه ربما ستتسبب ماما في إفقار بابا - مع أن العكـس هـو مـا حدث- وذلك لأنها تريد دائما أن تعطي الآخرين ليأكلوا تماما كما تأكل هي وأولادها. من بابا تعلمنا: أحرص لتظل مستور. الفضيلة ألا تصرف إلا ما تحتاج إليه فعلا، وتضع الباقي على جانب للغد، "مين عارف؟؟". لم أسـمع أبدا في طفولتي قصصا مثل التي سمعتها من الفنان فيما بعد عن الذي أراد أن يكرم وفادة ابن أقاربه الصبي إلى قريته في الصعيد الأوسط فطلب مـن البائع أن يفتح له كل زجاجات صندوق "الحاجة الساقعة"، فلم أر في الحكاية صفة الكرم، إذ لن يمكن للصبي أن يشرب كل هـذه الكميـة وإن شـربها فسيمرض، ثم أنه لم يعرض أن يقدمها للمارين في الشارع ولذلك فلن يمر وقت قصير حتى تصبح كل هذه الزجاجات المفتوحة عديمة الفائدة. أوعـن الأب الذي يأتي لأولاده بشوال من نوع فاكهة غال معين حتى يشبعوا منـه ولا ينظرون لما في يد أطفال الجيران، وتجد الأسرة بعد ذلك نفسـها فـي حيص بيص لأنه لا نقود لشراء احتياجات أخرى أساسـية. علمونـا فـي طفولتنا أن النقود شيء نتعب في الحصول عليه، وعلينا مراعاة الحـرص في صرفها، وألا نترك أنفسنا حتى تتبخر تماما من أيدينا دون أن نعـرف أين ذهبت، أو متى يأتينا غيرها. تعلمنا أن نكتفي، أن نخـدم أنفسـنا وأن نحترم العمل اليدوي ونتعلمه فنتقنه حتى لا نحتاج كثيرا للآخرين فبابا مثلا يصلح أغلب مشاكل السباكة والكهرباء في بيتنا. وهكذا تعلمنا أن نتصرف، أن نسعد أنفسنا بما في أيدينا، أن نستخدم ما في أيـدينا أعظـم اسـتخدام، وكانت مقولة بابا الشهيرة "افرضوا أننا فـي حالـة حـرب، كيـف كنـا سنتصرف؟". ونفكر نحن أن هذا بالتأكيد له علاقة بتجربته الصعبة وقـت الحرب العالمية الثانية في الإسكندرية عندما كان يعيش وحده ويعمل قبل أن يصاب بمرض السل. ومقولته "ماذا يقول لك الجيش؟" فيرد الأولاد وأحيانا



fb/mashro3pdf

ماما أيضا في شبه كورال " الجيش يقول لك تصرف..." ثم ننفجر في نوبة ضحك يحاول هو أن يقاومها قائلا "أنا أتكلم الآن جد، تعلموا التقشف حتى لا تكونوا مضطرين له".واعتقد الآن أنه مهما كان ما لدى الأسرة قليل، فإنه إذا ما أحسن توزيعه فسيكفي أن يشعرهم بالأمان والشبع، الذي سيلحقهم في حياتهم في المستقبل. يختلف هذا عن شعور الأولاد أنهم يجب أن ينسفوا كل ما على المائدة في وجبتهم تلك فلا يبقون شيئا. كان بابا يأتي بالتفاح في الستينيات من الإسكندرية عندما يذهب لمهمة عمل هناك. كانت فاكهة مستوردة نادرة وغالية الثمن جدا. يأتي بعدد محدد، فنأكله على أيام. تقسم ماما كل يوم تفاحتين: تفاحة لها هي وبابا والخادمتين والأخرى تقسم علينا نحن الأربعة، كل منا يستلذ بذلك الربع ويقدره، وننتظر لليوم التالي. ولم يكن من المقبول أن نترك أي فضلات طعام في أطباقنا، ليس فقط لأن هناك آخرين لا يجدون، لكن لأنه حرام وتبطر على النعمة وسببا لزوالها. "ما تتركيه في طبقك سيجري وراءك حتى يوم القيامة"، فأنظر ورائي من النافذة الخلفية للسيارة الخضراء الصغيرة طوال طريق السفر.

في فترة من فترات حياتنا كانت مدام أنّا اليونانية شخصية مهمة في حياتنا. كانت جارتنا ، الباب جوار الباب. سافر أولادها لليونان للدراسة الجامعية ثم تزوجوا واستقروا هناك، وبقيت هي مع زوجها في البلد الذي تعودا عليه وعاشا فيه أغلب حياتهما. كانت القهوة مع ماما في الصباح طقس يومي. تأتي بالصينية عليها كنكتا القهوة والفنجالان الصغيران، كوبا الماء المثلج بماء الزهر مع برطمان المربة المصنوعة في البيت وملعقتان صغيرتان، وحوار طريف بلغة عربية متكسرة عن وصفات الطعام والخياطة وحكايات الماضي ودروس الحياة. كانت ماما معتادة إلى حد ما على التعامل مع خواجات مصر من طفولتها التي قضتها في شبرا. تعلمت ماما من مدام أنّا الكثير، وأثرت هي في حياتنا نحن الأولاد بقدر كبير. كنا نذاكر عندها عندما تقترب الامتحانات. كانت شقتها بحرية وكان تشجيعها

fb/mashro3pdf

ومساندتها جميلا. "ستين سنة سبعين يوم" ابذل جهداً أكثـر الآن، تحصـل على ما تريد، وتستريح ساعتها إلى ماشاء الله. كانت صداقة حقيقية بينهـا وبين ماما وعندما وقعت وانكسر أعلى فخذها رعتها ماما كابنتهـا حتـى فارقت الحياة فشعرنا أننا فقدنا جدة وليس مجرد جارة. عندما سافر زوجها بعد وفاتها ليعيش مع أولاده في اليونان اشترى منه بابا شقته وفتحها علـى شقتنا فأصبح بيتنا كبيرا جدا وأصبح لكل منا غرفة خاصة. اختار كل منـا ما يناسبه ويحبه من المفروشات في البيت ليضعه فـي حجرتـه فـاخترت دولابا بالزجاج يصلح مكتبة، وزينت الحوائط بالصور التي أحب. صار لي عالمي واستقلالي وساعد البيت الكبيـر علـى نمـو الفرديـات، وتطـور الشخصيات. ورغم أن البيت أصبح يبدوا كما لو كان كل سكانه قد أغلقـوا أبوابهم على أنفسهم، إلا أن الكل كان يعرف أين الباقين وماذا يفعلون وفي الإمكان أن يدق الباب في أي لحظة ليحدث التواصل. كانت حياتنـا كتابـا مفتوحا، إلا أن كلا منا يحترم بعمق ويتفهم خصوصية وفردية الآخر.

عندما ظهر الفنان في حياتي لم أشأ أن أخفي، بل كرهـت الإخفـاء. كنت على أعتاب الجامعة. حصلت على الثانوية العامـة بمجمـوع كبيـر وانتهت مناقشات اختيار الكلية التي سألتحق بها بأن استسلم بابـا لرفضـي القاطع للطب والصيدلة وتقبله أن أنتقل للمعيشـة فـي القـاهرة لدراسـة الصحافة. قالت له: أليست نهاية المشوار لكل البنات في كل الأحوال هـي الزواج؟!، فسكت مستسلما وخرج من الغرفة فكتبت ما اريـد فـي أوراق تنسيق القبول بالجامعات. تم تدبير مكان في بيت طالبـات ممتـاز كانـت واسطتي له هي التفوق الدراسي واشترت لي ماما ملاءات وأكياس مخدات زرقاء تناسب مقاس السرير الصغير في بيت الطالبات ووضعت عليها أول أحرف من اسمي الكامل بالخيوط الملونة، و وأصبح كل شيء معداً لبدايـة العام الدراسي بعد أيام قليلة. في ذلك الوقت كنـت معجبـة بأحـد أحفـاد معارفنا. ولأنه كان يسكن في القاهرة كنا نتقابل مع أسرته هناك من وقـت



fb/mashro3pdf

لآخر. وفي يوم عيد ميلاده اتفقنا على الذهاب للسينما واخترت أنا وأختي "فيلم عودة الابن الضال" من إخراج يوسف شاهين ووافق هو وأخوته على مضض على أساس أنهم لا يفضلون "أفلام المثقفين هذه". وصلنا وسط البلد قبل ميعاد السينما لأشتري بطاقة لعيد ميلاده، ثم قررنا أن نذهب لمقهى البن البرازيلي القريب في انتظار موعد السينما. كان الفنان هناك، يقف مستندا بظهره وكوعيه على الرخامة العالية التي تحمل آلة صنع القهوة في صدر المحل. لم أكن قد رأيته من قبل إلا أن أختي كانت تعرفه من أصدقاء آخرين فسلمنا عليه ووقفنا معه. كان في عينيه توحش مقلق وشعرت من نظرته المتفحصة أنه يقول أنه يريد، ويعرف أن من حقه أن يحصل على أي شيء يريد. كانت بقع "البوية" تتناثر على قميصه القطني المفتوح على الصدر، ثلاث عراوي لا أزرار أمامها. أكتافه وذراعاه تظهر بالمظهر الذي عرفت بعدها أني عشقته. لم أحبه من أول نظرة، ولكن بالتأكيد أثارت اهتمامي ثقته في نفسه وهو يقف بقصره الواضح بين شابتين طويلتي القامة يوجه دفة الكلام ويستعرض معلومات دقيقة وعميقة عن الفيلم الذي ذكرنا له أننا في طريقنا لمشاهدته، وعن بطاقة عيد الميلاد التي رآها في يدي وصورة الراقصة عليها، والغسالات الفرنسيات أصل رقصة الكان كان الفرنسية. وفي طريقنا للانصراف ألقى بملاحظة عابرة: "وجهك يصلح للوحة". حكيت بحماس للحفيد على مقابلة الفنان وطلبت منه أن نزوره معا فرفض تماما و"أمرني" ألا أذهب أنا نفسي. نظرت له غير مصدقة: كيف سمح لنفسه بما قاله للتو!. شاهدنا الفيلم ورغم عدم فهمي لكل تفاصيله كان انفعالي به كبيرا. علق الحفيد على الفيلم تعليقا سطحيا سخيفا جعلني أراه بعين أخرى، وكرر كلام عائلته الذي اعتبرته أنا رجعيا متخلفا عن الثورة وناصر و حرب ١٩٦٧ فخطا بي أول خطوة في طرق لا تتلاقى.

(ندق الباب بالكف النحاسية الصغيرة. شرّاعة الباب مفتوحة وتهب منها خليط من روائح القهوة والبويات والزيوت التي تذيبها وشمع الأرضية



fb/mashro3pdf

الخشبية وتراب الكتب المكدسة، يدفعها في اتجاه الباب الهواء الذي يهب من الشباك الكبير المفتوح على مصراعيه، يزغلل ضوؤه الشديد رؤية عيوننا مباشرة في مقابل الباب والشرّاعة المفتوحة. يأتي أحدهم ليفتح الباب. شاب في أواخر العشرينات، طويل ونحيف جدا ويحمل ثلاث فرشات ألوان وقطعة قماش متسخة بالبويات في يده. دخلنا إلى حجرة بها سرير غريب من الخشب له أعمدة قصيرة غليظة من الخشب أيضا، قال الفنان فيما بعد أنه من العصر القوطي ويخص الفرسان في ذلك الوقت، وأن الأعمدة الخشبية بالحلقات النحاسية هي لتثبيت الرماح. في مدخل الغرفة بيك آب عليه أسطوانة ٣٣ لفة تطلق موسيقى كلاسيكية من سماعات موضوعة على الأرض. الحجرة ضيقة ورغم ذلك فبالإضافة للسرير الضخم، ففيها على الأقل سبعة أو ثمانية كراسي صغيرة وكبيرة، وطاولات كثيرة كبيرة وصغيرة، وأكوام من الكتب والمجلات، وليس هناك أي فراغ خال على الجدران: قماش قبطي واسلامي في إطارات وأقنعة رومانية وفرعونية، أدوات موسيقية صغيرة عجيبة ونماذج مطبوعة للوحات عالمية مختارة بحرص ورفوف عليها شمعدانات ومصابيح زيتية أثرية قديمة، ونماذج آثار فوق دواليب تحتوي على مئات الاسطوانات. الفنان الشاب الذي فتح لنا الباب كان ضمن ثلاثة في نفس العمر تقريبا عرفنا أنهم من تلامذة الفنان خريجي الكليات الفنية المتفوقين، يقومون بتلوين ورسم أبواب المرسم الداخلية، من الناحيتين، كل حسب شخصيته الفنية. أحدهم يستخدم ألوان شفافة ورقيقة كقوس قزح حول جراب سهام أفريقي قديم كان معلقا هناك من قبل. وآخر يستخدم ألوان داكنة وصريحة ويصنع عمقا حول أيقونة مسيحية قديمة كانت مثبتة على الباب. جلست على حرف السرير العريض المغطى بكليم رقيق ملون جدا، قال عنه الفنان أنه كرديّ، ووقف هو قبالتي مباشرة مستندا بظهره على دولاب قصير بثلاث أدراج يزدحم سطحه بتماثيل صغيرة وشقف من فخار ملون من عصور تاريخية كثيرة



fb/mashro3pdf

وعلب أدوية للهضم والحموضة مفتوحة وملقاة بدون ترتيب فوق مفرش قديم رائع مشغول بخيوط ذهبية وزرقاء. كان يلبس بنطلونا قطنيا من الجبردين الكاكي وتي شيرت بيضاء فوقها قميص من الكتان السماوي مفتوح على الصدر و"بُلغة" كالتي ينتعلها الفلاحون ولكن بلون الجلد دون صبغة. ثبّت نظره عليّ كأنه يفحصني، فابتسمت وأدرت وجهى في ارتباك لأسمع من يتكلمون عن دور الفنان الآن في مصر. استمع هو قليلا ثم بدأ في الكلام فأتى التلميذان وفي أيديهما فرش الألوان ووقفا بالباب ليسمعا الأستاذ وسكت الجميع منصتين له (...الآن ثقافتهم ضحلة، ويسيئون الظن ببعضهم البعض، يختلفون جدا عن الأجيال السابقة. ماذا أقول! ... تصور أن يكون تعليقه الوحيد عندما زارني هنا أن يقول: بالطريقة التي رتبت بها هذا المكان يمكنك أن توقع في غرامك أية "مرة"... ). خرج من الحجرة بعدها مباشرة دون أن ينظر لأحد وقال أحدهم مبتسما: هكذا هو، يخرج من المكان بعد أن يضع الخاتمة الدرامية. بعدها بقليل عندما مررت بالصالة في طريقي لحجرة الرسم، كان ابن صديقه ذو السبعة أعوام، بعد أن أعطوه قليلا من النبيذ فأخذ يهذي بكلام وأغاني غير مفهومة أو مترابطة، ينهي تلوين الثلاجة الكهربائية في مدخل الصالة برسم تلك الطيور الخرافية تطير متجهة لسماء حمراء من فوق شجرة ضخمة مرسومة بخطوط عريضة سوداء وبنية وخضراء داكنة بثمار عجيبة صفراء وبرتقالية.

بدأت زياراتي للفنان في مرسمه تتواتر وبدأ في رسم اللوحة عندما بدأت فترة التدريب العسكري في الجامعة. ساعتان في الصباح الباكر من المحاضرات السخيفة ثم يترك لنا بقية اليوم بدون جدول دراسي. كان يريد أن يرسمني في ضوء النهار وليس بإضاءة كهربائية فكانت الثلاث أسابيع أجازة من الدراسة فرصة جيدة. حكيت لماما بانفعال في أول مرة قابلتها بعد ذلك، إلا أنها أبدت قلقا وطلبت مني ألا أذهب وحدي هناك، فأذهب، وأشعر بالذنب لأني أخفي، لأول مرة. وفي يوم، فتح الفنان يدي ووضع



fb/mashro3pdf

مفتاحا بيته ومرسمه وأغلق كفي وقبله، فأسرني. قال: ستظلين هنا، هناك نوع من النساء مخلوق لذلك. هل صارحت أهلك؟ يجب أن تستمري، وجودك في هذا المكان سيجعلك تتطورين. وعندما سألته وهو مستلق على سريره القوطي العجيب وأنا أجلس أمامه وورائي مباشرة الشباك الوحيد في الحجرة: كم عمرك؟ لم يجب، بل رد بسؤال: ماذا تعتقدين؟ قلت: لا خبرة لي بالإضافة إلى أنك شخص محير جدا. قال منهيا الكلام في هذا الموضوع " أنظري فيما بعد على ظهر أحد أغلفة كتبي التي أعطيتها لك".

(تقول لي "حاذري أن تقعي في حبه" وأنا أرد بثقة "لا تخافي، مازالت فورة الشباب هي أكثر ما يجذبني". ثم تغرق كل منا فيما تقرأ ونحن جالستان على السرير النحاس بالناموسية في بيت القرية في "غرفة البنات" فيما سبق والتي اقتصرت علي أنا وهي فقط بعد انقطاع البنات الكثيرات في العائلة عن المجيء للبيت الكبير بعد أن بيعت حصص الأرض. أتيت معي بكومة الكتب والمجلات التي أعطاها هو لي قبل عطلة العيد، مربوطة بحزام شمواه ملون قال لي أنه هو نفسه كان يستعمله في ربط وحمل الكتب التي يستعيرها من مكتبة المركز الثقافي البريطاني).

كان لدي خليط من المشاعر: كان تصلب "الحفيد" في الرأي وضحالته تغيظني. كنت أشعر بالوحدة في القاهرة، وكنت مبهورة به وبمرسمه وبالأشخاص المختلفين الذين يعرفهم. كانت اللحظات والساعات التي أقضيها معه مليئة بالعمق والثقافة والحساسية للحياة. يتكلم عن التغيرات في المجتمع المصري بحنين للماضي لا يخفى، واحساس بالحزن والغربة يحمل كثيرا من التشاؤم. أفكر في قوته وصلابته التي يواجه بها هذه التحولات القبيحة من حوله، في الناس والعلاقات والشوارع والأشياء كلها. أحمل همه وأحزن من أجله وأنا أسمع أحد مثقفي مصر العظام وقد تخطى الثمانين يقول له: "قلبي معك يا بني. يا ترى ماذا تفعل لتتغلب على صدمة الانتقال بين مرسمك هذا وعشوائية الشارع المصري في نهاية السبعينيات



fb/mashro3pdf

التي تزداد قبحا يوما بعد يوم؟!". كأن مرسمه قد أضحى صومعة، ملاذا، اضطر أن يجعله حول نفسه كشرنقة مليئة ببقايا الحضارات المتعاقبة، فوق رأسه وحوله، حية، تنظر له، تتنفس، تبدو كما لو كانت ستتحرك.

(عندما وجدت كتاب "المدينة الفاضلة عبر التاريخ" عند عم رفاعي بائع الجرائد أمام العمارة، اشتريته ومضيت لداخل العمارة. أتصفحه وأتذكر ذلك المساء منذ سنوات بعيدة عندما كنت اجلس معه في مطعم قذر في زقاق مظلم في وسط القاهرة يقول أن لديه أفضل كباب. يأكل بشهية، وأنا أنتظره بعد أن قلت أني تناولت غدائي في بيت الطالبات. أرتدي جاكيت جميل من الشيموزيت الطوبي، وأثق في نفسي. كان قد عرض أن يوضح لي ما لا أفهم فيما أقرأ. شرح الفكرة ثم سألني: "وأنت.. هل تؤمنين باليوتوبيا؟"، فرددت بحماس: "نعم، أؤمن بالمدينة الفاضلة وأتمناها". خرجنا من المطعم ونظر للسماء وقال: "أنظري للون السماء الذي يلتقي برمادي البيوت. أود لو أحقق اللونين بجانب بعضهما في صورة". نظرت إلى حيث أشار. انفعلت بما قاله وشعرت أني في طريقي لأحبه كثيرا جدا).

مباشرة قبل أحداث يناير ١٩٧٧ التي خرج فيها المصريون للشارع برد فعل تلقائي غاضب سماه السادات "انتفاضة الحرامية" ضد الارتفاع المفاجئ للأسعار الذي لم يقابله أي زيادة في دخل الطبقات الشعبية، بينما تضخمت ثروات البعض نتيجة للانفتاح الاقتصادي الذي نودى به في ذلك الوقت بعد سنوات من "انغلاق" عبد الناصر الاشتراكي، عاد الفنان من الاسكندرية وحكى أن الفنان الشاب نظر له بعينيه الصغيرتين وقال: نحن ننتظر منك الكثير يا استاذنا. كانت مصر تغلي برغبة في التغيير تعبر عن نفسها في مساحة الحريات الصحفية وفي أنشطة الجامعات التي سمح بها السادات ليس فقط ليثبت بها أنه أبو الحرية، ولكن أيضا ليكتشف القوى المختلفة في المجتمع بعد ان قوّى الجماعات الدينية ليضرب بها جماعات اليسار. أحكي له عما أراه في الوقت القصير الذي أقضيه في الجامعة وفي



fb/mashro3pdf

طريق خروجي منها، إذ لم أعش جو الجامعة بعمق، كنت كأني منتسبة. كنت في حالة حب، كنت معه طول الوقت. أحضر محاضراتي المهمة، وأخرج جرياً إليه. أحكي له عن مجلات الحائط والمناقشات وتمرد طلبة الجامعة على الأحوال، فيقاطعني، ليحكي عن أحداث الطلبة سنة ١٩٧٢ والاعتصام في ميدان التحرير واللوحة التي أصبحت شعار المقاومة، وعن الثلاث طالبات الزعيمات اللاتي بقين في السجن بعد الافراج عن كل المعتقلين، وعن الشاعر الذي أهدى إحداهن قصيدة وعن اهدائه معرضا لأخرى. يعطيني مسودات مقالات رائعة كتبها في ذلك الوقت، فأحبه أكثر. أسأله وأنا أخطط لزيارة متاحف الفن في القاهرة عن مكان متحف الفن الحديث الذي يقول الدليل الذي حصلت عليه من هيئة الاستعلامات المصرية أنه في قصر هدى شعراوي، بعد أن لففت ودرت كثيرا في وسط القاهرة قريبا من ميدان التحرير، فلم أجد إلا موقف سيارات ولم يعرف أحدا ممن سألتهم في الشارع عما أتكلم. يفسر لي أن القصر قد هُدم للأسف، رغم أنه كان مفخرة للصناع المصريين أرادت به هدى شعراوي أن تثبت مقدرتهم في مواجهة الصناع الأوربيين، وأن مقر المتحف أصبح في فيلا صغيرة في ميدان فيني في الدقي، وأن مكتبة الفن التي كانوا يجتمعون فيها في القصر لسماع تسجيلات محترمة من الموسيقى الكلاسيكية في شبابهم قد أصبحت في شقة في وسط القاهرة وأن مديرها الآن هو ذلك الفنان الشاب من الأقاليم. وعندما أقول له أني سأذهب هناك لأستكشف، ينظر لي بنصف عين ويحذرني أن أضع ثقتي أو أتباسط مع أي من هؤلاء الفنانين، حتى الذين أقابلهم معه أو يزعمون أنهم أصدقاءه، لأنه لا يمكن الثقة بأي أحد الآن. ويحكي لي عن الفتاة التي ... ويتردد... التي... كانت تزوره في الماضي ... ثم توقفت الآن عن زيارته، والتي كانت تحب الموسيقى الكلاسيكية والتي ذهبت لمكتبة الفن وحدها لهذا الغرض، وكيف أن هذا الفنان الذي أصبح المسئول هناك قال عنها وهو



fb/mashro3pdf

يبتسم ابتسامة خبيثة أنه لا يدري كيف ومن "تكش لها شعرها"، فأستغرب من التعبير وأبتسم وأقول "أظن أنك لم تعرفني جيدا بعد!".

(قابلنا في المقهى الكاتب الشاب الذي طلب من الفنان أن يعطيه بعض رسومه ليضمنها روايته الأولى التي ستصدر قريبا. نحيف وذو نظارات باطار ضخم ويمشي وهو ينظر للأرض دائما، بعكس الفنان الذي يمشي وهو ينظر للأعلى دائما. عندما عدنا للمرسم جلسا تحت الضوء المنخفض في الصالة، ينير رأسيهما فقط وباقي المكان في ظلام، إذ لم يرغب في إضاءة الأباجورات المنتشرة في الأركان....قال له أن النص أعجبه لأن فيه خيال جامح، وكثير من ايحاءات ثقافية من الفرعوني والقبطي والتراث الشعبي في الصعيد. فتح حافظة الأوراق ليريه الرسوم التي صنعها من أجل روايته بالحبر الصيني بخطوط رفيعة فائقة الحساسية. رفع الكاتب الشاب رأسه من الرسوم ليومئ للفنان برأسه باتجاهي. الغلاف عليه امرأة طويلة القامة تمشي قدما وتبدو من ظهرها. الشعر الهائش شعري، والشال شالي، كفها الظاهر من تحت طرف الشال هو كفي بأصابعي وأكتافها وعنقها يشبهان ما لي. نظرا معا للغلاف والرسوم مرة وأخرى. ضرب جبهته بكفه فجأة. ابتسم ابتسامة خجلة، رائعة. قال: هل بدأت منذ الآن؟! ، كلما رسمت امرأة تأخذ ملامحها منك؟! ، هذا ما حدث لكل الرسامين الكبار وحبيباتهم. ترن في اذني كلمة "حبيباتهم"، فيحمر وجهى، واشعر بالزهو والرهبة).

طوال الوقت ألاحظه. كل ما يقوله يعجبني ويبهرني، كل ما يحكي احفظه، كل ما يفعله أراه في ضوء خاص: حتى مجرد ان يرفع يده فوق رأسه ليريحها ، الطريقة التي يميل بها ليشم الطعام فوق النار أو التي يحرك بها السكر في الشاي أو القهوة، كل شيء هو شيء خاص غير عادي. قدرته على استيعاب التفاصيل وأداء مهام مختلفة في نفس الوقت. ويقول لي، مبتسما: "أما أنت فالظاهر والواضح أنك تعملين على موجة

fb/mashro3pdf

واحدة يجب أن تتفرغي لها "لا تقدرين أن تطبخي إلا على عين بوتجاز واحدة في نفس الوقت ".

(في رأس السنة، اشتريت له سمكة ملونة في حوض ماء كالكرة. أحملها وأمشي في الشارع خطوة بخطوة بحذر في اتجاه المرسم، عندما سُرق كيس نقودي وبه المفتاح. صعدت للمرسم أبكي. أجلسني وبدأ يحكي عن باشا حزب الوفد القديم ومعاشه في جيبه يضع يده عليه استحراصا، والحرامي من الخلف يدغدغ أذنه بالريشة. وفي اللحظة التي يرفع يده ليهش ما يدغدغ أذنه، يقع عليه أحدهم من أمام فيسرق المحفظة بالمعاش. أضحك وأبكي في نفس الوقت فيتركني مبتسما. أتى بمفتاح آخر ووضعه على الطاولة، دون طقوس هذه المرة. يمر بأصبعه على خط الأنف، بين عينيّ، ومنتصف الجبين، ويقول أن الفيلم الفرنسي القديم عن قصة حياة الفنان "موديلياني" بالتأكيد كان بناء عن دراسة جيدة لتصرفات الفنانين التشكيليين، إذ هكذا كان يمرر ممثل الدور "جيرار فيليب" أصبعه برقة شديدة على وجه حبيبته التي لم تطق الحياة بعد موت موديلياني المبكر فانتحرت، وأن هكذا فعلت حبيبة بيكاسو الأخيرة أيضا. يريني هديتي: ايشارب من الحرير صبغه ورسم عليه بنفسه بألوان القماش خصيصا بألوان قال أنها تظهر لون عيناي، وحقيبة من الجلد رسم عليها بخطوط متقاطعة بالحرق وبسن معدني ساخن جدا، ويقول: "هذا ما كان يفعله البدائيون لزوجاتهم"، فأحني رأسي خجلا وانبهارا. نتكلم عن الزواج عند القبائل البدائية. عهد الدم، ورسغانا بعد أن أشرنا عليهما بعلامة شق السكين، نضعهما فوق بعضهما لتختلط دماءنا، ونحن نضحك وننظر في أعين بعضنا البعض تحت الضوء المنخفض فوق رؤوسنا مباشرة ، وكانه عهدا حقيقيا ، أو هكذا كان بالنسبة لي).

أصبحت أقضي أوقاتا طويلة في مرسمه، في الحقيقة كنت أقضي هناك كل وقتي ماعدا وقت الجامعة أو مواعيد العودة الجبرية لبيت



fb/mashro3pdf

الطالبات في المساء. أياما مليئة. لا يعلق في ذاكرتي أو يعجبني إلا الوقت معه، والباقي كله فراغ وسخف. غربتي تزيد في أي مكان آخر غير معه. تتخلخل أشياء ومفاهيم كثيرة في حياتي، واستمد ثباتا منه، فهو يبدو كالجبل الراسخ، متأكدا من كل شيء.

(يترك لي ورقة على الباب يقول فيها: "أنتظرك ... إلاهة أحتاجها، في مقدورها أن تلمس الطفل الذي في أعماق الفنان، وتقف بجانبه في الظلمة والأعاصير والجو المطير. ويكتب لي: أفتقدك ، إلى هامتك الشامخة، وبقعة الضوء على شعرك، وشالك الأحمر يضم كتفيك، وخطوتك الواثقة على أرضية مرسمي، وأشتاق إلى صوتك الحاني، وارتجافة تضمنا في لحظة صدق، أفتقدك بقسوة يا صغيرتي. ولا أريد لك بعداً بعد الآن ، فأنت الحب، ينساب مع الدفء، والشمس كل صباح . استسلم لصوتك فأغمض عيني، وأترك يدي في يديك، وفي وحدتي وفي خوفي وفي ضياعي، كم أتمناك في هذا الليل الطويل". أما أنا فلم أعد أفهم نفسي. أكتب في أوراقي: "أتناساك وأشتاق إليك ألف مرة في اليوم عندما لا نكون معا. في وسط زملاء الجامعة، في بيت الطالبات ووسط أهلي: لا أستطيع أن أمنع نفسي أن أتكلم معك، معك أنت فقط. أقول لك عما حولي، وأتوقع تعبير وجهك وأتمنى اهتمامك، اهتمامك أنت فقط. وعندما أكون معك: أكون معك وكفى").

كان يرسم ، ويرسم، ويرسم. يرسم طول الوقت. يرسمني ، أو يرسم في لوحة أخرى، وأنا أجلس في ركن أقرا أو أتأمل ما حولي أو أرتب بعض أوراق طلب مني ترتيبها. ثم يأتي، يقول : هيا .... فأتبعه صامتة. ننزل للشارع، يشرب القهوة التي لا أشربها . أنظر له ولمن يتعاملون معه، وللمارة في الشارع. نذهب لسوق التوفيقية، الباعة يسمونه هناك "الرجل الذي ينظر ولا يشتري" إلا أنهم يحبونه ويدللونه. يبسم للبائعين وهم يعرفونه ويحيونه ويطلبون منه الشراء منهم، لأن التجربة قالت لهم أن



fb/mashro3pdf

رزق كثير يأتي لهم بعد التعامل معه بالذات. أو ينزل مرة عاشرة لشـرب القهوة فلا أنزل ، ابقى جالسة على نفس الكرسـي. أتأمـل فـوق رأسـي المراكب الشراعية الملونة متعددة الأشكال والأحجام وقد علقـت بخيـوط شفافة إلى عصي دقيقة مختلفة الأطوال لتلف حول نفسها وتتوازن قريبا من السقف كلما هبت نسمة من الشرفة المفتوحة، أو كلما مر تحتهـا أحـدهم بسرعة. قال أنه اشتراها ليساعد أحد الإخوان المسلمين الذي كان يصـنعها أثناء اعتقاله في الستينيات من بقايا العلب الصـفيح وقصاصـات القمـاش الملون. عندما يمر الوقت وأعرف موعد عودته : انظر من مكـاني بـين حديد البلكونة للمكان الذي أعرف أنه سيمر منه في طريق عودته. يخفـق قلبي عندما أراه، يمشي بخطوته المعتادة، كأن قدماه ليستا علـى الأرض. جسمه لا يتحرك لا يمين ولا شمال، ولا يرتفع ولا ينخفض، يمشـي كأنـه يطير على ارتفاع واحد، رأسه المبتسمة قليلا تتجه لأعلى، كأنه في تأمـل مستمر للسماء. يداه في جيبيه متقدما بلا اندفاع. لن أسمع الباب وهو يفـتح أو يغلق ولكن سأراه مباشرة في الصالة ينظر لشيء ما أو يمسك بيده شيئا ينشغل به. يقف وذراعاه معقودان فوق شعره مستندا بجبهته علـى زجـاج الشرفة وقد اغرقته الشمس الشتائية للساعة الثالثة وأنا أقـف وراءه أميـل بكتفي على الدولاب الأسود الضخم. يتبع بأصبعه نملة تمشي مسرعة على الزجاج الذي أسند عليه رأسه. يقول أنه يتمثل دأب النملة في حرصه على العمل كل يوم وكل ساعة. يشير للمباني التي بدأت ترتفع في وسط القاهرة وقريبا من النيل في منتصف السبعينيات، تحجب رؤيته لخط أفـق المدينـة التي عشقها. أرى صورا للوحات كثيرة رسمها سابقا ويظهر فيهـا سـور البلكونة والأفق المفتوح للمدينة. من الآن ستكون لوحاته في الداخل، كما لو كان محبوسا في مرسمه، وكلا مصراعي الشرفة مغلقين والاضاءة بـأنوار الكهرباء. يرقد على الأرض في حجرة المرسم الداخليـة والضـيفان فـي الصالة يعلو صوتهما. يقول أود لو أنام على رجلك، فـأقوم مـن مكـاني



fb/mashro3pdf

متجهة له، فيوقفني مبتسما بنظرة، مشيرا بيده للضيوف في الصالة، فأعود لكرسيّ. أكرر الجملة التي اختارها عنوانا لإحدى مقالاته (أيها الرسام ارسم ولا تتحدث) فيطلب مني أن أحضر قلما معينا يصف لي مكانه بالضبط فوق طاولته المزدحمة بالأدوات. آتي بالقلم فيمليني وأنا أكتب على الحائط: "أحسد من لا زالت له القدرة على الثرثرة" وأضيف تاريخ اليوم. أضع القلم وأندفع إليه أنزل على ركبتي وأمرغ أنفي في شعره وجانب وجهه وأذنه فأعب رائحته. يبتسم في هدوء ورضىً ويقول: "فلنسمع موسيقى "سبيليوس"، فهو يجعلني أشعر كأني ارى مساحات من الثلوج تعطيني أبعادا مطلقة". سعيدة، سعيدة أنا، ولكن أتساءل مع نفسي: يا ترى متى يسترخي فكاي المتشنجان في حضرته، في مكانه، متى أعتاد تلك الموجات ذات التردد العالي التي تصاحب وجوده؟!.

يحكي ويحكي وانا أسمع، وأستوعب، واتشرب كورقة النشاف. يقول هذه المدفأة جلست أمامها بجسدها الدقيق فوق البالطو الفراء الأبيض الذي اهدته لها المغنية الشهيرة، وهنا حزنت وأنا ألاحظ عينا صديقي يشتهيان رجاء، ويحكي عن أخرى قال لها اجلسي فجلست على طرف الكرسي، وهكذا قرر أن يرسمها، ، فهكذا شخصيتها، "مقلقزة" لا تستقر على جانب، لا تختار، ولا تقرر. يرتفع ذراعه في الهواء وهو يحكي، وأتبعه بعينيّ، يقطع الهواء بذراعه وكفه كسيف يهبط بحسم، فتمضي عيناي ورأسي معه. ويأتون، يصارحونه بأدق تفاصيل حياتهم، جنسية أو زوجية. يقول لأحد اصدقائه منهيا المناقشة غير المجدية: المرأة لا معنى لها بعد سن الثامنة عشرة، فأتجاهل ولا أجرؤ على سؤاله خشية أن أعرف أو أفهم ما سيضايقني. أو يشوه الحلم الذي أعيشه. ويمر عليه آخر في الظهيرة، يقلب عينيه بيننا ليحاول أن يستشف ما كان يحدث قبل حضوره. يقول: "كل الناس "تشخبط" ، وأنتما؟ ألا تريدان الشخبطة؟ تعالا معي لمقهى الأمريكين". يغمز له ويستكمل: "هل نسيت أيها الفنان مقهى الأميريكين؟



fb/mashro3pdf

هل لم يعد يدق على بابك أي من النوع "إياه" ؟". لا أشعر بالراحة رغم أني لا أفهم تماما ما يقصد. يفسر لي الفنان بعد انصرافه: "أنتِ علمتني العفة، فأخشى ما أخشاه أن تأخذي حقيبتك، وتمضين، فلا أراك بعدها أبدا...".

(بدا أن كل شئ في ذلك اليوم طبيعيا جدا. أمشي في الشارع بسرعتي المعهودة. أقابل البواب فلا ألقي إليه بالا كالعادة. أنتظر المصعد ثم أصعد بعده الدرجات القليلة للدور الأخير. أنظر فأجد أن لا نور هناك يأتي من وراء الشراعة المغلقة. أحزن قليلا إذ لن أجده ليفتح لي. أقرر أن أدخل وأنتظره. أخرج المفتاح وأقترب من الباب لأفتح. انفرج الباب عن ضوء خفيف يأتي من الحجرة فتوجب عليّ أن أدق الباب بخفة قبل أن أدخل حتى لا يفزع إذا كان نائما. باب الحجرة مردود والضوء الخافت يأتي من ورائه. حركة مفاجئة، أقدامه الحافية دقت الأرض فجأة، وصوته مرتعشا متلعثما يسأل هل هي أنا؟ فأرد بالإيجاب، يتلعثم أكثر ويطلب مني الانتظار: "دقيقة واحدة"، يكرر: "دقيقة واحدة"، ثم يطلب بصوت مرتعش أن أتجه للحجرة الداخلية. أفهم ولا أفهم. لا أفكر. هممت بالعودة أدراجي. فتحت الباب بهدوء فوجدت تلك الفتاة المقززة التي رأيتها أمام المصعد عند خروجي منه في وجهي تنظر إليّ بحب استطلاع. أرتد للداخل وأغلق الباب. أحتار للحظات. ألاحظ أن هناك من بالحمام الداخلي البعيد وصوت ماء غزير. أقرر أن أدخل الحمام الصغير القريب من الباب. أريد أن أفرغ هذا الارتباك. أغلق باب الحمام الصغير جدا ورائي وأقف في مواجهته مباشرة فترة مشدوهة. أرفع الحقيبة من على كتفي. أقف فترة أخرى ثم أجلس بعد خلع الجزء الأسفل من ملابسي. لا أستطيع أن أفكر بما سأفعل عندما أنتهي، ولا أعرف كم من الوقت بقيت. حركته قلقة أمام باب الحمام الذي أبحلق في بابه من الداخل. هل يبحث عني؟ لا أدري. لم أعد أدري أو أريد أن أدري شيئا. قمت أرتدي ملابسي وأشد السيفون ليعلم أني سأخرج.

fb/mashro3pdf

أفتح الباب وأخرج وأحاول أن أكون كعادتي. أضع حقيبتي وأرفع رأسي. مضطرب. ليس هذا موقفا يا ربي. فلتبلعني الأرض من أجله. عيناه، هي كل ما ألاحظ، حمراوان، متعبتان. قلبي يضطرب وألوم نفسي. أبتسم له كعادتي.. ابتسامة واسعة أتمنى أنها ربما ستزيل بعضاً من قلقه. "عايز شاي؟ .. أنا عايزة" هكذا نطقت، بأقرب صوت لصوتي الطبيعي. سألني عن حالي وصحة والديّ، وأمور أخرى ربما كانت كثيرة.. لست متأكدة. صوتي يخرج أكثر انخفاضا وبطءً من المعتاد. استدرت ووضعت ماء الشاي على النار وأغمضت عيني. رأسي ينخفض من ثقله ويداي في وسطي لحفظ توازني. فُتح باب الشقة بهدوء مريب... ثوان ثقيلة ثم همسات... ثم أغلق الباب بهدوء أكثر من هدوء فتحه. عرق بارد يخرج من كل مكان في جسمي فأرتعش. "السمكة ماتت" هكذا صرخت في داخلي بدون صوت عندما انحنيت أنظر لسمكتي الملونة. لا أريد أن ترتبط مصادفة رؤيتي للسمكة الميتة بأي شيء في نفسي. أرفض وأقهر كل محاولات عقلي للتشاؤم أو الضيق. أقاوم، أقاوم بشدة. يصبح ضبط النفس لأول مرة صعبا. رأسي ثقيل وعيناي أيضا. عضلاتي مشدودة ومرتخية في نفس الوقت. كنت أفهم بعقلي أنه من الممكن أن يحدث هذا.. ولكن... ما أصعب هذا الموقف. عاد وجذب الكرسي وجلس قبالتي في المطبخ رافعا ظهره بشدة وعاقدا ذراعيه فوق صدره. بدأ يتكلم. قال: "كان هذا بسبب رغبتي في انهاء صورة العاري الكبيرة ثم ... " ، ولم أسمع الباقي. لا أعرف كيف وصلت إلى محطة الأتوبيس في ميدان التحرير. أنتظر. الأضواء ورائي والنافورة ترش رذاذا على ظهري. أشعر بالبرد ولا أتحرك... فقط دموع أشعر بها ساخنة على خدي، أتنبه فأنظر حولي وأخفيها بسرعة. أعود لبيت المغتربات وأقول أني لن أعرض نفسي لهذا أبداً مرة أخرى، ألوم نفسي أني وصلت هناك في الوقت غير المناسب،

fb/mashro3pdf

ولكن أعطيه العذر إذ لم أشبع أنا رغباته واحتياجاته. أقول لنفسي: هذا يكفي.. إلى هذا الحد، هذا يكفي. وفي اليوم التالي أجده فوق رأسي وأنا أتدرب على الآلة الكاتبة في مكتب "موريس". كل من في المكتب: المدرب والطلاب الآخرين ينظرون بحب استطلاع. لم يعتذر أو يذكر ما حدث، فقط ظل يسأل بإلحاح: "متى تأتين؟"، وينتظر الاجابة بإصرار، وأجد نفسي ببساطة أجيب أني سآتي... وأقول لنفسي: أذهب؟! .. نعم .. ولكن أعد نفسي بأن أحميها من الان فصاعدا).

في بيت الطالبات•نقف فوق السرير ونرش بأفواهنا الماء لنلطف الحرارة الخانقة. سميرة السودانية تقول لليلى العراقية زميلة غرفتنا أنها رأت عامل البناء في سطح المبنى المجاور يستمني وهو يحك نصفه الأسفل بعامود الخرسانة، وتؤكد أنه كان ينظر على السرير الذي يظهر من شباك حجرتنا، فتخجل ليلى وتحمر، تذرع الحجرة كالمكوك وهي تخبط بيديها على جانبي فخذيها، وتقول: لن أنام في هذا المكان مرة أخرى. أقول لها: ولكن أنت من اخترت هذا السرير لتأتيك نسمة هواء في الليل!، وهي تصر "ماكو فايدة، لا تحاولون، غيروا نظام الحجرة"، ونقول كيف وهي بهذا الضيق، فتقول تصرفوا، وتخرج من الحجرة باكية. نبدأ في دفع الدواليب والثلاث مكاتب والثلاث أسرة حتى لا يصبح سرير ليلى تحت الشباك، ونحن ندعو على سميرة واليوم الذي أعلنت فيه صداقتها لنا. وعندما تعود ليلى تحاول ان تخفف عنا فتقول فلنجعلها ليلة رومانتيكية: ياللا نطفي "الضوّ" و"نسجّر" ونسمع ناظم غزالي حتى نقع في النوم". وتظل تسأل كل من تدخل حجرتنا: على أي شيء "تباوعين" عند النظر لرجل؟ فتقول واحدة: عينيه، وتقول الثانية: شعره، وترد أخرى: أنظر له كله، وتقول ليلى: كلكن كذابات، أعرف أنا أين "تباوعن"، وتشير بكفيها إلي أسفل الجذع بين الساقين، فتحمر البنات ويصرخن ويضحكن خجلا.



fb/mashro3pdf

وهكذا أحكي له، حكاياتي البسيطة، فيقول أن عراقية أيضا أحبته وقاتلت كل المصريات اللاتي كن وراءه يردن الزواج منه. وعندما سافر لها أتت بصحبة عضوات من حزب البعث فشتمته وبهدلته أمامهن ولم يرها بعدها أبدا. وأحكي عن البنات السودانيات يجتمعن في حجرة إحداهن وعندما تفتح فرجة من الباب تخرج روائح البخور والزيوت التي يدهن بها أنفسهن فيقول لي بالتفصيل عن عادات طهارة البنات في السودان وأثيوبيا فأخجل ولا أقوى على النظر لعينيه المترقبتين لرد فعلي. وأحكي عن الجزائرية التي تخاف من عنفها وحدتها كل المغتربات، فيحكي لي عن تدريباته في الفرقة الخاصة على الكاراتيه والاعاشة في الصحراء ورغبته في التطوع أيام حرب الجزائر هربا من ألم فقد أكبر قصة حب في حياته. أحكي هامسة عما يحيرني من البنتين السحاقيتين التين فتحت الباب فوجدتهما على سرير واحد في مشهد حنان آسر لا ينسى، فيحكي عن المغنية الشهيرة التي لا يعرف الكثيرين أنها كانت سحاقية أو بالأحرى تحب الجنسين.

وفي أول الصيف ووقت امتحاناتي كنت آتي في فترة الظهيرة لأسدل "التندات" على البلكونات الملتفة حول المرسم ذي الوجهة القبلية. كان قماش القلوع السمني اللون المصنوعة منه التندات يقلل من تأثير الشمس في الصيف ، ويصنع ضوءا جميلا، كحلم. أقف على كرسي في الشرفة الممتدة حول الشقة كلها بعرض لا يتعدى النصف متر لأسدل "التندة". أستند على الهلال الذي يزين السور فوق زخرفة إسلامية من الحديد. ألبس بنطلونا أسود وبلوزة زرقاء كحلية تلتصق بأعلى جسدي، ذات كولة مقلوبة وأبدو نحيلة جدا. جاء من ورائي وخبطني على مقعدتي وهو يقول لي عن شيء أسعده بشدة. جفلت وأحرجت تماما. لم يلاحظ أو لم يلق بالا وأشار للسلسلة والدلاية الفالصو بفص ازرق تقليد الفيروز على صدري. طلب مني أن أتوقف عن لبس الفالصو فخلعتها فورا ولم ألبس فالصو مرة أخرى أبدا.



fb/mashro3pdf

أشار أن أنزل من على الكرسي وأخذني من يدي ليشتري لي زهورا زرقاء، ذات أعواد طويلة، رأى أنها تشبهني وأنا ألبس ملابسي تلك، ثم نظر على ذراعاي تحيطان بباقة الزهور فسألني من أين أتيت بنسب أطراف الجسد المثالية تلك. كنت منبهرة من الربط بين الأشياء، تماما. كان يمليني نوعا من اليوميات التي اتفقنا أن أساعده فيها ونحن نأكل في مطبخ المرسم وأنا أفكر فيما سيجمعنا بعد أن أغسل الأطباق وألحقه. عندما سمعنا مواء قطط أمشير الشبقي نظرنا لبعضنا وابتسمنا. وعندما أحاط ظهري بذراعه وهو يقف بجواري وطوله مثل طولي وأنا جالسة بعد ظهيرة أحد الأيام طالبا أن نتزوج بسرعة قبل أن يصبح "عجوزا" لم تكن مفاجأة لي. قال: "تزوجيني، الآن، قريباً". الخادمة تنظف الحجرة المجاورة وأنا أجلس بجوار الشباك. أرمي بنظري الى المكان الذي يمكن ان تأتي منه الخادمة. يقول بلهفة: "أليس الكرم كقيمة هو قيمة مطلقة؟"، وأنا أقول بثبات وثقة في المستقبل والحياة وفيه: "نعم ، ولكن الوقت المناسب هو بعد أن أنتهي من دراستي، إذ كيف يمكن لي الآن أن افرض الأمر عليهم؟!". فيقول: "سآتي لبيتكم الريفي، لابساً "شيك" جدا". فانظر له مبتسمة لأنه صنع مشهدا على مزاجه. وأتذكر المدام الخوجاية زوجة طبيب الاجهاض الشهير في وسط البلد، تقول وهي تشير بفجاجة لأعلى فمها وأسفله: "يكون لي شنب وذقن إذا أبدا تزوج هذا الفنان!". هي نفس هذه المدام التي طلب منها الفنان بعد زواجنا أن تعلمني الطبخ فرفضت قائلة أنها راقبتني كثيرا، وأن اختبارها للخادمات المصريات هو أن تعطيهن طعاما في أول يوم ثم تراقبهن، فإن أكلن ببطء، فلا فائدة ترجى منهن!.

وهكذا اسقط في يد العائلة عندما أتى وقت إقناعهم بالزواج. فهاهي الشاطرة، نوارة العائلة تتخذ قرارا. كيف يشككون الآن في أحكامها بعد أن كانت دوما شاطرة الشطار. وتناقش ماما نفسها بصوت عالٍ أمامي وهي



fb/mashro3pdf

تطرز فستان عرسي "لقد ظلت يونا أونيل تواصل الإنجاب من شارلي شابلن حتى تشغل نفسها عن فرق العمر بينهما، فماذا ستفعلين أنت؟". وتصبّر إحدى المتدينات ماما "اهدئي وتقبلي. هذا ما قسمه الله. أن تقع ابنتك تلك، ست البنات، تحت هذا العجوز لتحقق أمر الله في ولادة طفل كتب اسمه على اللوح المحفوظ أن يولد من هذين الأبوين". وتقول أخرى تتجنبها سيدات العائلة لأنها تتخذ مظهر المثقفات: "فلتدخل التجربة، ولكن فلتظل واعية لنفسها، فالأكبر في السن لديهم مهارة أكبر بكثير من الأصغر". لم يهمني كل ما قالوا، كنت آمل أن أكون معه، دائما، في علاقة نصبح فيها متحدين، لا مندمجين. يثق كلانا في الآخر، نحمي بعضنا. لا نخون، ولا نكذب. نساند بعضنا البعض في لحظات الضعف على تقويم الاتجاه إن مال.

تعلمت الحكي من مصادر مختلفة : جدتيّ بحكاياتهما المحكمة سواء الخيالية المشابهة لألف ليلة وليلة أو الواقعية عن الحياة والأقارب، زوجة عمي بحكمتها وتجاربها الكثيرة في السفر، خالتي بلماحيتها وانطلاقها وجاذبية ذكائها. كان هناك أيضا "حكائين عظام" آخرين، لكن يا الله: اي نوع من الحكايات؟! حكايات جلسات "مشرحة" عن الناس، أي ناس. عائلة منغلقة على نفسها، يخرج أولادها كل في طريقه، ثم يأتون في آخر اليوم من أعمالهم، يهمهمون، مع أنفسهم، أو معها، ثم يدخل بعضهم للحجرات التي تفتح ابوابها في الصالة ويغلقونها على أنفسهم، أو يتجهون مباشرة للمطبخ، يرفعون أغطيه الأواني على الموقد ، يأتون بعدها وقد خفت ملامح التوتر من وجوههم. ثم تنصب الجلسة. هي لم تخرج في حياتها للشارع إلا للضرورات القصوى عدد مرات تعد على أصابع اليد الواحدة، ورغم ذلك فهي موطن ثقتهم ومحل اجابة استشاراتهم وتساؤلاتهم عن الناس، كل الناس، في محيط كل منهم، بلا استثناء، ما عداهم. ويقولون: "تحكّي، لنتعلم من تجارب الناس". كانوا خليطا مدهشا من الضعف والجبروت، من



fb/mashro3pdf

الهشاشة وقشور تبدو صلبة تغلفها، مليئة بالأشواك كالتين الشوكي. تناقض بين الشعور بالعظمة والتفوق الذي له ما يبرره من الحساسية والذكاء الحاد، وبين الشعور بضعف ونقص يبذلون جهدا هائلا لإخفائه.

(قال مبتسما: "تذهبين اليوم إلى "مرتفعات وزيرنج؟!". كانت شقة كبيرة في أحد احياء القاهرة بائدة العز. الأطباق على الجدران وعلى الطاولات نثرات من المزادات استلقطها الأولاد لبيت العائلة، والصالون سجاجيده طبقات فوق بعضها يشغل ذهني كيفية تنظيفها. أسعدني أن أرى أخيرا المراحل الأولى منه في اللوحات المعلقة. كنت ألبس فستاني المفضل بالوان ونقوش غابة متداخلة الأغصان والحيوانات. قالت بنعومة: اخلعي الجاكت، الجو حار. تنظر لكتفيّ العاريين نظرة من يعاين الإماء، فاحصة بعينيها الضيقتين اللامعتين ماكرتي الذكاء يطق منهما حب الاستطلاع. محدثة بارعة جدا إلا أن قدرتها على الاستجواب بصنعة لطافة لا تبارى. الآخرون يسألون مباشرة ودون مواربة أو تصنع دبلوماسية. الباقي يستمعون بآذان صاغية للجديد، يحركون رؤوسهم بين المستجوب والمستجوب. يعلقون، واحدا بعد الآخر. أشتكي من أني لم أذاكر بعد لأستعد للامتحانات، ربما بسبب ارتباك الانتقال للدراسة الجامعية والغربة. تقول ببساطة: "خلاص فوّتي السنة دي!". "ماذا تعنين؟ أرسب السنة يعني؟ أنا... أنا أرسب؟ هذا لم يحدث لي أبدا من قبل!"، فيبتسم الجميع وينظرون بخبث لبعضهم البعض. يقولون "قال عنك أنك أولى الثانوية العامة"، فأنفي بارتباك وأضحك لمبالغته في مدحي).

الحديث يدور هنا كثيرا عن النساء. عيوبهن، لؤمهن، وسخافتهن، رغبتهن أن يركبوا ويدلدلن أرجلهن، حقارتهن، استسلامهن للشهوات الذي أدى، عبر التاريخ، إلى أنهن لم يقدمن للبشرية أية انجازات. الرجال والنساء في العائلة يشتركون في سلخ فروة النساء، يحملونهم سبب كل شرور الحياة، وكل دناءتها. النساء يشتركن في الكلام كأنهن أنفسهن لسن



fb/mashro3pdf

من صنف النساء، كانهن من طينة لا تقارن بما يتحدثن عنه، من انحطاط وقذارة دنيوية، لا تسمو ولا تستطيع. كل يدل بدلوه. "مخالي، زوج كرستينا صاحبة المطعم في الاسكندرية الذي استولت منه على المطعم بعد أن رفعت عليه قضية حجر، كسبتها لأنه أتى للمحكمة وعندما سمع من محاميها أسبابها فقد أعصابه فخلع بنطلونه والسروال وقال وهو يهز عضوه بيده منتصبا مشيرا لها، هذا هو ما تريدينه كريستينا، ككل النساء، هذا هو ماتريدينه!. وهكذا بعد أن كان صاحب مطعم من أشهر المطاعم في الاسكندرية، أصبح يعمل (على الكيس) في محل جاد للفول والطعمية، ويدور يقرأ لأصدقائه ما جمعه من أقوال مأثورة عن غدر وخيانة النساء فيضحكون من نطقه الخواجاتي (إن كيدهن عظيم، استشيروهن وخالفوهن). يحكون حكايات أو حوادث من التاريخ، الذي قرأوا فيه كثيرا، بما فيهم الأم، أو من سير العظماء من الشرق والغرب: شجرة الدر وطموحها، شوبان وجورج صاند تتقلب أمامه على السرير على ضوء الشموع وهو المسلول الذي قارب على الموت يعزف "النيكوتيرن" ويتعذب من الرغبة والعجز في نفس الوقت، والقول "النعجة لازم تقصر لها الحبل" ينطبق على كل النساء، فقد ظلت النعجة المربوطة في الحمام انتظارا ليوم ذبحها لعيد الأضحى، تخبط الجدران والباب بقرونها حتي تكسر، وأصحاب البيت من الأقارب يقولون ربما زهقت، أو فهمت أنها مربوطة فلا تستمر في المحاولة، أبدا... فتعلموا أنه "عندما تكون نعجة، أنثى، فهي لن تفهم، ولن تيأس، والأفضل هو تقصير الحبل من البداية حتى لا تنتابها أوهام الحرية فتسبب لك الخسائر التي لا لزوم لها. يوافق الجميع بهز الرؤوس، وينظرون لها، المرجع، فتهز رأسها هي الأخرى. أنظر بدهشة وأقول: ألستن نساء أنتن أيضا؟!، فيسخرن من سذاجتي، ويضحك الجميع، ولا أفهم السبب.



fb/mashro3pdf

(يقول أحدهم: "ولماذا يجب أن نظهر الحب لآخر؟ هل نعطيه السكين بيدنا ليضعه فوق رقبتنا؟" يوافقه الجميع، وهو منهم، كشيء مفروغ منـــه!. وآخر يسكر فيقول، وصوته يقطر مرارة: "كان يأخذها، في عز الظهر، بعد الغداء، فيغلق الباب عليهما، ويظهر بعدها منتشيا فخورا منفوشـــا كـــديك، وينظر لنا، أولاده الشباب، فيشعر ويشعرنا بالتحدي. وتخـــرج هـــي وقـــد نكست رأسها لا ترفعها في مواجهة العيون الشاخصـــة، ترسـل بصـــمتها رسالة: ليس حبا بل طاعة. يطلب تحضير الحمام بصوت عال، ثم يســتدير ليقول لنا أن الزواج مؤسسة فاشلة، وينصحنا بعدم الزواج مطلقا. لو أنـــه كان عقيما، فلم يلد كل تلك العقد والتعاسة. كان يغار منا، أبنائه الشباب كلما بانت إمارات تفوق أو تميز. يمزق لهذا قصيدة أثنى عليها مدرســيه لأنـــه يجب أن ينتبه لدراسته أكثر. يبصق على و يمزق لوحة حصل بهـــا آخـــر على أعلى درجة. يقول أنه يريده ألا يغتر بنفسه، أو لأن نظرته له اليـــوم في الصباح لم يكن فيها الاحترام الكافي. وهي لا تقول شيئا. تنظر بتعاطف ولسان حالها يقول: تحملوه. كانت أذكى بكثير وطموحها قويا رغم إحبـــاط إخراجها من المدرسة لتتزوج، ولم تغفر أبدا. آه، لو أنهـــا كانـــت قرويـــة ساذجة، وليست بهذا الذكاء الذي فضح قلة حيلته").

وأسأله فيقول أنه يعبدها، ولا يتحدث عنه أبدا. وألـــح فـــي الســـؤال فيقول: كان طيبا جدا، يصدق كل ما يقال له، مهما كان. وأسأله: هل كـــان فعلا يتصرف هكذا؟ هل كانت فعلا تقول كذا، فيقول باستهجان: من قال لك هذا؟!، ويقول أنه لا يتذكر، أو يغير الموضوع ووجهه يقاوم ألما لا يريـــده أن يظهر. يقول "تعديت أنا كل هذا، حققت ذاتي ولم اعد محبطا لأفكر فـــي هذه الأشياء".

حيرّني الأمر كثيرا: هل يحترم هو المرأة؟، أم يحتقرها؟ ما طبيعـــة هذا الفصام الذي يتعامل به مع النساء في حياتـــه. أنـــا، نســـاء أســـرته، موديلاته، خادماته، عاهرات الشقق المفروشة، بطلات قصصـــه العاطفيـــة

fb/mashro3pdf

الكثيرة جدا. يقول لأي شاب "لا تضيع وقتك، السرير مباشرة، فلا قيمة لأي شيء آخر". بينما يقول لها "ستنظرين إلى كل الرجال، من علٍ، تقارنيهم بي ، فتحتقرينهم. لن تسمحين لنفسك بعلاقة تأخذك لتقعي تحت أحدهم، مهما كان، وتبتذلك لموقف أدنى".

في البداية، كان يروي لي كل يوم حكاية قصة حب هو بطلها. الأم تقول ضاحكة ، ولكن بفخر: "لابد لهاتيك النسوة أن يؤلفن كتابا!". يحكي عن الأرستقراطية حفيدة الثروة والشهرة والأدب والفن بفستانها الأخضر ولون عينيها، وهي تنزل، كأنها ليست من البشر، على السلالم العريضة الملتفة تحت الأضواء المبهرة لذلك الفندق في بورسعيد، أيام كانت للخواجات. كيف احتفت به عائلتها الارستقراطية، وهو الطالب الموهوب بعيونه السوداء اللامعة وقوامة الرياضي القوي رغم قصره. كيف أعطتهما جدتها جنيها ذهبيا عندما رأتهما معا. ثم كيف تزوجت بعدها بابن أحد المشاهير، وكيف تألم هو لأنها قد فضلت "الصديري الشمواه". عندما تقابلا بعدها بسنوات تذكرا حبهما القديم. رفض هو بعدها العلاقة الثلاثية التي لم يفهمهما في البداية والتي عرضها زوجها. وكيف كان تمزقه أمام إكباره لها كإلهة، ورغبته فيها. يصف المشهد بالتفصيل إذ همت به وهم بها وقد احترقا بالرغبة، ليقفز هو من جوارها كالملسوع، لاطما لخدها الرقيق بقلم مدو، مترفعا بها أن تنزل من علياء ألوهيتها لذلك الدرك من الدنس. و اليهودية التي كانت تعمل بائعة في شيكوريل التي اكتشف معها الجنس المختلف عن بائعات الهوى الرخيصات، وكيف عرفته بعدها باليهود المصريين اليساريين الذين ساعدوه كفنان ومثقف، وزميلته التي ما إن خرج من المعتقل أول مرة حتى شعر بواجبه للتقدم لخطبتها، إلا أنهم قالوا له أنهم لا يزوجون بناتهم إلا لرجال كبار "جاهزين" فحبس نفسه من الصدمة، يعتصره الألم، يسكر، ويغطي نفسه عاريا بالسجاد على الأرض ويرسم لوحة "الفاكهة الخضراء" التي كانت من أسباب شهرته فيما بعد.



fb/mashro3pdf

والجميلة التي اعتقد أن الشاعر الكبير إبراهيم ناجي عندما وصف الفجر كحريق في قصيدة "الأطلال" لا يمكن أن يكون قد رأى الفجر وامرأة مثلها بين ذراعيه قط. وكيف أنه تركها بعد ذلك عندما اشتهاها أمامه أحد أصدقائه و"مادامت قد بدأت تلم عليها الذباب". وحكاية العراقية الشاعرة التي اعتقد أن حزب البعث أرسلها إليه وكيف أخفاها في الدولاب الأسود الكبير في صالة المرسم، إذ كانت دقيقة الجسم، حتى تسمع بأذنها ما تقوله أخرى تحبه عنها. والمثقفة الأخرى التي حادثته بالتليفون تبكي أن أهلها سيزوجونها بغيره رغم حبها له، فما كان منه وقد لعبت الخمر ومناقشات الأصدقاء حوله برأسه إلا أن قال لها إن أتيت في خمس دقائق فسأنقذك وأعقد عليك وفوجئ الجميع بها تدق الباب بعد دقيقتين إذ كانت تستعمل تليفون دكان السجائر تحت العمارة. فيعقد عليها لأنه "رجل" لا يرجع في كلمته. ثم يتفقان على الطلاق دون أن يدخل بها وعندما تقول له أنها ستخبره إذا اكتشفت أنها حامل فيقول "ليه، هل أنتِ ستنا العذراء، تحبل من جنبها؟". ويتندر بالقصة الفنانون والكتاب في قهوة ريش ونادي الأتيليه، أو هكذا يقول.

كل هذه القصص الدرامية الملونة، حقيقة أم خيالا، جعلتني أتعلق به أكثر وأكثر، فلا مقارنة بين حياتي وحياة أسرتي ومحيطي كله الهادئ المنسجم بل ربما الممل أيضا، وتلك الفرقعات، الألوان الصارخة، والأحداث التي تغير مسار الحياة.

(يرجع بابا من العمل متأخرا، سواء من الغيط عندما كنا نعيش في القرية أو عندما أصبح موظفا. يغتسل حالما تعد المائدة، لتجلس معه ماما التي تكون بالتأكيد قد أكلت مع الأولاد في موعد الغداء الطبيعي. لابد أن تغرف هي له الطعام في طبقه، وهو يحكي لها، بالتفصيل، كل ما حدث في يومه من ساعة أن خرج حتى عاد. وهي تسمع، تبتسم، تفكر، تتساءل، تحذر، أو توافق، وتضع له المزيد في طبقه وهو يتمنع، ثم يبتسم ويأكل).



fb/mashro3pdf

لم يكن للفنان خصوم حقيقيون يحاربهم من أجل الفـوز بـي. كـان بالنسبة لي كالقدر، لم أر غيره منذ قابلته، ولم أعط لنفسـي الفرصـة لأن اسمع عن آخرين. امتلأت روحي من وقتها بالقلق بسبب الرغبة المرضـية في إرضاء من لا يرضى. لم يكن عندي أي قصص يمكن أن تتنـافس أو حتى تتقابل مع قصصه. استمرت حياتي على نفس الوتيرة حتـى بعـد أن دخلها هو وبعد زواجنا الذي استمر لسنوات طويلة، فاقتنعت أنها شخصيتي هي التي ترتبط بالبحر الهادئ، وأن أمواج شخصيته العالية هي التي يدور حولها هذا النوع من القصص، هذا الخيال، وخاصـة بعـد أن اسـتمرت الحكايات وتوالت بعد زواجنا: الفرارجي يتحدث عن الجمـال والحـلاوة، والتفاح الأمريكاني الأحمر، ويسألني: والأستاذ، ماذا يفعل في الليـل؟ وإذا كان "يفعل" فلماذا مازال يطلب منه توريد الموديلات، وأنه بالتأكيـد "يـنط" عليهن، وأنا لا أعلق، بل أدعي أني لم أسمع أصلا، فلا يصـدق الرجـل برودي وأنا أقف أنتظر طلبي أن يجهز. ويكرر في كل مـرة أنـه ذهـب لمدينتي في الدلتا، وأنه يعرفها جيدا، حتى أنه يعرف "الخبيزة". لا أفهم مـا يقصد فلا أجيب، فقط أقابله بابتسامتي الهادئة المتحفظة. أحكي للفنان فيبتسم ولا يجيب، وعندما أسأل بابا ينفعل في واحدة من المرات القليلة التي رأيته فيها غاضبا، إذ أن "الخبيزة" هي نعم اسم نوع من الخضـروات إلا أنهـا أيضا اسم منطقة العاهرات في مدن الدلتا زمان. وحكايـة شـغالة الشـقة المفروشة والتي كانت راقصة في الملاهي الليلية حتى رمي عليهـا احـد عشاقها ماء النار فشوه عينها. يأتي بها للمرسم فيعطيهـا لتسـكر وتـدخن "قرش" الحشيش الذي يشتريه لها وترقص على موسـيقى اسـطوانة "يـا مسهرني" لأم كلثوم فيظل يرسمها هو كالمجنون طول الليل في اسكتشـات سريعة يضعها في معرض بجوار اللوحات بالألوان الزيتية التـي رسـمها فيها بملابس تكشف أكثر مما تخفي جسدها الجميل وهـي تغطـي رأسـها بالمنديل الملون. كنت قد رأيت صورة لها عارية بالبلوراید في بيته، الـذي



fb/mashro3pdf

أصبح بيتنا. الصورة أمام الشباك نفسه، أمام الستارة المنسوجة وفيها خطوط القصب اللامعة نفسها، وأنا أكذب نفسي. وهي تأتي بعد زواجنا لتقول لي سأدعو لك بأفضل دعوة "ربنا ما يغيرش عليك" فأتراوح بين أن أصدق إخلاص دعوتها وبين أن أشك عندما يستدعيها، أمام عيني، لتدلك له أعلى فخذه بعد أن كاد يقع من على السلم وهو يتفقد خزان المياه بعد أقل من أسبوع من زواجنا، فيغمض عينيه مستمتعا. أنظر من نافذة المطبخ التي تطل على سلالم العمارة الكبيرة: وأتساءل عن تلك الفتيات، ملابسهن عادية وسحناتهن كذلك، يطرقن ابواب الشقق المفروشة، يدخلن، يبقين نصف ساعة ثم يخرجن ليطرقن باباً آخر ويبقين ايضا حوالي نصف الساعة. يقول وهو حانق أن الصيف قد أقبل والعمارة التي كان يسكنها اليونانيون والطليان أصبحت معقلا للشقق المفروشة التي يملكها ضباط الجيش والبوليس، وأن هذا هو موسم سياحة الرجال العرب والخليجيين ليستمتعوا بالقاهرة. أشعر ان هذا هو أول انتهاك للبراءة أتعرض له. أعرف جيدا بالتأكيد أن ماما لم تر هذا في حياتها أبدا، بل ولم يخطر ببالها أنه فعلا موجود كما يظهر في أفلام الواقعية المصرية. وتقول التي يرسمها بالمنديل: سأذهب "لأخرج الفرخة من الثلاجة"، وأنا أتساءل ببراءة، اي فرخة؟!، ولماذا لم تخرجها قبل ان تأتي ولماذا تفعل هذا كل يوم وأنت ترسمها؟!، وهو يبتسم ولا يرد، فقط ينظف فراشي الرسم وهو ينتظرها أن تعود، يأخذ شيئا من الثلاجة يأكله، أو يذهب للحمام ويطلب مني أن أفتح لها الباب إن عادت قبل أن يخرج من الحمام. "ربنا لا يغيّر عليك" ، لا أفهم وأسأله فلا يفسر ولكن يقول: هذه دعوة جيدة من امرأة مجربة، فأشعر أني اقل منها. نغادر المبنى وشغالات أو "نسوان" الشقق المفروشة كما يسميهن يشيعننا عند البوابة. لا ينظرن لي ولكن يحيين الأستاذ كصديق قديم يشفقن عليه مما فعله بنفسه.



fb/mashro3pdf

وتستمر الحكايات وتتغير طبيعتها مع الزمن. حكاية تلك التي كانت الأعظم موهبة من كل من تتلمذوا على يديه. وأتردد أنا: هل يحبها؟ هل يحب انبهارها به؟ هل يحب موهبتها؟ هل لم يعد يحبني؟ هل أحبني أصلاً؟ حتى أتت حكاية السرقة الكبيرة من مرسمه والتي ظهر فيها كثيراً من المخبوء وانتهت باعترافي له ولنفسي أنه فعلا قادر على إيلامي بلا أدنى شفقة أو رحمة وهو ما لم أصدق أو أتوقع أنه يمكن أبدا أن يحدث. إلا أني سرعان ما نسيت أو تناسيت القصة كلها عندما اختفت الموهوبة من حياتنا. وحكاية الفتاة الخليجية عازفة الموسيقى التي انبهر بشبهها بصور فتيات جوجان فرسمها متخليا عن ألوانه الرمادية، بقميصها ذي اللون الفاقع وشعرها المنسدل فاحم السواد. ثم تسافر وتغيب ويأتي هو لي شاكيا من غيابها وأنا أضع نفسي فوق كل شيء وأناقش معه الأمر كصديق عاقل يثق به. ويسألني أحدهم: لماذا لا أغار؟! .. "لابد أن تشعري بالغيرة، ولابد أن تظهري غيرتك! فزوجتي مثلا تود أن تضعني في قفص من ذهب تملك مفتاحه!" وأنا أرد "في كرة السلة اتقنت التصويب، وفقط. لا أقاتل لأحصل على الكرة ولا أبذل جهدا للاحتفاظ بها". ولكن هل كنت فعلا أغار ولا أجسر على إظهار غيرتي؟ هل كان التحكم في النفس هو الثمن الذي كان يجب أن أؤديه ليسمح لي أن أعيش في ظله؟!، أم كان ثمنا لكبرياء باطل؟ كيف كان صبري بلا حدود، أغرف البحر بملعقة: واحدة تلو أخرى. وهو: هل كان وهو يرسم كل هؤلاء النساء، بانفصال وحيدة، يستشعر الحاجة إلى تأليه حلمه بالمرأة بعيدا عن أي واقع؟ أو ربما آمن بالفكرة في قصة "دوريان جراي" لأوسكار وايلد" والتي ما فتئ يتكلم عنها: فكرة أن التحقق في الحب ربما يقضي على القدرة على الإبداع، على الفن.

كنت في بداية معرفتي به اسكت تماما في حضرته. ماذا يمكن أن أقول ليوازي تلك الأشياء المهمة التي تخرج من فمه طول الوقت، تلك الذبذبات السريعة التي تحيط به. ثم أصبحت أحب أن أحدثه عن كل شيء.



fb/mashro3pdf

كنت أفكر أغلب الوقت عندما لا نكون معا في ماذا سأحكي له. ثم تعلمت أن أنتقي، لأتجنب تعليقات قاسية، يدهشني فيها أنه لم يهتم بمراعاة مشاعري!. ثم لم يعد الكلام ممكنا. "لا أنت تسمع، ولا أنا أود أن أقول لك". أسعى لأتجنب أحكامه، وأتجنب أن تستعمل قصصي ضدي. لم يعد ممكنا أن أقول له، ولكن لم ينتهي الاحتياج. (أجلس على ذيل السرير وأنت مستلقٍ تقرأ، أو وقعت في النوم ومازال الكتاب في يدك والنظارة على وجهك، أنظر لك، وأتكلم معك، دون صوت). كيف شوه حكاياتي، ليهز ثقتي في نفسي ويسلبني أية أسلحة. تفسيرات وحكايات ودلائل تاريخية واجتماعية، ينتقيها بخبث وعزل عن السياق، حتى تخدم الغرض. كيف خلصت نفسي بعدها، بصعوبة من خيوط عنكبوت نسجت على مهل. لا أنكر مسئوليتي فقد كنت أصدقه، أؤمن به، وأشك في كل ما أرادني أن أشك فيه. نعم، تعلمت منه الشك والرؤية النقدية، ولكن ألا يساهم هذا الشك الدائم في صبغ الحياة بالمرارة، مرارة لا أطيقها. كيف جعلني أخجل أحيانا مما كان يجب أن يكون مصدر فخري. "شخصية أمك قوية، كان الواجب أن تكون هي العمدة"، "فرحانه بطولك!" يقولها بسخرية فأخجل من ما كان لابد أن يكون مصدر فخر. لم أعد الآن أتصور أو أتذكر نفسي معه في لحظات حميمة، إلا أني أتذكر "ثقيلة، ثقيلة" يقولها في أدق اللحظات، فأسقط من عل. يقولها ويبعدني وعلى وجهه تلك الابتسامة التي لم أستطع تفسيرها أبداً. أراه يرتبك من إقبالي عليه، على الحب، وعلى الحياة. ربما يكون قد صدم من إحساسي بالحرية، جسدي حر، وفكري حر. إلا أنني أعتقد أن صدمتي أنا كانت الأكبر، لأنه، هو بالذات، لم يفهم، لم يقدر. هو فنان وإنسان مميز، وإلا فلماذا أحببته هو بالذات إن لم يكن يفهم ويشعر بقيمة ما قد لا يقدّره غيره، وخاصة في مجتمعاتنا الشرقية، حيث يتشوه كثير من النساء والرجال منذ الميلاد. لم أتخيل أن سيواجهني معه ذلك الفالق الضخم بين العام والخاص. قال لي : "نظرتي لك تغيرت منذ أول يوم بعد الزواج. إن تمردك على أهلك يدعو للإعجاب ولكن لا أحب أن أجد نفسي



fb/mashro3pdf

في الموقف عندما تتمردين علي أنا". فأقول لنفسي "لو أنه فهم أسباب تمردي على أهلي فلماذا يفكر أني سأتمرد عليه هو؟!".

(أصبح بالنسبة لي كل ما يفعله أهلي مملا، عاديا، وليس أصيلا، مقارنة به وما يفكر فيه وما يفعله. كونوا وفدا من كبار العائلة وذهبوا يزورونه، لم أعرف ماذا دار من حوار بالضبط ولكن سمعت همسا أنه قال أن لديه الآن كامل السيطرة، وانه لو أراد لاستطاع أن يعوّد تلك الطفلة على عادات جنسية تجعلها ترتمي تحت أقدامه. قالوا إنه خطير، وأنهم قلقون منه، وأنهم لم يقابلوا مثله أبدا في حياتهم. شعرت بالانتصار، عليهم، هؤلاء العاديين! يأتي أحدهم ليتكلم معي ملمحا، فأرد بجرأة مستترة فهمها هو، وإن لم يتوقعها. يقف بطوله الفارع ويستدير خارجا من الحجرة. لم يعد والدايّ بعدها يعارضان صراحة، وأبي يقول: "لويت ذراعي").

ويردد هو، مرارا وتكرارا: أكبر غلطة أنك تزوجتني... فالفنان لا يتساهل ولا يقبل الحلول الوسط. كلما مر عليك الوقت هنا ستجدين نفسك تتغيرين، لا تقبلين سخافات الناس العاديين حولك. شروطك ستصبح أصعب... أقول: هذا هو ما حدث، ولكن أدرك الآن خطأ أن أتبنى وأتأثر بك فأفرض هذه الشروط على نفسي وأقيّم الناس والعلاقات بنفس مقاييسك. الخطأ أن أقلدك دون أن يكون لي ثقافتك التي تسندك وتبرر لك، ولا قوتك الداخلية التي جعلتك تستمر حتى الآن. وأقول لها وأنا أبكي: ينتقدني طول الوقت ولا يعجبه شيء، وهي تقول: حتى لا يأخذك الدلال عليه، هذه نصائح العواجيز أصدقائه في جروبي. بالتأكيد لم يتعلم هذا من عائلته. وأقول لها بين دموعي: ولم يتعلم أيضا أن يقول مع كل مشكلة: اذهبي لأهلك، أو: أنت من تزوجتني، أو: لا حل إلا الطلاق!. كنت أرد عليه في تأثر شديد أن هذا كلام لا أحب أن أسمعه أبدا! "أليس زواجا كاثوليكيا كما كررت أنت نفسك كثيرا؟!"، فيبتسم في انتصار. ويسأل كل يوم: "ولاءك لي أم لأهلك؟"، وأنا أدهش وأكرر: "ما هي قصة الولاء هذه التي لم أسمع



fb/mashro3pdf

بها من قبل؟! كنت أفكر أنك أنت أيضا أصبحت تعتقد مثلي أنها علاقة دم لا تنفصم، كما اعتبرها أنا!"، فيبتسم في راحة دون أن يوافق أو يعلق. الشرع يقول: طاعة الزوج من طاعة الرب، الشرع يقول أن حق المرأة على زوجها مرة واحدة بعد الزواج، الشرع يقول الست العيانة تروح لأهلها. وأنا أقول: "لو كنت فكرت انك ستقول يوما "الشرع" ما تزوجتك. ألم تقل أنك يساري يدافع عن مبادئ كذا وكذا؟".

ما هو هدف الحياة، ولماذا نعيش؟ صديقتي اليونانية تقول أن الاستمتاع بالحياة هو الهدف، أما الفنان فيؤمن بهدف النحلة أو النملة. لا أعتقد الآن أن أيا منهما ملك الإجابة الصحيحة. فهل حققت هي هدف الحياة؟! وماذا عن تعاسة الفنان المقيمة رغم كل ما حقق؟!

الشطارة هي القدرة على التعبير عن النفس. أوصلتني الحياة وتجاربها لهذه النتيجة. فهل أنا شاطرة؟. أذهب للسوق لأنتقي خضاري بنفسي. نوع من التعبير عن النفس. جربت أن أتعلم العزف على العود، نوع من التعبير عن النفس. وها هو الأستاذ في المعهد الحر يقول لي: "الآن حفظت كل المقرر في دراسة العود، دواليب وسماعيات وأدوار. تعزفينها بإحكام، تماما كما في الكتاب. الآن أود أن تدربي نفسك على الإحساس بالموسيقى، على إضافة من داخل نفسك للأداء"، والمحلل النفسي يخبط المكتب بيده فتقفز منفضة السجائر المليئة ويتناثر بعض الرماد قائلا: "غير معقول، أقال هذا فعلا؟ لقد وضع يده على أساس المشكلة...". وضع النظام لمطبخي أيضا نوع من التعبير عن النفس. لم أحب كثيرا أن تتدخل أيد كثيرة في مطبخي، مملكتي. مملكتي الوحيدة في ذلك الوقت. كانت طريقتي في التحكم في أفكاري المضطربة أن أضع نظاما لحوض المطبخ، فأركن الأطباق فوق بعضها، والأكواب على جنب، وأنقع الملاعق والشوك في واحدة من الأواني. ثم ألبس الجوانتي المطاطي وأنزل الصفاية لوضعها على الرخامة، ثم ابدأ، فتنساب أفكاري، واحدة بعد أخرى، ورأسي مطأطيء ينظر لما



fb/mashro3pdf

أفعل. هي أيضا طريقة لراحة الفكر. بمجرد أن أبدأ أركز فقط في تلك المواعين التي أمامي. من استعمل هذا الكوب الملون ومتى، هذه الآنية كانت صغيرة على الفاصوليا فدلقت ما بها لواحدة أكبر، وبقيت تلك لتشهد على سوء التقدير المبدئي. كان وضع الأشياء التي غسلتها في الصفاية يشبه التدريب الموسيقي. أولا الأكواب تغسل وتوضع مقلوبة ومعلقة على الجوانب، أنظر للمعانهم والماء يتساقط منهم بفخر وأنا أجري يدي باللوفة على مايتلوهم، وهو غالبا الأطباق، الكبيرة أولا ثم الصغيرة. وهكذا حتى ينتهي الحوض فادعكه بقليل من "الفيم" وانظر إليه معجبة بإنجاز حياتي اليومي. أما وضع الأشياء المغسولة بعد تركها لتجف في أماكنها فله طقوس أخرى، طقوس تشبه طقوس تنظيم نشر الملابس المغسولة بنظام معين على حبال الغسيل، بمشابك معينة.

تعلمت الطبخ بحماس وأنا أفكر في أولادي الكثيرين الذين سأنجبهم، لا أحب أن يشعروا بالحرمان أو الدهشة في بيوت الأقارب والأصدقاء. الأكل أيضا لمْ يعد يقتصر على طقس الطبخ فقط عندما قال لنا بابا أننا يجب نجلس مع أولادنا وأن نأكل معهم حتى يتعلموا. يتعلمون طريقة الأكل، الاستمتاع به. يتعلمون أن الأكل طقس اجتماعي لا تتحقق متعته إذا تعودوا أن نطعمهم ثم نأكل نحن بعدهم. أصبح الطقس أن نضع المائدة، نأكل ونضحك ثم تستغرق كل منا في كتابها المفتوح أمامها. ثم تحكي كل منا للأخرى: ماذا حدث في كتابها.

يقول الدلاي لاما: تعلم القواعد جيدا حتى تستطيع بعد ذلك أن تخالفها. وهكذا بعد أن تعلمت الأصول، وشعرت أني نلت شهادة ما عندما شهد لي بابا على أكلة كوارع، عاد لي طبعي فتمردت. كان أحيانا ما يتملكني خوف أن تكتشفني مرجعياتي: الفنان في الطبخ ، وماما في الخياطة. ثم بدأت أشعر بالحرية في كلا المجالين. في الخياطة استعملت الدبابيس بدلا من السراجة، وعندما رأت ماما الفستان الذي صنعته سلمت



fb/mashro3pdf

في الحال لحقي في اختراع طريقة تخرج على الأصول التي تعلّمتها هي في مدرسة "بروفيلي" في أول الخمسينيات وعلمتها هي لنا، طالما حققت لي السرعة والنتيجة المرجوة. أما الطبخ وتقييم الفنان فله قصة أخرى. ("ما أهم شيء في الحياة؟" طرح السؤال الكاتب المشهور. دار السؤال على كل الجالسين على مائدة العشاء في بيتنا. أجاب صديق الفنان العجوز الذي كان نموذجا لكوزموبوليتانية القاهرة خلال النصف الأول من القرن العشرين، فأجداده ووالداه مابين إيطالي ويوناني ومصري وسوري وفرنسي وبلقاني، أجاب أن الحب هو أهم ما في الحياة، بينما أكد الفنان في لهجة مابين الجد والمزاح أن أهم ما في الحياة هو الأكل). ويتكرر المشهد: ما العشاء؟ فأرد بتلقائية "لقمة وجبنة". فيرد حانقا "لقمة وجبنة ده عندكم هناك، في وجه بحري، عند الشوام". كان حظا تعسا عندما منع السادات سنة ١٩٨٠ بيع اللحمة شهرا. كنت عروسا جديدة لا خبرة لي ووقعت في حيص بيص فاضطررت لتعلم كيف أصنع من علب البولوبيف المحفوظ أطباق الكفتة حتى يرضى، فلا يرضى. كنت أضع الطعام أمامه كل يوم وأنتظر رأيه في انكسار وأتساءل لماذا لا يحب طعامي، رغم أني أبذل فيه الجهد والفكر والوقت. يصف أكلي بالكيمياء، لا "نفس" فيه ولا شيء يميزه. ثم مرض فكان علي أن أتعدى الأصول، أصوله التي علمني إياها. أخترع وأبتكر حتى يأكل ولا يُحرم. مسقعة بدون تحمير الباذنجان، وهو يأكل، ملعقة وراء الأخرى، ينتقد يشكو ويسب، حتى ينهي أغلب الصينية، فأنظر له بانتصار فيحيد بعينيه ويداري بالمكابرة فيقول: "ممكن تسميها أي حاجة ثانية غير مسقعة". ثم حدث التحول فأصبحت أنا أحب أكلي، أحبه أكثر من أي أكل. أحبه أكثر من أكل المطاعم الفاخرة، من أكل أسرته، أحب أكلي أكثر حتى من أكل أمي. فأقول له "خلاص لا تحاول إصلاحي، أنا أحب أكلي، وبالتأكيد لن أصلح ما أصبحت أعتقد أنه أحسن حاجة".



fb/mashro3pdf

في بداية معرفتنا كتبت له يوما عندما لم اجده كلمات لها إيقاع بسيط، عندما رآني بعدها، قال وهو لا ينظر لي مباشرة منشغلا بأوراق في يده: "ان كنت تعتقدين ان هذا شعر، فهذا ليس بشعر"، فأقول معتذرة: "أعرف، ولكن فقط اردت التعبير عن مشاعري". أخفيت عنه بعدها كل ما أكتب خشية أن تقع تحت نظر الفنان العظيم. كان التأثر برأيه يزيد ويتحول للمبالغة ويغير طبيعة انطلاق تصرفاتي. كانت الفنانتان الشابتان في ذلك الوقت تتدربان معا على الرسم في مرسمه. عندما غادرتا كانت أعواد الخرشوف الجاف التي رسماها مازالت تنتصب مشرعة في آنية نحاسية ضخمة. أخذت ورقة صغيرة على استحياء وخططت بالقلم الرصاص. نظر من فوق كتفي بطرف عينه ولم يعلق. كنت أرتعش خشية. سألت بترقب خاشع: "وحش؟". قال بلا مبالاة: "ولا وحش ولا كويس"، قلت: "يعني إيه؟"، قال: "يعني ولا حاجة". لم أمسك قلما في يدي بعدها لأرسم، حتى بدأت العمل فأخذت ارسم للأطفال رسوما كبيرة على اللوح وأنا أحكي وأمرح، فقط أمام الأطفال. كانت اللحظات التي تسبق أن ينزل متوجها لمرسمه لحظات عصبية، يبحث عن أي هدف يفرغ فيه شحنته. إلا أني لم أتوقف أبدا عن الدهشة عندما أكون أنا وما أفعله هدف الهجوم. "يا فرحتي بك، قاعدة تقرئي عالصبح؟، بدل ما تقومي لتعملي شيئا للبيت!" وهكذا يتحول طقس عادي كنت أعتقد أنه سيقبله كمثقف وفنان إلى محل انتقاد آخذه أنا على محمل الجد، لماذا؟ لأني أريده أن يرضى عني. "إنت عملتيلي إيه النهاردة؟!" سؤاله اليومي بعد أن يعود. ماذا قدمت له هو، شخصيا، في يومي هذا؟!. كأن هذا هو الانجاز الوحيد المعترف به. وهكذا تراكم إحباطي أمام لوم إله لا يرضى. (أبكي، استحلفه. لماذا يفعل بي كل ذلك؟ لماذا يريد أن يحطم ثقتي في نفسي، خاصة عندما يعرف بقيمة رأيه عندي!. أنا، الشاطرة، أقف في ذلة على بابه، أنتظر دورا، دورا ما يمنحني قيمتي. أتسولها منه "قل لي ولو حاجة واحدة أنا كويسة فيها". لا يرد ولون



fb/mashro3pdf

ابتسامته يقتلني. وعندما اتصل أحد الكتاب ليقول لي في معرض الحديث أنه سمع أن الفنان تزوج منذ سنوات بامرأة جميلة وفاخرة! كررت: "جميلة وفاخرة؟!"، وهو يضحك على طرف الاتصال الآخر ويعتذر كونه صعيدي لا يعرف اللف والدوران. هل غيرت نفسي لأرضيه إلى هذه الدرجة؟ هل هذه صورتي؟ وأين ذهبت الشاطرة؟. وتسألني بصوتها الحاد: "أين مشروعك الخاص يا شاطرة؟!" ذكرتني باليوم الذي أتت فيه تلك الفنانة لمرسمه بعد موت زوجها المفاجئ، تتقلب على السرير كلبؤة محمومة وتقول لي بصوت مبحوح كفحيح: "ليه قاعدة هنا كده، روحي شوفي حياتك".

متى بدأت علاقتنا في التحلل، وهل حاولت يا شاطرة بشكل كاف أن تنقذي ما يمكن إنقاذه؟!. لماذا أحمل نفسي مسئولية أكثر من اللازم في إنقاذ الحب، إنقاذ العلاقة. "يا ستي أنت لست المنقذة، لا تعذبي نفسك أكثر من ذلك". وماذا كان دوره هو لإقناعي بالاستمرار في تكريس نفسي له بذلك الشكل الذي يطالب به طول الوقت. كنت أتبدل، وأبتعد. أدركت أن لديه قدرة على إغماض عينيه عن الواقع الذي لا يحبه، رغم اتهامه لأغلب الناس بأنهم هم من يفعلون ذلك. لم يكن يريد أن يفهم أن شيئا ما يتغير، إذ يجب أن أظل أنا كما أنا مهما كانت معاملته لي، وإلا فأنا أهدد كينونته كفنان وهو يجب أن يدافع عن نفسه ضد اقل تهديد!. هل كانت هناك لحظة عرفت فيها أنه لم يعد هو ذلك الكيان الذي يبدو أني كونته في خيالي؟!. كم كافحت حتى لا ينكسر الوهم. قال لي "كل أوراقي مكشوفة. هل كذبت أبدا عليك؟". بالفعل، هو لم يكذب ابدا. هذه هي الحقيقة. لم يقل لي "أحبك" أبدا. إلا أن إعجابي بالوهم تفوق على إعجابي بالواقع. إستوعبتني أوهامي تماما، ولمدة طويلة.

أسمعه يتحدث في التليفون. أحاول استرجاع كيف كان صوته يلمسني، يدخلني. صوته في التليفون الآن يتخبط بالجدران حوله، ككرة



fb/mashro3pdf

فقدت مرونتها. أرى الطريقة التي يعد بها نقوده وينظمها، بعد أن كانت "كبشة" تملأ جيبه الكبير العميق الذي يميز بنطلوناته المصنوعة خصيصا له بالطريقة التقليدية. عندما أراه، في مدخل العمارة، أو في الشارع، مع الصغيرة، تعامله بتأليه وحدب ورعاية، أدرك أن هذا، بالنسبة له كان كل الدور المطلوب مني، بالإضافة - في البداية- لدور آخر يملك صبغة حسية. انتهى دوري عندما أدركت أن هذا ليس هو كل ما أريد وعندما أدرك هو أني لن أتركه بعد الآن يحاول تغييري أو يعدل مساري كما تركته يفعل لسنوات. متى اعترفت لنفسي بذلك الذي حدث داخلي، بما رأيت وفهمت، متى أدركت في قرارة نفسي أن كل شيء قد انتهى. أنه آن أوان الاعتراف بموت الأشياء. نحزن نعم، ولكن لابد أن تتوقف الأوهام. نتوقف عن محاولة إحياء الأموات. نقبل أن نتركهم في هدوء الأبدية. أقول لنفسي: بالتأكيد هناك قيمة للماضي، إذ أتى بك لحيث أنت الآن. لا أريد أن أشعر أني ضيعت السنوات. أني قد خسرت. أكثر من عشرين عاما. نهر المشاعر، خبراتي، مفرحة وحزينة. لقد دفعت ثمن كل شيء، من أعصابي ومن صبري. متى أتت اللحظة التي تقبلت فيها فكرة الانفصال. أظنها لم تأت أبدا ونحن معا، أتت بعد أن انفصلنا بشكل قسري. سنوات وهو يتكلم عن الانفصال عند أقل غلطة، جَدا أو هزلا لا فرق الآن. ها قد أتى. أردت أن أقيم مأتما، حدادا، دون ميت، ثم أبدأ من جديد. أبكي على يقيني الذي كان أن هذا الحب، أن هذه العلاقة، التي سميتها علاقة دم، ستبقى للأبد، للنهاية. أبكي على ذلك "الأبد"، الذي توهمت وجوده. أراقبه في دهشة: كم تبدل؟! ثم أفيق لنفسي: كم تبدلت أنا؟!

ويهمس سعد الله ونوس في قلبي وأنا أقرأ هوامشه الثقافية. أقرأها وأقول لنفسي كما يقول. أنت كنت موشومة به، تجربته وأرائه، عقده ومقاييسه. كنت تشكلين نفسك وفقا لنموذج ما يحبه ويفضله. اصطادك في



fb/mashro3pdf

فخ ماكر. نجح أن يصبح مرآتك، تنظرين لنفسك من خلاله، وأن يحفر في أعماقك شعورا مستمرا بالنقص حياله. استمرأ مذاق السيطرة، وسيكون دائما ضدك سواء كانت هناك أسباب أم لا، وأنت تواجهينه على الأرض التي يختار. في البداية جرك لمناقشات عقيمة عن واجبات الزوجة، وعطاءها الذي لابد أن يكون بلا حدود حتى تستحق الحب. دخلت في دوامات عقده الخاصة. كان عليك أن تثبتي أنك أحسن من أي منهن وأنك الأولي بأن يرتبط بك. فرض عليك، والحق يقال أنك استجبت، أن تواجهي الحياة بدور واحد من أدوار الحياة المختلفة، دور من خلاله. همشت الأدوار الأخرى كلها، همشت حتى علاقتك بذاتك. إن المعركة التي بدأها كانت معركة للقضاء عليك كامرأة وكإنسان ليس على نسقه، نسقه الذي هو أول من يكرهه. إذ يكره نفسه، قبل أن يكره الآخرين. فيهرب لأوهام مثالية صنعتها عقده وموروثه الاجتماعي. أوهام تغلبت عليه عندما أقلع بعد أن تعب عن تعرية ومحاسبة النفس للتطهير.

عندما دخل الحمام في ذلك الصباح، كنت فيه ألقي بالماء على وجهي لأفيق. رفعت رأسي في المرآة من فوق الحوض ونظرت: من ذلك الرجل القصير المحني الرأس والأكتاف الذي دخل لتوه؟!!. أعطاني ظهره وانساب صوت بوله. كنا تعودنا في السابق على أن ندخل الحمام كلنا معا، نتحدث ونضحك ونحكي الحكايات، ولكن ذلك كان. كان عندما كنا. أدركت فجأة كم أصبحنا غريبين. خرجت بسرعة من الحمام وجلست وراء الباب المغلق في حجرتي، أحاول تذكر لحظة حب، أو ألفة، أو حتى أستحضر موقفا مشابها في الحمام، وكلنا معا .. لم استطع. وأجد نفسي لا أخبره، بل وأجد نفسي أشعر بالراحة لأنه أخذ أمر بقائي (أو رحيلي) واقعا، وكأنه هو الذي اتخذ هذا القرار.

لم تكن البداية ممهورة بعقد، كما أن النهاية أتت سابقة لقرار إنهاء العقد.



fb/mashro3pdf

ماذا أريد أن أقول: أني ظُلمت، أني ظلمته. أني عبيطة، أني مخادعة. خدعت نفسي قبل أن أخدع أي حد آخر. هل كنت مخلصة. وهــل أعتبــر وجود عين، جزء مني، خارجي، تراقب كل ما يحدث وتسجله، نوعا مــن الخيانة؟!. هل كانت تجربة صادقة، تلك التي قلت أني عشتها بكل كياني؟!. هو كان وسيظل فنانا كبيرا، وأنت، ما أنت؟ هل تعتبرين نفسك شاطرة؟!.

fb/mashro3pdf

# ٢

عندما وصلنا مدينتنا الصغيرة في قلب الدلتا كان الليل قد حل. كنت في المقعد الخلفي مع الصغيرين، في نفس السن تقريبا، يتكومان على فخذي وعلى بعضهما، غاطسين في نوم عميق. أختي في المقعد الأمامي تقود السيارة وزوجها جوارها. كنت أتأمل مجرى النيل المتسع في مدخل المدينة. تذكرت يوم غادرت بعد ثلاث أيام العزاء بعد وفاة بابا. نظرت يومها للنيل وقلت لنفسي "بعد بابا، هذه المدينة لن تعني لي نفس الشيء بعد الآن ". غص حلقي وتنهدت.

"أرجوك ، أحتاجك هذه المرة جواري". جالسا على الفوتيل الضخم المفروش بسجادة ذات زخارف فارسية دقيقة رافعا إحدى ساقيه باسترخاء على مسنده كما اعتاد بعد عودته من المرسم في المساء. نظر في اتجاه آخر مفتعلا عدم الانتباه. قلت بصوت منخفض وبالحاح يائس "وهل طلبت منك أبدا من قبل أن تأتي معي في عيد أو أي مناسبة؟ ولكن هذه المرة لها خصوصيتها". رد بلا اهتمام وهو يداعب بأصابعه شراشيب برنيطة الأباجورة المنيرة جواره: "ما الخصوصية فيها؟" همست وأنا أنظر للأرض أمام قدمي "أول عيد بعد بابا...". اختنق صوتي بمحاولة كتم دموعي التي أعرف انه لا يحب أن يراها كما أخبرني بعد وفاة بابا، إذ تذكره بموته هو. لم يرد ولم ينظر ناحيتي، رفع سماعة التليفون ورفع



fb/mashro3pdf

عينيه للسقف باحثا في ذاكرته عمن يمكن أن يتحدث معه حتى ينهي المناقشة العقيمة كما سماها. نظرت له طويلا وهو منشغل بقرص التليفون أمامه، ثم قمت للمطبخ دون أن أزيد حرفا، لأعد طعام عشاءه بعد أن استعجله بحركة من يده أفهمها. لم أُعد المحاولة، إذ شعرت أن لا فائدة من فتح الموضوع مرة أخرى.

(بعد جنازة الأب، وقف أمامها ووجهه في الأرض يتساءل في توجس عن المطلوب منه. قالت له: اذهب، لا نريد منك شيئا. نحن فخورون بك كفنان).

داعبت صدرهما ورأسهما لأحاول إيقاظهما بهدوء حتى لا أفزعهما : "وصلنا يا أولاد، حمدا على السلامة ."فتحا أعينهما المحمرة واعتدلا مبتهجين، نظرا حولهما عبر زجاج نافذة السيارة .انطلقا غاضبين في نفس واحد" :تضحكون علينا، لم نصل بعد ."ضحكنا أنا وأختي إذ نعرف ما يعنيان، فالمدينة بالنسبة لهما ليست إلا العمارة العتيقة التي يقع بيت العائلة في أول طابق منها .تركناهما يحاولان النوم مرة أخرى حتى وصلنا "للمدينة "التي تعنيهما بعد قليل .ونحن نصعد سلم العمارة القديمة الرخامي الواسع حاملين أمتعتنا حاولت استعارة بهجة الصغيرين اللذين انطلقا في زيطة يتسابقان قافزين السلالم، ولكن ظلام المدخل الذي يذكر بالإهمال الذي أصبح سمة العمارة العريقة رغم شموخها، وصور بابا التي تواجهني بمجرد دخول الشقة، وضعتها ماما في كل مكان يمكن أن تقع عليه العين، لا تساعد في محاولة البهجة، إذ تذكر بحدة ودون رحمة بالفقد، بأن ذلك الكيان الهادئ الحبيب ما عاد هنا، فقط صوره بمقاسات وأطر مختلفة.

لم أكن وحدي في افتعال البهجة ، فالجميع يحاول ، فغداً العيد، والصغار ليس لهم ذنب كما اعتاد بابا أن يقول. عندما توفيت جدتي، والدته. كانت المرة الأولى التي أري فيها دموع بابا عندما دخلت جارتنا اليونانية العجوز بوجه جاد، مادة يدها تشد على يد أبي الذي ترك ربط



fb/mashro3pdf

الكارفات الأسود استعدادا للسفر للجنازة. انهار ساعتها باكيا لدهشتنا جميعا. توجسنا وقتها أنه عند عودته من العزاء في القاهرة سيحيل البيت لمأتم دائم كما رأينا في تجربتنا الوحيدة مع الموت عندما توفي جد جيراننا. إلا أن بابا بمجرد وصوله من السفر في المساء تناول الراديو فبحث عن محطة أم كلثوم وعندما لم تعجبه الأغنية وضعه جانبا وأدار التليفزيون فتحلقنا جميعا حوله وقد تنفسنا الصعداء. الحياة تستمر. كان يقولها بتصرفاته دون فلسفة أو كلام كبير. والآن، وهو ما عاد وسطنا، نحاول نحن جميعا تنفيذ مبدأ (الحياة تستمر) دون أن نقولها، وماما أولنا، تشرف على أماكن نومنا، وأين نضع أمتعتنا، وماذا سيتعشى الأولاد. تتحرك وتتحرك، تروح وتجيء، عيناها المرغرغتان دائما تفضحان زيف الابتسامة الكبيرة التي وضعتها على ثغرها توجهها للجميع.

في سريري، وحدي، أستشعر البطانية التي فرشت فوق الملاءة تحتي. البرد شديد يدخل العظام، هكذا نصف الجو هنا في هذه المدينة الصغيرة في الدلتا مقارنة بالقاهرة. في القاهرة أبدا لا أضع في بيتي البطانية لتلامس الجسم. هنا أتذكر عادات الطفولة. رفضت أن تنام جواري. طبعا فضلت أن تنضم لباقي الأولاد على المراتب المفروشة لهم في الصالون. أحاول الاستدفاء بالأغطية، أنظر لسقف الحجرة المرتفع، الزخرفة الجصية البديعة في منتصف السقف ينيرها الضوء البسيط المتسرب من الصالة عبر شراعة باب الحجرة العالي. وحدي في السرير الواسع وفي هدوء الليل مرت ذكريات يوم وفاة بابا كشريط.

الليلة الأخيرة معه قضيناها أنا وأخي معه في المستشفى. كانت نوبتنا في المبيت معه هناك ومع ماما. كان هادئا، ولكني شعرت بشكل غامض أنه ينسحب. جالسا، إذ كان الاستلقاء يجعل نفسه يضيق، مغلقا عينيه، تماما. لم يفتحها إلا مرة واحدة في أول الليلة عندما ارتفع صوتي قليلا راجية إياه أن يستجيب لمحاولاتنا لشرب الماء حتى لا تتعب الكلى وندخل



fb/mashro3pdf

في مضاعفات من نوع آخر. فتح عينيه فجأة ونظر إلي بحزم معاتبا، دون أن يبتسم، ولم ينطق بكلمة. تهاويت أمامه على المقعد خجلة من نفسي، فابتسم بحنان، وأسبل عينيه مرة أخرى ولم يفتحهما ثانية أبدا. يجيب بهزة من رأسه على أسئلتنا، يشير بيده عندما يريد التبول، يقبلنا عندما نلح ونضع خدنا أمام فمه، يصبر على إلحافنا عليه بكرم آسر، كل ذلك وهو مسبل العينين. فما يواجهه الآن هو قضية شخصية لا يمكن لأحد أن يشاركه فيها. عندما سقطت أمي في النوم من إرهاق الليالي السابقة دون نوم تأملتها، وتذكرت عندما طلبت منه طبيبته أن يدخل قسم العناية المركزة في المستشفى الجامعي وهو المكان الوحيد في المدينة الصغيرة الذي يمكن أن يجد فيه أفضل رعاية تناسب حالة قلبه الضعيف المتدهورة، فسأل بابا إن كانت ماما تستطيع مرافقته هناك. وعندما أجابت الطبيبة بالنفي أشار بيده بجسم "حتى لو أنها الجنة، فلن أدخلها دون هذه الست". فران الصمت وخفض كل من كان يقف في الحجرة رأسه. تصرفت ماما بايجابيتها المعتادة والمتوقعة، فطلبت الإذن بتأهيل غرفة المستشفى بطريقتها حتى يمكن أن ينتقل إليها. ذهبت فورا مع خادماتها هناك. صبّنت الحوائط والأرضية والشباك والطاولات والسرير المعدني وفرشته بملاءات ووسائد وأغطية من المنزل. ثم عادت للمنزل وساعدت في نقله للمستشفى كملك متوج، كما أشعرته دائما طول حياتهما معا. بعد الفجر حاولت إيقاظها بهدوء. كنت أشعر بقوة أنه ينسحب، مسندا رأسه، سابلا عيناه، زاما شفتيه، وقد ارتخت يداه جواره في هدوء منذر: "ماما ... ماما... هل تقرئين لبابا بعض القرآن".

اتفقنا جميعا أن تتم الجنازة بسرعة فلا يبيت الليلة، كعادة الريفيين الذين فضل معاشرتهم طوال سنواته الأخيرة. عادوا به من المستشفى محمولا على أعناق الشباب من أبناء أصدقائه، ملفوفا بملاءة. أغطي فمي بكفيّ. أجلس في الصالة عيناي معلقة بباب الغرفة التي أرقدوه بها وزوج



fb/mashro3pdf

أختي يصمم على حمل أطباق الماء الدافئ بنفسه يدخل بها بهدوء وحذر حجرة الغُسل ويخرج. (ندبة على ظهره الشاهب البياض تبدأ من كتفه وتنتهي بعد الوسط، أثر واضح لعملية جراحية تبدو رهيبة، نلحف في سؤاله عنها ونحن أطفال. نحيط به نتقافز حوله وهو يقف بلا حركة تذكر، سعيدا كطفل بمياه البحر. يتجاهل أسئلتنا ويغير الموضوع أو يهدد مدعيا أنه سيغطس غطسته الأخيرة ليخرج من البحرِ ويتركنا لأننا نضايقه، فننشغل بمحاولة استبقائه معنا).

متأخرا في ذلك المساء نفسه وصل الفنان مع أحد الأقارب من القاهرة. كان يجلس مع الرجال في حجرة الإستقبال يتحدث باستعراض في موضوعات عامة يتقنها. كنت أمر في الصالة أمام الحجرة التي يجلسون بها، وجهي شاحب فوق سواد ملابسي، وقد انحنى عنقي واحمرت عيناي. أشعر كأن جبلا على كتفي. أنظر إليه عبر الحجرة. "هل تعرف أني أحتاجك؟ أريدك أن تجلس جواري ولو صامتا. هل تعرف أني احتاج يدك دافئة على ظهري؟". كنت أنتظر وقت النوم لندخل الحجرة فنصبح وحدنا. عندها بكيت على صدره راقدين في السرير، وهو يحاول أن يبعدني، يسكتني. هذا لا يصح. ماذا سيقول الآخرون الذين مازالوا في الصالة؟ قال أنه لابد أن ننام فغدا يوم طويل مع المعزين. قال أنه للأسف تناول حبة المهدئ الوحيدة التي أتى بها معه وأن الأفضل أن أخرج لأسأل أحد أخوتي عن قرص مهدئ. "لو احتضنتني؟!، لو قبلتني؟!، لو ضاجعتني؟!، فالحب علاج للكثير: للألم، للحزن العميق". لم يفعل أيا من ذلك. تناول حبة المنوم واستدار في آخر السرير لينام. لم ينس أن يشتكي أن السرير ليس مريحا، وأنه غير معتاد على البطانية أن تلامس جسده. وفي اليوم التالي غادر مع أول المغادرين للقاهرة بعد الظهر. لم أتكلم. فقط نظرت له مودعة وقد انطبقت شفتاي. لم ينظر تجاهي، غادر بسرعة كمن يهرب دفاعا عن نفسه. عرفت أننا نشعر بالخذلان فقط عندما نتوقع شيئا ما من أحد.



fb/mashro3pdf

("الآن عرفت لماذا اخترتني!، لماذا استمررنا!. لقد أتيت إليك وبئري ملآن!". كانت علاقته بتلك الصغيرة التي سبقتني تبشر بتوافق أكبر: وسط اجتماعي متقارب، خلفية قاهرية مشتركة، افتتان واضح باشتعالها وحيويتها لم يخجل أبدا أن يعبر عنه ويقارن في كل مناسبة. إلا أنها حكت كثيرا عن والدها بطل الملاكمة السابق وكيف يطيح بعنف ببناته عند أقل هفوة، ووالدتها الأنانية متجمدة المشاعر. كانت تحتاج منه، تتوقع، تنتظر، والفنان يريد "باندورا" التي تبذل دون توقع).

ليلة العيد، وحدي في فراشي، في حجرتي، التي كانت حجرتي لسنوات قبل الزواج، يا طالما حلمت به وقتها، في سنوات الحب تلك. يا طالما حلمت به ينام هنا، جواري، في حجرتي، في سريري. ربما أردت أن يعرفني أكثر من رؤيته لأماكن تاريخي. لم يحدث ذلك أبدا إلا ليلة وفاة أبي. تلك الليلة أنهت الحلم، فانتهت الأمنية ، للأبد.

لم أعرف متى سقطت في النوم، إلا أني تنبهت ساعة صلاة العيد التي انطلقت أصواتها من الجوامع القريبة. ظللت في فراشي الدافئ أشعر بالجو البارد على وجهي خارج الغطاء. أنظر لضوء الصباح الباكر الرمادي يتسرب من فتحات الشيش، الفتحات التي أحفظها جيدا. كان لون الضوء المتسرب يتغير، يصبح أدفأ مع مرور الوقت. كنت اعرف أن الجميع مستيقظون في حجراتهم ككل عيد. هل كنا ننتظر أن يدق بابا أبوابنا ثم يفتحها فجأة بعنف كالعادة "العيد، ياللا، كل سنة وانتم طيبين، إفطار العيد، ياللا، بلاش كسل، صباح الخير، العيد، ياللا يا أولاد". خرجت من سريري ، لبست الجاكت فوق قميص النوم. فكرت أن أخرج من الحجرة. ظللت أؤجل. أخذت في تطبيق الملابس التي كنا نرتديها بالأمس ووضعتها داخل الشنطة، أرتب السرير، أفتح الشيش، أتفقد الشارع، أتفقد الكتب في مكتبتي الصغيرة القديمة.



fb/mashro3pdf

عندما أتى الصغار أخيرا ودعوني للإفطار دفعت نفسي للخروج. جلسنا حول المائدة نتبادل صباح الخير وتهنئة العيد. عيوننا جميعا محمرة، نحاول إخفاء شئ عن بعضنا البعض. نتجنب ذكر اسم بابا. نتجنب ذكر ايقاظه لنا في الصباح، إذ ظهر واضحا أننا استيقظنا جميعا في الصباح الباكر إلا أننا ظللنا في حجراتنا لا نخرج منها، حتى أخذت ماما المبادرة وأمرت بتحضير الإفطار. جلسنا جميعا، واحدا بعد الآخر حول المائدة وأتت هي أخيرا مع دادا بقدرة الفول يتصاعد الدخان من تحت غطائها المائل على يد المغرفة، وطاسة البيض المقلي بالبسطرمة فنظرنا، نحن الأخوات لبعضنا ولم ننبس بالشكوى المعتادة أن رؤوس أولادنا ستظل برائحة الحلبة لأيام، فيسكتنا بابا بحركة من يده "هنا .. لا شان لكم بهم".

جلست ماما في مكانها المعتاد بعد أن وضعت اللمسات النهائية على المائدة. نظرنا جميعا لبعضنا. ها قد أتت اللحظة الصعبة التي لن يمكن تفاديها أكثر من ذلك، عندما يفتتح بابا إفطار العيد بعد أن يتأكد أن الجميع صغارا وكبارا قد وصلوا للمائدة، فيصر أن يقف ملقيا خطبة صغيرة. كنا نضحك سرا كثيرا من تلك الخطبة. لم يتميز بابا أبدا بالفصاحة، بل بالعكس، إذ كان أميل للتلجلج في كلامه. كانت خطبة يشكر فيها الجميع أنهم أتوا لقضاء العيد معه، ويحمد الله أن العيد جاء وكلنا معا وبصحة جيدة، و يذكر ما حدث للأولاد من تغيير، ويسميهم بالاسم واحدا واحدا، وهم مصغون ينتظرون في غاية الانتباه والسعادة والإحساس بالأهمية. يرحب بمن ولد حديثا، ويتمنى عودة الغائب سالما مثل عندما كانت أختي في بعثتها في الخارج. خطبة صغيرة كنا نضحك منها، نمل، ونصفها بالسذاجة، ولكن ننتظرها ونحبها. كانت واحدة من التفاصيل الصغيرة المرتبطة به والتي نذكرها بمعزة. كوب اللبن اليومي على مائدة الإفطار لبابا على الجهة اليمنى، وفنجال الشاي، الذي يجب أن يكون فنجالا وليس كوبا، وعكس المألوف يكون على شمال الطبق. نظرنا جميعا لبعضنا، ثم



fb/mashro3pdf

انفجر الموقف. حالة بكاء جماعي مفاجئ ، اندهش لها الأولاد الذين كانوا يجلسون بيننا، على مخدات فوق الكراسي ليصبحوا أعلى ويطولوا المائدة، كل بجوار أمه لتتولى إطعامه، ينقلون أعينهم الصغيرة بيننا في ذهول وشفقة، و يمدون أيديهم الصغيرة يطبطبون علينا، فيزداد نشيجنا، جميعا، معا.

لا أعرف من صاحب فكرة الرحلة، ولكنها لاقت موافقة جماعية سريعة، كقشة يتعلق بها غرقى. كان واضحا أننا لا نستطيع أن نبقى في مكان الذكريات هذا. لأول مرة سنسافر أول يوم في العيد. فكر البعض أن نقضي اليوم في بيتنا في المصيف القريب من المدينة على البحر. بالطبع لم يوافق أحد، فهناك أيضا موطن ذكريات لا حصر لها. قر القرار في النهاية على بورسعيد.

كيف قضينا اليوم، أين تناولنا طعامنا، من اقترح أن نذهب لنرى بحر الشتاء، انغمس بعضنا في مشتريات تافهة، شربنا شايا وأكلنا حلوى في محل شهير، تمشينا في السوق، اشترينا طعمية وفول للعشاء، ثم انحشرنا مرة أخرى في السيارات الثلاث لنعود لمدينتنا، توقفنا بصبر المستسلم في الجمرك، فبوسعيد مدينة حرة يخرج منها الناس بمشتريات استهلاكية كثيرة وتجارة يخفونها قدر الامكان. مرهقين إلا أننا نشعر براحة ما أن اليوم قد انقضى. لم يتوقع أيا منا أن اليوم لم ينقض بعد فقد بقى أطول أجزائه.

منطلقين على الطريق فكرت، في الكيفية التي توزعنا بها على السيارات الثلاث، هل تعني شيئا في علاقاتنا ببعضنا؟ كنت ما أزال غارقة في أفكاري عندما تنبهت أن السيارة تبطئ بالتدريج حتى تكاد تتوقف، والكبار في السيارة، وقد رقد الصغار على أرجلهم، يهمهمون: يا ساتر، يا ساتر. نظرت عبر الزجاج المغشى ببخار الماء فلم أر شيئا، فقد لفت الشبورة المائية كل شئ. شبورة لم نر مثيلها في حياتنا. لا تر أمامك حتى أقل من المتر. أشارت السيارات الثلاث بالأضواء التوقف، ونزل زوجا



fb/mashro3pdf

أختي وأخي واتفقوا أن يقود أخي، بسيارة أبي، القافلة متوخيا الحذر، والكل يردد ربنا يستر. لم يكن في وسعنا التوقف، فالتوقف في هذه الحالة أخطر من المضي، إذ لن ترانا أي سيارة عابرة إلا على مسافة لا تسمح بالتوقف. وهكذا تحركنا، سيارة في ذيل الأخرى، تقودها الفوانيس الخلفية للسيارة التي أمامها والتي لا يجب أن يبتعد عنها بأكثر من المتر. أما أخي فيقوده حدسه، وهل لديه اختيار إلا الخوض في المجهول بعد أن اختاره الجميع لحمل المسئولية، واثقين بالأكثر في تدريب بابا له أكثر من معرفتهم الشخصية به، ومعززا بدعاء ماما، التي تجلس جواره في المقعد الأمامي، حيث جلست دائما جوار بابا، تحدق في الظلام منحنية للأمام لتقترب أكثر من زجاج السيارة ، كما لو كانت تأمل أن ترى أوضح، مهمهمة بآيات القرآن وما تحفظه من أدعية.

fb/mashro3pdf

# ٣

أنتظر. أنتظره. أنتظره طول الوقت. هكذا تعـودت طـوال السـنين الماضية. كان الانتظار أحيانا مؤلما، أو مهينا، أو .. مجرد انتظار، عادي. أتحمله بصبر، وأحيانا باستمتاع.

عندي حالتان أستقبل بهما وقع أقدامه على بسطة السلم الخارجية. وقع أقدامه يأتي بإيقاع منتظم واثق تميزه أحذيته بالذات. عدد أحذيتـه كبيـر. يكرر بفخر وهو يشير لكل زوج منها: "عشرين سنة، ودي عشـر سـنين. تفصيل عند أحسن وأغلى جزمجية زمان. الجدد، إن وجـدوا، لا يعرفـون صنعتهم". والحقيقة أنه باعتنائه بها فإن أحذيته لا تبلى أبدا. يـأتي مسـاح الأحذية بانتظام ليجلس على كرسيه المنخفض بجوار باب الشقة. أصنع لـه شايا ويقضي وقتا يخلع دبابيس الرسم التي علقت بالنعل من أرضية المرسم ويدهن بالورنيش على الأقل عشرة أزواج من الأحذية أرصها جواره مـع نوع الورنيش المحترم لزوم العناية. يهتم الفنان بأحذيته، بنعولها، كعوبهـا، وقطعة الحديد في طرف الكعب حتى لا يبلى من الجنب. كان في الماضي يأخذها بنفسه ، مهما كان الحذاء قديما، لجزمجي التصليح، وهـو بـالطبع يختلف عن جزمجي التفصيل. يختار بنفسه قطع الحديد، ثم يشـير للعامـل بأصبعه الآمر بالتعليمات أين يجب أن يضعها بالضبط. ثـم يكـرر عليـه



fb/mashro3pdf

الكلام، ويكرر مرة أخرى، فالصنايعية الآن لا تعرف صنعتها. "يعني هوه الواحد لازم يكون خياط نفسه، وجزمجي نفسه، ونجار نفسه و ...؟"

الحقيقة هو لا يصنع أي شيء بيده ، إلا أنه يعرف تماما أصول الصنعة ويقف كالمعلم، دائم الشك، على رأس الصنايعي "من دول"، يصب على أم رأسه التعليمات، حتى يخرج الشيء كما يريد تماما، أو أقرب شيء إلى ذلك. طالما وقفت بصبر يكاد ينفذ وهو يمرمط في أحد هؤلاء الصنايعية أو ذاك، مشفقة عليه من الحزق والزعيق والشيل والهبد في نفسه. ومشفقة على الصنايعي الذي يتمرمط ويصبر من أجل أكل العيش ليس إلا. كان يضايقني أن أشعر أن غرضه ليس فقط الحصول على طلبه بدقة، ولكن هناك أيضا تلك الرغبة الخفية في مرمطة الذي وقع تحت يده. لماذا إذن كان يبتعد عن الصنايعية المتفوقين الذين يعرفون عملهم جيدا ولا يسمحون له بإهانتهم؟!.

كان صوت خطواته، لابسا واحدا من أحذيته المميزة المعتنى بها، تدق في الطرقة الطويلة ذات الأرضية الرخامية المؤدية للشقة. أسمعها بعد أن أسمع باب الأسانسير وهو يفتح. بعدها أسمع صوت المفاتيح، كبشة المفاتيح، ثلاثة أصناف لثلاثة كوالين للمنزل، وأربعة أصناف للأربعة كوالين للمرسم، والسلسلة الفضية الغليظة ذات المصنعية الجميلة، تنتهي بالحجر الأخضر غير المنتظم بحجم المشمشة، محاط ومحبوس بثلاثة أو أربعة أسلاك دقيقة من الفضة. كبشة المفاتيح تثقل جيبه، تقطعه أحيانا من ثقلها بالإضافة لكمية الفكة التي يحرص الآن على حملها، حتى لا يسرقه الباعة بحجة "ماعندهمش فكة". جيوب بنطلوناته المتقنة التفصيل كانت ذات جيوب عميقة وكبيرة حتى تسع كل ذلك مع المناديل المصنوعة من القماش.

كنت أفرح، وأشعر بالنشوى عندما أسمع خطواته في الخارج، عندما أكون في الصالة، جالسة أمام طاولة السفرة أخيط شيئا، أو واقفة لأنظف أو أرتب شئ. أفرح عندما أسمع صوت غلق الباب وأنا في المطبخ، أعمل في



fb/mashro3pdf

تحضير وجبة أو أقوم بمهام تنظيف روتينية. متى كلت ألقبض وتنتابني الخشية؟. ربما كانت صدفة، ولكن صدفة غريبة بحق!. كيف كان يعرف أني دخلت سريري لأستريح بعد أن طال انتظاري، لأسمع في الدقيقة التالية صوت خطواته على الرخام، فأقفز بسرعة، كي لا يعلق على كسلي، ولكي أكون على استعداد لما سيطلبه ساعة أن يصل. أفرح عندما يأتي وأنا أفعل شيئا يرضيه: أرتب المنزل، أطبخ، أنشر غسيل أو أطويه بعد أن يجف، أكوي ملابسه، أطبع مقالته على الآلة الكاتبة، أنظف المطبخ أو الحمام. أفرح ساعتها لأنه أتى في تلك اللحظة، ولا أترك ما بيدي، لأرى نظرة الرضا تطل من عينيه، فأنتشي وأسعد. أو هذا ما آمله. أما إذا كانت لحظة دخوله وأنا أقرأ أو أكتب شيئا لي، أتحدث في التليفون، أنام، عندي صديقة، مريضة في السرير أو جالسة على كرسي. ينظر، يقول، يأتي بحركة من يده. أشعر بالذنب. هل أنا عبد لا يشعر بالأمان إلا في إرضاء سيده، وإلا شعر أنه لا أهمية لوجوده كله؟!. كنت أشبهه بالشمس. تسطع عليك فتشعر بأهميتك وبالطمأنينة، ثم يتخلى فتشعر بالبرد. كان يختار هو، لكل فترة، شخصا ما، يشرق عليه، فيشعر ذلك الشخص بالدفء، إلى حين.

كنت أقود سيارتي العتيقة صاعدة مطلع كوبري ٦ أكتوبر. في مثل هذا الجو البارد، تلمع المصابيح الخلفية للسيارات بشكل خاص بسبب الرطوبة العالقة في الهواء. كانت صديقتي جواري، وقد فتحت كلتانا قيراطا واحدا من الزجاج بجواراها لتجديد هواء السيارة، إلا أنه كان كافيا لدخول صاروخ هواء تحملناه باستمتاع. عائدتان من عند صديقتنا الأخرى. كنا نتحدث عن صلابة رأيها وعنادها. قالت "إنها لا تسمع ولا تحاول فهم رأي الآخرين". قلت: "هذا التصلب ربما يكون أحيانا نوعا من الدفاع عن النفس، تستخدمه بعد تجربة في الحياة أعتقد أنه كان بها كثيرا من المرارة". التفتت ناحيتي: "أعتقد أن هذه المرأة أصيبت بخيبة أمل كبيرة". قالت ذلك بقلب كبير ملأني حبا لها. قلت: "أنا أيضا أصبت بخيبة أمل، ولكني اعترفت،



fb/mashro3pdf

وأتحدث عن ذلك بصراحة، أحاول قهر كبريائي، والاعتراف بخطأ اختياري، وأعتقد أن ذلك يقلل من مرارتي".

(طلبت مني أن أضع أصبعي المتورم أمامها على المائدة تحت الضوء المباشر لتفحصه بدقة. نظرت إليّ بعينيها الخضراء القططية وقالت بلغتها العربية المتكسرة "آه، أنا مقتنعة أنك أنت من فعلت ذلك بنفسك. بعقلك الباطن. حتى يصبح عذرا حتى لا تخدميه. لا للأكل، لا لمساعدته في لبس الشراب، ...سيكون عذر مناسب، أليس كذلك؟! ولن يشفى هذا الأصبع بسرعة، أليس كذلك؟!" قلت كأنما أحدث نفسي وقد تقطب ما بين حاجبي "أيوه، لن يشفى بسرعة. وحتى لو تحسن، سأربطه أمامه حتى يكون عذرا. لم أعد أطيق بخله في مواجهتي وفي مواجهة العالم، في مقابل طلباته التي لا تنتهي والتأنيب المستمر على التقصير").

درنا مع ملف مطلع الكوبري وفوجئنا بصفوف السيارات التي تتحرك ببطء. قالت "غريبة: في هذا الوقت!!، العاشرة والنصف ونجد هذا الزحام؟!!" قلت: "أكيد هناك ما يسد الطريق". قلت في نفسي ان القيادة بهدوء الآن تناسب ايقاعي الداخلي. لا مانع من قليل من الزحام. السيارات ترتص جوار بعضها البعض، وتتحرك خطوة خطوة. استدرت ناحيتها وقلت "أتعرفين، تلك المناقشات مع الصديقات عن الرجال، دائما ما أشارك بها وأنا أشعر في داخلي أن الرجال، أو أغلب الرجال، لا يعرفون الحب. أو ربما لا يوجد شيء اسمه الحب من أصله!". "لأ، هناك رجال يعرفون الحب. من أعود له الآن بالمنزل أحدهم" قالتها بحنان آسر. قلت "أعتقد أن زوجك هو الاستثناء..." أشحت بيدي قائلة: "على العموم، ربما كان شعوري هذا نتيجة المرحلة التي أمر بها الآن. لم أكن هكذا من قبل. ربما عدت يوما للإيمان بالحب. من يعرف؟" قلت ذلك بأمل كبير دفعها لأن تضيف بسرعة مشفقة عليّ وبتعاطف دافئ: "غالبا ذلك هو ما سيحدث، فهذه هي طبيعتك، تؤمنين بالخير في الناس". قلت: "نعم أنا أؤمن بالجانب

fb/mashro3pdf

الخير في الناس، إلا أني لم أكن أدرك أن العقد والكلاكيع يمكن أن تتحكم في النفس الإنسانية لهذا الحد. كان ايماني أنه إذا أحببت شخص ما حبا عميقا، تظهريه وتمارسيه، فأنه حتى مع وجود العقد النفسية ففي النهاية لابد من استجابة، لابد من مبادلة الحب بالحب في وقت ما، إذ سيعالج الحب ويضمد كل الجروح. لم أكن ادرك أن الجروح يمكن أن تكون قروحا، من العمق والعفن بحيث يجب ان نفقد الأمل، نفقده حتى نستريح، نهدأ. نفقده حتى نتوقف عن استفزاز هؤلاء، مرضى الروح، بعطائنا فينقلبون ضدنا، بدلا من أن يبادلوننا حنانا بحنان". قلت ما قلت بانفعال، جعلها تلفت وجهها الذي اكتسى بالجدية للطريق سارحة.

كان المرور قد بدأ يتحرك في منتصف الكوبري فانطلقنا أسرع. ها هو النيل يظهر على الجانبين، نلمحه من بين السيارات التي تمر بجوارنا. وصلنا فركنت السيارة ومشيت معها لمنتصف الطريق بين بيتي وبيتها كما تعودنا عندما نخرج معا، ثم عدت. قررت أن أصعد لأرى صديقتي العجوز في بيتها المجاور، وأوفر على نفسي الذهاب غدا لرؤيتها قبل سفرها. كانت تجلس على سريرها ترتب الأدوية التي ستأخذها معها عندما حيتني بحنان زائد كالعادة. ربما تعتقد أني أحتاج ذلك لظروف جفاف حياتي في بيتي. الفكرة تضايقني لذلك لا أدعها تعرف الكثير عني إلا أن الفنان ينتهز الفرصة في كل مرة يراها أن يفضح ما أحاول ستره فيشكو لها مني ومن تقصيري في خدمته فتضرب هي كفا بكف وعيناها تطق بالشرر المكتوم. تجاذبنا أطراف الحديث، وعندما هممت بمغادرتها سألتني بلهجة من تريد إجابة معينة هي تعرف أني لن أقولها: هل أنتظر أن تصنعي لي مفاجأة وتأتي لتقضي جزءا من العطلة معنا ثم نعود معا للقاهرة؟ ابتسمت وقلت: ربما، ان شاء الله، وأنا لا أعنيها. هي تعرف أني لا أعنيها، فقد أخبرتها سابقا أني لن أستطيع السفر وتركه وهو يشتكي من أن صحته ليست على مايرام. قالت بسرعة: "لا تخافي عليه، هو يشكو فقط، يحب الشكوى، أو

fb/mashro3pdf

ربما ليبقيك جواره ، ولكن ، آه لو تعرفي ما قال عنك؟ لكن لا داعـــي لأن أنكد عليك. إعرفي فقط: إن كلما راعيتيه أكثر، زادت معاملته لك ســوءا، صدقيني". تجاهلت ما قالت وتجملت، وبابتسامة عريضة وقبلات ودعتهـا وانصرفت. أثناء صعودي نظرت في ساعتي " الحاديــة عشــرة وخمــس دقائق" .. أخذت أفكر هل أتدرب على العود قبل أن أنام استعداد لدرس الغد لمدة نصف ساعة مثلا، أم أترك نفسي لأقع في النوم الذي يكـبس علــيّ؟. فكرت أن دروس الموسيقى تفيدني كثيرا، ترطب شيء ما داخلي، إلا أنــي يجب أن أذاكر أكثر، بتركيز أكثر. مازلت لم أتعود بعد على طريقة العزف التي يصر عليها أستاذي الجديد. كنت في المعهد الحــر أمســك بالريشــة بطريقة مختلفة وأعزف بها بالضرب على الوتر فقط من أعلى لأسفل فــي اتجاه واحد. الأستاذ الجديد يرى أن الطريقة التي تعلمتها لــن تســمح لــي بالتقدم وأن عليّ أن أغير أسلوبي في كل شيء: طريقة الإمساك بالريشــة، الطريقة التي أحتضن بها العود نفسه، الطريقة التي أضــرب بهــا علــى الأوتار في الاتجاه ومقلوبة أي من أعلى لأسفل ومن أسفل لأعلى. أعــرف جيدا جدا الآن أن تصحيح الخطأ الآن بعد ثلاث سنوات من التعود أصعب من بداية التعلم ذاتها، إذ يجب أن تعي كلا من الطريقة الخطأ والصواب في نفس اللحظة وأن تقاوم كبرياءك الذي ربما قد يعوقك عن الاعتراف بالخطأ ومن ثم إصلاحه.

بحثت عن مفتاحي داخل حقيبتي المزدحمة. أفضل ألا أدق الجــرس فأوقظ الفنان. فتحت الباب ودخلت. اتجه نظري مباشرة لحجرته، إذ رأيتــه يقفز فجأة من كرسيه ليرى من القادم، رغم أنه يبدو بوضــوح أنــه كــان مستغرقا في النوم. وجدني أمامه في الصالة فبدأ يصرخ بلسان ثقيل من أثر المنوم، وبصوت أصبح أجشا غليظا في الفترة الأخيرة: " كنتي فين؟ الساعة كام دلوقتي؟". قلت بهدوء وأنا أضع أشيائي على أول كرسي وأنظــر فــي



fb/mashro3pdf

الساعة. قال: "تأخرت كثيرا". قلت: "نعم تأخرت، ولكن ليس كثيرا، سبع أو عشر دقائق". قال: "وأنت ، أيتها العبيطة...". التفت ناحيته بحدة، ما لزوم ذلك الآن. قال: "طبعا عبيطة، كان لزومه إيه تجري بسرعة حتى تهربي من مساعدتي في لبس الشراب؟!. مستعجلة أوي؟!، فالحة. يعني كده أصبحت شاطرة؟ ألم يكن ممكنا أن تتأخري شوية؟! واستفدتي إيه بأه في درس العود ده؟ أما إنك حقيقي أنانية". تجاهلت ما يقول ورددت بهدوء دون أن أنظر إليه: "ده شراب كبير واسع و أنت تلبسه فوق الشراب العادي الذي ألبسته لك، يعني تقدر أن تلبسه وحدك". فزادت حدة انفعاله "لأ، مش باقدر أميل، ماعرفش ألبسه وحدي، عبيطة، عبيطة، عبيطة...فاكرة نفسك ممكن تعملي حاجة في حياتك؟! إبقي قابليني. لازم تعرفي إن الفن مسئولية ومش ممكن تصبحي فنانة إذا لم تؤد مسئولياتك كما يجب. يعني مش ممكن تهربي من مسئولياتك عشان تعملي فن ، فاهمة؟، يا عبيطة، يا عبيطة". بدأ تضايقني الكلمة إلا أني تحكمت في أعصابي. جاء للصالة وبدأ في الصراخ مرة أخرى: " أنا مش فاهم. فين إتعلمتي أصول معاملة الزوج دي؟". قلت بهدوء محاولة الدبوماسية: "منك. ربما أريد أن أعيش الحياة كما عشتها أنت!". نظر إليّ بعينيه الجاحظتين من الانفعال، تتحركان في كل الاتجاهات، ولم يحر جوابا. كانت حيرته تهددني بالانفجار في أي لحظة. بدا لي كحيوان عجوز طبيعته التوحش، يحوم محبوسا في قفص. قال: "أنا ما عرفش كده ، الست غير الرجل، والزوج غير الزوجة، غير كده يبقوا ناس منحلين"، قلت لنفسي: يبدو أن أعصابه مشتعلة وأن العيار بدأ يفلت. أجبته بهدوء وبابتسامة: "طيب زي بعضه، بس هدي نفسك، ليه منفعل كده؟ اهدأ شوية". سكت قليلا ثم قال: "أنت لم تتعلمي أو تتأهلي لتكوني زوجة، تربية عائلتك .....": قلت بهدوء ولكن بمرارة وأنا أنظر داخل عينيه: "يمكن ما كان يجب أن تتزوج، أو ما كان يجب أن تتزوج واحدة منحلة". أسقط في يده عندما قلتها بنفسي عن نفسي، تدلدل فكه الأسفل، وامتلأت



fb/mashro3pdf

عيناه الجاحظتان من الانفعال بقلة الحيلة، إذ كيف يرد على ما قالــه هــو نفسه منذ لحظات.. صرخ فجأة وهو يشوح بيده، ويشير بأصــبعه الســبابة قريبا من وجهي كما لو كان يهدد بضربه: "أنا لم أتزوجك، أنت تزوجتيني، إنت عارفة كده كويس!". أبعدت وجهي قليلا وقلت في هــدوء، وقــد بــدأ الحزن والغضب يتراكمان داخلي: "طيب وزعلان ليه كده، هدي نفســك". قال بصوت شاك مليء بخيبة الأمل: "ماكنتش عاوز ...". أخذ يكرر الجملة الناقصة وبدأ صوته يتحول للجعير.

(بابا يقول: "يا بنتي أي رجل لا يمكن أن يحترم من تروح له". يومها استهزأت بكلامه في نفسي. "آه، يعتقد أنه يعرف. كيف وهو رجل ذو خبرة محدودة بالحياة ". هو لم يقابل أبدا أحداً مثل الفنان أو حتى يشبهه. لا يمكن أن يتخيل كم هو مختلف، كم هو فنان. بابا لا يعرف كيف عاش الفنان حياة غنية علمته وأبرأته من كل هذه العقد، وجعلته يرتفع عن مقاييس طبقتــه). اليوم عند صديقتي، ونحن جالسات في المطبخ نحتسي بهدوء الشاي الجبلي الدافئ، قلت لهن أني قرأت أن الرجل الذي يبــدأ تجربتــه الجنســية مــع "شراميط" يختلف عن الرجل الذي بدأ تجربته مع حب، أو حتى مع زوجــة ثم تعود عليها. الرجل الذي يبدأ تجربته بالجنس المدفوع الثمن يظل الجنس بالنسبة له شيء قذر. وإذا احترم امرأة، أو أحب، فهو لا يدنيها إلى مرتبــة "ممارسة الجنس". كان قد حكى لي عن اللحظة التي كادت فيها المشاعر أن تغلبهما، وهو وصديقته الجميلة بنت العائلة الارستقراطية التي كان يعبدها. انتفض واقفا، صفعها على وجهها، أوقفها وطردها من الشقة ثم بكى طــول الليل وهو يشرب. إذ كيف ينام مع ملاكه، مع الرقة المتجسدة، مع النقــاء. ثم أنه طالما قال وكرر: "الجنس عندي مفصول عن الحب". قالــت إحــدى صديقاتي أنها سمعت أن الموضوع له علاقة بعملية طهارة النساء فقلــت: "صدقوني، إنها ليست مشكلة نساء عندهن عائق جسدي، أو تربين بشــكل مغلق ولا يستطعن الاستجابة لرجالهن في المتعة. لا، القصة ليست هكــذا.

fb/mashro3pdf

حتى لو كانت المرأة مستعدة، فان ذلك الرجل الذي بدأ مع العاهرات سيكون عاجزا، للأبد، عن الاستجابة الطبيعية مع امرأته، في التواصل العاطفي والجنسي بشكل طبيعي. أنا أعرف ما أتحدث عنه. هذه هي خبرتي الحية. اعرفها جيدا، وخبرتها بكل مرارتها".

(يقوم بسرعة بعد الحب، يأكل أو يشرب، أو حتى ينزل للشارع. عندما يعود يكون قد قلب الصفحة وعلي أن أتجاهل ما حدث في الساعة السابقة. وفي مرة سألته فأدار وجهه قائلا: مش بطال. على كل أنا لم أتوقع أن أتزوج من شرموطة تعرف كل الفنون والألاعيب. جُرحت ، إلا أني تغابيت، ثم نسيت).

قالت "لا تحزني. في يوم ما سينقشع كل ذلك، سيتبدد، بمجرد أن يلمسك رجل آخر، رجل جميل، يحبك، ويرغبك، ويرغب في رعايتك". ثم بنظرة واشارة من يدها: "رعايته لك، قبل رعايتك أنت له. في يوم ما ستنسين كل شيء. ستبتسمين للحياة. عندما تلمسين رجلا آخر، ستشفين، وستعرفين معنىٰ السهر، وشروق الشمس مع من تحبين. ستعرفين معنى أن تتحدثا عن أشياء كثيرة طوال الليل، دون ملل". ابتسمت بوهن وقلت مازحة: "أنت تعرفين أني لا أحتمل السهر". قالت جادة: "الأفضل ألا تقولي لا أحتمل هذا أو ذاك حتى تجربي. عندها سنرى. أنت لم تعرفي معنى أشياء كثيرة. تزوجت برجل كبير السن، ثم أنه عاملك دائما ومنذ البداية كمجرد شيء، وليس ككيان يجب أن يمتعه ويستمتع معه. أنت معذورة، ولكن صدقيني، كل شيء سيصبح أفضل".

كنت أقف أمام دولابي المفتوح في ذهولي المستغرق. أخلع ملابسي قطعة قطعة، أعلقها أو اطبقها وأضعها في مكانها في الدولاب، متحملة الاحساس بالبرد. أرتعش، إلا أني لا أدفع نفسي للحركة بسرعة، فاستغراقي الكئيب يناسبه الاحساس بالبرد، يناسبه البطء، البطء. تحركت بملابسي الداخلية للحمام لآخذ قميص نومي الذي تركته هناك منذ الصباح حين



fb/mashro3pdf

حبست نفسي في الحمام لألبس بسرعة وأتجنب أن يناديني، فأضطر إلى تلبية ما يريد، أو تحمل انفجاره إذا تجرأت وقلت لا. كنت أغسل قدميّ بنفس الهدوء والبطء. سمعت طقطقة سريره وخروشة الجرنال وعرفت أنه دخل ملجأه، مهربه المعتاد.

انطلقت للمطبخ ، أسابق نفسي. اغلقت بسرعة مفتاح البوتجاز تحت غلاية الماء التي سمعت صفارتها. كنت قد وضعت الغلاية على أكبر عين نار على الموقد لتغلي بسرعة، لأملأ قرب الماء الساخن، له ولي. أردتها أن تغلي بسرعة فانطلق صوتٍ صفيرها، وقبل أن أصل دفع البخار الصفارة بعيدا فانكب الماء فائرا وأطفأ النار في عين البوتجاز ليظل الغاز منطلقا برائحته دون شعلة. تساءلت: هل كانت النار حامية زيادة؟ أليس للغلاية حدود وطاقة؟! أليس هذا هو اختيارك: نار حامية، رغم أن ما لديك غلاية لها حدود؟! إلحقيها إذن قبل أن تطفح.

اتصل الفنان بالتليفون يقول أن المخرج الشاب سيأتي ليصور جزءا من فيلم عنه في البيت. طلب منى أن أرتب كذا وكذا، وأن أضع المفارش التركية المخزونة، كذا وكذا في مكان كذا وكذا. أتت مجموعة عمل التليفزيون وطلب المخرج الشاب أن يصورني أتكلم عن الفنان وعلاقتي معه قلت مبتسمة أنهم يجب ألا يصوروني في حجرته: "في حجرته لن أكون إلا أقدم غداء أو عشاء". اقترحت أن يكون التصوير في حجرتي، بجوار الصور التي رسمها، الموضوعة وراء الباب. وافق المخرج . سألته عما يريدني أن أتكلم عنه؟ فرد ربما عن صعوبة الحياة مع فنان مثلا؟. فقلت أن ما كان صعبا ليس المعيشة مع فنان لأنها صعوبات متوقعة تؤهل نفسك لها عندما تقدم على التجربة. إلا أن الصعوبة كانت في التناقض بين الفنان وبين الشخص العادي. عندما يترك الفنان مرسمه ويرجع بيته يتحول لابن الطبقة المتوسطة العادي، الراجل الشرقي بكل تناقضاته ومشاكله. هذا



fb/mashro3pdf

هو ما قلته في التسجيل وأنا جالسة علي الكرسي الفوتيل في حجرتي. انصرف طاقم التصوير والإضاءة وبقي المخرج الشاب لأنه يريد أن يرى صور فوتوغرافية قديمة. كنت أتحرك في البيت بجلابيتي الحمراء الهندي الجديدة: أصنع قهوة للمخرج، أسخن عشاء الفنان وأعصر له برتقال، وأرتب المطبخ. ثم بدأت أبحث عما يريد المخرج من صور. أعطيته اليوم صور رتبته لصور الفنان وهو صغير، نحاه الفنان فورا جانبا وقال أن ما يريده المخرج الشاب هو صور تكمل الفترة ما بعد الفيلم الذي صور آخر السبعينيات. قلت هي إذن الفترة ما بعد خطبتنا. عشرون عاما. أدركت وأنا أنطقها كم من الوقت مر ونحن معا. جلست أقلب في الألبومات، وأقلب في أكياس مليئة بالصور والنيجاتيف. سرحت، نسيت المهمة الأصلية، نسيت وجود الآخرين. أنظر للصور. كم كنت حلوة، صافية، محبة ومتفانية. كم تحملت. كم وقفت جوارك. كل تلك المواقف، كل ذلك السفر، كل تلك الأيام والليالي التي مرت علينا معا، وأنا لك، ومن أجلك. كل حياتي تدور حولك، وأنا راضية، وسعيدة. ماذا حدث؟ماذا حدث لي؟ وله؟. سمعني الفنان أهمهم وأنا أنظر للصور فوقف بجوار باب حجرته، مال بجسده وسند يده على الترابيزة جوار الباب وقال: "عشنا معا حياة لم تعملي لي فيها أي شيء". رفعت عيني إليه، نظرت له بشجن. لم أنو الرد في البداية، لكن وجدت نفسي أقول بصوت عميق منخفض: "هاهي الصور، تشهد". انطلق بكلمات سريعة: "آه، كويس أوي، عشنا أشياء كثيرة معا، حياة غنية، أعطيتك أنا حياة غنية، والنتيجة: أنه عندما احتاج المرء لآخر جواره، وجد نفسه وحده!". قالها بمرارة ولكن بغير تأكد، كأنما يقنع نفسه بما يقول، كأنه يرسم نموذجا يريحه أكثر. ينظر للمخرج الشاب ليرى تأثير كلامه عليه إلا أن وجهه الهادئ كقناع لم يكن يعبر عن شيء. ألتفت له بكل جسمي، وأنا أقف جوار الطاولة في الصالة وأنا ما أزال أقلب في أكياس وصناديق الصور."أود أن أسألك ما هو مدى مسئوليتك الشخصية التي تتحملها عن



fb/mashro3pdf

أنك الآن - كما تقول - وحدك؟". أراد المخرج الشاب تغيير الجو الشائك الذي وجد نفسه دون أن يقصد في منتصفه. فبدأ يشكو من طاقم التصوير الذي كان يعمل اليوم لأن المصور لم ينفذ ما طلبه منه. قبل التصوير، كان يقول في هدوء للمصور الذي كان يقوم بضبط الكاميرا وهو ينفخ من الضيق، أنه يريده أن ينقل الكاميرا من وجهي في الصورة التي رسمها الفنان لي وعمري ١٨ عاما، إلى العود الموضوع مقلوبا على الكرسي، إلي وجهي وأنا جالسة، ووقتها أبدأ في الحديث. شعر الفنان أنه ليس محور الاهتمام في الحديث فاستأذن أنه يريد أن ينام وانصرف. استأنف المخرج أنه أراد بهذا النقل من صورتّي المرسومة للعود لوجهي الآن أن يقول أن هذه المرأة الجالسة هناك لديها شيء آخر، خلاف أنها زوجة الفنان الكبير، تود أن تقوله، تعبر به. شعرت بالامتنان العميق له ولم أعلق.

وفي الصباح كان ثقل الماضي، عشرون عاما، صور وذكريات، أماكن، وأشخاص، ومناسبات. ثقل ما لاحظته من تغير وجهي عبر السنين، شعري قصير، ثم قصير جدا، متوسط، هائش أو مسرح، ووجهي الخالي من مساحيق التجميل، ملابسي، أحذيتي، متواضعة وعملية، فقط . أحمل الطفلة، أمسك بيدها، ثم تمشي بجواري. حقيبتي كبيرة، مليئة بأشيائي وأشيائهما وعلامات المسئولية على وجهي. كانت تلك بعض الصور إلا أن أغلب البقية كنت أنا وراء الكاميرا، أنا الشخص الثالث في صورهما جميعها أسجل لهما الرحلة، ألتقط الصور، وأسجل لهما الأحداث، والمراحل. غائبة عن الصور، وحاضرة، على الأقل بالنسبة لي وأنا انظر للصور الآن. كان ثقل السنين يشدني. كانت الصور المبعثرة تشهد، ورغم ذلك وجد هو الجرأة أن يقول: "وماذا كان أثرك في حياتي؟"، كان يقولها كالمنوم، كمن يحرك لسانه وشفتاه بحكم العادة، بجمل محفوظة، اسطوانة مشروخة. ماذا كان يجب أن أقول؟. إذا لم تسم هذه التجربة لنا معا حياة، مسئولية، عطاء، سمها إذن ما شئت، واتركني لحالي، للذكريات وللسنين



fb/mashro3pdf

التي لا أود أن أناقشها فتفقد عبقا جميلا. فمهما حدث فلن يسلبني احد إحساسي بعمق وثراء تلك التجربة. كانت الصور في الصباح التالي مبعثرة على الطاولة في الصالة، سنوات الثمانينات وحتى منتصف التسعينات، وفقط. بعد ذلك الصور لي معها دونه، إذ مضى هو في طريق مختلف منذئذ.

وأنا أضع القهوة أمامه سألني متى انصرف الضيف بالأمس فقلت في العاشرة أو العاشرة والنصف. "ياه، ظل كل هذا الوقت يقلب في الصور؟!"، ثم غمغم انه شخص ذكي، فعلقت بحماس دون أن أنظر إليه أنه حساس وإنسان، وان ذلك بالنسبة لي أهم من الذكاء. انشغلت بوضع الدواء في الطبق الأزرق الصغير: قرص، قرصان، نصف قرص، وقرص،... ثم رفعت العلبة الفارغة أمام عينه ليرى الاسم وقلت له: هذا النوع قارب على الانتهاء.

رأيت الناقد المخضرم في حديقة مبنى المنظمة، يجلس على واحد من الكراسي المصنوعة من القش. طويلا مهيبا وقد فقد الآن أغلب شعر رأسه وحاجبيه فبدا مخيفا. كان ينتظر أن يبدأ الاحتفال بتسليم جائزة الأدب التي تمنحها المنظمة سنويا. ترددت قليلا ثم قررت أن أحادثه. عندي حب استطلاع شديد. سمعت عنه حكايات كثيرة من الفنان، بعضها قد يكون صحيحا وبعضها يخالطه الخيال. يحب النساء، من بعيد، ويستمتع تماما عندما تذهب إحداهن لمحادثته. يمشي في الشارع وهو يطوح حقيبة أوراقه كما لو كان أسعد شخص في القاهرة. فرغم الإشاعات عن مرضه النفسي بعد التعذيب والسجن فهو محتفظ بشكل مدهش بحالة من التوازن السعيد. يعلن بصوت عال على مقهى المثقفين أنه آخر الشيوعيين، ليس في مصر، بل في العالم كله، فيضج الرواد بالضحك وهو أولهم بضحكته الرنانة وهم يتبادلون الأنخاب، بأكواب الشاي بالنعناع الأخضر، في صحة الثورة



fb/mashro3pdf

الحمراء للعمال والفلاحين. كانت وفاء قد غادرت القاهرة من وقت قصيرة بعد عطلتها لمنفاها الاختياري في إحدى دول الخليج وقد قضينا السهرة كلها نتكلم عن حلمها ورجل حياتها الذي لم تسمح الظروف بلقائهما عطلة بعد عطلة، سنة بعد سنة. وأنا ابتسم وأقول ربما هو لا يريد أن يرى ماضيه المظلم متمثلا فيك وفي عتابك له على خيانته، وهي ترفض الفكرة وتتمسك بنظرية المؤامرة التي تجعل هناك آخرون مسئولون عن إبعادها عنه وعن إبعاده عنها. تفزعها فكرة أن يموت قبل أن تراه، قبل أن تتحدث معه وتصفي حسابات الذكريات أو المعلقات، كيفما كانت التسمية، تقول إن زوجته تجد مختلف الطرق لتبعدها. "تريد أن تفهمني أنها تحميه. من هي حتى تفعل ذلك؟ تاريخي معه، من زمان جدا. الجميع يعرفون إنها العلاقة الخالدة. من أعطاها الحق؟!". ابتسم بحذر حتى لا تظهر الأسنان الناقصة في فمه عندما اقتربت منه وحييته وذكرت اسم وفاء. قلت له أني رأيتها، وأنها لا تكف عن الحديث عنه، فابتسم بوداعة: "وفاء لديها فكرة متصورة عني، قد لا تمت للحقيقة بصلة، ولكني أحب أن أسمعها، واستمتع بمراقبة ومعرفة كيف يراني الآخرون". ذكرت اسم زوجي، فقال: "آه ، الفنان؟!! .. آه طبعا أكن له كل احترام، ولكن لا تؤاخذيني يجب أن اذهب الآن بسرعة لموعدي وأرجوك ، لا تقولي له أنك قابلتيني".

وفي الصباح التالي أخذت الماج المرسوم عليه شجرة الكريسماس المزينة ودعوت لنفسي: فليأت عيد الميلاد إلى قلبي. فكرت وأنا أنظر للكنكة على النار على وشك الغليان: أيهما أصعب؟ موقفي أم موقف تلك المرأة في ذلك الفيلم الذي شاهدته بالأمس. أتت الدموع إلى عيني. هي أيضا كان لديها قصة حب، سعادة كانت. إحساس بالمسئولية يوجه حياتينا وقراراتنا. كلا منا تشعر بالانفتاح على الحياة والرغبة فيها. إلا أن الاختلاف شاسع بين نوع الرجلين، الزوجين. إذ بدا زوجها كريما، متحكما في حزنه عندما أدرك أن الحياة تنسحب منه. لم يحنق عليها أو يكرهها، أو



fb/mashro3pdf

يحملها مسئولية انسحاب البساط من تحت قدميه. حكمته ونضجه الإنساني حمياه من أن يتحول حنقه وحزنه لأنانية، جعلاه يفهم ويتقبل الواقع: ليس شرطا أن يحبه، فلا أحد يحب تقدم العمر، ولكن فقط يتعايش معه. أين هذا مما أنا فيه: أعرف أنه يحتاجني، إلا أنه يحتاجني احتياج الموشك على الغرق الذي سيتمسك بأي شيء ليحيا حتى لو أدى الأمر إلى غرق هذا الشيء. إن اختلال توازنه يدفعه للأمل المستحيل، أن يعيش للأبد، بأي ثمن، وعلى جثة أي شيء، وكل شيء. كانت اختيارات بطلة الفيلم بالنسبة لها واضحة، أما بالنسبة لي فمشوشة. كان ماضيها وحاضرها مليئا بالحب، أما بالنسبة لي فالحب يختلط بالكراهية بشكل أحيانا ما أعجز عن فهمه أو احتماله. كان الصراع داخلها، بين حب وحب. كان يؤلمها بتجمله أمامها، أما أنا فتؤلمني شكوته المستمرة.

خرجت من الحجرة بعد أن ساعدته في اللبس وذهبت لأضع الغسيل في الحمام الصغير. وقفت للحظة ثم قررت أن أفرز الغسيل وابدأ دورة للماكينة. يقلل ذلك من توتري. ولكن لماذا توترت الآن؟ ما الجديد؟ أنت قلت ما تريدين. سأل عن موعدك اليوم. "مع من؟ كم الساعة وأين، من هم، ماذا يشتغلون؟". ثم بدأ صراخه: "إنت لسه مراتي، فاهمة؟!". لم أقل: "لأ يا شيخ ... إنت لسه فاكر!" ولكن قلت: "اسمع، أنا لا أسألك من ستقابل، ولا أين، وأنت أيضا أصبحت لا تحكي لي بعفوية مثل زمان. لماذا تسألني؟ مهتم؟، لا أظن، تسأل لأنك تفكر أن نخرج معا لتتعرف عليهم وتجلس معنا؟، طبعا هذا أيضا شيء مستبعد. أنت أردتها هكذا، ماشي، جواز انفصال، كما ظللت تكرر منذ وقت طويل، كل واحد في ناحية، هذا صعب عليّ، لكن حاضر..". بدأ صوتي يرتعش. أنا نفسي بدأت أرتعش. والآن، لماذا أتوتر؟ مازلت آمل في علاقة أعمق مما يقترحه ويفرضه عليّ؟ ، لدي ما أبذله من حنان ورعاية واهتمام؟، آمل في أن يقابله بمثله؟!. استغرق



fb/mashro3pdf

الأمر مني سنوات لأفهم أن التجربة انتهت. لأفهم أن التجارب تنتهي. لأفهم أنه لا أبدية هناك لأنتظرها.

هززت رأسي عندما شعرت بفيضان مشاعري. تركت الغسيل واختلقت أي عذر ودخلت حجرته. طبطبت عليه، أحسست أن يدي على جماد. قلت ويدي على كتفه وهو يشغل نفسه عني بعد الفلوس في محفظته: "لم أكن أحب أن تنتهي هكذا حكايتنا، لكنك أنت اخترت طريق الحياة معا في انفصال، وليس أمامي إلا أن أمضي فيه". استمر يعد في الفلوس في محفظته وعلى وجهه إمارات دفاع عن النفس رهيبة. بقيت يدي في الهواء لثوان ثم أسقطتها جواري وخرجت من الحجرة وهو مازال يعد النقود في محفظته. أمسكت عودي وبدأت التدريب مرة أخرى. سأتغلب على اضطرابي، سأتعدى هذه المرحلة، كررت لنفسي، سأتعداها. عندما أتى بعد قليل ليقول أنه نازل، غمغمت دون أن أنظر" بالسلامة..". ظل واقفا على باب الحجرة، ثم قال بصوت ضعيف: "ادعي لي..". رفعت رأسي ونظرت له: "دائما أدعو لك ، أنت تعرف!"، قال: "انظري للفضاء اللانهائي في صورة البحر تلك التي أمامك، وادعي لي". قلت بتقرير: "هذا ما أفعل دائما والله". قال: "اقرئي كتاباتي وادعي لي..". وقبل أن انطق انقلب وانطلق بصوته المهاجم المنتقد الذي اعتدت عليه أخيرا: "مادمت لا تساعديني، ولا تريدين أن تتحملي مسئولية مساعدة الفنان، على الأقل أنظري لشغلي وادعي لي". عندما لم أرفع رأسي أو أرد أدار ظهره واتجه لباب الشقة وفتحه، فجلجلت الأجراس المعلقة على الباب. جذب الجرنال المعلق بحديد الباب من الخارج وسمعت صوت ارتطامه بطاولة الطعام في منتصف الصالة. صفق الباب وراءه ومضى.

كان العود في حضني، الريشة تواجه الأوتار في يدي اليمنى، والرقبة في يدي اليسرى. عيناي معلقتان بالفراغ، بنور المنور الخافت يأتي من النافذة الوحيدة لحجرتي. ماذا، هل أعود للارتباك مرة أخرى؟ أود لو



fb/mashro3pdf

أتحدث مع طبيبي النفسي. سأقول له أني قطعت خطوات، ولكن مازلت أنزلق فأرجع خطوات للوراء. يضايقني هذا كثيرا. أعرف من الآن كيف سيجيب: "ليس معنى أننا عرفنا مرة - بعد بحث- كيف ننير الحجرة المظلمة، أننا سنستطيع في المرة التالية أن نعرف مباشرة أين مفتاح الإضاءة، المسألة تأخذ وقت حتى نصل لمرحلة الإدراك بعد مرحلة المعرفة". بالأمس قلت لأحد أصدقاء الفنان: "أتألم بحق عندما أجده يوجه ضدي تلك الطاقة من الكراهية التي ليس لها مبرر. أشعر أنه إن كان الهواء الذي أتنفسه بيد هذا الرجل لمنعه. بالتأكيد. هذا الرجل لا يحتمل سعادتي أو راحتي". لماذا قلت له إذن عن ذلك الموعد اليوم؟! تريدين أن تقولي له أن عندك أنت أيضا حياتك، ليتنبه، ويحاول أن يحافظ عليك، أن يكون كريما معك؟!. يحاول أن يحافظ على المكان الذي كان له في حياتك؟!، أن لا يتصرف بهذا التخلي عنك؟!. آه، هل راودك ذلك الأمل مرة أخرى؟! هذا هو المنزلق. هذا الأمل يجب أن ينتهي، يموت. هو تخلى عنك بإرادته. وهل لو حاول أن يسترجعك فسيسعدك ذلك وقد رأيت إمارات كرهه لك بعينك. أن تحدث المعجزة ويسترجع طبيعته التي أحببتها، طبيعته التي تشكين الآن أنها كانت فعلا طبيعته. هذا هو ضعفك. حب غير ناضج، يؤمن بالمعجزات، أمور مراهقة، التحولات المفاجئة. أوقفي هذا الجزء غير الناضج عند حده، اكشفيه، ضعيه في دائرة النور. لا تجعلي جزءا عفنا مشوها يحب أن يبقى في الظلام يتحكم في حياتك. بالنسبة لي، في سن الثامنة عشرة، كان هو الحب والنمو والأمل، كان الحياة والعمق والموضوعية، كان الثقافة والفن والحساسية للناس وللحياة. عمري الآن أكثر من أربعين عاما، كبرت، وهو، مرضت روحه، تغلبت عليه عقده، أصبح شحيحا، صغر، قل.

وأنا عائدة لمنزلي من العمل كانت احدى صديقتي التي دعوتها للغداء تمشي بجواري وتتحدث كالعادة عن مشكلتها، عن مشاكلها. كنت أراقب



fb/mashro3pdf

انطلاقها في التعبير عن نفسها بإعجاب. اشتريت في الطريق خزين خبز بلدي، إذ لا أجد النوع الذي أفضله كل يوم. وفي البيت قلت لها أننا سنأكل صنف ربما كان غريبا عليها: فول أخضر بالخرشوف والشبت والمرق، اندهشت، إلا أنها وكما قالت ضاحكة ستوافق على أي شيء لتجرب. أعطيتها الكتب التي اقترحتها عليها واتجهت للمطبخ. سأريح أعصابي قليلا بتقطيع كمية الخبز التي اشتريتها: رغيف، رغيف، على أربع قطع متساوية، ثم أضعهم في الكيس ببطء ونظام. رغيف فوقه رغيف آخر. هكذا بالأعمال الروتينية أسترخي، رغيف، ثم آخر، ثم آخر، على أربع قطع.

جلسنا نأكل فجاء الفنان يحوم حولنا، ينظر لأطباقنا ولما على المائدة. كنت قد قدمت له طعامه قبلنا. كل ما يحبه، على مائدته في حجرته كما يحب، ولم نبدأ نحن في تناول الطعام إلا عندما انتهى هو. هكذا أفضل، تجنبا لأي رد فعل قد يحدث نتيجة لإحساسه فجأة أنه أهمل، أو أني أفضل نفسي أو ضيفتي عليه. حاول جر الكلام معها، وهي استجابت حرجا، واحتراما أيضا. حاولت أنا أن أقطع الطريق. لا أود أن تقول شيئا يستطيع أن يستعمله هو ضدي بعد أن تمضي بمهارة شيطانية كموضوع لتنغيصي. ولكن، لماذا أتأثر لهذه الدرجة بكلامه؟!، اصحي لنفسك. تركناه وجلسنا بحجرتي وهو يحوم في الصالة، حتى استقر على كرسيه في مدخل حجرته يراقب. عندما رأى استعدادي للخروج عاجلني: "تخرجين الآن، وماذا سأتعشى أنا؟ حضري لي عشائي قبل أن تخرجي". "ماذا؟ ماليش نفس: ربما بيضتين وحلاوة وكام زيتونة". ابتسمت، لابد أن يجد لي ما أؤدي به الواجب نحوه قبل أن اخرج. قابلنا أحد معارفي الذي لم أره منذ زمن طويل في جروبي. ضحك وذكرني بأيام الجامعة، حيث كنت أيامها في "حالة حب"، أذهب للجامعة لأحضر المحاضرات فقط وأنصرف مسرعة لمرسم الفنان لأبقى معه هناك بقية اليوم، أعيش حياته وأخرج معه مشاويره وأعود



fb/mashro3pdf

لحجرتي في بيت الطاليات مشحونة بالانفعالات. دار الحوار في البداية حول اختيار الكتب للترجمة وكيف أن هناك محاذير لنشر بعض الكتب إذا ترجمت، الجنس أولها. دار حوار مطول عن "تابو" الجنس في الحياة المصرية. انطلقت شاكية من صعوبة أزمة الجنس. صوتها وشى بحرمان ولهفة. كانت يائسة. جاراها هو من منطق "تنظيري" للمجتمع، كعادته، وسكت أنا مراقبة، كعادتي. عرضت أن أوصلهما بسيارتي إلى حيث من الممكن أن يجدوا مواصلات. أوصلتها للميدان حيث ستركب ما يوصلها لبيتها. انطلقنا بعدها بالسيارة إلي حيث سيركب هو لخارج القاهرة. شعرنا بمتعة ما أننا أصبحنا وحدنا. تحدثنا عن الكثير، حياتنا، مشاكلنا، إحباطنا، أولادنا، مسئوليتنا، أماكننا القديمة، الحياة، تكويننا الأول، مواقفنا من بعض الأشياء. كنا نقفز من موضوع لموضوع بسرعة، كما لو كنا نسارع لنحيط بكل ما يمكن. وفي المكان الذي يجب أن يركب منه ظللنا نتحدث في السيارة لمدة طويلة، ربما ساعة. شعرت أنه يحب وجودي، وشعرت أني استمتع بوجود رجل إلى جواري يحب وجودي، يسمعني، وحلمت أن ألمسه رغم أني لم أنجذب له أبدا بأي شكل في الماضي.

عندما فتحت الباب في منزلي كان الوقت قد تأخر ويبدو أن البيت نام منذ زمن. خلعت ملابسي بسرعة ودخلت سريري. هل يصلح هذا الرجل لأن أجعله بطل أحلامي. كانت الأفكار تدفئني وتبعث الحرارة في أوصالي. أتخيل نظرته لي، سأعجبه، يده على شعري، على وجهي، عنقي، كتفي العاري، على صدري . توقفي. لا، لا أستطيع. سنجلس متجاورين، فخذي جانب فخذه. لا أريد قبلات، لا أستطيع. حضنا، لمسة، قد تؤدي لشيء، أو لا تؤدي. آه، أجلس بجوار رجل، يمتلئ بالرغبة، فيّ. يحمر وجهي. أخجل ، ولكن سعيدة. أين؟ كيف؟ سقطت في النوم وأنا أحلم وأفكر. وفي الصباح كان نشاطي والطاقة التي قابلت بها يومي مثيرة لانتباهي. كنت أتحرك في البيت، وابتسم بصبر للفنان، واستعد للخروج للعمل تحيطني هالة من



fb/mashro3pdf

السعادة والهدوء. أنا لست في حالة حب، أعي ذلك تماما، ولكن إحساسي بإعجاب رجل ليس بالقليل. أما الفنان فقد أصبح فجأة في الدرجة الثانية. تعاملت معه بتسامح وابتعاد، ولعجبي فقد تعامل هو بالتالي معي بحذر ومراعاة أكثر. تأملني، فلم ألق بالا. إلا أنه بعد قليل انشغل بشئونه وتطورات علاقته الجديدة بالمدام التي يدربها لتصبح مروجة أعماله، فأدار ظهره ولم يدقق ليعرف ما غيرني. في المساء تمرنت كثيرا على العود. ثم عند دخولي سريري تركت العنان لأحلامي، وأخذت أريح نفسي بنفسي. أخذ خيالي يصل لأبعد وأبعد. كدت أصل للنشوة إلا أن خجلي وأنا أتخيل قربه من أجزائي الداخلية أزعجني، فتجاهلت وجوده وأكملت الرحلة وحدي. في اليوم التالي عندما عبرت ميدان باب اللوق، أحمل شنطتي القماش، مملوءة بالخضر والفاكهة، شعرت، وبوعي، بكل جزء من جسدي. فكرت: أخيرا، جاء الوعي. هل هو إرادي؟ نجلب الوعي بأجسامنا عندما نريد ونتناساها عندما نريد. هاتان قدماي، داخل الحذاء، أستك إحدى الفردتين يضغط على مشط قدمي أكثر من الآخر، ساقاي تحملاني. ستحملاني بشكل أفضل لو رفعت ظهري وشددت عضلات ساقاي، ففعلت. ذراعاي متناسقتان، رقبتي طويلة، فلتعدلي أكتافك. لا أمر بأحد إلا وينظر، أو يتمعن في وجهي. أذناي بالحلق، جميلتان: أذناي تسمعان جيدا وتميزان. شعري، ليس في أفضل حالاته، إلا أنه حر، وحي. زممت شفتاي، ماذا تريدين أكثر؟ الحمد لله.

كانت المشاعر الدافئة لا تزال تسعدني عندما مررت بعد العمل على ماري. كنت أرغب أن أحكي عن هذه الأحاسيس. قلت لها عن أحلامي وكيف أني منذ طرأت لي هذه الأفكار وأنا سعيدة، أكثر اتساقا ، أكثر صبرا وتسامحا. قلت أني أعرف مسئوليتي تجاه الرجل الذي علمني أغلب ما أعرف، عن الحياة والحب والجنس، الثقافة والعلاقات الإنسانية، إلا أن الحلم كان كصمام أمان. حكيت لها عن إحساسي بالخجل عندما حاول رجل



fb/mashro3pdf

الحلم لمس أجزائي الداخلية، فاكتسى وجهها بالجدية واستمعت بتركيز ثم قالت: "لا أظن أنك مستعدة بعد لعلاقة أخرى في حياتك. أنت وصلت إلى قدر أفضل من الوعي بالذات، الوعي باحتياجاتك وأنوثتك. استطعت أن تريحي نفسك بنفسك بمساعدة خيال رجل، هذا جميل، إلا أن هذا هو الحد الذي تحتمليه الآن". ثم حدثتني ضاحكة عن مقالة قرأتها عن مزايا العادة السرية وأفضليتها عن الجنس العشوائي. فهي نظيفة، ومأمونة ولا تعرض لمخاطر الايدز، ثم أن كل واحد يعرف نفسه أفضل، أليس كذلك؟!. ضحكنا، ثم واصلت بجدية: "أنت بدأت تشعرين أخيرا كما قلت بوجود الرجال حولك، ولكن لا تندفعي، أنت لست مستعدة بعد، اتركي الأشياء لتطورها الطبيعي". فاجأها محاسب الضرائب بالزيارة وأنا عندها. فقد الرجل ابتسامته وجزءا من تحكمه في نفسه لحظة أن دخل الحجرة. ظل يحدق في وجهي ثم يدير وجهه متشاغلا بشيء آخر بمجرد أن ألتفت إليه. بدأت ماري بطريقتها العصبية اللاهية تسألني عن عروسة للأستاذ، فهو غير متزوج، بينما هو يضحك ارتباكا. فقررت أن أشترك في لعبتها. سنقلب الموضوع مرحا. يعجبني خجله، ويعجبني إعجابه بي. ربما كان أكبر مني بسنوات قليلة. يلبس بدلة وكارافات وصديري، أنيق بتحذلق. ملامحه الممسوحة غير المميزة من النوع الذي لا يجذبني. وجه مستدير، والعينان أيضا، أنف مصري غير مميز، شفتان ممتلئتان يضمهما في خجل كطفل مرتبك، وشعره الغزير مدهون ومصفف بعناية. أخذت اسأله عن مواصفات العروسة. قلت له إن أمي ماهرة في هذه الشغلة. سألته: "ولكن لماذا لم تتزوج للآن؟!". وانطلقت أكثر، رغم اندهاشي من نفسي: "السبب أنك لم تتزوج لهذه السن إما لا مؤاخذة..." فأكملت ماري ضاحكة: "خوخو" ، فأكملت أنا بجدية مصطنعة: "وإما بخيل، وإما الظروف، وإما لا يعجبك العجب. فأيهم أنت؟". ضحك بارتباك فأشفقت عليه وكدت أندم على جرأتي،

fb/mashro3pdf

إلا أنه قرر فجأة أن يتجاوب مع أسئلتي. حكى عن تجارب حب في بداية حياته. بدأ يحب منذ سن صغيرة جدا. وظل يحب، ويحب، إذ يحب الحب كما قال. "حياتي في الحب". أعجبتني اللغة التي عبر بها عن نفسه، إلا أني، وكعادتي في السنين الأخيرة، أشك في تلك الرومانتيكية، في وجودها بصدق أساسا، وفي سننا هذا. هذا الرجل، قلت لنفسي، إما ساذج وإما ممثل. قلت له أني أعتقد أنه خائف من الحياة ولذلك تمسك بدرجة نضج عاطفي أقل وقرر أن يحمي نفسه بالاحتفاظ بذكرى حبه القديم. لا أعرف كيف تحول الحديث ولكن وجدتُ نفسي أتحدث بانفعال عن علاقتي بالفنان. أؤكد، وأود لو يتفهما، أني أشعر أن الفنان لا يحبني. ربما يريد الاحتفاظ بي، إلا أن هذا لا يعني الحب. الحب شيء متبادل. عطاء متبادل. تمن الخير للآخر ، فهل علاقتنا الآن تأخذ هذا الشكل؟! أشعر أنه يستخسر فيّ أي شيء يمكن أن يريحني. فهل هذا حب؟ صمتا كليهما، احتراما لانفعالي، وللدموع التي ملأت عيناي. أعجبني أن اشعر أن الرجل الجالس أمامي يمسح وجهي بعينيه وقلبه. ها أنذا أتفتح لرؤية وملاحظة ما لم أسمح لنفسي أبدا برؤيته أو ملاحظته من قبل. كان حبي للفنان ورغبتي في أن يبادلني الحب بمثابة حدود أضعها حولي. لم أكن اشعر، مجرد الشعور، بإعجاب رجل آخر، أو حتى بنظرته. لم أكن حتى أشعر بوجود الرجال الآخرين كرجال. الآن أشعر أني بلا سدود. كان الحب القديم سدا، خذلني صاحبه، وضحى بي بدل المرة أكثر من مرة دون أن يلقي بالا لألمي. الآن انتهى حتى الحلم بأنه يمكن أن يحبني، أن يعتني بي في يوم ما. فقدت الأمل، فاختفت الموانع والسدود. ظل الأستاذ يحاول جاهدا أن يجمل الصورة، يسعى في "الصلح" كما يقول.. إلا أني عندما أوقفته، بنظرتي وبجمل قصيرة ولكن تحمل شجنا، أخفض عينيه، وتوقف احتراما لصراحتي. عندما دفعت ماري الأستاذ للانصراف، بكلتي يديها، نحو الباب، استدار ليحييني.



fb/mashro3pdf

احتفظ بيدي، وأنا مازلت جالسة على كرسيّ ساقا فوق ساق. لم أرغب في الوقوف. شعرت أني أنثى، تدلل وتحترم.

بعد انصرافه ظلت ماري تحكي عنه. قاطعتها باعترافي أنه أصبح يعجبني الشعور بوجود رجل في المحيط القريب، وأن هذا الشعور جديد عليّ. اعترفت بكلمات سريعة أني استمتعت يوم أن سلم عليّ قريبها الشاب الخواجا، واصفا إياي بـ"الست الحلوة". ملمس خده على خدي، شاربه، ورائحة عطره الرجالية، ولفحة تنفسه. كان صغير السن، مهذبا، كأولاد الناس حسني التربية، أشقر، وأقرب إلى السذاجة، إلا أني استمتعت برجولته، باللمسة. أمتعني أكثر أني شعرت أنه هو أيضا استمتع بتلك الحميمية الخاطفة. قلت أني اشعر بالرغبة في اللمسة، وأن الفنان يبتعد ويبتعد، حتى أني لم أعد أدري، هل لو عاد، وهو احتمال شبه مستحيل، هل سأشعر بلمسته مجددا؟ هل سأشعر باللمسة التي تعلق بها شبابي وتفتحت بها أحاسيسي. كنت أتحدث بسرعة وأنفاسي تتلاحق. كنت أسألها السؤال تلو الآخر ولا أنتظر إجابة. ماذا يحدث لي؟ ماذا سيحدث لي؟ هل هناك تناقض؟ كانت تبتسم وأنا أتحدث، تقاطعني من حين لآخر لتروي بعضا من تجاربها. كنت أنا أحكي عن انفعالي بمجرد وجود رجل يجلس على كرسي أمامي، أو يتحدث موجها الحديث إليّ، وكانت هي تتحدث عن العدد اللا محدود من الرجال الذين كانت لها معهم علاقات حميمة. فعل طبيعي، لا ينقصه الاحترام مادامت هي ترغبه والآخر أيضا، إذن فالتجربة لها معنى. ابتسمت وأنا أصف نفسي بالوصف المصري الدارج "أبيض ياورد". سألتها عن فصل الجنس عن الحب. وتحدثنا عن أنواع الحب. كانت تأخذ السيجارة وراء الأخرى، وقد أشعلت شمعة من نوع مخصوص لتقلل من أثر رائحة دخان السجائر. كانت تجلس على حرف الكرسي تستمع إلي وكلها انتباه وتعاطف. كنت قلقة وحائرة، ولدي مخاوف. طلبت أن نستكمل حديثنا في الحمام لأنها يجب أن تضع قدميها في الماء المذابة فيه بعض



fb/mashro3pdf

الأملاح الخاصة. جلست أنا على غطاء التواليت وشمرت هي بنطلونها وجلست على حرف البانيو. تخلصت من الحبل بالصفارة الذي تعلقه في رقبتها للنداء على الخادمة، ثم انزلقت بكل نصفها الأسفل في الماء، بكل ملابسها. ظلت تدعوني ألا أهتم بأنها تجلس بكل ملابسها في الماء، وتؤكد أنها ستضعها كلها في الغسالة على أية حال. ابتسمت. ففي الحقيقة لم أكن مهتمة. قالت أنها طبعا عادة تخلع ملابسها، وكونها نزلت في البانيو بملابسها فهذا ليس عادتها، ولكن معلهش. لم أعلق واحتفظت بابتسامتي. عندما استقرت بكل جسمها في الماء قالت بسرعة بلهجتها الخواجاتي: فلنعد لما كنا نتكلم فيه. قالت: أتعرفين أني ظللت عذراء حتى سن الثالثة والعشرين، وبعدين... وأشارت بيدها ورأسها" خلاص" وحتى الآن، أنا في الثانية والستين، مازالت لدي الرغبة نفسها، وأحصل على المتعة نفسها. قالت أنها مندهشة من ذلك، ولكن .. وهزت كتفيها: "اللي حصل!". كان تداعي أفكارها سريعا ، ولمن لا يعرفها قد لا يستطيع الربط بين ما تقول. ثم تطرق الحديث عن غضب أقرب صديقاتها أخيرا من الفنان عندما أفشى سرا لم يكن من الواجب إفشاؤه، خاصة لأقاربها. كنت أسمع وأنا أجلس هادئة لا يوحي وجهي بأي شيء. كنت أعرف هذا السر منذ زمن طويل، إذ كان من ضمن القصص الكثيرة التي حكاها لي الفنان. كنت أعرف وأعرف، إلا أني فضلت أن أبدو دائما كالساذجة التي لا تعرف أي شيء. كان حفظ السر جزءا من طبيعتي، ومن مصادر فخري بنفسي. كانت تخبرني عن تفاصيل سر صديقتها. عن حرجها عندما وجدت إحدى قريباتها تعرف من الفنان ما أخفته هي عن عائلتها طوال تلك السنين. كانت ماري تقطع الحديث بين الحين والآخر لتطلب تعهدي بحفظ تلك الأسرار.

سكتت قليلا، ثم قررت أنها ستخبرني بسرها الكبير.عن علاقتها بإحدى الشخصيات العامة الشهيرة الذي كان الحب الكبير في حياتها. الحب الوحيد الذي كان جسدا وروحا. بدأ الأمر يصبح أكثر تشويقا بالنسبة لي.



fb/mashro3pdf

لاحظت أني التفت إليها وقد اتسعت عيناي. بدأت تحكي بالتفصيل. وعندما كررت اسم تلك الشخصية اعتقدت هي أن مبعث اندهاشي أنه شخصية عامة، أو أنها في ذلك الوقت كانت تسكن مع زوجها في الهند وكان هو في البلد العربي. بدأت تغرق في التفاصيل، ربما لتحاول اكتشاف سبب دهشتي. قاطعتها وأنا أبتسم: "ماري، هل أنت متأكدة أن هذا الشخص هو بطل قصة حبك الكبيرة؟" قالت: "ماذا تقصدين، وهل لا اعرف من هو حبي الأكبر؟!" حكت عن التفاصيل الدقيقة للقصة. ظلت تتحدث لتقنعني وهي لا تعرف سبب إلحاحي في الأسئلة. قلت: "ماري، هل تحفظين سرا؟ الفنان، صديقك القديم، يعتقد أنه هو بالذات حبك الوحيد. وأنه أبا طفلك". قالت باندهاش حقيقي: "ماذا؟!، ولكني لم أنجب أبدا!". ضيقت عيناي في تعجب، قلت: "لقد كتب مقالة عن الموضوع، يربط فيها بين الجماهير الباكية المنطلقة يوم موت عبد الناصر في الشوارع تبكي من تتوهم أنه أباها الحقيقي، وبين ابنك، الطفل الصغير الجالس بهدوء أمامه ليرسمه، وهو لا يدري من أبوه الحقيقي". قالت: "نعم ، سمعت عن تلك المقالة، وخاصة أنه كان يرسمني يوم وفاة عبد الناصر. ولكنه يعرف جيدا من حبي الوحيد، ويعرف جيدا أني لم أنجب أبدا". حكيت لها عما حكاه لي حول ذلك المقال، عن ألمه بعد أن عرف أن له طفل، وأن هذا الطفل لا يعيش معه ولا يستطيع أن يراه لأن زوجك أخذه وسافر بعيدا، وكيف كان ينظر لواجهات العرض في محلات أحذية الأطفال ويتمزق من الحزن لأن له ابن ولا يستطيع شراء حذاء له. بدأت في الضحك الهستيري. صمتت قليلا ثم قالت: "هذه والله غريبة. يسمع القصص عن آخرين، فيصنع من مجموعة قصص قصة واحدة ويركب نفسه عليها وفيها. لست مندهشة. الفنانون يصنعون بأنفسهم وبالآخرين أغرب من ذلك". سكت تماما لدقيقة ثم قلت بجدية: "ماري، هل أنت متأكدة؟!". نظرت لي محدقة في استغراب. كنت قد تعودت، ولمدة طويلة، على تصديق ما يقول لي، ما يحكيه، دون مناقشة.



fb/mashro3pdf

والآن – كالمغسول مخه- أنا أشك فيما تقول، وذلك لمجرد أن الفنان حكى لي حكاية مغايرة. ياالله، هل كان يجب أن يهتز كل شيء لهـذه الدرجـة. قالت بلهجة جادة: "أريد أن أقول لك أنه لم تكن بيني وبين الفنـان علاقـة كاملة أبدا. كان هناك في مرحلة من المراحل بعض الاستلطاف، ولكن لـم يكن بيني وبينه قصة حب أو علاقة حسية أبدا". كانت دهشتي تزداد. لكـن لماذا أشك في روايتها؟ هي حكت الكثير عن حياتها الشخصية، وتعرف أنه من المستبعد أن أتحول ضدها إن هي حكت عن علاقة قديمة بزوجي بحيث تضطر لإخفائها. أعتقد أنها صادقة. ظللت أهـز رأسـي و أردد: "مـش معقول!، مش معقول!". كانت قد خرجت من البـانيو وبـدأت فـي خلـع ملابسها. استرقت النظر. في هذه السن: ثديان بديعان مع الأكتاف، بطـن مستديرة وأرداف لم يصبها الترهل. شعر العانة أصفر وطويل، طويل جدا. ابتسمت لخواطري عن أهمية الجنس لكي تحتفظ المرأة بشباب جسدها. لفت نفسها بالبشكير وارتدت ملابس خفيفة وجلسنا في الصـالون. بـدأت هـي الكلام بأن نظرت في عيني وبإشارة من يدها بادرتني "انتظري هنا، أنت.. هل تصدقين قصتي أنا أم لا؟". كان سؤالا مباشرا. شعرت أنـه يجـب أن أكون على مستوى صراحتها ومباشرتها في الحوار. قلـت: "مـاري، أنـا حائرة. أقول لنفسي: كيف لا أصدقك؟!. فبالنسبة لك لا داع لاختلاق قصة. ولماذا تختلقين قصة؟ إلا أني وفي نفس الوقت لا استطيع أن امنع نفسي من الدهشة: كيف كان من الممكن أن يخترع كل تلك التفاصـيل؟ المبالغـات. كيف وصل لتأليف كل ذلك. كيف صنع دراما من أنه أقسم ألا يلمسك أبـدا بعد أن عرف، وكيف أنك، نتيجة لألمك من الحرمـان منـه، وفـي ليلـة رومانتيكية، لا أذكر في أي مكان في إيطاليا أو أسـبانيا، أخـذت عـازف الجيتار لحجرتك لأن عيناه العميقتين الحزينتين ذكرتاك بعينيه. وكيف أنـه تفهم ذلك كضعف إنساني وغفره عندما أخبرتيه. يانهار اسود، كل هذا كان تأليفا؟!". هزت رأسها وقالت: "ممكن، ممكن، يسمع قصة، يطبقهـا علـى



fb/mashro3pdf

نفسه، ويصدقها، ويحكيها. لا تندهشي، هذا يحدث، في باريس وروما، وفي كل العصور، الفنانون يألفون ويتخيلون ويبالغون". بدأت تحكي عن علاقتها بالشخصية العربية الشهيرة. كانت صغيرة عندما عرفته. أفهمها وعلمها الكثير عن الحياة، وعن الجنس، وعن نفسها. كيف كان رجلا مميزا. كيف كان مرتبطا ببلاده، وعلى مستوى المسئولية. كيف قال لها أنه لم يكن بيده أن يتخلى أو يتقاعس. وكان كل ما حدث بعدها بمثابة قدره المحتوم حتى مات بالطريقة الغريبة التي مات بها. حكت لي عن اليوم الذي أخبرتها به خادمتها مشوهة الظهر في الهند عن الأخبار الحزينة القادمة من العالم العربي. غاص قلبها وعرفت، حتى دون ذكر الاسم. كانت تشعر أن بينهما ارتباطا ما على البعد. حكت عن آخر مقابلة بينهما قبل ثلاثة أشهر من موته، وكيف كانت مثالا لتحول علاقة حب إلى صداقة رائعة. لم يمارسا الجنس، ولكن ظلا يتحدثان حتى الصباح عن كل ما يمكن تصوره. كان هو من علمها فصل الجنس عن الحب. وكيف يمكن أن تحبه من كل قلبها، ويحبها هو؛ ولكن الظروف تدفعهما لأن يلبيا نداء الجسد مع آخرين، كل من ناحيته. حكت وحكت وأنا من داخلي أرتبك أكثر وأكثر. كنت كالسقا الذي تعود على حني ظهره للأمام لحمل القربة عليها، أو كبائع العرقسوس الذي تعود على تقعير ظهره. لا يمكن لأي منهما تغيير وضعه هكذا ببساطة. كيف كنت كل تلك السنين أعتقد أن له ابن!، أفكر في شكله وأتمنى أن أقابله وأبحث عن شبه ما يجمعه بالفنان. والآن، الحكاية كلها فالصو في فالصو؟ هو حتى لم يمارس الجنس معها!. ما مدى الكذب في كل ماحكاه لي وتعلق به تحديدي لمثالياتي وأفكاري؟ ما مدى الكذب فيما أظهره لي من مشاعر، ما هي مصداقيته لدي الآن؟ ماذا أصدق وماذا اكذب؟ كان عقلي يطن كعش النحل. أتساءل إن كان الذنب الأكبر يقع على أنا، من رسمت الصورة، بخيالي، من معطيات لم أتأكد من صحتها أو واقعيتها. هل جاءت هذه الصور المبالغ فيها عن احترام وتقديس الفنانين والشعراء والكتاب من



fb/mashro3pdf

إحباطي؟!، من عدم قدرتي على تحقيق ذاتي، من تقليلي لقيمة نفسي في مقابله؟!.

عندما فتحت الباب بمفتاحي وجدته واقفا في الصالة كما لو كان في انتظاري. سألني "أين كنت؟". قلت باختصار دون أن أنظر إليه "عند الدكتور". قال: "أي دكتور؟"، قلت بتحد: "دكتور نفساني ...". سكت فجأة تماما وتعلقت عيناه بي. كنت متأكدة أنه يحدق بي رغم أني لم انظر إليه. أعرف أيضا أنه بمجرد أن أستدير له بوجهي، سيتحول هو بعيدا ليتجنب أي مواجهة.

ارتحت كثيرا للحديث معها، إلا أن انفعالات السعادة والارتياح التي غمرتني طول نهاري بدأت في البهتان. وهكذا، عندما مضيت بعودي في المطر لألحق بدرس العود كنت أعود للكآبة، للإحساس بالحرمان. وفي المساء عندما تحدثت عن مدرس الموسيقى الشاب بإعجاب هبت ماما لانتقادي في قلق، وتذكيري بأني متزوجة، فسكت. تذكرت تلك المحادثة القديمة مع جارنا، عندما كان يتحدث عن فارق العمر أثناء استعدادي للزواج. حكى بتفصيل ممل عندما عاكسته في شبابه زوجة صغيرة السن لأحد الرجال "الأفاضل" ذوي المراكز، الذي كان أكبر منها بسنوات. وعندما حكى أنها قالت له: "نفسي فيك يا ولد" قاطعته ماما بانفعال: "ماذا تقول؟! ابنتي طبعا لن تفعل ذلك".

fb/mashro3pdf

# ٤

"أنا باكره الزهور المستوردة، باكرهها".

"ليه؟". قالها دون أن ينظر لي. فهِم طبعا، ولكن لا يريد ان يظهر فهمه. أضاف، بصفاء نية مفتعل: "إحنا في الشتاء ومفيش زهور كويسة". كررت: "أنا أكره الزهور المستوردة، أكرهها". واتجهت للحمام. وقفت في نص السكة للحمام، سكنت للحظة، ثم عدت خطوتين حتى صرت في الصالة مرة أخرى و كررت: "أنا أكره الزهور المستوردة، كل أنواع الزهور المستوردة، ما باحبش ولا نوع. باكره كل أنواع الزهور المستوردة". قال ببرود: "لماذا تكررين؟! أنا سمعت. وليه منفعلة كده؟!". وظهرت على وجهه ابتسامة خبيثة.

أدرت ظهري بدون أن أرد، ودخلت الحمام. في ثانية كان هو يصفق باب الشقة وراءه، ومعه فوقية. خرجت من الحمام بمجرد أن سمعت أنهما خرجا. صوتهما عند الأسانسير يصلني، لكن لا أستطيع أن أفسر الكلمات. اقتربت من باب الشقة وحاولت أن أسترق السمع. لم استطع. "هل يتكلمان عني؟". ألصقت أذني بالباب. نزعت خدي من ملمس الباب وبصقت في الأرض: "اخص. فوقي لنفسك، يتكلموا، ما يتكلموش، أنت أكبر من الزبالة دي، ولديك ما يشغلك".



fb/mashro3pdf

في الصباح الباكر كنت أسمعه يتحرك في المنزل ليستعد للنزول. راقدة في فراشي مفتوحة العينين. لن أذهب للعمل اليوم أيضا. أود التغلب على دور البرد بأسرع ما يمكن. لن أغامر بأي شيء حتى لا تحدث لي نكسة. فتح باب حجرتي وقال وهو يقف على الباب: "أنت تعبانة؟". قلت "أيوه". لم يعلق. تعودت الآن على ذلك، إلا أنه أحيانا ما تكون هناك مازالت بعض أمنيات، أحلام. (يسارع بقول "سلامتك". يعزم بإلحاح أن يصنع لي مشروبا دافئا. يجيء فيضع يده على رأسي. يملس على شعري. يكرر، وهو يعنيها، سلامتك، سلامتك ...). لم يحدث من قبل، ولن يحدث أبدا. منذ تزوجنا كلما مرضت يأتي في الصباح الباكر ويقول: "آه، أتركك إذن لتستريحي!"، ويختفي اليوم كله وحتى المساء المتأخر. ها ها ، يتركني أستريح!. قال وهو على باب الحجرة: "اليوم أعلق الصور في قاعة العرض ...". وقف صامتا لدقيقة ثم أغلق الباب وراءه وخرج. آه، إذن سيعلق المعرض اليوم!. مبروك. سيعلق المعرض دوني. وبعدين: انفضي عنك هذا الموضوع الآن!. هذا الأمر لم يعد يخصني. منذ الآن لن تخصني مثل هذه الأمور. حتى لن أفكر. أغمضت عيني. رأسي تؤلمني، ونفسي أشده من فمي، فتجف شفتاي. غفواتي هذه الأيام مليئة بالأحلام. أحلام كأنها شريط سينمائي لأفلام من تأليفي واخراجي. الفيلم الآن عن اليوم الذي علقنا فيه صور أول معرض له ونحن معا. كان في المركز الثقافي. تطوعت لأساعد في جعل الصور على مسافة ثابتة من الأرض وسمعته يقول من ورائي: اتركوها لهذه المهمة، فهي دقيقة جدا، كشهرة كل عائلتها. كان يتكلم عني كأنه يحكي عن شخص غريب لا يخصه. هل كان في صوته لامبالاة؟، تهكم؟، كما لو كان يريد ان يقول أن هذه هي مهارتي الوحيدة؟!. أغفلت ذلك عن نفسي وتجاهلته وسعدت فقط بالفكرة الايجابية. أيقظني الحلم واستفزني. ذلك زمن كنت أعلق معه فيه معارضه، ألازمه، وأسعد



fb/mashro3pdf

بملازمته. لم أعرف أبدا هل سعد هو أيضا بملازمتي أم لا. في رقدتي، قرصني مرة أخرى أنه ذاهب ليعلق المعرض، دوني، أو حتى دون أن يفكر للحظة أنه يحتاجني. (آه.. هي هنا المشكلة. أنت تريدين أن يحتاجك حتى يصبح لك قيمة؟). سأحاول الآن معالجة نفسي كما قرأت في الكتاب الذي اشتريته بالتفكير العميق والتأمل. أرى نفسي جميلة، محبوبة، معطاءة، كريمة، موهوبة ورقيقة وحساسة، دون أن يحتاجني هو لأعلق له معرضه. أخرجت الورقة التي قصصتها من جريدة الأهرام لبريد الجمعة في الرد على احد القراء والتي قرأتها عشرات المرات حتى الآن: "لقد احببت باخلاص، وكرهت الغدر، وآمنت بالخير والحق والعدل والجمال، والمثل العليا. وكان ذلك لنفسي ، قبل أن يكون لغيري. فإن كافأني الغير على ما حملت لهم من مشاعر طيبة بالوفاء لي، فبها ونعمت، وان جحد البعض عطائي ومشاعري وإخلاصي، فلقد استمتعت بممارسة احساس العطاء والحب والوفاء والنبل، ولي ما احسست به ، وعليهم عاقبة ما فقدوه من عطائي السابق لهم، وفي ذلك بعض العزاء".

لا اذكر بدقة متى ظهرت في حياتنا تلك المرأة. أتى بها أصدقاؤها لزيارة الفنان فوجد فيها ضالته التي يمكن أن توصله لطبقة الأغنياء الجدد التي كانت تملك الثروة في ذلك الوقت. عرض أن يدربها لتكون "مديرة أعماله" ووجدت فيه هي مشروعا ذا بريق تبدأ به حياتها مرة أخرى وهي تخرج من تجربة زواج فشلت. تقترب من الخمسين. الشعرة جنب الشعرة بلون مدروس، وكل ما في وجهها مرسوم وملابسها كصور المجلات. تتكلم على مهل وتضغط على الحروف بطريقة مثيرة ولا يمكن أن ينتبه الرجال في أي جلسة هي فيها لغيرها، إذ تشد الجميع من آذانهم فيدلدلوا شفاههم وتنساب ريالتهم. عندما قابلتها لأول مرة كانت قد طلبت من الفنان أن تأتي

fb/mashro3pdf

لتشاهده وهو يرسمني ليستكمل لوحة بدأها لي منذ زمن طويل. رجته بإلحاح أن يستأذنني أولا فقلت له مندهشة وساخرة: "يا سلام على الأصول والتربية؟!". أتت مبكرة وحضّرت له المشروب أو "الدرنك" الذي قالت لي بلهجة العارف أنه يفضل دائما أن يأخذه قبل أن يبدأ في الرسم، فقلت مندهشة: "منذ متى؟!! هذه أول مرة أراه فيها يشرب قبل أن يعمل". ثم أضفت: "أساسا هو لا يشرب أبدا وحده ودون صحبة أصدقاء!". ثم بدأ يعمل في اللوحة، فأتت وجلست وراءه مباشرة على الأرض. هو يعرض عليها أن تفرش شيئا نظيفا تحتها إذ كانت تلبس حريرا هفهافا بلون باهت فتقول أن تراب أرض مرسم الفنان تراب مقدس وتضحك ضحكتها المبحوحة. تنقل عيناها المرسومة بين الصورة التي يرسمها وبين "الشيء" الذي يرسمه، الذي هو أنا. هو يتحدث طول الوقت بشكل استعراضي وهو يرسم: "سأرسم الآن الأصابع الدقيقة تمسك بريشة العود، والآن أضع لون البلوزة الأحمر ليجاوب لون البشرة، والآن لمعة ونقوش السوار التركي العريض.." فأتوقف عن العزف لأقول ساخرة: "هذا السوار رمز عبودية حريم الأتراك العثمانلية!" فترد هي وعينها على اللوحة دون أن تنظر لي "إذا كانت العبودية هي في واحدة من صور الفنان العظيم فأهلا بها ومرحبا"، فيضحك هو ويلتفت لها بكل جسمه وقد أرخت الخمر ملامحه: "آه، هذه كانت في المرمى، في الجون!" ثم يلتفت لي قائلا بسرعة: "هيا استمري في العزف. نريد أن نفرح بالصورة اليوم لتقف على قدميها. فلتصنع هذه الصورة خلودها اليوم!". كان إحساسي أنه يستعرض عليها، وأنها تعرف، وأن الصفقة بالنسبة لها بسيطة: "أعطني ما أريده، أجعلك تشعر أنك أهم ما في الحياة"، وهذا ما يبدو أنه ما يحتاج إليه الآن. مصالح تغاضى عنها في مقابل وهم تمثيلية صدقها. وظيفتها أن تتعهد بالرعاية حبه لذاته ودورانه حول نفسه وأنانيته. هي فهمت وتنفذ طالما يؤدي لمصلحتها.



fb/mashro3pdf

سمعت أنها قالت: "أنا لم آخذ "منها" أي شيء، ولم أتعد!". نعم، هي لم تأخذ مني شيئا، فالحقيقة أنها كرست ما كان موجودا أصـــلا ولكنهـــا بتكريســـه ساهمت في سقوط الصنم، صنمي المعبود.

بدأ بعدها يزهو. يهتم بملابسه ويعود كل يوم وحوله روائح عطـــور غالية بدأت زجاجاتها الفاخرة تتزاحم على رف الحمام الصغير في المرسم. يطربه أن يجد من يقول له: "طلباتك أوامر!" وقبل أن يفـــتح فمـــه تكـــون الإجابة الجاهزة: "عندك حق". وبدأت المنافسة الخفية "من يخدمـــه أكثـــر". يقول لي في الصباح: "حتجيبي التحاليل من المعمل واللا أتصرف؟" وأفهـــم ما يعني عندما يقول لصديقه في التليفون: "أصلها بتخاف عليّ أوي!". يصر أن أدعوها في كل عزومات بيتنا فترسل السائق في نفس اليوم بالهدية تلـــو الهدية: زجاجات الخمر الفاخرة، أصناف الحلوى التي صنعتها بنفسها مـــن خامات غالية الثمن لا قبل لي بها. ثم تأتي مع المدعوين في الليـــل تحمـــل طاقة الزهور الغالية التي نسقتها بنفسها بطريقة فنيـــة مميـــزة ، فأرجوهـــا بهدوء أن تكون هداياها بالمعقول الذي استطيع رده فيرد الفنان بسرعة أنه لا شأن لي فالهدايا له وأنه من سيردها فأقول له بخضوع متوتر: "اطلـــب منها إذن أن ترسل بها لعنوان المرسم". عندما بدأت أهتز لجأت إليه أول ما لجأت. أجلس أمامه وألح: "قل لي شيئا ترى أنت أني أمتاز عنها فيـــه..."، أبكي وألح وهو يدير وجهه. يقول: "ألا تذكرين ما قلته لـــك عـــن روايـــة "المثقفون" لسيمون دي بوفوار؟! صاحبة هنري المحبطة تبكـــي، تريـــد أن تأخذ منه ما تقاوم به إحباطها". فأقول في حضيض انسحاقي: "ولكن أتوقـــع منك مساعدة في وقت ضعفي. أؤمن بما تقوله بمجرد أن تقوله، فقـــل لـــي أرجوك: بماذا أتميز أنا من وجهة نظرك؟". أنظر له في اســـتجداء فيـــزيح وجهه ويقول بعد تأنٍ: "أنت أعمق إنسانيا. عندك عمق إنساني ليس فيهـــا". فأهدأ إلى حين. وصديقه يقول مبتسما: "يا حرام، قلبي مـــع الفنـــان. أنـــت تشكين ومن الناحية الأخرى هي تتهمه طول الوقت بأنك تحت جلده". يقول

fb/mashro3pdf

لي: "تعلمي منها واللي ما تقدرش تغلبه، إلعب معاه". فأصرخ: "أتعلم منها إيه ..هل جننت؟! عميت؟.. قماشتنا مختلفة، لا هي من توبي ولا أنا من توبها. هل عميت عن هذا أيضا؟!". تذكرت عندما وصلت إلى الكوخ الريفي وحدي، وحدي. دخلت ووضعت حقيبتي في الحجرة. جلست على طرف السرير أنظر من الشباك لفضاء الخضرة والبحيرة الزرقاء خلفها وتذكرت أنه وضعها هنا لتنام عندما أتيا مع المجموعة بدوني، تنام مكاني، في حجرتي، وحزنت، حزنا لا يطاق.

(شهرزاد تحكي بنغمة محذرة حكاية رجل كان عنده كلب، لكن لا يعرف أنه كلب مسحور. يتمسح الكلب في أقدام الرجل، يظن أنه يدفئهم له، فيشوطه الرجل بعيدا. يأتي مرة أخرى وذيله بين رجليه. يجلس أبعد قليلا هذه المرة. يظل ينبح على الرايح والجاي معتقدا أنه يحميه، فيرميه بطوبة ليخرس. يجري الكلب جريحا وهو يلتفت لينظر على من يدخلهم بدلا منه. وفي يوم فوجئ الرجل مفاجأة عمره. "أتاري الكلب ماهوش كلب، إنما مارد جميل بديع، سخط نفسه كلبا من أجل خاطر صاحبه. رضي أن يكون كلبا لأنه فكّر إن صاحبه يريد أو يحتاج لكلب").

إذن يعلق معرضه اليوم. "مبروك" قلت لنفسي. لديه الآن من تقوم بعمل تنظيم المعارض وعملي أنا أيضا بالمرة. أف، وبعدين، وبعدين!! ها أنت تعودين للتعديد على الميت مرة أخرى، أفيقي. (يحبني، لم يعد يحبني، يحبني، لم يعد ... أنا أحبه، لا لم أعد أحبه، أحبه، لم أعد ... حتى نهاية الزهرة). أما هي فأصبحت الآن إذا صادف أن رددت أنا على التليفون تظل تردد بطريقة تمثيلية مفتعلة: "ألووووو، ألوووو، ألـووووو، إيه ده؟ مفيش حد بيرد ، الظاهر الخط انقطع!!" ثم تضع السماعة. أما أنا، فعندما أسمع بداية التمثيلية لا أصر على إسماعها صوتي كما كنت أفعل في البداية. أضع السماعة مباشرة وأريح رأسي. هي تلعب ولا تعرف أني لا



fb/mashro3pdf

أود اللعب، إطلاقا. رخيصة ومفتعلة، وهو معها، للأسف، أيضا رخيص. يقول لصديقه في التليفون: "أرجوك بلغها أنها أصدق ما في حياتي!" وصديقه يقول لي: "ربما يقول لها ما يرضيها من أجل مصلحته". رددت مشلوعة: "يا نهار اسود، فعلا؟!. طيب إذن على الأقل إذا بليتم فاستتروا، أنا لا أريد أن أتفرج على هذا كله، لا أريد أن أسمعه. هذا يؤلمني، يقلله في نظري. وهذا هو أكثر ما يؤلم". وفي زمن قصير، أصبح الفنان مشروعها الخاص. وافقه ذلك، إلا أن كبرياؤه عزّ عليه فحاول تجاهل أنها تساعده من أجل مصلحتها وصنع قصة رومانتيكية غلف بها كل شيء وبالطبع تماشت معه هي فيها. قصة رومانتيكية لن تحتاج منه جهدا أو تواصلا حقيقيا.

بالأمس، كانت رأسي على المخدة تطن، أتدثر بالأغطية، أجاهد لأتنفس من أنفي لأن التنفس من فمي يؤلم حلقي. سمعته يتصل بالتليفون بمحل الزهور الذي وجدت بطاقته منذ أيام جوار كرسيه. قال بلهجته المفتعلة الجديدة: "ألووووو، محل الزهور، أنا الفنان، جت الطيارة والا لسه؟ لسه: طيب وبعدين؟! حاتتأخر؟ لو مش بكره في عيد الحب يبقى مالهمش لازمة. احتمال النهاردة بالليل؟ طيب... سأتصل مرة اخرى". ضغط بأصبعه على زر التليفون وطلب نمرة اخرى. آه.. هذا هو رقمها، أعرفه، ينتهي برقمان صغيران. "أيوه يا ....، أنا كلمت محل الزهور، لم تأت الطائرة بعد!". قالها كتلميذ يحاول حفظ الدرس. سكت منصتا للطرف الآخر على الخط. أدركت من ردوده أنها لم تعلق على موضوع الزهور والطيارة، بل قالت شيئا عن الصور والزبائن ومن منهم كان لديها الآن. تتحدث عن البيزنس وهو يود الحديث عن الزهور والطيارة وعيد الحب. كيف أركِب هذا الموضوع على بعضه؟ الفنان يتحدث عن عيد الحب، فالاثنان؟!! فعلا؟! أربعة وعشرون عاما منذ قابلته أول مرة وللآن لم يبدو أنه حتى يعرف أن هناك ما يسمى بعيد الحب!. طالما تمرد على المناسبات والطقوس الاجتماعية! وطالما أعجبت به لذلك، بل وتبنيت آراءه!. الزهور



fb/mashro3pdf

التي ستأتي بالطائرة ستكون لي؟، أم لها؟، أم لنا نحن الاثنتين؟، آه ربما، حتى لا يزعل أحد!!. هل هي من ذكره بعيد الحب، وأفهمه ما يجب أن يفعل؟! على العموم: ياخبر النهادة بفلوس ، بكره في عيد الحب حيبقى ببلاش.

واليوم عندما فتح الباب بعد ذلك ليقول لي انه نازل، رفعت راسي من على المخدة وقلت في صوت مملوء بالبرد والزكام: "كل سنة وانت طيب، النهاردة عيد الحب". ارتبك قليلا وقال: "آه، ما هي الطيارة لسه ما جتش". سألت باستعباط: "أي طائرة؟!" قال: "الطائرة.. من أجل الزهور المستوردة". قلت باستنكار معاتبة: "زهور مستوردة ايه!، هوه أنا برضه بتاعة زهور مستوردة؟". رد بسرعة: "وليه لأ؟" يود أن تصل لي فكرة أني أستحقها، وأنه لا يستخسر فيّ المستورد الغالي. للأسف أصبح كل شيء يقاس بالمادة، أو ربما يود أن يقول الفلوس موجودة، أنا كسيب، وأقدر أجيب زهور مستوردة. كررت: "لأ ياعم، أنا مش بتاعة زهور مستوردة، أنا...". قاطعني: "لكن مفيش ورد بلدي كويس، ولا حتى عباد شمس ...". قاطعته بدوري: "أنا مش بتاعة زهور مستوردة، وانت عارف، خلّي المستورد لحد تاني". فاستدار وأغلق الباب. يا سلام ، ما هذا الهوان. صديقة زوجي تفهمه كيف يجب أن يتصرف حيالي. لم يكفِ زيفها الزاعق، وزيف علاقتهما، تود دخول الزيف في بيتي أيضا. شعرت أن هناك زوبعة تتحرك داخلي، اعصار صغير، يلف، ويلف، وتزداد سرعته. يجب أن أوضح موقفي، من الزيف، ومن عيد الحب، ومنه. خرجت من الحجرة وجدته واقفا في الصالة وفوقية تصلح له طبقات ملابسه الواحدة مفرودة فوق الأخرى، وهو مستسلم، كطفل، أو كعجوز، رافعا ذراعيه لأعلى. قلت له وأنا أنظر في عينيه: "أنا باكره الزهور المستوردة، باكرهها ، فاهم ، الزهور المستوردة باكرهها".



fb/mashro3pdf

لم يأت يومها أو في أي يوم تال بزهور مستوردة أو محلية. ومرت قصة عيد الحب كأن لم تكن. ولما كنت مازلت على استعداد أن أصنع أي شيء لأرضيه، فقد سارعت بالتلبية في ذلك اليوم عندما طلب مني أن أذهب للمرسم، بعد أن عاد منه بدقائق لأنه تذكر أنه ترك نور الحمام مضاء. لبست بسرعة ونزلت. استقبلتني عند الباب بعد أن فتحته تلك الروائح التي أسرتني وارتبطت لدي بالكثير. الحب والرغبة الحسية، الثقافة والحساسية المرهفة للحياة، العمل الدؤوب... رائحة البويات، والترابنتينه، التراب المخزون في الكتب والقطع الأثرية. كل شيء كما هو: في مدخل المكان الكتب نفسها على الرفوف نفسها من الأرض للسقف في الممرات الضيقة نفسها. عندما وصلت لآخر الممر الأول نظرت لداخل الحجرة التي شهدت الكثير من مشاهد تفتح شبابي وعواطفي وحبي. ضوء الشارع يتسلل من شيش النافذة المغلقة، والكتب والمجلات هنا وهناك. والمخدتان على السرير الأثري، منخفضتان من المنتصف مكان رأسه. مازال إذن ينام هنا عندما يتعب من الرسم. والغطاء الصوفي الأزرق اللون مكوم باهمال على الجانب الآخر من السرير. والأباجورة بجوار السرير، يلعب بفتحها وغلقها بيده أثناء استلقائه، ثم يلتفت لي ورأسه على المخدة. وجهه يدخل بقعة الضوء التي تخرج من تحت قبعة الأباجورة، ويقول لي وهو يحكي واحدة من قصصه: "كانت رقيقة رقةً... لا يمكن أن تتصوري كم كانت رقيقة". أدرت وجهي وفررت للممر الثاني المملوء على اليمين بالكتب، وعلى اليسار يقبع التليفون. (يقف مستندا بظهره على الثلاجة محملا ثقله على قدم واحدة والأخرى أمامها. يحمل بيده اليمنى السماعة واضعا كفه الأيسر تحت باطه الأيمن وهو يتكلم). تحت التليفون رفوف أخرى مكدسة بالكتب. الثلاجة تغطيها ذات الرسوم الخرافية التي رسمها واحدا من أولاد أصدقائه الفنانين وهو في السابعة.



fb/mashro3pdf

على طاولة السفرة في منتصف الفراغ الضيق في الصالة ربض إناء نحاسي ضخم صدمني بكمية من الورود البيضاء المستوردة، مشرعة كالرماح. الزهرة الواحدة بحجم ثلاث أو أربع من ورودنا المصرية الرقيقة، تقف على سيقان غليظة، طويلة جدا، ربما نصف متر. آه .. هذا إذن هو الورد المستورد. بالتأكيد جاءت به هي إليه. من غيرها إن لم تكن هي؟. أدرت وجهي واتجهت مندفعة للحمام. أردد في نفسي: "مالكيش دعوة، مالكيش دعوة". أغلقت نور الحمام الذي جئت من أجله، وأنا أشاور عقلي: هل أنظر، مرة أخرى، لما بين تلك السيقان المفتوحة التي تنتشر على كل حوائط الحمام الصغير* وسقفه. سيقان مفتوحة تظهر أماكن النساء الحساسة، بالشعر الخفيف أو الكثيف يحيطها. رسمها الفنان أخيرا على جدران الحمام الواحدة جوار الأخرى، كأنهم في معرض. وعندما تساءلت عمما جعله يرسمهم هكذا رد على تساؤلي بسؤال آخر: "ولكن ما رأيك؟ .. هل أتقنت الرسم؟". لا، لن أنظر. عندما أراها أفكر في الحرمان، في البخل. أفكر في العوج والغرابة.

خرجت من الحمام للصالة بعد أن أغلقت النور في طريقي مسرعة لباب الخروج. توقفت قبل أن أغلق نور الصالة وأنا خارجة، سمرتني مرة أخرى الرماح البيضاء المشرعة في استفزاز. والآن؟ ماذا أريد أن أفعل الآن؟ آه ، آتي بمقص المطبخ، من الدرج الطويل المملوء بأدوات المائدة الفضية، ثم أقصف رقابها، واحدة، ثم اخرى ، ثم أخرى، ثم أتركهن متساقطات حول الإناء النحاسي. لا بل أجمعهم في كيس زبالة من البلاستيك الأسود، وأرميه من البلكونة ... وهكذا تبقى واقفة وحدها هناك سيقان الورد الغليظة، ذات الأوراق الفخمة الضخمة، تبقى مقصوفة الرقاب. أعجبتني الصورة، وبردت بعض ناري. وتخيلت الفنان في اليوم التالي، عندما يدخل المرسم، ويغوص قلبه عندما يرى منظر سيقان الورد مقصوفة الرقبة. ابتسمت في تشفي. كان حلم يقظة طريف. لم أنفذه طبعا.



fb/mashro3pdf

في المرسم الخاص به يفعل هو ما يشاء، هذا عهد قطعته على نفسي بإيمان. نعم، الزهور المستوردة غالية الثمن لا تناسب هذا المكان، المليء بثقل التجربة الانسانية، العراقة، ونماذج الحضارات البشرية المتتالية. هذه الزهور لا تناسب هذا المكان، إلا أنه طالما قبلها صاحب المكان فخلاص، لا رأي لي. فقط إحساسي بالفقد، كأنه أصبح آخرا لا أعرفه.

عيد زواجنا، في آخر كل صيف، لا يذكرني إلا بمشاهد عائلتي مجتمعة، وقد نزل عليهم سهم الله. اليوم تتزوج وردة العائلة برجل، لا يعرفون عنه ما يطمئنهم على مستقبلها معه. كان هذا هو الشعور السائد يومها وأنا جالسة أفتعل وحدي المرح لأداري ارتباكي لتأخر العريس وعائلته لأكثر من ساعة ونصف إذ كانوا يبحثون عن مأذون يرضى أن يزوج العريس بالباسبور إذ ضاعت بطاقته الشخصية. عيد زواجنا يذكرني ببروده ناحيتي يومها (لو عملنا أي حاجة النهاردة حيروح علينا ميعاد الاتوبيس بكره)، يذكرني بسفرة الاسكندرية غير الموفقة، إذ أعطونا في الفندق حجرة صغيرة خلفية لا تطل على البحر لأنه لم يحجز مسبقا في موعد مبكر. قال أنه لم يتوقع أن يتم الزواج فعلا في نهاية الأمر ولذلك لم يعتن بأن يتصل بالفندق للحجز. عيد زواجنا يذكرني بأول شهر، سميته بشهر البصل. يذكرني عيد زواجنا بالتعاسة التي تلته مباشرة ولم أكن اتوقعها إذ تركت للوحدة ولمواجهة مسئوليات وطلبات لا نهاية لها، وجملة كررها كثيرا (كل شيء تغيّر منذ ثاني يوم زواج) أشعر بها كل مرة كجردل بارد يدلق على رأسي. هذه السنة يأتي عيد زواجنا كأي سنة أخرى، لا يتذكره هو إلا إذا ذكرته به. كنت في المطبخ عندما دق جرس الباب. خرجت لأفتح فوجدت الفنان سبقني بسرعة للباب: سائق المدام ومعه بوكيها من الزهور الفاخرة في وسطها زهرة زنبق "لِلي " بيضاء ضخمة مائلة في طبق من الفخار البني ومعه كارت تهنئة بعيد زواجنا. دخل



fb/mashro3pdf

السائق ووضعه على الترابيزة في وسط الصالة وانصرف. أبدى الفنان إعجابه بالزهور، وبتنسيقها، وبذوقها. وظل كلما مر بالصالة يتوقف ثم يدور حولها ليتأمل. وظللت كلما مررت أنا بالصالة في طريقي من الحمام للبلكونة لنشر الغسيل، أو من المطبخ حاملة الطعام لحجرته، أو في طريقي لاحدى الحجرات لسبب أو لآخر أشم رائحة زهرة الزنبق الفاجرة، فتلهب جيوبي الأنفية وتضايقني. دق جرس التليفون وأسرع هو بالرد. "آه .. أهلا أهلا، طبعا وصلنا، حلو أوي التنسيق، طبعا طبعا ... شكرا. آه .." كنت أنظر إليه وهو يتحدث بذلك الايقاع الجميل والنبرة العذبة التي اشتاق كثيرا أن تكون موجهة لي. وأنظر إليه كما لو كان من وراء غمامة. ماذا كان يتصاعد داخلي ساعتها؟. ذهبت بهدوء. رفعت الطبق الفخاري بالزهور فيه، واتجهت للبلكونة. (سأضعه ليبقى في البلكونة، وسأقول أن رائحة "الليلي" تضايقني، بل تتعبني) أومأت لنفسي بالموافقة وأنا أحمله وأمضي به. سيبعده ذلك عن عينيه، فلا يراه في الروحة والجاية، ويجعله يتذكرها ويثني عليها. يعذبني ذلك، فأنا افتقد ثناءه موجها لي. عندما وصلت للبلكونة وضعت الطبق على الكرسي الأبيض القديم الذي اقف عليه لأنشر الغسيل على الأحبال المعلقة عاليا داخل البلكونة. وضعت الطبق على الكرسي ونظرت للزهور. استفزتني اناقة التنسيق الزائدة عن اللازم من وجهة نظري. شعرت أن زيف ما أصبح يتدخل في حياتي في كل صغيرة وكبيرة تقريبا. وصلنا اليوم إلى أن يصبح محور الاهتمام وموضوع الحديث في "عيد زواجنا" هو ذوقها العالي في تنسيق الزهور الذي تعلمته مش عارفة فين ومع مين، وكرمها الحاتمي معي في عيد زواجي رغم تجاهلي لها واساءتي الظن بها. أطرقت أنظر للبوكيه على الكرسي. وكالمنومة، رفعت الزهور بقطعة الأسفنج الأخضر المثبتة فيها من الطبق، واتجهت ببطء لسور البلكونة. أصص نباتاتي التي تملأ المسافة أمام السور تمنعني من



fb/mashro3pdf

الوصول للسور. مددت يداي، بفرد ذراع، كمقدمي القرابين، تحملان الزهور. أنظر للفراغ الممتد أمامي لثوان. بدأ صوت الفنان يصرخ من ورائي. يأتيني صوته كما لو كنت في عالم آخر. "حتعملي إيه، يا مجنونة، ماترميش الزهور، دي زهور غالية، يا مجنونة....." . أرخي أصابعي فتسقط طاقة الزهور متهادية مع الهواء. والفنان يصرخ ويصرخ من ورائي، وأنا لا ألتفت، بل أسرح في الفراغ أمامي وأقاوم الرغبة أن أطل وأشاهد طاقة الزهور تجذبها الجاذبية الرضية، تتهادى مع الهواء. إلى أين ستصل يا ترى؟. والفنان يصل للبلكونة ويصرخ: "ليه كده؟! ليه كده؟!، كنت أريد أن أرسمها، يا مجنونة ، حد يرمي زهور غالية كده؟!!.. لم تكن لك انت فقط، دي كانت عشاني أنا كمان.." استدرت وواجهته، وعيناي مثبتة في عينيه، قلت: "لما بعد كده المدام دي تحب تهديك، قل لها ترسل لك على المرسم، مش هنا". أرعبه هدوئي الخطر، المحمل بالانفعالات. ارتبك ولم يرد. كظم غيظه واستدار، وابتعد إلى أقصى مكان في الشقة، ثم بعد قليل سمعت باب الشقة يصفق وراءه. وضعت الطبق الفخاري على الأرض في ركن البلكونة تحت "الهاماك" المعلق المصنوع من الأحبال، قلت لنفسي ربما ينفع استعماله في شيء آخر.

ظل الطبق الفخاري منزويا في ركن البكونة ، كلما خرجت لنشر غسيل أو جمعه عندما يجف، وكلما خرجت لسقي الزرع أو لتنظيف البلكونة، وقع بصري على الطبق الأملس كالثعبان، ذو الفورم الأنثوي. تذكرت تشعب وتدخل هذه المرأة في حياة الفنان، وبالتالي في حياتي، إذ أني لسنوات لا حياة لي إلا حياته. رتب الفنان بعدها أن يسافر معها بمصاحبة أصدقاء آخرين ليقضوا هناك بضعة أيام في البيت الريفي الذي بنيناه معا. عندما ذهبت هناك بعدها وحدي أخذت معي الطبق الفخاري الأملس ربما وجدت له استعمالا هناك. وعندما وصلت للمنزل وضعته على



fb/mashro3pdf

رف المطبخ، في أقصى مكان، حتى لا أراه أو أتذكر صاحبته. وجدت آثارها من زيارتهم السابقة في البيت: كريم غال للبشرة بجوار سريري، بقايا أنواع عصائر محفوظة مستوردة غالية الثمن في الثلاجة، ورائحة عطرها على مخدات حجرتي. كنت كلما مرت عليّ ساعة في البيت تصاعد الغضب داخلي، أتحرك هنا وهناك، أخرج لأستمتع بالشمس، أنظف الحمام، ارتب الصالة، ارفع التراب من على ترابيزة المطبخ، ... أرى آثارها، وأحمل معي في كل خطوة غضبا يتصاعد. اتصل بي الفنان ثلاث مرات لينبه علي أن أطلب من حارس البيت أن يأتي بثلاث خادمات لينظفوا البيت، بيته الفخم الاستعراضي الذي بناه هناك. وفي الليل كنت متعبة فسقطت في النوم بمجرد أن وضعت رأسي على المخدة. أيقظني خبط ورزع. الغربان تلعب في ضوء القمر حول الديك النحاسي الضخم المثبت في المنطقة المفتوحة للسماء في الدور الثاني. تلعب فوقه، تحته، وعليه. الغربان تعرف الآن أنه ليس ديكا رغم مظهره وشكله وأن حجمه المبالغ فيه يعبر عن زيفه. تعرف، بالتجربة، وبذكائها الخبيث، أن لا حول له ولا قوة. لا يصيح كالديوك لينبه لساعات الليل والنهار، ولا يدافع عن حريم، ولا حتى عن نفسه. الغربان تقفز فوقه، حوله، تبول، وتخري، وتصدر أصواتها القبيحة. الغربان الآن تأتي في الليل والنهار فالبيت مهجور أغلب الوقت. في الصباح الباكر تحوم حول النوافذ الزجاجية الكثيرة، فترى صورتها منعكسة، كمرايا، تتوهم أعداء فتهاجم الزجاج بمناقيرها وأجنحتها تكاد تكسره. تأتي وتذهب وتكرر فعلها هذا حتى تتحول الشمس قليلا، فتبهت الصور على الزجاج ولا تلبث أن تتلاشى ، فتتحول الغربان لشئون أخرى. لم يفلح اقتراح صديقتي الألمانية في ابعادها، إذ لم تر الغربان الطيور الملونة التي رسمتها على الورق ثم قصصتها ولصقتها على الزجاج من الداخل بسبب انعكاس الضوء ، وعندما لصقتها على الزجاج من

fb/mashro3pdf

الخارج قطّعوها وشخوا عليها. قال أحد أبناء القرية "مفيش غير واحد يندبح ويُعلق من رجليه فتفهم الغربان الأخرى وتبتعد". لماذا يجذب المنـــزل الآن الغربان؟!. في البدء كان هناك حمام ويمام يهدل حول المنزل وعلى النوافذ ويسكن وحدات النور في الممرات المفتوحة للسماء. يتزاوج ويبني أعشاشا، يبيض ويرعى أفراخه. غريبة، لا أتذكر متى بدأت الغربان فـــي احـــتلال الفراغ المحيط بالبيت!. عندما نمت مرة أخرى، هاجمتني الكوابيس. رأيتني وحدي في ذلك المنزل الضخم، الغربان السوداء تدق علـــى النوافـــذ فـــي الطابق الأعلى وعائلة حارس البيت الكبيرة بكل أفرادهـــا كبـــار وصـــغار يلاحقونني من كل الشبابيك و الأبواب في الطابق الأسفل، وأنا أجري مـــن هنا لهناك، أغلق على نفسي المنافذ حتى لا ينفذوا اليّ، أحـــاول المحافظـــة على هدوئي، شعري يتشعث، وأنفاسي تتلاحق، وعيناي تزوغان. كرهـــت نفسي. صعدت ملهوفة للطابق الثاني لأطمئن على لوحات الفنان، فوجئـــت. وجدتها جميعا ممسوحة، بيضاء ، شفافة، رمادية. فزعت وجريت مبتعدة.

استيقظت في الصباح الباكر على فكرة واحدة: إبرة في مقشة. إبـــرة في مقشة، أتركها وراء باب الحمام، حتى إذا ما جاءوا معا فـــي الأســـبوع القادم، كما لمح أنهم سيفعلون، ستمارس الإبرة في المقشة سحرها، فتطفش هذه المرأة بإذن الله. كنا نضع الإبرة في مقشة عندما تزورنا سالي " اللبانة" كما كنا نسميها. تأتي للزيارة فتلتصق بكرســيها فـــي البلكونـــة، ســـاعة، ساعتين، ثلاثة، ونحن نود أن ترحل حتى نلتفت لشئوننا، فلا ترحل، حتـــى نضع لها "إبرة في مقشة" وراء باب الحمام فتنفز في لحظتها مـــن جلســـتها وتستأذن وتمضي. خرجت بملابس النوم للحديقة، وضعت عدة قشات معـــا وصنعت مقشة، وغرست في قلبهـــا، نعم في قلبها، إبرة ملضومة الخـــيط أتيت بها من سبت الخياطة الذي جمعته خصيصا في مرجونة جميلة مـــن واحة سيوة لهذا البيت. وضعت الإبرة في المقشة وراء باب الحمام الـــذي



fb/mashro3pdf

غالبا ما ستستعمله. فعلت كل ذلك بسرعة شديدة وعدت لسريري، فمازال الوقت مبكرا.

وضعت رأسي على المخدة وشددت الغطاء. (هذا لا يكفي). قفزت من السرير مرة أخرى، وجريت للمطبخ. إلتقطت الطبق الفخاري من على الرف. أدخلته في كيس وعقدت فتحته، وتركته من يدي، وأنا أبتسم، فانرزع في الأرض وتحطم. فتحت الكيس لأرى ما حدث. (راح ستمائة حتة). ابتسمت، فقد أوحي لي ذلك بفكرة. أخذت القطع التي تمثل الجزء الأعلى الأملس من الطبق فلصقتهابشريط لاصق، حتى صارت كهيكل الطبق، ولكن دون قعر. ابتسمت للفكرة. ذهبت للحمام، وضعت الإبرة في المقشة، في الطبق، الذي بدون قعر، وراء باب الحمام. ننتظر ونرى.

بدأ "التليفون" يحتل أهمية كبيرة في حياتنا في تلك الأيام. عندما تزوجنا كان له تليفونه اليومي مع العائلة كجلسة مشرحة مصغرة عن الأشخاص الذين مر بهم في يومه. ثم بدأت التليفونات مع من سميته الأستاذ مجاري، إذ كان يحفظ كل فضائح ومصائب وعورات المثقفين والفنانين في مصر وبعض من طالهم بذاكرته الفولاذية من العالم العربي. من تزوج على من، ومن طلق وبأي فضيحة، ومن مدمن، ومن شاذ جنسياً ومن "مالهوش في الحكاية دي"، ومن ضبط من مع من وفي أي وضع، وما هي عاهات الناس التي عقدتهم طول حياتهم، ومن ارتشى من اجل شراء ماذا، ومن التي دخلت كل سرير له نفوذ، ومن اشترى الرجال بنقوده التي كسبها في الحرام من كذا وكذا. كان موعدا يوميا مقدسا، أسرع أنا لأكون وراء أيّ باب يغلق حتى لا أسمع. كان استمتاعه يظهر على وجهه والضحكة المجلجلة تنطلق بين الفينة والأخرى وهو يتبادل المعلومات والحكايات القيمة مع "المجاري". وأنا أقول لنفسي: "ماذا حدث له؟!". كان موقع التليفون في هذه الشقة دائما في الصالة التي تلتف حولها الحجرات كما في نظام البيوت القديمة فوضعت له منذ ذلك الوقت جهاز تليفون في حجرته،



fb/mashro3pdf

رغم اعتراضه، حتى لا نسمع. ثم أصبح تليفون صديقه الرسام المعتز بانتمائه للريف من الطقوس اليومية. تلازم ذلك تقريبا مع بداية تليفونات المدام التي ستبيع لوحاته وتبدأ حياتها من جديد. تليفونات في ساعات الصباح الأولى، بالساعات، أو في فترة بعد الظهر، أو ينام كل من في المنزل في الليل لأصحو على صوت الهمس في نصف الليل فأقوم لأصفق باب لحجرة لأغلقه: لا أريد أن أسمع، لا أريد أن أسمع. قل تردده على أي مكان آخر خلاف المرسم والبيت. أصبحت حياته تدور إلى جوار التليفون وحول مكالمات التليفون!. قصة جديدة أو خناقة مع احد ما في التليفون، ثم يطلب آخرين، ليحكي لهم عن الخناقة، ثم يطلب من تخانق معه ليستأنف الخناقة ويقول له أو لها عمن يؤيدون وجهة نظره ممن حادثهم وأخبرهم بالقصة، فيشتعل الموقف أكثر بإدخال أطراف نزاع تليفونية جديدة. وأنا أتساءل عن العلاقة بين القدرة على المواجهة التي أخذت تضعف وبين استخدام التليفون. ثم بدأ البعض يتهربون، وتشتكي بعض الزوجات من "مكالمات الفنان" الطويلة لأزواجهم في أوقات "غير مناسبة بالمرة": والفنان يقول: "راكبين عليهم ومدلدلين رجليهم". والفنان ذو الأصول الفلاحية يقول: "هل أنا صفيحة زبالتك؟!، تتصل بي خمس أو ست مرات في اليوم؟!، كم ساعة تضيع في تلك المكالمات؟؟!، لتقول لي ما لا قيمة له، مما لا يهمني. أشياء تخصك وتهمك أنت فقط، ليس شرطا حتى أنها تنفعك".

في الصباح الباكر عندما أيقظته، كان ما يزال نائما، حتى بعد أن فتح عينيه واعتدل جالسا على السرير ومدليا رجليه على الأرض. قلت لنفسي وأنا أجلس جواره: هل بسبب أدوية البرد الذي يعاني منه من أيام الآن، أم أدوية منومة كثيرة؟. ترى أي نوع بلبعه بالأمس؟ هؤلاء الناس في تلك الصيدلية مجرمين. يشكو لهم فيزودونه بأشكال وألوان من العقاقير ليجربها. دواء منشط، دواء للتهدئة بعد الشغل، دواء للنوم، تركيبة يأخذها قبل الرسم، دواء تركيب للكحة مليء بالكودايين. زجاجات بنية وخضراء



fb/mashro3pdf

وشفافة، أحجام مختلفة. كل يوم أجد جديدا انضم للمرصوص جوار كرسيه. وفي مرة نام ثلاثة أيام، وصديقنا الطبيب يقول لي بصوت منخفض صارم: "سيبيه، مش لازم مستشفى". لم أفهم السبب. وعندما بدأ شعر رأسه في السقوط واسود لونه ظل صديقنا الطبيب على تصميمه على علاجه بالمنزل. "أوعي، مستشفى؟؟! أبدا.. نتبهدل، فضيحة له ونحن ندخل في سين وجيم". ولأني لا أستطيع أن أهز أكتافي في سلبية وأدير ظهري هددت وكررت: "سأبلغ عنهم وأوديهم في ستين داهية!"، فيعدني ويخلف. ناولته كوب الأعشاب المقوية للأعصاب التي أعطتني إياها ماري من أجله. اقتنع، لدهشتي، فورا أن يتناولها. قلت لنفسي أي نصيحة من أحد غيري يقبلها!. تناول الكوب كالطفل الصغير في وداعة وقال: "أشربه على بق واحد؟". قلت: "أيوه، دافئ وحلو بالعسل الأبيض". عدت من المطبخ ووضعت أمامه ككل يوم القهوة الثقيلة باللبن، والثلاث توستات المحمصة والجبن القريش. أخرجت أدوية قبل الإفطار وأنا أعد: واحد، إثنين، ثلاثة أربعة، خمسة.. مضبوط؟ أنظر مرة أخرى لأتأكد. نصف كوب ماء ليس من الثلاجة. استدرت لأغادر الحجرة. قال والطعام يملأ فمه دون أن ينظر إلي: "لم يعد هناك مناديل في الدولاب". قبل أن أفتح فمي قال بلهجة منذرة: "فيه مغسول؟ أم أشتري جديد؟!". قال هذا وهو يلقي على الأرض بجواره بكومة من ثلاث أو أربع متسخين، واضح أنهم ملآنين بسبب الزكام زالبرد الذي يعاني منه ولا يريد أن يتحسن. قلت في سري: "يقول أنه سيشتري للدفاع عن نفسه مرة أخرى ضد "ذل الطلب". يحاول إفهامي أنه يوجد دائما بدائل، وأنه لا يحتاجني". قلت بسرعة: "المناديل مغسولة، أكويهم فقط". مشيت ببطء للمطبخ. لن أذهب للعمل اليوم. أعصابي مازالت مشدودة من عملية الأسنان، ثم أن أذني في حالة غير طبيعية بعد الزكام، وأيضا حتى أعتني به إذ طال دور البرد عنده ولا أريد أن أشعر أن تقصيري هو السبب.



fb/mashro3pdf

وضعت ترابيزة المكوة في مدخل حجرتي، إذ لا مكان لها في وسط ازدحام البيت بالموبيليا إلا هناك. ملت ببطء وأدخلت الكبس في الباريزة جوار الباب وجلست على يد الكرسي الفوتيل وبدأت أكوي. بدأت موسيقى سي دي رحمانينوف التي أدرتها في التصاعد. بديعة. رن جرس التليفون، التقط الفنان السماعة بسرعة، قبل أن يدق مرة ثانية. هذه هي عادته هذه الأيام، كالملهوف. "ألو، ..". عرفت من "صباح الخير" التالية أنه يتحدث معها إذ ينخفض صوته ويرق. يستمع في صبر، ثم ينطق بجمل قصيرة بصوت هادئ وحنون، وبكلمات كأنها طبطبة، حتى وإن كان الكلام كله عن المعرض وزواره والصور. أفرد منديلا منديلا، أنثر عليه الماء بالبخاخة. بخاختي على شكل كرة شفافة اشتريتها لنفسي من سالونيكي. أتذكر كلما تناولتها ذلك الشارع الذي اشتريتها منه الذي ينتهي بالحمام التركي الذي أصبح مطعما. أبدأ في تمرير المكواة على المنديل ببطء. يتصاعد البخار. أطبق المنديل. هاهي الطريقة التي يحب بابا أن تطبق له المناديل بها، فيبصق أو يلف داخل طياتها المنتظمة. لماذا أطبقه مثلما يحب بابا، وليس بأي طريقة ثانية، طريقة المكوجي مثلا؟ الموضوع لن يفرق مع الفنان، فهو يفرد المنديل ثم يكعبشه قبل أن يضعه في جيبه أيا ما كانت طريقة تطبيقه. يصل إلى سمعي الصوت الرقيق الحنون المهذب المملوء بالمراعاة. لماذا يتزايد حنقي هكذا عندما أستمع لصوته يحدثها، هي بالذات. لماذا قامت قيامتي عند سماعي تليفونه معها من الفندق الذي أنهاه بـ"وحشتيني". قلت يومها وأنا أحاول بصعوبة الاحتفاظ بهدوئي أن صوته يثيرني. قلت أني لم أعرف رجلا غيره، وهذا الصوت هو صوت "الرجل"، " الذكر"، بالنسبة لي. قلت أني لم أسمع صوته بهذه الطريقة موجها لي إلا في السرير. كنت أشتاق لهذا الصوت، ولا أفصل بين احتياجي للجنس، واحتياجي للحصول على الحنان والرعاية التي يمتلئ بها هذا "التون" وتلك الطريقة. عندما أنهى المكالمة وسمع خبطة المكواة وهي تسقط على ترابيزة



fb/mashro3pdf

المكوة، قال موجها كلامه لي، من الحجرة الأخرى: "كفاية، كفاية كده، لا تتعبي. سأرسل لأشتري لي مناديل جديدة". لم أجب، لم أشعر أني أريد أن أجيب. مازال أمامي فقط منديلا واحدا لكيه. شغلت تفكيري في شيء آخر. موسيقى راحمانينوف. كيف تأتي تلك الأفكار الموسيقية المجردة لعقل الموسيقي؟!. هذه الجملة مثلا شجية جدا. عندما وضعت المناديل النظيفة المكوية في الدولاب، في أعلى رف على الشمال، في كومتين منتظمتين، قال في برود دون أن يرفع رأسه عن القهوة التي استأنف شربها باردة بعد التليفون الطويل: "كتر خيرك ، متشكر جدا". لم أرد، فتعجب ناظرا لي، إذ كانت عادتي فيما سبق أن أرد بسرعة في تواضع: "العفو، تعبك راحة". قبل الغداء قلت لنفسي فالأجرب أن أظهر استعدادي التام لأن أؤدي ما طلبه مني صديقنا الطبيب: فوضعت المدفأة في الحمام وتركت الماء الساخن ينساب ليملأ البانيو بعد أن أغلقت الطبة. ذهبت لآخذ غيار له من الدولاب وأخبره أننا سنقوم بما نصح به صديقنا الطبيب. تمدد كله في الماء الساخن. البخار يتصاعد وملامحه تسترخي رويدا رويدا. أجلس بجوار البانيو، فوق الجردل الأزرق مقلوبا، أكمامي مشمرة، أغرف الماء الساخن بكوب بلاستيكي وأسقطه على الأماكن غير المغطاة بالماء من جسده حتى لا يشعر فيها بالبرد. فكرت فيما قاله صديقنا الطبيب: "هذا سيفيد العلاقة، الكوبل". هل يوجد أي شيء يمكن أن يفيد العلاقة الآن؟!. آه ، أغلب الأطباء يعتقدون أنهم يعرفون كل شيء. ابتسمت في مرارة. يقف مستسلماً، والعرق يتصبب منه رغم أني نشفته ثلاث مرات، كنت أدهن له الأماكن التي يشير لها بأصبعه بتراخ وهو مغمض العينين. كانت رائحة المرهم النفاذة، أو "الملوخ" حسب لفظ الطبيب نفسه، تحدث جنونا في جيوبي الأنفية، إلا أني احتملت. عندما أخرجته من الحمام متدثرا بملابس صوفية كثيرة، كما أمرني الصديق الطبيب، أسرعت بكوب الأعشاب الساخن، واستأذنته أني سأستلقي لأني "تعبانه شوية" حتى أضمن أنه لن ينادي، أنه



fb/mashro3pdf

سيتركني لحالي لفترة ما لأرتاح. رن التليفون وتناول السماعة بسرعة: "ألو.." سكوت للحظات: "طيب بس اهدي .. عاوز إيه؟ يحط اسمه على صورته؟ لأ مش من حقه؟ أيوه هوه البورتريه بتاعه أنا رسمته على مدى أعوام. بس إهدأي، أنا سأكلمه، طيب بس إهدأي. أكيد صدرك يعلو ويهبط دلوقتي. أنا كده سأخاف عليكي ..". استمر على هذا المنوال حتى آخر المكالمة. ابتسمت وأنا مستلقية على سريري بالحجرة الأخرى. قمت بعد قليل وذهبت لحجرته مبتسمة قلت: "دمه خفيف. يريد أن يضع اسمه جوار صورته في المعرض؟!. فيها إيه؟! ليه لأ؟! لكن المدام دي طبعا خبرتها في أدب رجال الأعمال وأصول البزنيس لا تعرف التعامل مع الحاجات اللي دمها خفيف بتاعة الفنانين". مازلت أبتسم ابتسامة واسعة وأنا أراقب وجهه. غريبة، لا أثر لابتسامة، فقط سرحان كمن يحمل هما. لم أتوقع ذلك. كنت قد توقعت أنه سيجاريها بالكلام فقط إلا أنه في قرارة نفسه سيرى خفة دم الموقف. ظللت محدقة في وجهه. غريبة. ألهذا الحد يتأثر بمواقفها ويحرص على رضاها. كنت قد زرت معرضه مرة واحدة خلافا لعادتي. شعرت بزيف لم أطقه. حجرة زجاجية مغلقة بالمفتاح داخل القاعة، وضعت على بابها الزجاجي صورة فوتغرافيه صغيرة لوجه الفنان، وفي داخل الحجرة الزجاجية وضعت على المكتب طبقا أنيقا مملوءا بالشيكولاته. قطع كبيرة جدا ذات لفافات فضية فاخرة مجعدة. وعلى المنضدة الأخرى طبقان منسقان بعناية من البتي فور والساليزون المملح وتحتهما مفارش ورقيه غالية تقليد الدانتيل. وعلى الكرسي صورة رسمها الفنان أخيرا لا تمت لموضوع المعرض المعلق حاليا بصلة لفتاة ذات صدر فاجر يخرج من بلوزة ضيقة أزرارها العليا مفتوحة ، لوحة مرسومة بصنعة ممتازة. تعرضها في كشكها الزجاجي إتباعا لمنطق التسويق الفج، فقد يأتي زبون يريد شيئا آخر غير المعروض. ضايقني أن يتحول هو لسلعة.



fb/mashro3pdf

ظل يحاول الاتصال بها بعدها طوال الوقت حتى يطمئن عليها. مكالمات لصالة العرض فيجدها قد غادرت، في البيت: غير موجودة، فيترك رسالة تلو أخرى على الأنسر ماشين "قلق عليك" ، وفي مرة تالية" قلق جدا عليك" ثم التالية ببطء وضغط على مخارج الألفاظ وبمسافات زمنية بين الكلمات " قلق جدا عليك. كلميني بمجرد أن ترجعي" ثم التالية "ما رجعتيش لسه برضه؟". بدأ في الارتباك. اتصل بمنزل صديق فنان آخر، ردت زوجته الفنانة التي يعرفها منذ زمن طويل. حكى لها الحكاية، وأنه قلق، وأن زوجها ربما يعرف مكانها، حكى لها عن حالة القلب عندها، وربما بسبب "ترفزتها" هي الآن على جهاز القلب، الذي تتردد عليه في المستشفى. زوجة الصديق تسمع في صبر ولا يبدو من سيل كلامه أنها ترد وأنا أتخيل تماما كيف يبدو وجهها الآن. ثم اتصلت المدام أخيرا. كان صوته يقطر حنانا وقلقا ورعاية: "الحمد لله". عدت لحجرته وسألته: "هل كانت على جهاز القلب؟!" قال في ارتباك "أيوه..."، فابتسمت. قال بارتباك: "أنت تفرحين لمصائب الآخرين!". قلت بحزن: "أنت كنت قلق عليها، وأنا لا أجد من يقلق عليّ. ذهبت بالأمس لعملية الأسنان وحدي، ومشيت في الشارع أتطوح وحدي". بدأت أنفعل فصمت. فقال مهاجما: "وأنا، هل يذهب أحد معي وأنا أعالج أسناني؟!". قلت بثبات و نظرة محدقة في وجهه: "وهل ذهبت لأي طبيب مهما كان منذ تزوجنا وحدك؟! وهل...". تنبهت لأني أنساق لاستجداء اعترافه وامتنانه، فصمت. فعاجلني بسرعة: "أنت تغيرين منها!". كنت أجلس على الأرض أدهن ركبه بالمرهم، فرفعت رأسي إليه ونظرت إليه بعمق ومرارة: " هل تعرف... أنت تهين كبريائي وأنوثتي عندما تقول ذلك فلا تكرره". قلتها بقوة وثقة فسكت على الفور وأطرق مستسلما ليدي بالمرهم على ركبته. أقول لنفسي: هل رأيت كيف يكون رد فعله عندما تتكلمين بثقة؟! ماذا دهاك لتصبحي بهذا الجبن؟! هل أصبحت تخافين أم أنك أصبحت مليئة بالتناقضات؟! تشتمين في سرك وتخافين من



fb/mashro3pdf

المواجهة؟! تتصنتين، تتجسسين؟ ماذا تريدين أن تعرفي؟! سمعته يقول ساخرا لصديقه في التليفون: "كانت لعبة زوجتي دائما أن تحاول أن تجعلهن صديقات لها حتى تحيدهن. هكذا تصرفت مع تلميذتي الموهوبة ومع غيرها، لكن هذه المرة هي تتعامل مع "معلمة"، مش سهلة".

في المساء عندما اتصلت صديقتي كان لديها جديدا تحكيه لي. أنبأني بذلك صوتها من أول كلمة نطقت بها. حكت بسرعة عن معرض الفنان صديق زوجها، وعمن قابلتهم هناك، ثم باختصار عن كيف انتقل الجميع للاحتفال في مطعم صغير في الزمالك، ثم ببطء وضغط على الكلمات بعربيتها الخواجاتي: "وكان مين هناك؟!". ثم بضحكة عالية حكت عن المدام. بشعر مسدل بتسريحة أنثوية ووجه مسترخي وسعيد تجلس مع أحد المشاهير. قالت إن الأصدقاء أخبروها أن هذه هي قصة الحب الجديدة التي تعمل من أجلها المدام الآن بكل طاقتها. انتابتنا معا نوبة هستيرية من الضحك. سألتها إن كان متزوجا، فردت بالنفي، وبأن الناس يقولون أنه بلاي بوي كبير، تزوج وطلق وتزوج وطلق. سمعني الفنان أضحك بهستيرية فناداني. أحسست أنه لا يود أن أنشغل بغيره. كنت قد بدأت أدفئ الحمام مرة أخري لنعيد الكرة حسب نصيحة صديقنا الطبيب، فأنهيت معها المكالمة بعد أن سألتها: "هل أخبره؟!"، فطلبت مني الانتظار حتى تحصل على تأكيد نهائي. عندما توجهت لحجرته كان فمي مفشوخا بابتسامة واسعة، لم أستطع التحكم فيها. نظر لي بحب استطلاع ولم يسأل. شعرت أن صدري يبرد بالتدريج. باعني رخيص. هو الخسران، أما أنا فقد قدمت ما قدمت لأني أنا من أنا. عندما دخلت معه الحمام كنت قد أصبحت مملوءة بنشوتي الخاصة. أنا أفعل ما أفعل لأني أنا من أنا. ساعدته برفق ليدخل في الماء الساخن. جلست بجوار البانيو أغسل رأسه وأليف جسده. سألته عن الرجل الذي قالت صديقتي أنه بطل قصة الحب الجديدة والابتسامة تملأ



fb/mashro3pdf

وجهي فأخبرني عن عمله في مجالات كثيرة، وأنه "واصل"، وأنه من معجبيه وأنه يزور معرضه الحالي كل يوم. اتسعت ابتسامتي أكثر وسألته كيف عرف، فأخبرني أن المدام أخبرته بذلك. فسألت بدوري: "هل هي تخبرك عن كل زوار المعرض؟!". فرد: "تخبرني عن الذين تستخدمهم للحديث عني". فقلت: "ماذا تقصد بالحديث عنك؟ يعملوا لك دعاية يعني؟" قال "تستخدمهم في الإذاعات باللغات الأجنبية وكده". بدا أنه لا يعرف كثيرا عما يتحدث عنه، فصمت. ثم سألت هل هذا الشخص متزوج؟ قال "أيوه، واحدة سعودية، كانت في افتتاح المعرض وسلمت علي". قلت: "هل قالت هي لك أنها زوجته؟" قال: "لأ، إنما استنتجت، فأنا سمعت انه متزوج من سعودية، وعندما أتت إحداهن لتسلم علي في المعرض أدركت من لهجتها أنها هي، ثم أنها ظلت تقول أنا وفلان ، أنا وفلان في جمل كثيرة". كنت لا أزال تملؤني النشوة عندما سألته فجأة: "صحيح، أنت لم تخبرني: هل كانت المدام على جهاز القلب فعلا طوال الأمسية عندما كنت تتصل بها ولا تجدها؟" فنظر إلي باستغراب وقال "طبعا، فهي عندما تنفعل جدا تحتاج أن تقضي عليه بعض الوقت، وأحيانا ليلة كاملة في المستشفى". اتسعت ابتسامتي وصمت لفترة وأنا لا أستطيع أن أمنع نفسي من الابتسام. سلكت صوتي وسألته إن كانوا يسمون من يأخذ مقلب "يطلعله قرون"؟. قال: "لأ، ده المعرس". قلت: "طب واللي ياخد مقلب؟، يتعدوه يعني في حاجة أو كده؟". قال: " يقولوا قرطسوه". قلت بفرح من وجد ضالته: "أيوه، يقرطسوه. إلا قل لي: هل تقرطست أبدا قبل كده؟". ابتسم في ثقة وكبرياء وقال: "هل تذكرين تلك المقالة التي كتبتها في الستينيات عن القراطيس وظلت مدة طويلة في الرقابة وقلت فيها أن هناك أنواع من الورق لا تصلح للقرطسة؟". فضحكت كثيرا وقلت: "طبعا أذكرها جيدا جدا. ولكن ألا تعتقد أن حتى الأنواع التي لا تصلح للقرطسة قد يتغير حالها هذا، مثلا بمرور



fb/mashro3pdf

الزمن، أو مثلا بأن تجد اليد الخبيرة التي تستطيع أن تقرطسها...". فابتسم ولم يرد، مغمضا عينيه ليزيد استمتاعه بالماء الساخن.

العيادة عند طبيب الأمراض النفسية والعصبية الشهير كانت مزدحمة بكل أصناف البشر التعساء. انتظرت دوري في صبر. حجرة الكشف كانت مظلمة، إلا من إضاءة كهربائية مباشرة على مكتب الطبيب. الشبابيك مغلقة، كأنها غير موجودة، والحيطان مجلدة بالخشب. الدنيا في الخارج نهار وبرد، والعكس في الداخل. بدا لي لا مباليا، أو أراد أن يظهر هكذا. ذكي، ذو حنكة، ولكن لا مبالٍ. هل ستؤدي استشارته لأي نتيجة؟ أنا هنا ولا جدوى من مواصلة التساؤل. قررت خوض التجربة واستنفاذ كل الطرق.

قال الطبيب: "خيرا". قلت إني جئت لسببين أحدهما خاص بي والآخر خاص بالفنان إذ أنه يمر بمرحلة صعبة، فمع تقدم السن وعدم تقبله لذلك ورغبته في الاستمرار في الإبداع لأنه يشعر أنه سبب حياته الوحيد فهو يحتاج أن يتناول منشطات، ثم يشعر بالتوتر فيأخذ مهدئ، وبالطبع لا يستطيع النوم فيتناول منوم. وفي الفترة الأخيرة بدأت المسائل، على ما أعتقد تخرج عن السيطرة. يتوتر ويصبح عصبيا إلى درجة العدوانية وشبه الجنون وأعتقد أن مناعة جسمه تضطرب. يخلط المهدئات، فينام يوما أو يومين، ويثقل لسانه، وتصبح حركة يده بطيئة بشكل مفزع. فكرت أنه ربما استطعت مساعدته في تنظيم أمر هذه العقاقير، مادام يحتاجها وسيتعاطاها على كل الأحوال، فالأفضل ألا يكون ذلك بمعرفة الصيدلي فقط. قال: "لابد أن له إذن صديق صيدلي؟!". قلت: "نعم، يركب له أدوية للكحة، وللتركيز، وللصداع وللنشاط، ويعطيه تشكيلات يجربها من المهدئات، ومنها ما أثر عليه تلك التأثيرات المخيفة في الأشهر الأخيرة. لا أذكر أسماءها الآن إلا



fb/mashro3pdf

أني أستطيع أن احضرها لاحقا". سأل بحدة بجملة نطقها بسرعة: "لماذا جئت لي؟!". قلت في نفسي هذا الرجل لا يعرف أني تعودت على مستوى عال جدا من الذكاء واللياقة الذهنية ودقة التعبير. هو يتذاكى الآن ليناطحني إلا أني تعودت على ذبذبة أعلى كثيرا من تذاكيه الساذج. انتظرت قليلا وأنا مطرقة، ثم قلت بهدوء وأنا أنظر إليه: "جئت لك لأنك تعرفه، وهو قال لي أنك حضرت معرضه، وأنكم تحدثتم قليلا إلا أنه أحس بمدى ذكاءك وارتياح لتفاهمكما". ثم أضفت دون أن أنظر إليه: "أنا أيضا سمعت عنك كثيرا من صديقتي كفاح". قال بصوت منخفض: "الله يرحمها". أراد العودة بسرعة للموضوع الأصلي فقال: "تحدثت مع الفنان لنصف دقيقة في قاعة العرض، فهل أحس بكل ذلك في نصف دقيقة؟ غريبة!". لوى شفتيه بطريقة لاحظت تكرارها وأصبحت تسليني. قلت: "وأتيت لك أيضا لأنك كما فهمت من قراءة مقالاتك مهتم بسيكلوجية الإبداع وعلاقتها بالعقاقير المعالجة للحالات النفسية، واعتقدت أنك يمكن أن تساعده". ظل منصتا دون أن يعلق. أكملت: "هذا بخصوص الفنان، أما بالنسبة لي فقد أتيت لأني في الفترة الأخيرة أصبحت لا أستطيع أحيانا أن أسوس العلاقة بيننا. فأحيانا يصل الأمر أن يكون عدوانيا وعنيفا، وغالبا في مواجهتي أنا بالذات". بدأ يسألني أسئلة سريعة. "متى تزوجتما؟"، "منذ متى تعرفينه؟". وأنا أجيب "نعم كان عمري ثمانية عشر عاما". "لماذا تسأل إن كان لدي مكان آخر يمكن أن أسكن فيه؟". فرد بتذاكي سلاني مرة أخرى: "أنت دفعتي لي فلوس لأسألك. أنا هنا الذي أسأل، أجيبي". ضحكت من طريقته. سألني عن مرتبي ووظيفتي، سألني إن كان الفنان يعرف أني سأزوره فأجبت بالنفي. سألني إن كان يزور أطباء من تخصصات أخرى ، باطنة مثلا، فقلت: "نعم، إلا أن طبيبه عادة يعطيه الروشتة وهو يقول أنه يعرف أن الفنان سيضعها جانبا ويعالج نفسه على كيفه، وإن كنت تقصد أطباء أمراض نفسية وعصبية، فالإجابة بالنفي، فهو يستهين بذكائهم ويعتقد أنهم لن يستوعبوه. فقط طلبت أنا من



fb/mashro3pdf

الدكتورة "كفاح" كصديقة أن تزوره، لكنه لف دماغها، فلم تصل معه لحق أو باطل". فعلق مرة أخرى: "الله يرحمها، كانت طيبة زيادة عن اللازم". صمت قليلا ثم قال أنه يعتقد أن الفنان صنع لنفسه توازنا ما بهذه العقاقير، وأنه يعرف من المجلات والمطبوعات الفنية أنه مازال يكتب، إذن هو مازال متيقظ العقل. قلت "نعم، ولكن الوسائل الاصطناعية قد تقلب بنكد". استكمل كأنه لم يسمعني: "سيظل على هذه الوزنة أو هذا الاتزان حتى يختل مرة، فيسقط، والى الأبد". قلت: "ماذا تقصد، الموت؟!". قال: "ياريت، ولكن سقوطه سيعني انه لن يستطيع الإبداع مرة أخرى". طوى الأوراق أمامه وسند ظهره على ظهر الكرسي الجلدي ونظر في السقف قليلا. استأنف الكلام قائلا: "لا أعتقد أني أستطيع مساعدته كثيرا. ثم أني أحبه كفنان، من زمان، وأنا أدعي أني من القلائل الذين مازالوا يعرفون كيف يحبون. أنا أود أن أحتفظ بهذا الحب، هذا شيء أوده لنفسي، أن أظل أحبه. لذلك فأنا لا أود الاقتراب كثيرا". نظرت إليه محاولة سبر أعماقه. قلت في نفسي: "رجل آخر يُحسن التخلي!". تذكرت كلمات صديقتنا الباكية وهي تخبرني أنها عرفت بعد أن ماتت "كفاح" أنها ودت لو تراه، أستاذها وحبيبها، هذا الذي يتفلسف عن الحب الآن وهو يجلس أمامي!!، أرادت أن تراه ولو مرة قبل أن تموت، إلا أنه لم يفعل، وأنها – صديقتنا المشتركة- لو عرفت بذلك لكانت أحضرته، ولو غصبا عنه. سكت قليلا ثم أشار لسرير الكشف بحركة من رأسه: "يا للا نكشف عليك، شوية البكش إياهم عشان ما تخرجيش تقولي عاوزة فلوسك تاني!". ملأتني الدهشة والاستنكار، إلا أني قلت لنفسي فلننتهي من هذا الأمر وأنا أتجه لسرير الكشف باستسلام. سألني بكلمات سريعة "إنت مصاحبة؟". لأول وهلة لم أفهم. ففسر "راجل تاني يعني في حياتك؟" "أجبت بالنفي. سأل "ولا قبل كده؟". فلم أفهم مرة أخرى وقلت: "تقصد قبل الزواج، أنا كنت صغيرة، و..."، قاطعني "لا، أقصد خلال الزواج...". قلت: "لا، لم أعرف رجلا غير الفنان". وقفت أمام



fb/mashro3pdf

السرير الضيق المنخفض واحترت، هل أخلع حذائي؟، ماذا يجب أن أفعل؟ في النهاية استلقيت كما أنا. عندما اقترب أحسست إحساسا غامضا بالحرج. ربما تذكرت كفاح، وربما أحرجني أن أجد نفسي راقدة وهو يقف بجوار السرير بعد أن سألني إن كنت مصاحبة. كنت أحيانا ما أشعر أن الرجال في الشارع يعرفون بحرماني فيتصرفون معي بشكل مختلف. كدت أذوب في خجلي وهو يضع السماعة على صدري فوق الملابس. سألني هل تعرفين جواهر المغنية، تلك السمراء، سودانية أو نوبية؟ ابتسمت ولم أستطع الرد وسط خجلي خاصة أني لم أفهم مناسبة أن يذكرها الآن. قال "هي أيضا تغني لحبيبها الفنان، كما تغنين أنت!". طلب أن أثني ساقي. كنت في غاية الحرج أحرك ساقاي كأنها كيسان من القطن. اختبر أعصابي في لا مبالاة. أدار ظهره وطلب منى القيام. سألني وأنا أتوجه للكرسي أمام مكتبه مرة أخرى: "متى كانت آخر مرة نمت مع الفنان فيها؟". قلت "هذه قصة معقدة". وددت لو أتحدث عن قصتي الجنسية مع الفنان، وهي أيضا قصة الجنس الوحيدة في حياتي ربما استطاع أن يوضح لي أشياء عن نفسي لا أفهمها ، إلا أنه قاطعني باقتضاب: "هي هكذا، قصة معقدة منذ زمن بعيد، أقصد قصة الجنس عموما. منذ متى لم تنامي معه؟". قلت "ربما سنة؟ أكثر قليلا، أقل قليلا. لا أذكر". كنت في غاية الحرج. انتقلت للكرسي أمام مكتبه. طلب مني كشف ذراعي. شعرت أني أعجبه، ليس في ذلك شك، إلا أن ذلك لا يعجبني. سألني: "ماذا عن علاقاته هو؟ هل له علاقات؟". قلت "كان دائما له علاقات...". قال "تلك (المَـرَة) التي كانت في المعرض؟". قلت "من تقصد؟". قال: "أقصد تلك (المَـرَة اللـونَة) التي يقول عنها مديرة أعماله واللا مش عارف إيه، والتي ظلت تحوم حوله". قلت بابتسامة مرة: "هذه أيضا قصة أخرى طويلة". قال بفخر: "شفتي بأه فهمت ازاي بسرعة؟!". شعرت بسخفه فقلت ساخرة: "ما شاء الله عليك"، وضحكت بمرارة. أمسك بجهاز الضغط فكشفت كمي البلوزة والبلوفر معا،



fb/mashro3pdf

فظهر ذراعي: بشرتي تشف عروقا زرقاء مخضرة. لف حول ذراعي جهاز الضغط، ولم يستغرق الأمر ثوان، نزعه بسرعة وعاد لكرسيه ليجلس وسألني "هل يحبها؟". ترددت، فالإجابة ليست بسيطة. تذكرت يوم سألته وأصررت أمام أحد أصدقائه. قلت إني أريد أن أعرف وإنه مهما كانت إجابته فسيظل التزامي نحو عائلتي الصغيرة كما هو، إلا أنه يومها تهرب من الإجابة. عدت أنظر للطبيب وهو ينظر لي من فوق نظارته الطبية منتظرا إجابة، فقلت وأنا آخذ نفسا عميقا: "هي تعطيه ما يحتاجه الآن". سأل: "وهي، هل تحبه؟". فترددت أكثر ثم قلت: "لا أظن". قال: "تعتقدين أنها تستعمله؟". قلت بسرعة: "هذا لا شك فيه". أطرق قليلا ثم بدأ بيانه: "بالنسبة للفنان: إذا أردت أن أرى العقاقير التي يتناولها (هز أكتافه باستهانة) هاتيهم، ومن ناحيتك حاولي أن تعقدي صداقة مع الصيدلي لتعرفي تركيب ما يعطيه". تنهد وقال بيأس وهو يهز أكتافه: "سأخبرك بما أرى ولكن لا تأملي في الكثير: ربما ما يحتاجه هو طبيب آخر، أو ربما "لا" طبيب خالص، ربما يحتاج دواء آخر، أو "لا" دواء على الإطلاق". سكت، ثم رفع رأسه وسألني بسرعة: "هل مازلت تحبينه؟". قلت ساهمة: "لا أعرف. أنا مازلت أحب كثيرا الفنان الذي عرفت. إلا أنني أكاد لا أتعرف على الشخص الموجود الآن". فأضاف بنفاذ صبر: "اسمعي، إن كنت مازلت تحبينه: استحملي وظلي بجواره. وعندما ينتهي الحب ، اتركيه فورا". نظرت إليه وأنا أرى أن الأمر بدأ يصبح كالدرس الذي يجب أن ينتهي.

وفي الشارع أحسست كما لو كنت منومة، غائبة. كنت ممتلئة بالشجن. ترددت كلمات ندى مهري الشاعرة الجزائرية: "إذا كان قلبك محيط، فهو يتسع للحب، ويتسع للجرح. وإذا كان قلبك زاوية ضيق: أرق وملح، اختاري أصغر زاوية في محيط". آه..قلبي ملئ. الحمد لله أنني



fb/mashro3pdf

مررت بكل تلك التجارب، بكل تلك الحياة الغنية، الغنية بالسعادة والألم. كنت أمشي مستغرقة في أفكاري ومشاعري عندما حيتني نعمة بائعة الخضروات تفترش الرصيف أمام الغرفة التجارية واشتري منها كل يوم. أحب التعامل معها هي ورضيعها المنطلق الذي يحبو على طول الرصيف وعرضه مع قدرة فطرية على الدفاع والمحافظة على النفس. أشعر بخطوتي على الأرض تهز جسدي، تهز قلبي، كما لو كان ثقلا أحمله على ذراعي وأنا في مكان بعيد. وصلت شارع التحرير وانفتح ميدان باب اللوق أمامي. شعرت بعيني تملؤهما الدموع وأنا أرفع رأسي ويواجهني الضوء في الميدان بعد الشارع الضيق. إن بعد العسر يسرا. إذن هو يرى أن الفنان مازال قادرا على خلق اتزان ما لنفسه. إذن يجب أن أتركه لحاله. الأفضل ألا أتطوع. ولكن هل أنا حقيقة أتطوع رغبة في مساعدته، أم أن الأمر خاص بي: أنا احتاج أن يحتاجني. (يصرخ فيّ: أنت محبطة، محبطة، لاتجريني معك). أشرت لتاكسي، لم أعد أستطيع أن أمشي أكثر، قواي تخور. ألقيت بنفسي على الكنبة الخلفية. غمغمت بوجهتي وأطرقت في حزن. كان التاكسي ينطلق وراء الأتوبيسات حتى وصل إلى ميدان عابدين. هذا الميدان ضوءه جميل. الشمس تحنو على واحدة من المسطحات الخضراء القليلة الباقية في وسط القاهرة. آه يا كفاح يا حبيبتي. هذا هو إذن من أحببته ووضعت فيه أملك. ما قلته كان صحيحا، مازال لديه شبق للحياة. كنت تتمنين لو يضع علاقتكما في النور. لماذا يتمسك بزواج فاشل؟ وأنا أجادلها: "لماذا لا تقنعين بما وصلتما إليه؟". وهي ترد: "وهل بيدك تحكمين على علاقة ما بانتهاء الحلم، بوقف النمو، بيدك؟". تجلس أمامي، تدخن بنهم والشباك موارب لأجل خاطري. كانت تجاهد لتتحدث بصراحة، ولتخفي هويته قدر الممكن، ولتموه حتى لا تصل كلمة لأولادها بالحجرة الداخلية. كانت حائرة وبائسة. وأقول: "ياحبيبتي، إن لم تعطك هذه العلاقة سعادة، فبلاها أفضل". كانت تناضل، داخلها، لتوضح فكرتها ولتقنع نفسها



fb/mashro3pdf

قبل أن تقنعني. آه كم أفتقدك! أرادت أن ترى نجاح أولادها فلم يمهلها المرض اللعين. وهاهي ابنتك تهدي شعرها لك في ندوة الأمس فتمتلئ القاعة بصوت نحيب صديقاتك اللاتي أتين لسماعها، لسماع صوتك في صوت ابنتك. آه يا كفاح، لم تكن تلك الآلام إذن مشاكل سن يأس مبكر. وها أنت تغادرينا. قابلتي الفنان وانبهرت به ورفضت أن تقولي لي ما دار بينكما، وأحسست أنك أصبحت في صفه، كأننا في منافسة، وأنه خطف بسحره صديقتي. وبعدها، يوم تجمعت الصديقات للاحتفال، وبمجرد أن فتحت فمي لأقول أني تأخرت بسببه، بسبب الفنان، اندفعت مهاجمة: "تبدأين في الشكوى؟! سيرة "الفنان بتاعك" مرة أخرى. الفنان، ثم الفنان، ثم الفنان، فهل سنقضي الجلسة كلها ليس لنا سيرة غيره، زهقتينا". جرحت يومها جدا. لم أهن عليك فأخذت تصبريني بكلام عن ألم خلع ضرس، استئصال كيان متغلغل داخلنا، متشعب. انتزاعه لا يكون إلا بالدم واللحم. ثم نشعر بعد زواله بفراغ داخلي، وتبدأ أعضاءنا تعوم بلا اتزان في فراغ لم نتعود عليه. "أما هو، الفنان، فكلما كبرت أنت، كلما نضجت أنت، فسيبتعد، إذ لن يطيق التعامل مع كفء". فهمت بعدها سر نفاذ صبرها وعصبيتها. كانت تحتمل ما لا يُحتمل. كانت تقترب من الغياب الذي قادها للنهاية بعدها بقليل.

كان الفنان يعاتب تلميذه هاوي الرسم كل يوم في التليفون عتابا شديدا لأنه جعل المدام تنظم له معرضه الجديد، والتلميذ الهاوي يغير الموضوع ويحاول الاحتفاظ بعلاقة متوازنة معه دون أن يخسر فرصة تنظيم معرض يحضره وجوه الأغنياء في البلد. وعندما أتى التلميذ الهاوي ليدعوه على الافتتاح ويعطيه دعوات الحضور والبوستر سمعت صوت الفنان، صوته وهو "صعبان عليه نفسه"، وهو يطلب من تلميذه أن يرفض هو، من نفسه وبدون إملاء من أحد، التعامل معها، ولو من أجل فضله عليه وعليها. هو



fb/mashro3pdf

من صنعها ويريد أن يحتكر مجهودها وعلاقاتها. يختنق صوته، كأنه سيكي والتلميذ الهاوي يقول أنه بالتأكيد يعز عليه أن يرى الفنان الكبير في تلك الحالة. تضطرب شفتا الفنان ويتقلص ذقنه و تمتلئ عيناه بدموع الرغبة في الاستئثار كطفل يشد أحدهم لعبته من يده. يقول التلميذ الهاوي بصوت منخفض: "الموضوع مش مستاهل، ليه كل ده، طب خلاص ، ماذا تريد؟، تريدني أن أقول لها ألا تنظم المعرض؟!"، فيندفع الفنان "آه، قل لها ماتنظموش، آه، ارفع اسمها من على الدعوة...". وأنا أقف في الصالة مذهولة: أشهد انهيار الصنم، صنمي. يرن في أذني نفس الصوت الباكي، الذي سمعته من قبل يحاول أن يجذب مسترجعا لعبة أخذوها منه.

(يتحدث لتلميذته الموهوبة: "لا، لا تقولي ذلك، لقد أثثت لك هذا المرسم الجديد. لك أنت. من أجلك أنت أثثته. جعلته كحلم موحي، وسترين مشاعري نحوك في كل ركن...."، وأنا أغلق باب حجرتي علي حتى لا أسمع، لا أريد أن أسمع. أود لو أجد أي شيء لأنشغل به، أي شيء. لا أريد أن اسمع فأغلق أذنياي بأصابعي. ثم عندما أخرج بعد مدة بعد أن سمعت صوت سماعة التليفون يوضع مكانه. ينظر تجاهي، ويبتسم كالمعتذر وهو يمسح دموعه، آه ، يا ربي ، دموعه، فعلا؟!!. معبودي، الصنم، يبكي؟!، من لوعة الهجر، الصد والحرمان؟!، بينما يعاملني أنا هكذا؟!، كأمر مفروغ منه. ولم لا، أنا من وضعت نفسي في هذا المكان. يبتسم لي ويقول كأنه يفاجئني مفاجأة سعيدة: "سترجع لترسم عندي، لكن بشروط جديدة". وقفت جوار كرسيه وشعرت أن اتزاني يختل. تحولت لمنتصف الصالة وفي هدوء تام ودونما كلمة أو صوت، رفعت الزهرية التي كانت على الترابيزة في منتصف الصالة، من الزجاج المنفوخ يدويا مليئة بالورد الصفراء الرقيقة الصغيرة والماء، واتجهت إليه، أحملها في يدي. يبتسم لي ولكن في حذر إذ لا يفهم ما يحدث، ولكن يبدو أنه لا يتوقع أي شيء غريب، فهكذا وجدني دائما: سلسة وعاقلة ولا أسبب مشاكل. إن



fb/mashro3pdf

ضاق بي الحال فأنا أصرف غضبي للداخل فلا يسمع عنـــي أي أحـــد أي شيء. آه، دائما بنت ناس حقيقية، عاقلة ومنضبطة. وقفت جواره بالضــبط وهو مازال جالسا على الكرسي بجوار التليفون في ركن الصالة جوار باب المطبخ. يرفع رأسه لينظر لي، واقفة منتصبة، كما لو كنت قـد أصــبحت عملاقا. وفجأة، تركت الزهرية من عل لتسقط متحطمة على الأرض إلــى جواره. تناثرت قطع الزجاج الأزرق الهش الرقيق المليئ بالفقاعات في كل مكان ومعها الماء والزهور. ساد الصمت. لم أنظــر إلــى وجهــه، أدرت ظهري في اتجاه باب الشقة إذ أدركت أني أقترب من الجنون. لبست حذائي بهدوء ورفعت حقيبتي من على كرسي السفرة الذي أتركهـا دائمـا عليــه وفتحت الباب. سمعته ورائي يقول وهو مازال جالسـا علــى الكرســي، بصوت مهتز: "إيه ده، رايحة فين؟!" إقترب الصوت، بالتأكيد وقف، لكنــي لم أستدر. "يا مجنونة، إيه اللي إنت عملتيه ده؟!". عندما وصلت أمام بــاب المصعد بدأت أسمع صياحه: "تعالي لمي القزاز ده، رايحة فين؟!، الســاعة حداشر، ..". سمعته وباب المصعد يغلق يصرخ وهو يخــبط بكفيــه: "دي اتجننت، اتجننت....". همت بلا هدى في شوارع وسط البلد، أحدد هــدفي وفق اللحظة، إذ ليس في استطاعتي حقيقة أن أهيم تماما بلا هــدف مهمــا كانت حالتي. أصل لميدان طلعت حرب، ثم أقرر أن أصل لميدان التحرير، ثم أقرر أن أعود من شارع التحرير حتى أرى حال سوق باب اللوق فــي الليل، والأجزخانات الساهرة من أجل المرضى الذين يغــادرون عيــادات الدكاترة المتأخرين في عمارات باب اللوق المليئة بهم، ثم أقرر أن أســتمر في شارع التحرير حتى أصل لميدان عابدين. إذا انحرفت الآن فسأصل بعد دقيقة لبيتي، فأقلب شفتي وأعدل اتجاهي في السير حتى أصل لشارع عبــد العزيز ثم ميدان العتبة، فأقف أنظر على حركة الميدان التي لا تهدأ. ارفع رأسي وأقرأ أسماء الفنادق الرخيصة القديمة، تظهــر يافطاتهــا المتقشــرة "لوكاندة نوم" على الأدوار العليا من مباني ميدان العتبة العريقــة. عنــدما



fb/mashro3pdf

عدت، كان نائما، سمعت صوت تنفسه المنتظم وشخيره المتقطع. الزجاج المتكسر، والزهور، وسط بركة المياه مازالت على الأرض. أدرت ظهري ودخلت حجرتي وأغلقت الباب. عندما فتح هو لفوقية الباب في الصباح الباكر انطلق صوتها الغليظ العالي يتساءل عما حدث، ثم توقف صوتها فجأة. بالتأكيد أشار لها بيده. ربما قال لها إن الست جنت. ربما أمرها أن تنتهي بسرعة حتى يسرعا بالخروج من الشقة. سمعت صوت لم الزجاج، والممسحة تتحرك على الأرض، بهدوء شديد خلاف عادتها كثيرة الضجة. ثم غادرا معا بسرعة).

كان صديقه الشاعر قد زارني قبلها بأشهر فوجدني ثملة، شربت من كل ما كان موجودا بالبيت. فوجئ بشدة، وشعر بحاجتي للكلام. سألني إن كنت قد وجدت الخمر لذيذا، فقلت وأنا أصارع لأفتح أجفاني: "آه، كان لذيذا جدا" قال: "ياه، بالتأكيد أنت متألمة جدا. لا يحس بلذة الخمر هكذا إلا المتألم جدا". كنا قد قابلنا جورجيت ومجموعتها الذين أتوا لدراسة منطقة الفسطاط للخزف. وعندما جلسنا للغداء في مطعم فندق منيرفا في الدور الخامس رأيتها. كانت تلميذة جديدة تتمرن عنده على الرسم بالزيت، حديثة التخرج من الجامعة وتريد قضاء أجازتها قبل العمل بشكل جديد، أقل مللا، فعرّفها بعض أقاربها من المعجبين به عليه. وقعت عيني على يدها فلم أستطع رفع عيني عنها. كانت ترتدي الخاتم بالجعران الحقيقي الذي عرضته عليه صاحبة محل العاديات ونحن معا قبلها بيوم ليشتريه لي. كان كلما وجد شيئا نادرا أو جميلا عندها اشتراه وأعطاه لي. فهمت بعدها أن ذلك الكرم لم يكن موجها لي بشكل شخصي، ولكن، "للمرأة" في حياته في تلك الفترة. تردد هو في أن يشتريه لي ساعتها وقال: "ليس معي نقود الآن". تعجبت فقد كان يشتري منها دائما سحبا من حساب ما تبيع ولكن صاحبة المحل المحنكة بذكاء السوق غيرت الموضوع. وعلى الغداء في اليوم التالي رأيته في أصبعها فسألتها فقالت بفرحة غامرة وحماس كان لي أيضا يوما: "آه،



fb/mashro3pdf

هذا جعران، جعران فرعوني حقيقي..." ثم سكتت فجـأة، كأنمـا أدركـت الحرج الذي ستقع فيه إن استمرت في الكلام على سجيتها. أدارت وجههـا بسرعة ورفعت الخصلات التي تساقطت بسبب الحركة السريعة على جانب وجهها، وتصنعت الانشغال بحديث الآخرين ففهمت أنها ليسـت بالسـذاجة التي تدعيها. لم تقل من أعطاه لها ولم أسأل ولكني تألمت. اتجهنا جميعنـا بعدها لمرسمه وهناك أخرج اسطوانة معينة، سمعتها أيضا فـي أول مـرة زرته فيها، وانبعثت النغمات نفسها التي أحفظها جيدا، "الموت في فينيسيا"، وطلب منها، كما طلب مني أنا أيضا يومها، أن تأتي للمطبخ لتساعده فـي صنع القهوة، ففعلت بحماس. وفي طريقي للحمام الذي يجاور بابه بـاب المطبخ رأيته مسندا ظهره على الشباك في المطبخ الضيق جـدا، يحكـي بنفس الكلمات حكاية الاسطوانة، وهو ينتظر أن يقلب براد القهوة الايطالية بعد أن يغلي الماء ليمر خلال حبيبات القهوة وينزل مصـفى فـي الجهـة الأخرى. وهي تقف أمامه أراها من ظهرها يتحرك رأسها في اتجاهه تارة لتسمعه وتارة أخرى مراقبة براد القهوة الايطالية الذي بدأ يدخن على النار. كانت أصغر مني بعام واحد فقط، ورأيت فيها كل ما كان عندي، كـل مـا غيرته لأعجبه، ليرضى عني. الحماس للأشياء، الحيوية ونضارة الجديـد، المستقبل المفتوح بكل اختياراته. كان يريدني أن أصبح سيدة منزل، فتعلمت واصبحت سيدة منزل. أرادني أن أبدو بمظهر معين اختاره لي فأصـبحت أنا ملكية أكثر من الملك. ملابس رمادية فضفاضة وأحذية تفصـيل تكسـو القدم من كل اتجاه. أناقة كلاسيكية. ثم أتت هي، لها نفس طـولي إلا أنهـا تمشي منتصبة القامة، فتبدو كما لو كانت أطول مني. واثقة بنفسها، تلـبس بنطلونات ذات ألوان فاتحة تصل لبعد ركبتها بقليل فتظهر جزءا من ربلـة ساقيها. صنادلها مفتوحة ملونة بسيور دقيقة لا كعب لهـا. شـعرها لامـع منسدل على كتفيها، ترفعه بزهق أحيانا، فيظهـر جمالـه وجمـال عنقهـا الطويل. يقول لي: "لم تعودي تأتين للمرسم!!". فأقول: "أنت قلت لـي انـه



fb/mashro3pdf

ليس بينك وبينها أي شيء، وأنا أرغب في أن أصدقك، ولكن مازال فستانها الخفيف هناك، معلقا في حمام المرسم، وتحته شبشبها في انتظارها، لتخلع ملابس الخروج وتبقى "براحتها" كما تحب ومتى تحب، سعيدة ومسترخية. سامحني، لا أريد أن أرى هذا". وأعرف، أتمنى، أنه ربما يشعر بألمي ولكنه لن يفعل أي شيء. هذه المشاعر موضوع يخصني وحدي لا دخل له فيه. فهو فنان، وقد وضع شروطه من البداية. أما أنا فقد التزمت بحريته.

(كان ينزل البحر، وأجلس أنا على الشاطئ أحرس ملابسه وأنظر إليه، وأترقب عودته. أعلق عينيّ بالماء فلا أرمش، خوفا من فقده، إذ ساعتها سأفقد نفسي. ثم يقب، وينطر الماء من شعره، فأسترخي قليلا وأبتسم. ثم نزل ذات مرة وجلست انتظر. غاب. أصبحت أنا بين اليأس والرجاء. حتى ألقى إليّ البحر بتمثال قديم، يشبهه كثيرا. أخذته وعدت. كنت أجلس أمامه، أضع لنفسي الطعام وله. آكل وأنظر إليه. ثم أخرج وأتركه، وعندما أعود، لا أجد الطعام، فيصحو الأمل. أنظر إليه فأجده على حاله، فيجتاحني اليأس. خبطته بيدي قائلة انطق. يدي مبلولة بعرق الانفعال، شوق ورغبة وحنين. وضعت يدي على لساني: مالحة! تمثال من الملح؟! كيف خرج إذن من البحر ولم يذب فيه!!).

fb/mashro3pdf

# ٥

عادت صديقتي مدرسة اليوجا من أجازة الصيف وطلبت أن نتقابل في النادي. كلا منا تحب الخضرة وتحتاجها. جلسنا على كنبة صغيرة تحت الأشجار العملاقة في المكان الذي يأخذ الناس فيه كلابهم للنزهة ووضعنا أمامنا كرسيين لنرفع أقدامنا عليهما. ذكرتها بتلك المرة التي جلسنا فيها في نفس المكان في أول معرفتنا منذ سنوات. بكيت يومها وأنا أحكي أن الفنان لا يتوقف عن الحديث عن الموت وأني لا أتخيل اليوم الذي لن يكون فيه معنا فأظل أستحلفه أن يتوقف. هدأتني يومها صديقتي ونصحتني: "سيتوقف إن قلت له ألا يخاف عليك، وأنك ستكونين قوية". لم أكن أفهم وقتها، ولم تكن هي أيضا تفهم أن حديثه عن الموت لم يكن أبدا لأنه يخاف عليّ. بدأت أتكلم وهي تسمع في صبر. منولوج طويل عما يحدث الآن في علاقتنا، وما يحدث في علاقاته مع الآخرين. خرجت من موضوع لأدخل في آخر وكلها تدور عنه، به وله منه وإليه. أنصتت مبتسمة ومشفقة. لم تعلق. ثم حكت لي عن الكتاب الذي أثر فيها هذا الصيف. أعطتني اسمه بالضبط: "أطلبيه من أحد المسافرين إلى أمريكا". قلت بفرح: "هاهي الأشياء ترتب نفسها مرة أخرى. أختي في أمريكا وتعود بعد أيام". أرسلت لها فاكس باسم الكتاب. وعندما عادت بعدها بأيام كان الكتاب معها. تقابلنا، فأمسكت بالكتاب داخل الكيس المزخرف ورفعته لأعلى قائلة: "قبل أن أعطيه لك

fb/mashro3pdf

يجب أن تعرفي قصته. عندما وصلني الفاكس قلت "طلبات آخر لحظة لا أحبها". ذهبت للمتحف يومها وقلت أسأل على الأقل أين يباع وأنا في نيتي أن لا أبذل أي جهد كان أكثر من ربما أن أخرج من المتحف وأعبر الشارع". أثارت حب استطلاعي، وحنقي في نفس الوقت. قالت إن الموظف في محل الهدايا في المتحف طلب منها الانتظار ليحضر لها المعلومات التي طلبتها من المكاتب الخلفية. وعندما عاد كان الكتاب في يده فآمنت بحظي وتأكد لها احتياجي للكتاب.

الكتاب من نوع الكتب التي ظهرت وأصبحت موضة في السنين الأخيرة يستخدمها القارئ ليساعد نفسه. هذا الكتاب هو عبارة عن دورة يتبع فيها القارئ تعليمات معينة لمدة اثنا عشر أسبوعا للتغلب على مشكلة التوقف عن الكتابة التي يصاب بها بعض الكتاب. هذا هو العنوان الأساسي ولكن الكاتبة تقول أن الكتاب يفيد كل من لديه مشكلة في التواصل مع نفسه ومع الحياة، أو مشكلة في التعبير عن النفس أو الثقة بها. يطلب من القارئ في البداية أن يتعهد لنفسه، كتابيا، بالعناية بنفسه ومساعدتها، ويشترط أن يقوم بكتابة ثلاث صفحات على غيار الريق، أي بمجرد أن يستيقظ، قبل أن يتحدث مع أياً كان، وقبل أن يقوم بأي مهام حياتية. ثلاث صفحات يفرغ فيها ما في عقله الباطن دون تفكير أو تحضير. الكتاب يطلب ألا ننظر لما كتبنا، نضعه جانبا على الأقل في الثماني أسابيع الأولى. وهكذا فعلت، في المدة التي قرأت فيها الكتاب، ولسنوات بعدها. أكتب، واكتب، وأطبق الأوراق، وألقي بها في صندوق. أضع الأوراق البيضاء بجوار سريري وفوقها القلم الرصاص الذي أحب الكتابة به. استيقظ نصف ساعة أبدر من موعدي، أمسك بالأوراق والقي فيها بما يخطر على بالي، دون نظام أو تحضير، حتى ولو كان: "لا أجد الآن ما أقوله، فكيف أملأ ثلاث صفحات؟"، حتى لو كان: "عليّ الآن أن أنشر الغسيل الذي وضعته في الغسالة الليلة السابقة" ثم تنطلق يدي بعدها في الكتابة لملء الثلاث



fb/mashro3pdf

صفحات. لم أنظر فيما كتبت ليس لثمانية أسابيع وإنما لسنوات. الأوراق تتكوم فوق بعضها في الصندوق. أفتح غطاءه وألقي بالثلاث صفحات لداخله المظلم. أضغط بيدي ما رميت لأدفسه وسط الأوراق الأخرى. عندما قارب الصندوق على الامتلاء أتيت بآخر. كان الأمر صعبا في البداية. عندما تصمت مدة طويلة، تنسى الكلام. ثم تحاول في مرة أن تتكلم، حتى لو كان الكلام مع نفسك، تكتشف صعوبة ذلك إذ ستجد الكلام يأتي مرة واحدة. يود لو يخرج دفعة واحدة، فلا يستطيع، يتعثر يختنق. ثم تنظر: تجده لم يخرج. ابن جيراننا الأخرس، بعد تردد طويل ومرير على كل أنواع الأطباء، اكتشفوا أن مشكلته أنه لم يفهم بشكل فطري أنه لا يستطيع أن يتكلم ويتنفس في نفس الوقت. كان عليه أن يتعلم أن يشد نفسا عميقا ثم يخرج الكلام، كلمة كلمة، مع الزفير. كنت من قبل أخشى مواجهة الورقة البيضاء. أتحدث مع نفسي طوال اليوم، ولكن عندما تأتي لحظة مواجهة الورقة، أتحجج بألف حجة حتى يضيع الوقت، يضيع التركيز، تضيع فرصة الانفراد بنفسي، فأؤجل للغد، أو بعد الغد. كنت أخاف ألا أنتج ما أتمناه وأرضى عنه تماما، فجاءت فكرة الثلاث صفحات الصباحية كالبلسم. سأكتب، وسأضعه على جانب. أقترب من نفسي، أراعيها وأحن عليها. أختار الكتب وأقرأ فتنعكس لي كمرآة أوضاعي والحلول المناسبة. وأقول لنفسي بعد تأخري في الكتابة لهذه السن لا يجب أن أفكر في رأي الآخرين. ما أكتب هو قطعة عزيزة من حياتي. صبرني كثيرا أن أقرأ "ريلكه" ينصح الشاعر الشاب: "مقياس الوقت مختلف للفنان، سنه لا تعني شيئا، عشر سنوات أيضا لا شيء. أن تكون فنانا معناه أنك لا تعمل بالعد والإحصاء، ولكن تعمل لإنضاج الشجرة التي تقف ثابتة في برد الشتاء ورياح الربيع، ولا تخاف من ألا يأتي الصيف، لأنه سيأتي. الصيف يأتي فقط للصبورين، الذين يقبعون هناك، كأن الأبدية تحت أقدامهم، وأمامهم: بلا جزع، في هدوء وسكينة. تعلّم ذلك كل يوم، تعلّمه مع الألم، بامتنان وصبر". ثم بدأ

fb/mashro3pdf

"الملعب" يظهر في تلك الأوراق الصباحية. كانت قصة الملعب التي اخترعتها أكبر سلوى لي في ذلك الوقت، إذ أضع كل شيء بشكل رمزي يحميني من شجن مواجهة لست قادرة عليها بعد، أو إرهاق تسمية الأشياء بأسمائها. لم تكن الشجاعة قد واتتني بعد لأقول بالصريح: "بعت نفسي رخيص، ورماني هو في الزبالة، استهلكني، كما فعل بتجاربه السابقة". كنت أترجم في أوراقي الصباحية أحداث يومي كأحداث تحدث في "الملعب" فأبتسم وأستريح، وأتفرج. عندما وصلت الحكاية إلى ذلك المدى، أصبحت حياتي الحقيقية، أو ما أسميه ذلك ، والحكاية التي أتفرج عليها، كأنهما خطان متوازيان.

**(فكرة الملعب: لكل منا منحة، ملعب، يتسلمه حين يبدأ حياته، يشترك في تكوين شخصيته، ثم يصبح تعبيراً عنها. وفي طريقي لتسلم "خاصتي"، أوراقي في يدي أبحث عن العنوان في وسط تقاطعات تشبه المتاهة، مررت بملعب عريق، يبدو كبستان وارف، وفروع الأشجار العتيقة تظلل أسواره. على الباب يقف صاحبه، ينظر للسماء حالما. قال: "تفضلي، أنظري بالداخل. إن أعجبك تبقين، تؤنسينني وتعملين معي لازدهار المكان واستمراره، فيصبح لنا معا").**

بدأت أراقب الملعب يتكون على الورق بحب استطلاع وشغف. تظهر أحداث وأشخاص في الأوراق وتختفي. دوائر ودوائر، لا تؤدي لنفس النقطة، ولكن لنقطة أخرى أكثر تقدما. كنت أحيانا ما أود أن أقوم من سريري في الليل لأكتب عن نقاط معينة فأكسل من البرد. عندما يطلع الصبح أجد نفسي أتذكر بعضها بوضوح، والبقية يغطيها الغيم. فأكرر لنفسي أن ما أنساه مع الصباح بالتأكيد لم تكن له قيمة أو أني لست مستعدة له بعد.

كانت خادمة الفنان حكاية وحدها. كانت طفولتها تعسة إذ رماها أهلها الفقراء في بيوت الناس. أولا في بيت الإقطاعي في القرية ثم في



fb/mashro3pdf

المدينة خادمة بلقمتها منذ سن مبكر. ذكاؤها الشيطاني وحقدها وتطلعاتها التي لا تنتهي قادتها في سكك ودروب أوقعتها في منزلق بعد آخر وهي تقوم من عثرتها وتستمر. زوج بعد آخر، طفل بعد آخر، ترميه لنصيبه من أجل قصة جديدة ترى فيها مصلحتها فتنغمس فيها بكل كيانها. كانت تختلف عن وحيدة، خادمة الفنان الرقيقة التي خدمته فترة الستينيات كلها تقريبا. يتيمة أرادت عائلتها التخلص من حملها فأتوا بها من الفلاحين لتعمل لدى الفنان. لم يحاول معها أو يجرب أن يدخلها في حريمه كما يفعل عادة، فلم تكن من ذلك النوع، هكذا أسرت لي. كان أملها زيجة بسيطة. تربي كتاكيتا وأطفال وتعيش في كسل وتواضع. أتى الفنان بأحسن الطباخين ليعلموها فأثبتت موهبة غير عادية في الطبخ وإعداد الموائد والعزائم لعدد كبير من الضيوف إلا أنها بعد أن تزوجت كانت ترفض أن تأتي لتنظم له عزومة أو عشاء. كانت تقول بابتسامة صغيرة: "خلاص، راحت عليّا، الآن لا أريد". لم يكن شراؤها سهلا. وعندما مات ابنها الأوسط، صبيا في الرابعة عشرة، في حادث أتوبيس عبثي، وذهبت لأعزيها في بيتها المتواضع في أطراف القاهرة ظلت تقول لي وهي تريني الصور وتكرر: "كان ظريفا، أليس كذلك؟". شفتاها تتقلصان وهي تحاول الابتسام لتشجيعي على الموافقة على شيء لم أعرفه، فأنا لم أر ابنها هذا أبدا، فقد كانت، هي وزوجها العامل البسيط، يأتيان معهما فقط بالبنت الصغيرة التي فرحا بها جدا بعد ثلاث صبيان. كانت وحيدة تقول: "الآن أتت لي أخت، بدلا من وحدتي".

على مر السنين كانت فوقية خادمة الفنان تختفي وترجع، كقطة الشارع التي تشم منطقتها. ترجع دائما بحكاية درامية، أو ميلودرامية مؤثرة عن ابنها الذي فقدته في بلاد الغربة، عن الرجل ذو العائلة: والنفوذ الذي أرادها ولكن الظروف، عن خيبة أملها في ابنتها التي تركتَها عشر سنوات وعادت لتجدها قد انزلقت لتصبح ما لم تتمناه. وصديق الفنان ذو النفوذ الذي رجته أن يساعدها يقول لي: "لا تشعري بالشفقة تجاهها، دي بنت

fb/mashro3pdf

"......". فقط قولي لها أن تحضر الأوراق، عندها سأساعدها. سترين، لن تحضر أي شيء وستنتهي القصة على ولا شئ كما بدأت. غرضها شيء آخر، الله أعلم ما هو، سترين. اسمعي كلامي وانسِ الأمر. أنا عامل عملية قلب ومش عاوز كلام كتير". أراها تبكي، فأحرس نفسي من التأثر. كل همي أن أفكر كيف أبعدها عن حياتي. عندي صراع بين الاحتياج لخادمة تساعدني وخاصة في خدمة الفنان الذي لا يرضيه شيء ولا يقبل بأي أحد أو أي شيء، وبين رغبتي العميقة أن أبعد قطة الشارع هذه عن بيتي وعن حياتي. تقول لي وقد خفضت رأسها ورفعت عينيها تنظر لي باستنكار: "السجاجيد دي ماتشالتش ، مش كده؟" وأنا أرد بسرعة: "لأ، إزاي، شلتهم، بس السجادة دي واللي في حجرة الفنان عملتهم بالمكنسة". ثم أفيق لنفسي وهي تمضي من أمامي منتصرة. "يا نهار إسود، ماذا جرى لي، يا بنت الكلب، وأنا كمان أرد عليها؟! أشيل السجادة أو لأ، ده بيتي، أعمل اللي أعمله". إلا أني لا أنطق. أدير ظهري وأتمنى في بؤس العاجز أن تجيء المصيبة المناسبة لتشيلها. أصبحت أخافها بسبب علاقتها الوثيقة بالفنان الذي أحلم برضائه، والغل الذي تنثر به الطاقة السلبية في المكان.

(تسللت عِرسة لمرسم الفنان وسكنت تحت سريره. قال الناس لأنه يخزن الصابون هناك، وقالت والدته لابد أنه يخزن كنزا هناك. كان في هذا شيء من الحقيقة: كانت هناك زخارف فضية وذهبية يجمعها الفنان كنماذج لكتاب ينوي تأليفه. يسمع الفنان خروشة العِرسة في الحجرة فيتضايق ويشتكي، فقررت البحث عنها بمساعدة فوقية التي كانت قد بدأت العمل في ذلك اليوم. فتحنا لها الشباك الواسع أملا أن تخرج منه وأدخلنا العصا الطويلة تحت السرير فانطلقت العِرسة لتحت الدولاب. وهكذا كلما ضايقناها في مكان انطلقت بسرعة خاطفة لمكان آخر. وكلما خافت العِرسة أكثر أطلقت رائحة لا تطاق. قلت "فلنتعاون لنتخلص من هذا الموضوع يا فوقية.



fb/mashro3pdf

سأقف أنا انكش المكان بالعصا الطويلة وابقِ أنت هناك بالآنيتين النحاسيتين تخبطين بهما. الضجة من هنا والنكش بالعصا من الناحية الأخرى ربما دفعا العرسة للخارج". بعد قليل ضجت العِرسة فانطلقت هاربة من تحت السرير وقبل أن تصل للشباك لتهرب منه رمت فوقية نفسها على الأرض وانقضت عليها بأقصى سرعة بالآنيتين النحاسيتين. واحدة أوقفت بها حركة ذيلها وأرجلها الخلفية، والأخرى أخذت تضرب بها على رأس العِرسة. أطلقت العِرسة صرخات مريعة وفوقية مستمرة حتى تهشم رأسها وطرطش الدم الأحمر في كل مكان وفوقية على ركبها على الأرض وقد ماتت يدها على الآنيتين النحاسيتين تدق بهما دقات عنيفة منتظمة على العِرسة، يقطعها صراخها المبحوح: "يابنت الكلب" (طراخ)، "تعبتيني" (طراخ) "زي ما كل حاجة في حياتي تعبتني" (طراخ) "ماليش بيت" (طراخ) "وابني ضاع في الغربة" طراخ طراخ طراخ).

كانت تأتي في الصباح الباكر. تكرس نفسها للفنان. لا تقوم بأي شيء للبيت. فهمت "على الطائر" وبسرعة بذكائها الشيطاني ما يقصده الفنان عندما يقول لي: "أنا أدفع أجرها، إذن هي لخدمتي". وتهزأ الجارة العجوز فتسميها "كماريرة الأستاذ". تظل فوقية تروح وتجيء، تدب، بين المطبخ وحجرته، مرورا بالصالة. ينادي عليها، فتدب ذاهبة له، يطلب منها شيئا فتدب عائدة للمطبخ، وتدب عائدة لحجرته ثم تدب للمطبخ. يرتاح لحركتها إذ تشعره بالحياة كما يقول. ثم تقف أمامه وهو جالس على كرسيه الكبير في حجرته ليتبادلا أحاديث مشتركة طويلة. نميمة عن جيرانها في الحي الشعبي الفقير الذي تسكنه، عن الفتيات والنساء اللاتي يرتدن الكوافير الذي افتتحته ووضعته تحت إشراف زوجها الجديد، أخبار تسمعها من البوابين عن سكان العمارة، جيراننا. كلام بصوت عال أومنخفض حسب الموضوع. ثم تعود لتدب بين المطبخ وحجرته. وهكذا، ساعة أو أكثر، حتى ينادي عليها لينزلا سويا. يغلق الباب فأتنفس الصعداء. "غارت" أقول



fb/mashro3pdf

لنفسي في عجز. أخذت فوقية تعطي لنفسها كل يوم أهمية أكبر والفنان ساكت. ثم أصبحت تتكلم بصيغة الجمع: "عندنا في المرسم كذا واشترينا كذا وكذا". ثم بدأت بوعي أو بدون وعي، لا فرق فالنتيجة واحدة، تبعد أصدقاء الفنان عنه. تبعد عنه حتى أفراد أسرته. توصل لأصدقائه الفنانين ما يقوله هو عنهم في السر."الأستاذ لم يعد يريدك. أنت أصبح شغلك أسوأ ، أما أنت فحسابك ثقل إذ أنك تقترض فلوس كثيرة"، وتقول لآخر: "ما تجيب بأه الكتب التي استلفتها من الأستاذ، وإلا لن تأخذ أي شيء آخر قبل أن تعيد ما استعرته من قبل". تلقى بكلمات عابرة في الأحاديث الصباحية وخلال اليوم: "هم ينتظرون أن يرثوك" أو "هل تظن نفسها يمكن أن تسيطر عليك؟". وهكذا بهدوء أصبحت محل ثقته الوحيد. الأمين الوحيد والمخلص الوحيد. "استفحلت" أقول لنفسي ويقول لي أصدقاؤه. الطريقة اللي تعامله بها ، الطريقة التي تلف بها حوله، الطريقة التي تطالبه بها بما تريد، الطريقة التي تنظر لي بها كأني دخيلة، كأني أقف في سكتها.

**(لأن أوراق الشجر الجافة تتساقط على الأرض بكثرة في تلك المنطقة، احتاج صاحب الملعب العريق دائما لاستئجار أحد العمال. يعطيه شوكة ذات أسنان ليكنس الورق وينظف المكان. منذ أقمت هناك توالى علينا عمال كثر، يأتون ويذهبون. كان تعامل صاحب الملعب معهم غريبا. يشتعل و يثور فجأة، ويخبو فجأة. يطلب كمالا في أداء العمل لا يقدر عليه كثيرون. حتى أتى في أحد الأيام جامع أوراق الشجر ذو الشوكة حادة الأسنان، يتمسح بالباب عارضا خدماته، فأصبح الوحيد ولم يأت بعده أحد، لأنه بقى. كانت شوكته حادة، حادة جدا. إذ يجلس على الأرض آخر كل يوم عمل، مادا ساقيه غليظتي الأفخاذ، مباعدا ما بينهما، يسند يد شوكته في الأرض أمامه، مقربا أسنان الشوكة من عينيه اللتين ضيقهما، إذ كان كليل البصر، ويظل يسن أسنانها، بتركيز وضبط المغلول. يسنها كالمنتظر للحظة انتقام. عيناه ثابتتان، كالمنوم، وفمه مزموم وحاجباه معقودان. يده**



fb/mashro3pdf

تعمل بالحجر على السن رائحة غادية بحركة رتيبة لكن سريعة. تنظر فتشعر، حقيقة أم خيالا أن الشوكة قد أصبحت جزءا من يده، بل هي ذراعه نفسها. يسنها كأنما يتوعد، يتوعد للحياة كلها. كنت في البدء أتساءل، بسذاجة، عن قيمة أن تكون الشوكة بهذه الحدة وكل المطلوب أن تجمع أوراق الشجر الهشة الخفيفة. ثم لم أعد أتساءل، إذ أصبح واضحا أن سن الشوكة ليس من أجل أوراق الشجر وإنما لغرض آخر. فيما بعد اسماه الأصدقاء (الدبابة) أو ( الإرهابي)، ومع الأحداث الجارية أسماه أحدهم (الشيشان). كانت حركته وهو يعمل، وحتى وهو يستريح تفور بغل داخلي، والأدهى عندما يتحدث. كرهت وجوده، وانتظرت انصرافه بعد قضاء عمله كل يوم بصبر نافذ فأتنفس بارتياح. كان علي أن أتجنب الاحتكاك بالعامل، أو شوكته الحادة. أن أظل على مسافة ثابتة منه ، قد تزيد، ولكن لا تنقص أبدا. عكسي، استمتع صاحب الملعب: العريق بوجوده وأبقاه أطول ما استطاع. كان يشتكي منه كثيرا، ففسرت إبقاءه له في العمل بأنه لا أمل لديه أن يجد من في مثل قوته أو مهارته. وإن وجد، فهو لا يريد أن يبدأ من جديد ليدربه ويخبره بأماكن الأشياء. كانت لديه القدرة على تجاهل متاعب العامل مقابل حسناته. كان (يسك مخه) حسب تعبيره. ثم أصبح يعتمد عليه أكثر و أكثر، فيما يعرف ويتقن، ثم فيما بعد فيما لا يعرف و لا يتقن أيضا. كان يردد "هذه علاقة واضحة، هو له ثمن، وثمنه معروف. فقط الخدم والعاهرات. كل العلاقات الأخرى تتطلب عطاء غير واضح وغير محدد".

والحقيقة أن جامع أوراق الشجر كان عاملا مجدا. يظل يعمل طوال وقت بقائه بلا كلل أو ملل، دون أن يتعب. يجمع أوراق الشجر، المتساقطة من أشجار الملعب العريق، ومن أشجار الجيران، فالباب مفتوح دوما والريح تدفع للداخل بالأوراق المتساقطة لدى الجيران وفي

fb/mashro3pdf

الشارع وفي الممرات المحيطة. أتساءل في نفسي، دون أن أقوى على الجهر، لماذا لا نغلق باب الريح، منه نبتلى بكل تلك الأوراق الجافة. عندها لن نحتاج إلى هذا الحد لاستئجار من يجمعها. ثم أدركت بعد وقت طويل، أن هناك شيئا خاصا بين صاحب الملعب العريق وجامع أوراق الشجر ذو الشوكة المسنونة. يظل العامل يعمل، محدب الظهر، بلا كلل، حول صاحب الملعب العريق وبين قدميه. وعيناه الضيقتان- وقد ضيقهما أكثر- تتبع إشارة أصبعه: هنا، وهنا، وهناك، فيجرى محني الظهر حسب الإشارة. إن سرعة حركته وتوترها تعبر عن أهميته. فهو هنا من يطيع أوامر صاحب الملعب العريق، طاعة عمياء، تسعد صاحب الملعب، وتزيد من أهمية جامع أوراق الشجر، وضرورته، فيصبح لا غنى عنه. يترك الشوال وفيه ما جمع من أوراق الشجر طوال اليوم مفتوحا. يأتي الهواء فيبعثر ما فيه، فيعيد العمل مرة أخرى. يقول وطرف عينيه على وجه صاحب الملعب "ورانا إيه، ننظف مرة أخرى، النظافة ديننا".

تظل الأمور هادئة بينهما لمدة ثم تشتعل. فأحيانا ما كان العامل الجاهل يحسبها بمقاييس العرض والطلب. يقيم احتياج صاحب الملعب العريق الذي لا يخفيه للعامل بثمن أكبر مما يقدره صاحب الملعب. عندها يقع الخلاف والصدام. هستريا وتهديد، ثم هدوء مؤقت ومساومات، ثم تبدأ الدورة من أولها مرة أخرى. كان هذا الصراع في البداية يزعجني كثيرا، ثم تعودت عليه، تعلمت تجاهله، فأنا عاجزة عن مقاومته أو إيقافه. فالأمر أولا وأخيرا في يد صاحب الملعب العريق، وأي تدخل سيعود عليّ أنا فقط بالخسارة، إذ سيتفاهمان، هما الاثنان، في النهاية، لأن علاقتهما، كما قال، علاقة واضحة. قلت له مرة، مازحة جادة: "أرى أن تعامله كما تتعامل معي، لا تعطه أهمية كبيرة. أظهر له قدرتك على الاستغناء عنه فلربما ارتدع". أجاب لصدمتي: "ولكنه أهم عندي منك، فكيف أغامر؟".



fb/mashro3pdf

نظرت إليه ذاهلة ثم وضعت ذيلي بين فخذي ودلدلت رقبتي ومضيت. ظللت أسأل نفسي بعدها: "هل يعنيها حقا، أم يستفزني فقط؟".

في البداية لم أتنبه لمعرفة الذات، فلم أحاول فهم طبيعتي الخاصة. شغلني أن أعرف صاحب الملعب وأن أحتال الوسائل التي تقربني منه. أما هو فقد كان واضحا. أرادني أن أتغير، لمصلحتي كما قال، أو لأناسب طبيعته كما ظهر لاحقا. تعرفت على نفسي بعدها من ملاحظتي لما هو عكسي. كنت أحب السكينة والعادي إذ هكذا الحياة بالنسبة لي: بحر هادئ مليء بالدر المختفي. إذا غُصت، رأيته، فيصبح ممنوحا لك. يصب فيه نهر عذب، يزيد ماءه كلما شربت منه. فوقه سماء نهارها صافٍ وعادي. والليل بلا قمر. ترصعه نجوم صغيرة كثيرة، إلا أنها شديدة اللمعان. تحب أن تظل محدقا فيها، لأنه كلما نظرت رأيت أكثر. كنت أحب العلاقات المستقرة، وكان صاحب الملعب الكبير يحب العلاقات الملتهبة، فهي ما يغذيه، إذ كانت الحياة عنده نارا مشتعلة، يشتكي أتونها ، ويستعذبه. ظللت لمدة طويلة لا أفهم كيف يشتكي أحدهم ويولول طول الوقت مما لو مُنع عنه يشتاق إليه بعد دقائق. كان المثير هو الذي يمنح له طعم الحياة ورونقها. لا يستحق الاهتمام إلا ما يشذ. أما مسار الحياة العادي ومتعها الأليفة فهو تحصيل حاصل يدعو للملل. فهم ذلك جامع أوراق الشجر ذو الشوكة المسنونة بذكاء ولماحية، واستغله لأقصى درجة، في الوقت المناسب وحسب احتياج صاحب الملعب الذي أصبح يعرفه جيدا. يظل جامع أوراق الشجر من الدقيقة التي يدخل فيها مباشرة يقلب عينيه في المكان ثم يبدأ في إلقاء الأسئلة البسيطة الواحد تلو الآخر محاولا استنباط المعلومات التي توصله لما يمكن أن يكون قد حدث أثناء غيابه القصير. ثم يشعل جو الملعب بحكايات ماجنة عن حياة الليل للطبقات السفلى. وصاحب الملعب ينصت ملتذا، كمن يراقب فعلا جنسيا من ثقب



fb/mashro3pdf

باب. ثم يحكي عن نفسه حكاية سوداء أغراضها خفية، إلا أنها لا تخفى على صاحب الملعب الكبير المتمرس، ولكنه يفضل أن يبدأ بالتجاهل فذلك يجعل اللعبة أكثر إثارة. تتصاعد الحكاية درجة درجة. يضحك ويبكي، فهكذا الحياة. يولول ويوشوش. يلقي بقنبلة عن مطالب له تأخر صاحب الملعب في إجابتها له. ليس لاحتياجه الشديد لما يطلب الآن، ولكن لأنه يعرف أن هذا هو أكثر ما يثير صاحب الملعب. تلك اللعبة من الإلحاح و الرفض والإجابة. يروح ويجيء. يضرب بيديه على فخذيه وصدره ثم يلطم . يذكره بوعده ويؤلب عليه ذنبا ما. يعلو صوته كما العادة ، ولكن في كل مرة بكلمات مختلفة. فالقّصة دائما غير القصص السابقة. يتصاعد وتعلو الوتيرة وتعلو وطرف عينه على صاحب الملعب، مراقبا تصاعد توتره وإثارته، إذ يسلم نفسه له بنصف وعي. يبتسم جامع أوراق الشجر منتصرا. يملأ الرضا وجهه، كمانح الغذاء للكواسر. إلا أنه يعرف أن الكواسر ستأخذ غذاءها على أي الأحوال حتى لو اضطرت لنهش ذلك المانح إن تأخر أو تقاعس. لذلك فهو لن يتأخر أو يماطل أبدا إلا كجزء من لعبة أو مخطط، وبقدر محسوب، ليضمن أمنه مع أقصى مقابل يمكن الحصول عليه.)

استغرق الأمر مني وقتا حتى أعترف لنفسي أن صاحب البالون يضايقني. واستغرق الأمر وقتا أطول لأن يظهر في الأوراق الصباحية أو في الملعب. ربما سذاجة، أو عدم تصديق، أو عجز عن تقدير أهمية الأمر، أو ربما كبرياء يأبى أن يعترف.

(وذات يوم، أخبره أحدهم بفكرة بالون الدعاية فأعجبته. قلت له "وهل أنت، بملعبك العريق، في حاجة لبالونة إعلان؟!". قال: "اسكتي. أنت لا تفهمين. أنا أعمل للمستقبل". قلت له: "هو يريد أن يدق وتدا في أرضك، ما هذه الموضة الجديدة التي لا نعرف لها رأسا من رجلين. ما لنا



fb/mashro3pdf

وهذا". قال: "اسكتي، وخلي تفلسفك لما يخصك". قلت لنفسي: "إذن أصبر على جار السوء ...". كان كلما طلب صاحب الملعب العريق طلبا سارع صاحب البالون قائلا: "أوكي، دونت ووري، كل طلباتك أوامر" وكلما تكلم أمن على كلامه قبل أن ينهي جملته.

فهم صاحب البالون أيضا ما يمتع صاحب الملعب العريق ويثيره فأدى المهمة لكن بطريقته الخاصة، إذ كان صانعا جيدا لطلقات الفشنك الاحتفالية الملونة. يطلقها، فتطرقع بألوانها المتوهجة فتتوهم أنها ستنير السماء، إلا أنها تنطفئ بعد ثوان، مخلفة وراءها ظلمة سوادها أشد. يبرر ويشرح، يقطع وعودا، يعززها بغليظ الأيمان، أن النور والنار سيستمران في المرة القادمة إلى أبد الآبدين. أراقب في دهشة هدوء انتظار وتصديق صاحب الملعب وهو يجلس كالطفل المبهور، أمام بائع شربة الدود أو صاحب الجلا جلا.

كان تنافس جامع أوراق الشجر وصاحب البالون الخفي مسليا. كان صاحب الملعب العريق يود أن تكون حوله حركة، طوال الوقت، ولو كانت زلزالية الطابع. لذا أعجبه وناسبه دبة أقدام جامع الورق توقظ الموتى، رائحا غاديا، غاديا رائحا، على كيفه وتحت طلبه. أما صاحب البالون فراقب الأمر في البداية محتارا، فلا قدرة له على منافسة الصحة والغل مجتمعين. ثم وجد الحل، أتى بجهاز غريب، أثارت غرابته صاحب الملعب، فوقف يراقب، ثم انتشى عندما اكتشف أن الجهاز هزاز تكنولوجي متطور، يزلزل له الأرض حوله بشكل منتظم. ضيق جامع أوراق الشجر بين عينيه واستعد للجولة القادمة.

كنت قد توقعت عندما ظهر صاحب البالون في الصورة أن يخاف من جامع أوراق الشجر، يحسب حسابه ويخشى على بالونه من أسنان شوكته الحادة. فقد يرفع شوكته فجأة لأعلى، مدعيا أنه ينظف إحدى الشجيرات العالية التي جفت أوراقها، وهو ما لن يعترض بل سيحمده عليه صاحب



fb/mashro3pdf

الملعب العريق. يرفعها لأعلى، ثم يعطي البالون "شكة" صغيرة، ولكن مؤثرة. ظللت أترقب صامتة. أتسقط الأخبار بعجز. لم يحدث شيء!. ثم اكتشفت السبب. عرفت أن صاحب البالون بذكائه التجاري- اكتشف مادية العامل، فأجرى عليه رزقه، فحجّمه ، ثم لجّمه وكان سهلا بعدها أن يسوقه. أعجبت تلك النتيجة صاحب الملعب العريق كثيرا وظل كلما جاءت مناسبة يردد على مسمعي: "سنوات وأنت تتجنبينه تجنب العاجز، تاركة إياه يعمل ما يعمل، بالطريقة التي يريد". أرد بصوت مختنق: "ولكنه كان يؤدي عمله كما تحب أنت". فيقول: "كان من الممكن أن تأخذي لي منه أكثر، لقاء ما أدفع من أجر، وممّا فوق الأجر، ولكنك تخشينه!". ثم يضيف بإعجاب: "هل ترين كيف سيطر عليه ووجهه صاحب البالون؟ أترين؟ هل اقتنعت الآن بمدى احتياجي المتزايد لصاحب البالون حولي؟ أنت عاجزة عن إدارة الصراع، عليّ، ومن حولي، ولصالحي". قلت مختنقة: "أنا لا أحب الصراع. ولماذا نعيش في صراع؟ ثم أنك لم و لن تنصرني، ستقف لتتفرج، هذه هوايتك، لعبة تفقيش البيض القديمة، هل تذكرها؟!". قال: "الصراع هو الحياة، ومادامت نتيجة تصارع المتصارعين حولي ستكون لصالحي، فما ألذ وأمتع المراقبة".

كان جامع أوراق الشجر كلما انتهى من عمله، جلس مستندا بظهره على الجدار الخارجي للملعب العريق، قريبا من البوابة، مباعدا ما بين ساقيه المفرودتين على الأرض، فتظهر عورته جلية، إذ أن جلبابه يكون مشدودا على ساقيه المفرجحتين. يدرك أن عورته مرئية فلا يلقي بالا، أو بالأحرى ينتشي إذ يصدم أعين ومشاعر المارة. كلما مر عليه صاحب البالون بوجهه المرسوم بالأقلام الدقيقة الملونة وهندامه الأنيق المنسق، رفع جامع أوراق الشجر رأسه من العمل في سن شوكته بالحجر، في حين تستمر يده تتحرك بسرعة: أعلى أسفل، أسفل أعلى، كحركة الاستمناء. ثم تتوقف يده. يرفع رأسه المحاط بهالة الذباب الطائر الذي لا



fb/mashro3pdf

يجرؤ على الحط مخافة يد القتل السريعة. "شنطة حلوة" مشيرا بحركة من رأسه. طريقته في الإشارة موحية وآمرة في نفس الوقت، يُفهم منها ما يرغب فيه. صاحب البالون يقول: "صحيح تعجبك؟ دي بقالها كتير" ويعطيها له. "النضارة دي حلوة". يرد صاحب البالون: "دي مكسورة من الجنب". يخلعها ويقول بصوت عال: "تفضل. هي غالية، لكن ما تغلاش عليك". يستمر الحوار على هذا المنوال الاستربتيز حتى يصلا لما لن يريد صاحب البالون إعطاؤه الآن، فكل شيء له حسابات ربح وخسارة. يسرع صاحب البالون لشوال أوراق الشجر الجافة المفتوح ويلقي عملة ما ويمضي بسرعة. يراقبه جامع أوراق الشجر بنصف عين حتى يبتعد ثم بقفزة واحدة يصل للشوال. يدب جامع أوراق الشجر أنفه، رأسه، كتفيه ذراعيه، نصفه الأعلى. يصبح زرع بصل. يعوم ويسبح في الورق الجاف حتى يجد العملة فينعدل مرة أخرى جالسا مُفرِجا مابين ساقيه على الأرض، وأوراق الشجر الجافة عالقة بشعره وفمه وفوق أذنيه وعلى كتفيه. يدقق في العملة بعينيه الصغيرتين ويقلبها بين كفيه القذرين وهو متجهم لها، حتى يكتشف قيمتها فيضعها في جيبه بابتسامة منتصرة تظهر أسنانه المدببة المنتظمة، فهو يسنها أيضا بنفس الدأب الذي يسن به شوكته المدببة. صاحب البالون يراعي أن يحصل بعملته علي ابتسامة. عملة بقيمة أقل ستؤدي لتكشيرة، وذلك مما لا تحمد عقباه، فالشوكة مسنونة، والبالون فوق رؤوس الجميع، منتفخ لأقصى درجة، وفي متناول مرمى شوكة جامع أوراق الشجر. يمسك بالشوكة، يرفعها لأعلى، يسدد طرفها، ويظل يرفعها قليلا ، قليلا، بالتدريج يقترب طرف الشوكة المدبب من البالون الملون، يقترب، يقترب، آه، يقترب... ثم ترن العملة، عملة من نوع معدني آخر في الشوال. تسمع بعدها ومباشرة صوت سقوط الشوكة على الأرض. وتنظر فتجد جامع أوراق الشجر في ثوان زرع



fb/mashro3pdf

**بصل مرة أخرى في الشوال. صاحب البالون يفخر دائما بنصاحته، وبأنه الأكثر دراية بطبائع البشر من واقع خبرته بالحياة ومعتركها. العملة الثانية يجب ألا تزيد عن العملة الأولى لئلا شعر جامع أوراق الشجر أن تهديده يأتي بنتيجة أفضل وأن صاحب البالون يسهل ابتزازه وتهديده.)**

ابتسمت وأنا اسمع الفنان يشكو لصديقه بمرارة أن فوقية بخمسين جنيها من صاحبة بالون الدعاية جاءت تقول له: "لماذا تعاملها وحش كده؟!". يقول أنه في ذلك الصباح نفسه أعطاها ٢٠٠ جنيه!! ظل يكرر: "يعني ٢٠٠ جنيه الصبح واللا ٥٠ جنيه الظهر، أنا لا أفهم !".

وفي يوم آخر تأتيني فكرة رمزية جديدة في الأوراق الصباحية، الأقنعة، أحاول التعبير بها عن مشاعري المضطربة لأبرر لنفسي ماحدث ويحدث. أستخدمها كوسيلة للتحليل الذي أحبه.

**" الأقنعة كثيرة. هل كانت دائما هناك؟. هل أصبحت كجلد الوجه؟. أين القناع وأين الحقيقي؟ وأيهما ما أردت أنا تصديقه؟ وهل يمكن أن يظل هناك وجه حقيقي بعد كثرة تركيب الأقنعة؟، ربما ما سيبقى سيكون مسخا فيه تفصيلة من كل قناع. أم أن الوجه الحقيقي هو الذي يفرض تفصيلة على كل قناع يلبسه فيترك فيه أثرا؟ ".**

وأقول لنفسي "ما أدخلني في عش الدبابير هذا؟". فأرد على نفسي: "عش الدبابير في رأسك أنت. هل كذب عليك أبدا؟ كان دائما صادقا. هل قال لك أبدا أنه يحبك؟ أنت تطوعت وقبلت.".

ثم أتت للأوراق الصباحية فكرة مص الدماء. يظهر كائن يتغذى على مص دم ضحيته. يغرس أنيابه فيها بعد أن يشل حركتها، يكتفها. أو ربما تختار الضحية الخضوع لتقلل من مضار غرس الأنياب فيها إن هي تحركت حركة مقاومة، فتثبت ساكنة حتى ينتهي. مصاص الدم عنده طبيعة جشعة، كلما وجد فرصة: برك ومص، بغض النظر عن احتياجه. والذنب

fb/mashro3pdf

ليس ذنبه، الذنب ذنب ضحيته: تركت نفسها كما يقول لتصبح ضحية، أليس كذلك؟. هناك أنواع من الضحايا: ضحية عادية تقع بدون وعي، وضحية تقدم نفسها على مذبح شيء ما: الحب، الفن، غيره، وضحية هي نفسها أيضا مصاص دماء. يتبادلان مص دم بعضهما البعض بجشع ونهم شديد. فكل واحد منهما يحاول أن يأخذ أكثر. يظهر المنظر في الأوراق مزعجا يُسمع له فحيح: اثنين من مصاصي الدماء كل منهما يناور ليملك رقبة الثاني، وفي نفس الوقت يحاول المحافظة على رقبته هو من الآخر المتحفز. تنتقل أعينهم بسرعة من رصد الرقبة التي هي هدفه، ورصد اتجاه أنياب الآخر وأين تتجه حتى يدافع عن نفسه ويتلافاها. يطق من أعينهما ما يطق: جشع ونهم ورغبة في الاستغلال.

**(حنشان، برأسي قطتين كبيرتين بأنياب طويلة تظهر واضحة، يفحان، يلفان حول بعضهما، دوائر ودوائر. كل منهما يتحين فرصة عنق الآخر. نستغرب أن كلا منهما لا مانع عنده أن يتغلب عليه الآخر في لحظة ولكن لوقت قصير فقط. يسمح له ولكن بعد جهد. تصبح علاقة خطرة. يتركه يمص قليلا على أمل أنه في الخطوة القادمة سيحصل على دوره. يصرخ كونه الضحية وأنه أُستغل، وأنه لذلك سيطالب بدين في الرقبة. ولأنه واثق من نفسه فهو متأكد أنه بالتأكيد سيأخذ منه أكثر مما أُخذ منه. سيمص دما أكثر مما أُمتص منه عندما سلم رقبته. متأكدا تأكد الجشعين من شطارته، من أحقيته، ومن تفوقه. ذكائه أكبر وخبثه أعظم. تستكمل الطقوس بأن يشعر مصاص الدم بتخمة. يود أن يتقيأ إذ لا يعرف كيف يوقف نفسه. فيكره الضحية لأنها تسببت في وجع بطنه. ولكن لماذا يفضل مصاص الدم علاقات متبادلة مع نوعه؟. ربما لأنه متأكد من استمراريتها. فالمنفعة، المرض، متبادل. ثم أنه لا يؤمن بوجود علاقات أخرى سوية، لذلك فهو حذر دائما حتى لا يغافله أحد ويقع هو مكان الضحية).**



fb/mashro3pdf

أما أنا فأردته أن يمتن لي، وأردته أن يظل مزدهراً. ثم أصبحت أترك نفسي لأني لا أعرف أي شيء آخر. استسلام يائس يتقي ما هو أسوأ، أو هكذا اعتقدت. يرن في أذني: "وأسفاه، حياة مؤجلة... ماذا تنتظرين؟ أفيقي، أفيقي، ماذا تنتظرين؟!". أنتظر اليوم الذي يصبح الوقت فيه أكثر فسحة، فأنكب على ما أحب: أن أكتب، أن أصنع أشياءً جميلة يراها الناس، أن أعزف وأغني، لنفسي وللآخرين فتأتي البهجة. أنتظر وأتساءل هل سيكون من الممكن يوما ما، أبداً، أن أعيش خارج الملعب العريق، أعيش دون صاحبه، أو ظله؟

(اقتنعت أخيرا أنه لابد ليّ من تعمير ملعبي الخاص. ظللت أقنع نفسي أياما وشهورا حتى ذهبت لفتحه. نظرت. ليس بالحالة السيئة التي تصورتها. كانت مفاجأة تأثرت بها: فدون أن أدري زرع لي كل من أحبني وأحببت نبته على ذوقه في ملعبي الخالي. أمي وأبي، إخوتي وصديقاتي، كل من ساعدته أو رأى جزءا من صفاء روحي. حتى الراحلون، في موتهم الشفيف الذي آلمني كثيرا تركوا لي ما يذكرني بالحب والمعزة. سعدت بملعبي وظللت أستخدمه من حين لآخر كملجأ أتنفس فيه. لم آخذ قرارا حاسما بالانتقال إليه رغم أني كنت قد بدأت أعلن لصاحب الملعب العريق اعتراضي، وبأني سأنتقل، فأخذ يتراوح بين محاولة هدم محاولتي، وبين إظهار عدم الاكتراث. التصق أكثر بجامع أوراق الشجر وصاحب البالون حتى يثبت لي، ولنفسه أولا بالطبع أن الاستغناء عني ممكن، وأنه لن يُصدم أو يعجز عن الحياة. كنت أعرف أنه كان قبلي وبالتأكيد سيستمر بعدي، وأني مهما كنت مهمة له الآن، إلا أن مهارته ودأبه ومكانة ملعبه العريق التي كونها بالجهد على مر السنين ستعينه على أي شيء. همت في الشارع أغلب وقتي. لا أستطيع البقاء طول الوقت في ملعبه، وفي نفس الوقت لم أتعود البقاء في ملعبي بعد. ظللت أعود كل مساء بعد فراغي من نهار المقاومة والتلهي. أعمل في ملعبي



fb/mashro3pdf

**ولكن لست جادة تماما بعد. يتملكني خوف خفي. أجلس على سوري المتهدم المواجه لبوابته. أقول لنفسي. ربما لمحني بطرف عينه. ربما خرج الآن ليبحث عن أثر لي. ثم أظل أحلم ويتجدد الوهم: "عندها سيجدني. سيرى أخيرا حقيقتي ويدركها. سيطلب مني أن ندخل معا، يدا في يد، عينا في عين. يفتح لي من نفسه ودون أن أطلب أو أتذلل فتنفجر براكين المشاعر الجميلة الطازجة مرة أخرى ". وأجدني مازلت جالسة، على السور المتهدم، أكاد أرتعش. أثور على عبطي وأنا أسمعه يغط في نومه في الداخل، أو ينادي على صاحب البالون بصوت رقيق طالبا منه ونسه. أقول لنفسي هذا صوت تمنيته كثيرا. أنصت، لعلي أسمعه ولو مرة موجها لي. ساعتها سأذهب للتلبية سعيدة. إلا أنه لا يأتي إلا آمرا بصخب وعنجهية، فيؤلم ويفزع).**

هل الحب شجرة، نرويها فيزهر أحد فروعها؟. ماذا إن لم نفعل؟ هل ينتهي الحب؟، أم ينتقل ليزهر في مكان آخر؟. هل يموت الحب؟ كيف يمكن أن يأتي يوم لا تعود ذكراه تثير فينا أية مشاعر، لا حزن ولا فرح، لا شيء؟!. كأنها لغة نسيناها، عندما لا نعود نمارسها. تصبح كأنك تراه من وراء زجاج. ترى صورة الفاكهة التي كنت تحبها فتصبح مجرد خيال لما كنت تحب. لونا وشكلا بلا رائحة أو حياة. صوته المكتوم يرن في أذني في الحمام المليء بالبخار "هوه الحب يعني لازم فيه لمس"، صرخت: "ايوه، أيوه طبعا"، قال: "لكن هناك أنواع من الحب. فيه حد يلمس ربنا مثلا؟!". ‘أقترب، فيرجع بظهره خائفا من القرب، فأقبل أكثر لأطمئنه، فيتأزم الوضع أكثر بسبب محاولاتي. ثم يتحول للهجوم: "وهل كان يمكن أن تبقين أفروديت طول العمر؟!".

(قام من فوقي بعد أن نجحت في أن يترك حذره ولو قليلا لعطاء قرب. ذهب وأتى من جيبه بشريط أقراص ومده قريبا من وجهي بابتسامة مرتبكة وهو ينظر للناحية الأخرى. أمسكت يده بالشريط بيدي وابتسمت في



fb/mashro3pdf

ضعف متسائلة فقال "سيساعدك هذا لتهدئي". سقطت من علٍ وتهدم آخر جزء من الطريق المعبد الذي بدأه هو ثم أكملته أنا ويؤدي لشجرة التفاح. جريت للحمام فأفرغت ما أريد من بكاء لم أوده أن يراه ثم عدت بعد أن غسلت وجهي فوجدته يحدثها في التليفون. شطت، وأخذت أصرخ بهستريا غير مهتمة إن هي سمعت أم لا: "ماذا الآن؟ هل تقدم لها تقريرا بما حدث بيننا توا؟ أم أنها تريد أن تعرف إن كانت الست قد تناولت الحبةِ المهدئة؟).

**( في المنتصف من الملعب العريق توجد حديقة الشجرة الواحدة، شجرة الفاكهة. تحتها مفروش بالحصى الدقيق الأسود والرمادي في جمال بالغ كعمل فني آسر الإتقان. حولها سياج يبتعد عنها مسافة مضبوطة. السياج ذو زهور صغيرة جدا فاقعة اللون: برتقالي وازرق تتناثر على خضرة عميقة من ورق صغير يلمع بعضه من انعكاس الضوء عليه فيظهر كالبقع المضيئة، كالنجوم الصغيرة، ليست قليلة ولا كثيرة، فقط مضبوطة. توحي لك في النهاية باتزان مدهش، اتزان الحياة. رأيته اليوم، كما من قبل كثيرا، عائدا من حديقة الشجرة الواحدة وحده. إلا أني أبيت أن اصدق. تفوح من يديه رائحة الفاكهة الجميلة، ولم أصدق. الحصى، رمادي وأسود، عالقا في قدميه الحافيتين ولم أصدق. السكين في يديه وعليها لون الفاكهة، ولم أصدق. ملابسه ملوثة بسائل الثمرة، ولم أصدق. وكيف أصدق؟! ألم يقل لي أنه لا طعم للثمرة إلا لو انقسمت على اثنين؟ أبكي لأني تلصصت عليه إذ أرى حقارتي وضعفي، أرى غبائي. لم أفهم مع كل الإشارات. أردت رؤيته بعيني. أردت أن أريه أني رأيته. أردت أن يعرف أني أعرف. هل أبكي الآن لأني أصبحت في حِل؟ وهل أنا في حِل؟! هل أعطاه لي؟ أم آخذته بنفسي؟ هل كنت أريده؟ أم هل اضطررت؟ وهل تحزننا الحرية، هل تسبب الحرية كل هذا الألم؟. قال لي: "هي شجرتي. أنسيت؟ أزورها متى أشاء، وأقطف منها ما أشاء، وحدي ، أو مع من أشاء..." أمد يدي لأضعها على فمه أمنعه من الاسترسال. أقول**



fb/mashro3pdf

لنفسي بتذاكي: "في المرة القادمة، عندما أراه متجها للبوابة، سأتمسح به كقطة أليفة، سأستعرض عليه مواهبي، سأظهرها كالمميزة. هل ترى طولي؟ أستطيع أن أصل- لنا معا- للثمرة الأفضل من أعلى نقطة على الشجرة، تلك التي لا يصل إليها أحد. يتسلل للبوابة وأترصد له، أتجسس، وعندما أقترب يسمع حفيف النباتات معلنا عن حركتي الرشيقة. أسمع داخلي الصوت الهازئ يهمس في أذني: "والآن سيتكرر نفس المشهد ، بالموسيقى التصويرية المصاحبة، ترالالا". أتعلق بالأمل وأخمد الصوت. أتقدم بخفة، بابتسامتي الجميلة، فربما أجد في عينيه حظوة. أُقبل. يلتفت فجأة. تملأ خيبة الأمل وجهه. اقتحمت خصوصيته، وأفسدت عليه متعته، هكذا يقول. اشعر بالحيرة: إذ كيف أفسر تناقض ما أحفظه في ذاكرتي عن الشجرة، والفاكهة المنقسمة لنصفين، ونحن الاثنان نقترب، يدي تحت يده يقودها لكل جزء في الشجرة لتتعرف عليه. يستدير الآن فجأة، بعد برهة تفكير، ثم بابتسامة يتجاهل بها الأمر كله يقول: "آه .. أنت؟! أين كنت تذهبين الآن؟ أي اتجاه تتجهين؟ هذا الاتجاه؟ أم هذا الاتجاه؟" مشيرا بيده بحركة مسرحية متفاديا الاتجاه الوحيد الذي أريد. فأطأطئ رأسي وأنسحب. بعد واحدة من تلك الخيبات جاءتني الفكرة. كانت تقترب في حذر ورأسها يظهر ويختفي. اندهشت لرؤيتها فقد كنت أراها لأول مرة. قالت الفكرة في صوت خفيض: "هل لا توجد إلا هذه الشجرة؟ من هذا النوع؟ في كل هذه الدنيا الواسعة؟ لا يوجد لها مثيل؟ مشابه؟". لم أدر إلا وأنا ألسع نفسي وأعاقبها. ضربت رأسي بالعصا، وعنقي، وأعلى ذراعاي، ظهري، ثدياي، وبطني ، وفخذاي. رفعت أصبع السبابة أمام عيني ملوحة محذرة، مقتربة حتى كاد يخرق عيني: "اخرسي. خلاص، فلتختفي أيتها الفكرة الماكرة. من قال لك أني مستباحة لأي فكرة حرة تتجول. تقبع هنا الصورة الثابتة لشجرة وحيدة. أتسمعين، شجرة في العالم وحيدة ". ينسحب صاحب الملعب العريق قائلا: "والآن أتركك



fb/mashro3pdf

لأتوجه للعمل. والعمل مقدس بالنسبة لي كما تعرفين ، وتوفير طاقتي لـه هو منهاج حياتي الذي جعلني استمر وأنجح كل هذا الزمن، كما تعـرفين، طبعا كما تعرفين". أنظر في رجاء دون أن أنبس بكلمة فينظر إلي معاتبـا فأشعر بالذنب. ينصرف من أمامي فأجلس على حجر في الطريق. بـاردة أطرافي، معدتي مثلجة وقد تدلى كتفاي. رأسي ثقيل، ثقيل، فأسنده بكفـي مستندة بكوعي على ركبتيّ فأصبح كتمثال الثلج البارد. يعود بعد دقـائق فيراودني أمل أن يذيبني شعاع دافئ من عينيه التي أحببـت. يتجـاوزني مسرعا فأتوجع بداخلي غير قادرة على الحركة فأنا مثلجة. تنزل دمـوعي للداخل مالحة تكوي. "الملح يذّيب الثلج، آه لو تنزل دموعي للخـارج !". تغرق المكان أضواء الشفق الحمراء. تبدأ رياح الغـروب فـي الهبـوب. نسمة جميلة، إلا أنها قاسية، فأقشعر وأرتعش. يجـب أن أجمـع نفسـي وألمها. أشد يدي أولا، ثم ذراعي، وذراعي الأخـرى، فتجـران صـدري وظهري فتبدأ بطني في الاعتدال في وضع الجلوس بعد الانقسام. ثم أقـيم رجلاي وأجرهما. أجزع متسائلة: كيف نمشي؟ لقد نسيت كيـف نمشـي وبماذا نبدأ. كيف ننقل خطوة بعد خطوة؟. اليمين للأمـام. أرفعهـا فـي الفراغ ثم ألمس بها الأرض، كأنها متورمة أو مملـوءة بالرمـل. أشـعر بملمس الأرض بعيداً بعيدا. الأرض كما لو كانت بالون كبيرة طرية. أضع قدمي اليسرى وتتوالى الحركة لا شعوريا. أبدأ فـي الإحسـاس بصـلابة الأرض، ويزول بالتدريج الإحساس بأكياس الرمل وأبدأ في رؤية الألوان، بعد أن كان كل شيء رماديا. رماديا مـن وراء الـدموع التـي أغرقـت عيناي).

كنت أحث الخطى كعادتي في الشارع وعينيّ علـى الأرض عنـدما التفت لزجاج فاترينة لامع فرأيت امرأة مسنة مهمومـة تشـبهني تمشـي بجواري. وقفت وتلفت ثم نظرت مرة أخرى اكتشفت أنها أنا. فهـل لهـذا قطعت كل هذا الطريق؟!. هل أترك داخلي لما يُفعل فيه؟! يقـول دائمـا:



fb/mashro3pdf

"الحمام البلدي يدخل العشة، يقلب الأكل ويوسخ الدنيا ويلخبط الفرشة، ويا ليته استفاد، إذ أنه يصبح هو نفسه بعدها غير قادر على العثور على الحَب والماء".

بالتدريج شعرت أني أُبعث من بين الأموات، استعيد ما صدئ وأُلقي عليه التراب عمدا. لا يجب أن يكون هذا هو مقياس التقييم الوحيد. صديقتي المحبة للحياة تصرخ فيّ: "إفتحي عينيك وقلبك، هناك آخرون، كثيرون، يحبونك ويقدرونك، أهلك وأصدقائك وزملائك، وآخرون كثيرون، وأنت مصرة ألا تعتبري رأي أو حب أي أحد إلا (هو)". أنظر لنفسي في المرآة وهي تواصل الدق على رأسي بحدب ولطف: "بعد سن معينة، لا يمكن أن نعتمد على الجمال الطبيعي، إذ بالتأكيد سيخذلنا. يجب أن نبدأ الاهتمام بالنفس، رجالا ونساء. الملابس والصحة والمظهر العمومي، بهدلة الهيبز هذه لم تعد ممكنة". وأنا أرد أني لا أود عودة الزمن. أقول أني اكتسبت كل كرموشة بثمن غال. فترد "كلام فارغ". كانت إحدى صديقاتي تقول لا يجب أن نضحك بشدة حتى لا تتكرمش جلودنا ويصبح هناك علامات من الضحك حول الفم وجوار العينين، وتقول أختى: "دلكي بالكريم بين حاجبيك كل يوم حتى لا تصبح التقطيبة بهذا الوضوح". وأنا أقول أن التجاعيد حول فمي وعيني تشهد أني ضحكت ملء قلبي وشدقي، وأني قابلت النوازل بما احتاجته من ألم ومخاض فوضعت علامة بين حاجبي، فتكرر صديقتي المحبة للحياة: "كلام فارغ". وأقول: طيب، سأذهب لأقص شعري عند حلاق غالٍ أشعر أنه يعزز أنوثة المرأة. سأمضي إذن في هذا الاتجاه. اشتريت مكياج من نوع جيد، لون برتقالي جميل للشفاه وقلم لأكحل عينيّ بلون أخضر زيتوني. ذهبت مع صديقتي لمركز تجميل في الزمالك. كشفت علي ثدييّ دكتورة صغيرة السن وقررت أن ما أحتاجه عملية سهلة شرحتها لي وأخبرتني عن التكاليف. التكاليف في مقدوري فهل أتشجع. سيكون هذا



fb/mashro3pdf

آخر مسمار يدق. ستجعلني أكثر إقبالا على الحياة وثقة في النفس وأقل إحباطا. عندها لن يلمسهما بيده مرة أخرى، وعلى أي حال لم يعد يريد.

(كانت الشقة هادئة جدا يكاد لا يسمع فيها صوت من العالم الخارجي لذلك يسميها "الثلاجة". لا يفتأ يكرر متى تأتين لتملئيها لي حياة؟ كان ينام على سريره وكنت أجلس على الأرض أمامه نتكلم حينا وأقرا في كتابي حينا. مددت يدي من تحت ملابسي وفككت حمالة صدري من الخلف فقد ثقلت على أكتافي. لاحظ هو فسألني. ضحكت بإحراج من يعرف أن به قصورا ما. قمت من مكاني وجلست بجواره وهو مستلق. مد يده وتحسس برقة شديدة من فوق البلوزة القطنية ذات الأزرار. قال بهدوء وهو مغمض العينين وابتسامة صغيرة حذرة ماكرة تظهر وتختفي على شفتيه: "آه، ربما ساقط من مكانه قليلا من الناحية التشريحية، لكن مش وحش. ربما هذا ليس صدر موديل يرسمها رسام، ولكنه ربما من النوع الذي يمتلئ باللبن من أجل طفل وليد").

بعدها بسنوات، عندما رأتها في مرآة الدولاب التي تعكس ما يحدث في الجزء المختفي من الحجرة تلبس ملابسها بسرعة قالت: "آه ، إنها صغيرة جدا، صغيرة جدا، أصغر مني". قلت لنفسي لن يكف عن مص الدم، حتى يموت. "يا حبيبتي أنقذي نفسك وانطلقي بعيدا، وإلا ستصبحين مريضة نفسية، كالذين يشمون الخراء. يشمونه غصباً عنهم في البداية، ثم يحدث أن يتعودوا على الهواء المغلق في مكان فلا يستسيغون بعدها الهواء المفتوح". وتذكرت ما قالته إحدى عشيقات بيكاسو السابقات وهي تتأمل وجه فرانسوا الشاحب: "تبدين كشخص تنفس هواء مرسمه لمدة أطول من اللازم". استحضرت شكلي وأنا أتصنت على مكالماته مع صاحبة بالون الدعاية، ومكالماته مع غيرها ليتحدث عنها. كنت أبرر لنفسي وقتها: "أنا أتسمع لأتثبت. أتصنت حتى أصل ليقين، حتى أصل لمدى الألم الأخير. أتألم لأقصى حد فأجد الشجاعة لترك هذا كله، لأدير ظهري". فهل كان



fb/mashro3pdf

ذلك هو السبب الحقيقي؟ صوته متحدثا في التليفون، جلسته المفضلة على الفوتيل الضخم المكسو بالقطيفة القديمة غنية اللون، والضوء يدخل حجرته بثراء من البلكونه في الصباح وأمامه إفطاره. وأنا أقف في ركن الخفاء في الصالة جوار المائدة الرخامية، أو على مدخل طرقة الحمام وراء الدولاب القصير قرب باب حجرته، على أهبة الاستعداد لأختفي بسرعة إذا خرج من حجرته فجأة. قلبي يدق كمن في وسط عملية سرقة.

"صعب، صعب. كيف أزيحه من داخلي، من المكان الرئيسي، أجعله يجلس على كرسي مساو لأي من الآخرين. "واحد وخلاص". كيف أتوقف عن توقع أية مراعاة أو احترام أو معزة، عن تمني أن يخاف عليّ وعلى مشاعري. أريد أن أتوقف عن "لعبة البنت المثالية". لم أعد أريد أن أكون بانادورا التي مافتئ يحكي حكاية تضحيتها. أود أن أخرج من مجاله، ألا أنشغل به، أفتح نفسي للدنيا وللناس. أود أن أقول له كلام يجرحه، يهينه. لا، غير صحيح، ليس طبعي، أريد فقط أن أصرفه، كروح شريرة معششة داخلي. أريد أن أصبح صحيحة معافاة. أريد أن أحب نفسي ، أحب العالم، آخذ وأعطي. رد علي الصوفي الشاب: "لا تتحدثي عنه كثيرا، إن هذا يدخلك في حضرته، فهل تحبين أن تقضي كل هذا الوقت في حضرته؟". قلت له أني أشعر أحيانا كما لو كنت فرخة مذبوحة رموها في البرميل لتعافر وتخبط في حيطانه حتى تنتهي. "يا شقيق الروح من جسدي"، هاهاها، أسطورة صدقتها كثيرا. "مفيش حاجة زي كده". فقط عند السذج وفي الخيال. أمل سجنت به نفسي طويلا. سجنت نفسي في أحاسيس مشبوبة للمراهقة أردت استرجاعها وإعادتها. أريد أن اخرج من الماضي، وأقفل عليه الباب. أريد الآن أن اعرفني أنا. أريد أن أعيش الآن.

وهكذا أظل أتعهد لنفسي وأنصحها، ألاحظها وأشفق عليها، أو أقسو. كان عرف كيف يزنقني في زاوية وينهال عليّ. "إنت مش ست. لا

fb/mashro3pdf

تصلحين كأنثى تهتم برجلها، ترى مثلا ماذا سيأكل!". أبحث عن مسالك لأطفش بسرعة، أجدها فاحمي نفسي.

السفر أحد متعي الحقيقية. والسفر وحدي أفضل، ليكون عندي فرصة للتأمل. أغادر في الصباح، فأشعر بالبهجة الأصيلة. الأتوبيس يتجه للدلتا. غيطان الكرنب الفضية، والشجر المحمل بالفاكهة، برتقالية وصفراء، تأخذ الفرع بثقلها في اتجاه الأرض، تكاد تسقط. ورؤوس النخيل تظهر خارجة من وسط قمم مجموعات الأشجار. نخيل متروك على حاله يحف السعف القديم الجاف بالنامي من السعف الجديد. ونخيل معتنى به، فلا يتبقى لأعيننا إلا الزعف الطازج كرأس مرفوع، والسعفات الجافة ملقاة تحته تنتظر أن تجمع وتحمل لتستعمل في شيء آخر. حقول وغيطان، خير كثير، نعمة، هذا هو وجه بحري. ماء عذب، غزير، رائق، ينعكس عليه الضوء الأبيض الذي سيصبح أكثر لمعانا كلما أوغلنا شمالا في اتجاه البحر. الضفة الأخرى عامرة بالخضرة، بالمحاصيل، أو أرض سوداء مقلوبة تنتظر. ترع وأشجار، وقرى صغيرة وكبيرة، وكباري، أشكال وتصميمات تختلف حسب سعة المجرى التي تصل بين ضفتيه، والزمن الذي شيدت فيه أيضا. بنيات يغسلن المواعين. ينحدرن من سلالم تؤدي للنهر. مواعين الأمس، بل وكل المواعين، فالعيد على الأبواب. يدعكن، ويجلين، فيصبح الألمنيوم فضة. جماعات النساء تجدها كجزر، تفصلها مسافات بسيطة. معهن طشوتهن وحللهن وكل أنواع الأوعية. والسيدات، عظيمات، غسلن قبل العيد كل غسيل الأسرة وبياضات الكنبات والكراسي ونشرنه في شمس الصباح الشتوية البديعة. حبل بين شجرتين، سورين أو بيتين. فتحن النوافذ ومسحن الأرض. أخرجن فرش الشتاء للشمس أمام المنازل أو على الأسوار وسجاد رخيص وأكلمة وحصر من البلاستيك. السيدات العظيمات يحملن على رؤوسهن أحمال وأحمال. يمشين على جانب الطريق منتصبات، كما يُتوقع منهن، فلولاهن لانهارت أسر، فهن العامود. أعرف أننا نتحرك بسرعة من



fb/mashro3pdf

مضي أعمدة النور، تجري بجوارنا، وأسلاك التليفونات بين العواميد وقد تراصت عليها العصافير، لأسبابها الاجتماعية الخاصة، إذ بالتأكيد يحبون عشرة بعضهم. الذبائح، الملفوفة بالشاش الأبيض النظيف، استعدادا للعيد، معلقة في شوادر صغيرة تظللها المظلات حول بلدة تسمى "طنامل" تشتهر باللحم . كان بابا ينطقها ضاحكا "طن أمل (قمل)". ومزارع الدواجن رابضة بين الحقول أكلت للأسف جزءا من أرضها السوداء. ومداخن قمائن الطوب تصل للسماء. والمقابر خارج القرى، جديدة بفوهاتها المفتوحة تنتظر، أو مسدودة، منذ مدة قصيرة، أو منذ زمن وقد شبع من بداخلها موتا. وأنواع أشجار: سرو ، جزوارين، كافور ، توت ، جميز، ليمون، ونخيل طويل أو قصير غليظ، موز بلدي وصفصاف، جوافة، وأم الشعور تلمس بفروعها وأوراقها طرف الماء، وأشجار الخروع، وتكعيبات العنب واللوف، وحدائق الموالح. وأكوام تبن القمح الذهبي، وقش الأرز، تنتظر، ماذا تنتظر؟. وأكوام الطين السوداء، وأكوام السباخ، يعف عليها الذباب، مع الزبالة المتناثرة وأكياس النايلون الملونة الطائرة تتناثرت على جوانب الترع. وقطعان الأغنام الصغيرة، يصاحبها حميرها، وكلابها، ورعاتها الصغار، أغلبهم لم يغادر سن الطفولة بعد، يجرون حولها محاولين السيطرة عليها، يصدرون أصواتاً مضحكة. وشونات التسويق الحكومية خارج القرى مليئة بأشولة القطن المنتظر. والسواقي، معدنية سوداء لامعة تدور، كالحياة. أحمل لها في قلبي رهبة واحترام، إلا أنها تبعث دائما فيّ الأمل. وسوق الجمعة في إحدى البلاد زحام وحركة. خذ وهات. سيدتان ممتلئتان تجلسان في هدوء وثبات على حجرتين جوار شط الترعة وأمامهما طشتين يستند على حرفيهما حوافر الأكارع المغسولة. والرجل ذو الشوارب يجلس وسط دائرة الكرنب الصابح. وراكبي الحمير واضعين أمامهم على ظهر الحمار الأسبتة الضخمة مغطاة بالمفارش النظيفة، يريحون أذرعتهم فوقها ممسكين بلجام الحمار والعصا. عربة البرسيم تجرها الفرسة السامقة، وابنها



fb/mashro3pdf

الصغير الذي علق معها في العربة بجوارها. كومة ضخمة من الخضرة الرائعة رقد فوقها العربجي متكئا على كوعه ممسكا باللجام. والشباب، صغيري السن، عاريو الصدور رغم البرد، ينحدرون إلى النهر، يغسلون الحمير والأحصنة. والسيارات، طرز الثلاثينيات والأربعينيات وقد جددت مواتيرها لتصبح سولارا بدل البنزين لزوم التوفير، تحمل عددا يقبل التزايد من الركاب. أسماء البلاد، مكتوبة على يافطات أعرف جديدها من قديمها من اختلاف الخطاطين واتساخ اليافطة والملصوق على جوانبها من إعلانات صغيرة ودعايات انتخابية قديمة. أسماء، وأسماء: طناح، كفر شكر، سندوب، ميت غمر، الحوّاوشة، طنامل، بشلة، شها، دكرنس، محلة دمنة، ديم الشلت، ميت فارس، الجزيرة، دموه، الخشاشنة، المرساة، ميت السودان، الدراكسة، منية النصر، الزرقا ، الكردي، ميت سلسيل، الرياض، برمبال القديمة والجديدة، الجنينة ، سعدان، الجمالية، المنزلة. أخضر، أخضر.

في البيت هناك، أنام في الحجرة الصغيرة التي كانت في طفولتي حجرة نوم الصغار. ليست صغيرة، لكنها صغيرة مقارنة بالحجرات الأخرى كحجرة البنات أو غرفة ماما. اكتشفت عندما دخلت للنوم أنها مليئة بالذباب. نائم على الحيطان، على سلك اللمبة المدلى من منتصف السقف. ظللت أحاول بالمضرب، يمين شمال، فوق وتحت، على الشباك ، على الحيطة. عشرات من القتلى. لكن هيهات أن ينتهوا. كثير، كثير. "خلاص، اتركيهم لحالهم. هم أيضا سينامون، لن يضايقوكي". في الريف في الليل يدخل ضوء الفانوس المضاء أمام البيت مارا من خلال أفرع الشجرة العالية من فتحات الشيش فيصنع خيالات على السقف والجدران المشققة. كانت منها وأنا صغيرة عربات تجرها الأحصنة، غيلان وأشجار تتكلم وطيور تقترب فيكبر حجمها بالتدريج. كيف رأت المدام اليهودية نفس الخيالات على حائط حجرتها في جناح المسنين في المستشفى الإيطالي



fb/mashro3pdf

بالقاهرة ونحن نجلس جوارها أنا والفنان قبل أن تموت؟. أول حلم أراه، هنا، في تلك الليلة كان فيه طائر: حمامة؟، ربما عصفورا كبيرا؟. كان طائرا، كبيرا، دخل بالخطأ في هذا البيت.. يتخبط في حجرة مغلقة، وأنا وراءه، كلما اتجه اتجاهً جريت فيه. أحاول فتح نافذة أو بابا لأدع له مجالا ليخرج، فيجفل، ويتجه للناحية الأخرى خائفا. وهكذا، هو يطير، يرفرف بخوف، من ركن لركن، وأنا أجري من هنا لهناك، محاولة فتح منفذ له ليخرج. هل كنت خائفة؟، حزينة؟، مرتبكة؟. الحجرة كانت نصف مظلمة، ككل حجرات هذا البيت الريفي القديم. فالشيش دائما مغلقا نظرا للضوء الشديد خارجها. ولكني كنت أعرف أني استطيع فتحها من أجله لو أردت، لأخرج الطائر، وأعالج رعبه. فلماذا لم أفتحها كلها، جميعها، ليخرج. لماذا استمر الارتباك، الخوف واللهفة؟. وفي الصباح كان على الغضبان زوج مربيتي، يتحرك من حوض صغير لآخر. يفتح الجسور للمياه. الماء يندفع بسرعة متوسطة بإيقاع مريح، ليسقي. بدأ اللون الفضي اللامع يظهر تحت البرسيم فيغري الطيور، غربان وعصافير رمادية صغيرة وهداهد، بالاقتراب، بالوقوف واللعب. قالت لي أنه فقط هذه الأيام توقفت الغربان عن مهاجمة الغضبان. كان قد امسك بعش فيه أفراخ غربان صغيرة ألقته الرياح فالتصقت بيده الرائحة التي تفرزها الغربان على صغارها لتبعد عنها الذباب. وهكذا ظل الأبوان يهاجمان رأس علي الغضبان كلما خرج من بيته ولأشهر. يقولون أن الغربان لم تتوقف حتى أعطاها الله أفراخا جديدة. وعلى البعد في نهاية الحديقة وقفت جاموسة سوداء ضخمة مهيبة وجميلة تأكل من العشب أمامها ثم تستدير لتأكل من المنطقة المجاورة. ترفع رأسها لتمضغ وتحك رأسها في جذع الشجرة. كنت أرقبها عن بعد وأقول لنفسي: يا لها من جميلة، ساكنة ومعطاءة. كانت تتحرك في نطاق محدد لا تتعداه فأدركت أنها بالتأكيد مربوطة من رقبتها أو قدمها في جذع الشجرة. نعم اختاروا لها مكانا ظليلا، ولكن ماذا لو تحولت الشمس فأصبحت في



fb/mashro3pdf

عينها؟!، ماذا لو انتهى الكلأ؟!، ماذا لو تمنت أن يسقط شعاع شمس ضئيل على ظهرها؟!، ماذا لو امتلأ المكان بالحشرات والهوام تدخل فمها أو أذنها، تقف على أنفها أو عينها؟!، ماذا لو أرادت الابتعاد، ولو قليلا؟!، لليمين، لليسار، أو حتى أن تلف حول نفسها وتتجه للخلف؟!. سيشدها الحبل من رقبتها ويحز فيها، كما تستحق الدواب.

وفي طريق العودة بالأتوبيس جلس جواري بعد أن وقفنا في أول محطة في عاصمة المحافظة أحد الركاب الذي قال فورا لحظة أن جلس أنه اليوم خرج من المستشفى الجامعي بعد علاج لأشهر. طلب أن يجلس جوار الشباك ليسند رأسه إليه فوسعت له المكان هناك فورا دون مناقشة. كان يلبس جلبابا حال لونه، متسخا تنتشر عليه بقع دماء وأشياء أخرى، ويتدلى من جانبه خرطوم ينتهي بشيء يخفيه في جيبه. شعر رأسه طويل مهوش جاف كالقش وقد تساقط أغلبه. عيناه زائغتان لا تستقران على شئ ولا ترمشان تقريبا. ظل يتكلم بصوت لاهث أقرب للفحيح عن مرضه وأشهر احتجازه في المستشفى. لم أعرف إن كان يوجه كلامه لي إذ لم يكن ينظر في اتجاهي ولم ينتظر مني أي رد فعل. بدأ بعد تحرك الأتوبيس بقليل يتحرك ويفرك في مكانه بتوتر. يفتح ساقيه ويهرش بينهما بلا توقف كأنما يستتمى وأنا ارفض أن أفهم أو أصدق، فقط أدير وجهي للناحية الأخرى. يحك ذراعه بذراعي ثم يدعي أنه لم يقصد عندما ابتعد منتفضة. يحك فخذه الأعجف بفخذي المجاور فأبتعد ثم أبتعد مرة أخرى حتى أصبحت جالسة على أقل من منتصف المقعد المخصص لي وبقيتي معلق في الهواء في الممر الذي يتوسط الأتوبيس. ثم أضع حقيبتي الصغيرة بيننا حتى يفهم. ثم أصبح الوضع لا يطاق وأنا أتمزق بين ضيقي وبين شفقتي عليه وخوفي أن أكون أظلمه بشكي فيه. أخاف أن أشكو أو أطلب مساعدة أحد الرجال في الأتوبيس بتبادل الأماكن حتى لا يتألم جاري المريض من نبذي له كصحيحة تنبذ مريضا بذنب مرضه. ثم في النهاية قفزت واقفة بجوار



fb/mashro3pdf

الكرسي حتى وصلنا لمحطة النهاية. عندما نظر لي بمسكنة قلت له معتذرة: "معلهش، أترك لك المكان لتستريح".

كنت ارتعش وأنا احكي لمحللي النفسي وهو يبتسم لي مشجعا وهو يشعل سيجارة من أخرى وينقلها من يد ليد. قال: "يا سيدتي، ها أنت تجيبين على أسئلتك بنفسك، وتجمعين قطع اللغز واحدة تلو الأخرى دون مساعدة". (دخلت المطبخ وكانت "جلسن" تمسك له بزجاجة النبيذ حتى يفتحها هو بالفتاحة الجديدة التي كان يستعملها لأول مرة. مندمجا يخرج طرف لسانه ويعض عليه بأسنانه كما يفعل عندما ينسى نفسه في التركيز. نظرت لوجهها الكاظم الحمرة وناديتها بهمس. رفعت رأسها وقد انسابت دموعها وعرقها فاغرق وجهها ورقبتها وأعلى بلوزتها القطنية. كانت تبكي دون صوت وفكاها يظهران أنها تكز على أسنانها، والدم ينساب من أصابعها التي أخذت الفتاحة الجديدة في تقطيعها مع كل حركة ويغرق زجاجة النبيذ. أصرخ: توقف، توقف. وهي تقول وهي تضغط جروح يدها في الفوطة التي قدمتها لها: "معلهش، ما هوه مش قصده"، وهو يبتسم ويقول كأنه يقصد إطراءها: "قوة احتمال ، تربية تركي تمام" وأنا أتساءل كأنما ببلاهة: يعني إيه؟ يعني مرمطة؟ ، يعني غسيل ومكوة؟!")

في جامع ابن طولون وضعنا، أنا وجورجيت، أغطية الأحذية المصنوعة من القماش السميك. ربطها على أقدامنا رجلان متربعان على الأرض على سجادة في المدخل، بطريقة طقسية فيها عزة نفس نادرة حتى عندما أشارا لعلبة كارتون فيها عملات ورقية من فئة الجنيه والخمسون قرشا. مكتوب في الدليل السياحي أن المدخل والأسوار يغلب عليها الطابع العراقي، كما أن لكل واحد من الشبابيك المزخرفة شكل مختلف، وكذلك زخرفة الأرشات من الداخل،كل منها بشكل مختلف، كأنها مسابقة للفنانين. داخل الجامع لفتت نظري الطيور ورجع أصواتها في المكان. تخرج



fb/mashro3pdf

العصافير وتدخل من الفتحات. هناك طائر لا يكف عن الزعيق. أتابعه ببصري. هل هي بومة؟. أمشي وراءه ببصري، حتى رأيت البوم يقف في ركن هناك، هادئ وعاقل. لا، هذا ليس ببومة، إنه طائر من نوع آخر. في النهاية عرفت. صقر، هذا صقر حجمه صغير. هما زوجان. واحد مستقر فوق القبة، في أعلى الأعالى، فوق صاريها. القبة في منتصف الساحة وكان تحتها يجري الماء فيما مضى. يقف الصقر هناك، لا يتحرك من مكانه. فقط رأسه التي تتحرك أحيانا لتثبت أنه ليس تمثالا. وزميله لا يكف عن الصراخ. يلف، ويروح، ويجيء، ما بين سقف الجامع والعواميد، وحول القبة في المنتصف، يصرخ، ويصرخ. ونحن نصعد المئذنة المميزة أبديت اندهاشي من سكون الصقر الواقف فوق القبة. كلما صعدنا أكثر للأعلى أراه وأراقبه بشكل أوضح. قالت جورجيت التي عادت للقاهرة في زيارة قصيرة بذكاء من خبرت الحياة: "ربما كان خائفا على مكانه. أفضل له أن يظل منقوعا كما هو في هجير الشمس والحر من أن ينزل من عليائه ليستريح في الظل أو يشرب، يخاف أن يحتل مكانه أحدهم". قلت أنه يذكرني بالفنان. أحيانا يقول أنه لا يريد ولا يستطيع أن يأخذ يوم أجازة. يخاف ألا يستطيع الإمساك بالفرشاة مرة أخرى إن هو توقف ليوم واحد. يقول "يهيئ لي مش حاعرف أرسم مرة أخرى".عندما استلقينا على ما كان حوض مياه في منتصف الساحة لننظر للسقف الذي لم تبق من زخرفته إلا المنتصف كدنا ننام من التعب ومن الهواء البارد تحت القبة. نظرنا لما خربشه الناس الذين ودوا أن يسجلوا أسماءهم وأنهم كانوا هنا من قبل، للذكرى. ١٩٥٦، ٦٥، ٧٣، ٩٤، ٩٨، ... أسماء في مكان عال من الجدار، بالتأكيد رفع أحدهم الآخر حتى يستطيع أن يكتب على هذا الارتفاع، وبالتأكيد نام احدهم على الأرض حتى يستطيع أن يكتب اسمه على هذا القرب من الأرض. عندما اتجهنا من تحت القبة للضلع الرابع من الجامع، التفتت كلتانا لإلقاء نظرة على الجامع ككل. عندما دخلنا في البداية



fb/mashro3pdf

قالت جورجيت أنها أتت لتقارنه بالجامع الأموي. قالت أنه اصغر منه، وأن الأموي أكنز وأطول بكثير. ظللنا ننقل عيوننا على كل ما نظرنا وتحدثنا عنه منذ دخلنا. الشبابيك العالية المزخرفة، الأرشات والمئذنة العجيبة، القبة في المنتصف، وذلك الصقر المحتمي بمكانه الذي لا يريد أن يتركه أعلى القبة، كأنه خلق لذلك المكان، كأنه ينتمي له. أوهم نفسه أنه كأسلافه فوق جبل عال. وذلك الآخر الذي يسعى صارخا، من مكان لآخر. قالت جورجيت "كأنهما أنت والفنان". نظرت إليها مليا. أدارت وجهها متجاهلة حيرتي. تنهدت وقلت: "نعم، كما لو كانا أنا والفنان!". كان من الممكن أن أظل أدور حوله، من بعيد، قانعة بمجرد ربوضه فوق القمة. أحتمل تجاهله وجفافه. أحتمل، وأظل ألف وأدور حوله، لأنه الفنان الكبير، ولأني مقتنعة بكذا وكذا ... ولكن هل من الممكن احتمال كل تلك الطاقة السلبية والغل التي بدأ يبثها في وجهي؟!. ونحن نخرج من الجامع تساءلت عن تلك الأبواب الضخمة لجسم الجامع. أحد تلك الأبواب أمامه سلالم نصف دائرة متدرجة، والباب الآخر، بنفس الحجم يقف معلقا في الفضاء بلا سلالم أمامه تقود إليه! هزت كتفيها وقلبت شفتها، ومضينا.

تطوع أحد تلاميذه، الذي لم يعد شابا فقد تعدى الأربعين، لزرع الصبار في شرفة مرسم الفنان بعد مدة انقطاع لسنوات. أتى بأدواته وبقطع صغيرة من أنواع متعددة من الصبار من بيته في أكياس النايلون. يراقبه الفنان بطرف عينه وهو يضع أنواع كثيرة في قصرية واحدة. قال له: "هكذا، لصق بعضهم البعض هكذا لن يعيشوا، سيموتون". فرد تلميذه بانفعال: "أنت يا أستاذ لا تريد أحدا إلى جانبك، ولا الزرع كمان.....؟!". استدار له الفنان واجهه بابتسامة: "أنت قلت للناس أني لا أريد أحدا بجواري؟! أليس كذلك؟!، تقول أنك تتمني أن أموت حتى يرى الأصغر مني لهم يومين؟!" قال التلميذ بانفعال: "آيوه أنا قلت". قال الفنان: "وقلت أنك



fb/mashro3pdf

تكرهني؟!" قال التلميذ "أيوه .." قال الفنان "وقلت أنك تتمنى أن أموت؟!"، رد الذي كان تلميذا بهز رأسه بانفعال كأنه بالمصارحة يتطهر ويتخلص من حمل يكبس على قلبه. كنا قد سمعنا هذا الكلام من آخرين منقولا عن لسانه وبعدها أصبح يخشى لقاءه. ينتقل من رصيف لآخر إذا قابله في الشارع حتى لا يواجهه. يمشي وراءه إلى مقهى "سيموندس" وينتظر في الخارج، يبدو من بعيد كأنه يكلم نفسه طول الوقت. ثم يمشي وراءه للمكتبة ويقف على الرصيف المقابل، ثم يتبعه لبائع المجلات والكتب القديمة في شارع سليمان باشا ويقف في ظلام مدخل شركة البلاستيك الأهلية التي أغلقت أبوابها منذ سنوات. الفنان يعرفْ أنه يتبعه ولا يلقي بالا. لا أعرف بالضبط ماذا حدث وحدا به للاتصال مرة أخرى والتطوع لزرع الصبار. كانت أول مرة أسمع عنه عندما كنت في زيارة لإحدى المعجبات بالفنان من الأجانب المتمصرين فرأيت في بيتها، بجوار لوحات الفنان لوحة تأملتها طويلا. كانت تقليدا متقنا لأسلوب وطريقة خلط ألوان الفنان تعلمه التلميذ بعد أن عمل كمساعد له لفترة طويلة. قالت صاحبة البيت ضاحكة أن هذا هو حل من يحب شغل الفنان ولا يقدر على ثمنه. عندما عدت للبيت وحكيت للفنان عن اللوحة وما سمعت تجاهل ما قلت عن اللوحة وانطلق بتلذذ يحكي قصة عن حيوانات منوية ميتة يكتشفها زارع الصبار وهو يحلل لنفسه كل يوم في بيته. يسخر ويبتسم كأنه ينتقم من تقليده له وأنا أشفق ولا أشاركه الابتسام. ظللت سنوات بعدها لا أصادفه في الشارع حتى صادفته في ذات مساء بعد أن مر عليّ ما مر وتغيرت الدنيا فابتسم بهدوء وهو يتأملني ثم سألني بوداعة شديدة وكأنه في عالم آخر: "لا تؤاخذيني ، ولكن أريد أن أسألك سؤالا: هل إزداد طولك؟".

كنت أجلس مع الفنانة في مرسمها في أحد البيوت الإسلامية القديمة التي تمنح وزارة الثقافة حجراتها للفنانين كمراسم منذ سنوات. يدخل لنا الضوء رقيقا عبر المشربية القديمة دقيقة الصنع إلا أن جلبة الشارع تصلنا



fb/mashro3pdf

بكل وضوح فنرفع أصواتنا ونحن نتكلم. كانت أكبر مني بسنوات وأصغر من الفنان بسنوات، إلا أنها بدت أكبر من عمرها بكثير فقد تركت شعرها الذي شاب مهوشا دون صبغة و حملت ملامحها هموم السنين دون تجمل. تكلمت عن ريادته وأبوته التي انتظروها منه وبخل هو بها عليهم . "كنا نريده،، وكنا مستعدين ، إلا أنه هو لم يكن عنده استعداد. بالنسبة لنا، هو انتهي كفنان. فنان بمعني ثائر يريد أن يغير وجه الحياة للأفضل. هو لم يعد قادراً على ذلك. انتهينا. سيعيش من الآن وصاعدا على ما عمله وهو أصغر، وهو ليس بالقليل مما نكبره ونحترمه. هو الان يعتمد على صنعته الهائلة التي صقلها باستمرار ". قالت محذرة: "هو عقل جبار. عقل ينميه باستمرار، ولكن على حساب مشاعره، على حساب روحه. لن تستطيعي مجاراته، وأنصحك ألا تحاولي.". رفعت عينها عن لوحتها والتفت لي أجلس في هدوء في الطرف البعيد من المرسم. قالت " وأنت... ماذا تنتظرين؟ تحركي، تحركي دائما للأمام. لا تتوقفي أو تستكيني. أين مشروعك الخاص؟ ، أين هو؟ مشروعك الذي يجب أن تنامي وتقومي عليه. تعدّي دور ملهمة الفنان. كوني شيئا آخر أكثر حقيقية. شيئا يخصك، لا يستطيع أحد أن ينازعك في قيمته ، وتقييمه لا يخضع لمزاج أو تقلبات أو عقد أو تخاريف واحد لا هم له إلا مصلحته ومن يعطيه أكثر. لا تحزني، اقترب آخر النفق فلا تخافي الاندفاع في الظلام، صدقيني". تمتلئ عينيّ بالدموع فتشير لي بالفرشاة في يدها آمرة إياي بالخروج من الحجرة وهي تهز رأسها في استنكار ممزوج بأشياء أخرى كثيرة.

أقف أراقب من بعيد أحد الزبائن في جاليري بيع الصور يحاول اختيار لوحة من لوحات الفنان كهدية لعيد ميلاد زوجته. ظل يقلب في اللوحات في النهاية اشترى إحدى لوحات تلاميذ الفنان. أقل في الصنعة إلا أنها مليئة بالحياة والحركة والدفء. بدأ يتحدث بحماس لصاحب الجاليري عن اختياره، وما لم يعجبه في اللوحات الأخرى رغم قيمتها الكبيرة



fb/mashro3pdf

كاستثمار، وصاحب الجاليري يحاول إسكاته محرجا من وجودي فانصرفت بسرعة منعا للحرج. عدت يومها لأتحدث معه. هاج في وجهي وثار: "ماذا تفهمين أنت؟! ماذا تريدين؟! وتفتكري أجيب فلوس تكفيكم منين؟". قلت له أني أود أن أتكلم معه بهدوء. قلت إنه يهمنا بقاءه كفنان حقيقي. وأننا على استعداد لضغط مصاريفنا لأي مدى ممكن أن يطلبه لمساندته حتى يستطيع هو أن يغلق على نفسه لفترة ما يعيد فيها حساباته، يعيد تقييم قدراته وأولوياته. يفرز فنا من نوع جديد أصدق وأكثر تعبيرا عنه الآن وفيه تفاصيل دقيقة أقل لا ترهق عينيه وبالتالي لا يحتاج لمساعدين يضطر لدفع الكثير من المال لهم فيضطر لعمل خط إنتاج ليستطيع تغطية كل تلك المصاريف وبالتالي يحتاج للمدام صاحبة بالون الدعاية لتسويق الإنتاج والحصول على الفلوس. قال بسرعة كما لو كان لم يسمع إلا آخر جملة: "آه، الآن فهمت. تلفين وتدورين لتعودي لنفس الموضوع، غيرتك عليّ منها. تريدين أن تسيطري وحدك على حياتي، وعلى فني أيضا؟!". زعقت وأصبعي مرفوع في وجهه: "الست دي مخابرات مركزية أمريكية. أنا من هنا ورايح حاسميها (مدام سي آي إيه)، ومهمتها ربط الفن في مصر برجال الأعمال. أنت مخترق الآن بالسي آي إيه". قال بسخرية: "لكن ليه يا ناصحة؟!" قلت "حتى ينتهي بعد قليل التمرد عند الفنانين، ويخضعون لمنطق العرض والطلب والفلوس. هل تعرف أنها عاملة نظام تقسيط للبيع؟!. وسيلتها أن توافقك في كل شيء، تقول آمين، تلاعب كبرياءك وتزيده تضخما على تضخمه. " قال وهو يحاول استدرار شفقتي: "حرام عليك، دي عيانة قوي ..". قلت وأنا أغيّر صوتي: "يا حرام، سلامتها ..". قال بتصديق: "هي عيانة فعلا". قلت: "هي تستخدم حتى الكلام عن مرضها لتشدك من ودانك. تتكلم ثمانية الصبح، تقول أنها ستذهب للمستشفى، وتسأل عن الشغل. من يستطيع أن يقولُ لأ أو يناقش واحدة مكافحة بالشكل ده؟!، تصعب على الكافر، من يقدر يقولها لأ؟!. ماذا يمكن أن يدعو للإعجاب



fb/mashro3pdf

أكثر!. المرأة المكافحة!. التناقض بين الضعف الشديد الذي يدعو للشفقة وبين الإرادة الحديدية التي تصنع المعجزات. أفلام. أفلام عربي، واللا هندي ، سينما عرض مستمر. هل تذكر تلك السينمات الصيفي التي كان فيها العرض لثلاث أفلام عرض مستمر؟ الأول وبعدين الثاني ثم الأول مرة أخرى عشان اللي جه متأخر، أو اللي مالحقش يتأكد من حاجة". نظر لي بشك وهو يقاوم أن يتأثر بما لو كان هو من عرفته في سنوات سابقة كما هو لكان قد قاله بحذافيره، فقد استعرت تعبيراته نفسها ومنطقه في التحليل والاتهام الذي طالما استخدمه على بعض الفنانين القدامى، بل وحتى على بعض الأصدقاء، أومن كانوا أصدقاء.

هل كان شخصا مختلفا وهو ينظر إليّ كالمستجير الذي يريد نجدة ماما، وهو يحكي عن الليلة المجنونة، مدام سي آي إيه، والتلميذ الفنان وآخرين يتبادلون الاتهامات عن أشرطة فيديو ما، وقد سكر الجميع إلا الفنان، وطار صوابهم وهم يقذفون بعضهم بالشتائم والأشياء لتتكسر، ثم يرتمون على بعضهم البعض على الأرض التي لوثها قئ بعضهم منتحبين. ملأ الفنان الشك في صدق كل ما رأى وسمع يومها. كنت أنظر لعينيه المتألمتين ليلتها وهو يتكلم. كم كنت أحب عينيه، وكم كانت تؤثر فيّ. قلت لنفسي يومها لا محل للتشفي، فهو الفنان العظيم، وهو الذي يجب أن أقف جواره. هكذا كان موقفي دائما. فبعد مناقشة طويلة في التليفون مع أحد زملاء الفنان بمناسبة حوار أجرته إحدى الصحفيات مع الفنان عن موقفه بعد منع الموديل العاري من قاعات الدرس في كلية الفنون الجميلة. أخذ الزميل ينتقد الفنان، ينتقد تأليهه لذاته، ينتقد علاقته بصاحبة بالون الدعاية وينتقد منطق إنتاج وبيع الصور كأنها تجارة جملة الاهتمام فيها ينصب على ملاعبة الزبون وقانون السوق. أبديت موافقتي على بعض أفكاره فقال بسرعة: "يعني إنتي معانا دلوقتي؟" قلت بسرعة أكبر دون تفكير: "لأ طبعا، أنا دائما سأكون معه". ضحك كلانا بصخب إلا أنه قصم ضحكتي بذكر ما سمعه عن معرض للفنان تنظمه صاحبة بالون الدعاية في الخليج. قلب



fb/mashro3pdf

عليّ المواجع وذكرني بمناقشة الصباح مع الفنان. "ماذا عن سمعتك، صورتك أمام المثقفين؟ هل تجعل هذه المدام المصطنعة التي لا صفة لها أو تاريخ ثقافي تقرأ محاضرتك التي تتحدث فيها عن الثورة وعن الصوفية وعن البقاء والاستمرار كفنان في مجتمعات وأوضاع فاسدة. ما هذا التناقض وما هذه المفارقة!. طيب خللي صديقك الصحفي المصري الذي يعمل هناك يقرأها، طيب بلاش، هات مذيع من الإذاعة هناك، هذا في حالة أنك تعتقد أنك لا تستطيع أن تقراها بنفسك". وهو يقول لي "أنت غيرانة منها، تحلمي بأن آخذك لتسافري معي" ، واسمع تفاصيل خناقات أنها تطالب الجهة المنظمة أن يكون سفره في الدرجة الأولى، وهو مستمتع، وأن يحصل على امتيازات كذا وكذا ، وهو يسند ظهره على الكرسي ويبتسم ، وأنا فاغرة فاهي.

وسافر، ووجدت نفسي وحدي لأول مرة في القاهرة. سافر دوننا لأول مرة، بعد كل سفراتنا معا. سافر معها دوننا، وبقينا نحن. كان الأمر صعبا عليّ في البداية، إلا أنه بعد أيام قليلة بدأت أتعود، بل أستمتع. حتى كانت مكالمة ذلك الكاتب الصعيدي الذي يتحدث بفصحى تراثية: "عرفت أن الفنان قد اتخذ لنفسه منذ مدة زوجة جميلة وفاخرة". لم أنطق. قال: "نحن الغلابة القادمون من الجنوب، أين لنا أن "تجتني" امرأة جميلة وفاخرة مثلك". قالها بلهجة صعيدية يستطيع بالتأكيد أن يتحدث معي بغيرها، إلا أنه قصدها ليكون أكثر تأثيرا، وقد فعل. "جميلة وفاخرة"، أهكذا أوصف في أوساط المثقفين والفنانين. تلك الأوساط التي اعتبرتها لي أنا أيضا بالانتساب. ألم يقل لي اعملي من اجل الفنان، فنتقاسم الخلود معا. على الإنسان - لكي ينهض - أن يتقبل أولا أنه ملقى على الأرض. ماذا حدث عندما استقلت من عملي ووعدني "سأعطيك مرتبك وزيادة". أضع أمامه إفطاره كل يوم ، ثم أذهب للمرسم فأراجع وأكتب مسودة كتابه الجديد على الماكينة الكاتبة. ثم يأتي هو وفوقية للمرسم فأغادره أنا للبيت. حتى انتهت مهمتي فطلب مني بالمحسوس ألا آتي للمرسم بعدها. ما هي القيمة التي



fb/mashro3pdf

ظلت لي في النهاية؟!. "وما رأيكم في الريش الذي ظهر على راسي من طول السنين التي كنت فيها زوجة الفنان العظيم".

وفي طريق عودتنا من زيارة طبيبه، طلب أن يصعد المرسم لدقيقة لإغلاق النور الذي نسيه. فرحت وصعدت معه. لم أكن قد دخلته منذ زمن طويل. فتح الباب فعببت في صدري الرائحة التي تعلق بها شبابي وحبي له وللحياة، رائحة الأصباغ والزيوت النباتية، الضوء الخافت في الممر والقطع الأثرية الصغيرة المصفوفة أمام قواعد كتب الفن الضخمة. أضاء النور فواجهتني مباشرة لوحة تمثلها موضوعة في الحجرة التي يستريح فيها في مواجهة سريره القوطي. قلت ملتاعة: "مين دي؟" رد باستغراب: "ماذا تقصدين؟" نظر بعين ناقدة للصورة وقال كمن يحدث نفسه: "أظن أني رسمتها جيدا. ألا تشبهها؟!" قلت صارخة: "هل فقدت قدرتك على التمييز؟!، هذه العذوبة لي أنا، وليست لها أبدا. أوحشتك عذوبتي فأسبغتها عليها؟!" ابتسم هازئا وقال: "تغارين مرة أخرى ..". شعرت بالإهانة ولكنه سكت فسكت. أغلقنا الأنوار والباب وفي منتصف الطريق للبيت شعرت أني أقترب من الجنون. ملت عليه بهدوء وقلت له في أذنه أني، عندما كان في دورة المياه قبل أن نغادر، ألقيت صورتها التي رسمها لها هو من الشباك. توقف فجأة في منتصف الشارع ونظر إليّ في هلع. عندما لا تكذب أبدا يأخذ الناس كلامك دائما مأخذ الجد. شعر بالخطورة وبدأ يصرخ بصوت مرتعش: "ألقيتيها من الشباك؟ وأين وقعت؟ يا مجنونة. هذا عمل فني فكيف تجرئين؟ هيا .. سنعود أدراجنا لتجديها، يا مجنونة". تسمرت في مكاني أضحك بهستريا وأفرد ذراعاي في الهواء كالطائرة التي تتمايل وأنا أقول: "ألقيتها من الشباك فطارت في الهواء فوووووو...." بدأ الناس في الشارع ينظرون ويبتسمون. تلفت حوله ثم جرني من ذراعي برفق وهو يتعجب من اللوثة المفاجئة التي أصابتني واتجهنا للبيت وعيناه زائغتان. وفي اليوم التالي في المساء كان قد استعاد هدوءه تماما وفهمت من ابتسامة خادمته المنتصرة وهي توصله للبيت أنها وجدت الصورة حيث خبأتها في وسط



fb/mashro3pdf

ألواح السيلوتكس المركونة منذ زمن خلف الدولاب الأسود الضخم في صالة المرسم. قال: "لم أشك إلا دقائق إذ أعرف تعقلك واحترامك للفن".

**(الطريقة التي اختار بها صاحب البالون مكان اسمه يجعله يكبر ويكبر كلما انتفخ البالون، بينما اختار مكانا لاسم صاحب الملعب العريق يتضاءل في المقابل ويصغر كلما زاد الهواء في البالون وارتفع. فوجئ بذلك صاحب الملعب فثار وهاج وماج. انتظر صاحب البالون مرور العاصفة انتظار الخبير ثم قال بصوته الخفيض الهادئ أنه ما قيمة البالون؟!! وما قيمة الأسماء عليه؟! إذ أنه يكفي، و يكفي جدا، أن يعرف الناس أن البالون منطلق من الارض العريقة! ،فبدأ صاحب الملعب يهدأ!. أقنعه إن اسمه مشهوركما الطبل بما يكفي، فابتسم وهدأ أكثر. ثم قال له أنه جرب ووجد أنه أمكنه بيع أي شيء بمجرد أن يذكر أنه من انتاج الملعب العريق، حتى ولو كان أوراق شجر عطنة أو جافة ،فبدأت تظهر أعراض حالة النشوى :سند صاحب الملعب ظهره وبدأ في إغلاق عينيه. عاجله ليكمل المهمة. قال له أنه، صاحب الملعب، وصل، بجدارة، لاستحقاق الأبدية. و لما لم يكن هناك من حل لمنح صاحب الملعب خلود الحياة الذي يتمناه ويستحقه، فان صاحب البالون يوجه الآن كامل جهده لأن يتم استنساخ صاحب الملعب ، إذ خسارة أن ينتهي بالموت ككل المخاليق العاديين ويصبح كأن لم يكن. تحير صاحب الملعب بين متعته من لحس الطيز وبين حنقه وغيرته من صاحب البالون اللئيم الذي يريد أن يربح على حسابه. استمر صاحب البالون في حملته فذكَر صاحب الملعب العريق بوعد الفرسان الذي قطعه، وبأنه بالتأكيد لن ينكث به. صاحب الملعب العريق لم يستطع الفلفصة فأقنع نفسه والآخرين انه يتركه هناك بمزاجه و هكذا ظل هلب بالون الدعاية الصدئ مغروسا في ارض الملعب العريق رغم ما يتسرب منه للأرض من سموم).**



fb/mashro3pdf

# ٦

فتحت عينيّ وحدقت في الساعة بمعصمي الذي قربته لعيني. الساعة السابعة. "ياللا". الشيش مغلق وباب الحجرة مردود شبه مغلـق. الحجـرة تغرق في الظلام رغم أن الوقت صبح. هذه الأيام أغلـق الشـيش وأفـتح الزجاج، عكس الشتاء، حتى يدخل الهواء. صحيح هواء محدود ولكن بـلا ناموس. تحركت في السرير وفكرت: أقوم الآن أم ابقى قليلا؟. "ياللا بلاش كسل". قفزت من السرير. خلعت الايشارب القطني الذي أربط بـه رأسـي وأنا نائمة ورميته على الكرسي جوار السرير، (صديقتنا التـي سـتتزوج أخيرا بعد إضراب طويل تقول أنها نبهت ضاحكة زوج المستقبل أنه يجب أن يعرف شيئا مهما جدا قبل الزواج: هي لا تستطيع النوم دون أن تـربط رأسها بمنديل الرأس "العصبة" المصنوع من الشاش !). ابتسمت وتخللـت شعري بأصابعي. نظيف، مغسول بالأمس، وحيوي من اثر الحنـة التـي وضعتها عليه قبل الحمام. الحنة اختراع عظيم لم أكتشف مزاياه إلا أخيرا. سعدت بشعري وتمايلت برأسي حتى يتحرك. ما أجمل ما ورثته عن ماما: أنا وهي نستيقظ سعداء. فتحت الباب. كانت الصـالة، مقارنـة بحجرتـي المظلمة، ينيرها ضوء اللمبة بجوار التليفون التي نتركها كوناسـة طـول الليل. تنبهت أن الفنان، بكامل ملابسه، يقف بظهره عند باب حجرته مـادا يده ليغلق نور الحجرة. إذن هو في طريقه للخروج الآن. مع ألف سـلامة.

fb/mashro3pdf

لم أرد رؤية وجهه ولا الاختلاط به ولا التعرض لموجاته. رجعت ورددت بابي بسرعة، ولكن بهدوء. استدرت، ولثوان احترت. ثم قررت بسرعة: سأدخل السرير وأمثل أني لم أستيقظ بعد. قفزت للسرير وسحبت الغطاء الخفيف وأغمضت عيني. قلت لنفسي: "لن أذهب للعمل اليوم سأقضي اليوم بمفردي. أروق البيت، وأروق نفسي. سأنظف البلكونة، واسقي زرعي. النباتات العطرية التي ملأت بها حديقتي الصغيرة: أصص من حصى البان، عتر انجليزي، ريحان، ياسمين هندي وبلدي، فل، نعناع فلفلي وبلدي، وميريمية. حديقتي الصغيرة تذكرني بذلك البارك الصغير المخصص للنباتات العطرية والدوائية في تشيلسي بلندن. اكتشفته من دليل السياحة وأخذت إليه زوجة مضيفنا. أتذكر سعادتها وامتنانها. بعد كل تلك السنين، تسكن لندن وتعمل بها، تهوى الخضرة وتعمل بلا انقطاع في حديقتها، ولم تعرف بوجود تلك الحديقة الأنيقة. كان الفنان قد وصل عند باب حجرتي. دفعه بهدوء، ثم سمعته يقول بطريقته التقريرية ذات النغمة الواحدة التي أصبحت سمة كلامه في الفترة الأخيرة: "صباح الخير" وانتظر. لم أستطع إلا أن أرد: "صباح النور". "أنا نازل دلوقتي. ذاهب للمرسم. سأكمل كل صور المعرض القادم في ثلاث أيام". وانتظر مرة أخرى. فقلت بنفس البرود دون أن ارفع رأسي: "مع السلامة". قال: "أريدك أن تصفحي عني. لم تكن غلطة كبيرة التي عملتها تستاهل تبوظي حياتنا". وانتظر، فلم أرد. انتظر ثوان أخري ثم شد بابي وحاول أن يغلقه، إلا أنه ترك المحاولة بمجرد أن عاكسه الباب أول مرة. سمعت صوت باب الشقة يغلق، وأجراسه التي علقتها هناك، مختلفة الأشكال والأحجام والجنسيات، تجلجل، وتستمر في الجلجلة لثوان بعدها، ثم تخمد، واحدا بعد الآخر، حتى تسكت جميعا. شعرت بالارتياح. قمت جالسة باحثة بقدميّ عن شبشبي بجوار السرير. "ماكنتش غلطة؟". ثم كررت بصوت عال كأني أسمع نفسي: "ماكانتش غلطة". "ماكنتش غلطة؟!". تنهدت وقمت متجهة للحمام.



fb/mashro3pdf

كنت أقف بالأمس فوق الكرسي الأبيض العتيق في البلكونة لأنشر الغسيل عندما سمعت رزعة الباب. توجست. "جاء الأستاذ الفنان". وعندما سمعت صوته يرتفع أضفت في سري "بزعابيبه". سمعت طراطيش الكلام من بعيد عن سمك. كان محل الأسماك قد أرسل أحد عمال المحل بلفة كبيرة مليئة بالسمك المقلي والجمبري لم اطلب أيا منها وذكر أنها للأستاذ الفنان. استغربت للحظات، ثم أخذتها منه وحاسبته وانصرف. أخذت اللفة للمطبخ ووضعتها على الرخامة وأنا أفكر. (أرسله لأنه خاف ألا أحضر له طعام) (أرسله لأنه تذكر أخيرا أني أحب السمك) (أرسله لأن السمك مفيد) (أرسله لأنه وجد أن السمك اليوم طازج وعز عليه أن يأكله وحده). أسعدني هذا الخاطر قليلا، ثم عدت لنفسي بسرعة. اضبطي نفسك. لا تسبقي الأحداث. أدرت ظهري وقررت أن أنسى موضوع الغداء الآن وأشغل نفسي بشئوني. بعد نصف ساعة تقريبا، اتصل الفنان وسأل عن السمك. قال: "طيب" وألقى مباشرة بسماعة التليفون فانقطع الخط. وبعد دقائق كانت فوقية تدق جرس الباب. دخلت مباشرة للمطبخ بلا كلمة، وشالته، ونزلت. أدرت وجهي ونظرت لنفسي في المرآة التي مررت بجوارها وقلت بمرارة ساخرة: "لا تعليق!". شعرت بحزن، إذ كان بصيص من الأمل قد استيقظ. قلت أنه ربما للحظة فكر أن يعتني بي، أن يشاركني في شيء!. إلا أن الأمل أجهض في حينه. بسرعة قاسية. كنت أنشر الغسيل، قطعة قطعة، وأسمع الأصوات في الصالة، ثم وجدته عند باب الشرفة. رفع رأسه لينظر إليّ. نظرت إليه بدوري مطولا دون أن أتكلم وأنا فوق الكرسي. كانت عيناه حمراوين، تنظران بشكل غير طبيعي. قلت لنفسي: "شارب واللا إيه حكايته؟!، الله أعلم. أنا خائفة قليلا لكن سأتماسك". شجعت نفسي: "أنت قوية. ولا يهمك. أنت أقوى. أنت أقوى". نادى إسمي فجأة ليلفت انتباهي، وانتظر لحظة. نظرت إليه: يضع ذراعيه مفرودتين على جانبي باب الشرفة الصغير وكفيه أعلى من مستوى رأسه



fb/mashro3pdf

مائلا بجذعه للأمام. وقفته الشهيرة التي طالما أحببتها. أشحت بوجهي. بالنسبة لي يبدو كما لو كان شخصا آخر يقلد من أحببت. نادى إسمي مرة أخرى. لفت رأسي إليه ، قلت: "نعم". قال: "اسمعي. أنا أريدك أن تصفحي عن كل غلطاتي معك. لا أريد أن أموت وأنا أشعر إن هناك أحد زعلان مني". كانت لهجته تقريرية بإيقاع رتيب واحد، ذكرتني بالمرات العديدة التي تكرر فيها أن يدب الخلاف مع مدام سي آي إيه فيعود لي مكررا تلك الكلمات ذاتها (اصفحي عن .... لا أريد أن.. أنا أشعر إن...). أدركت وأنا انظر له أني لم أعد أستطيع أن أكون كما كنت في السابق، مسامحة وصفوحة. تركت قطعة الغسيل التي كانت بيدي تقع مرة أخرى في الجردل البلاستيك الأزرق ونظرت داخل عينيه كما لو كنت أبحث عن شيء. لا شيء، خواء، لا مشاعر، لا شيء، لا شيء. "غلبان" قلت لنفسي. كرر هو مرة أخرى بطريقة ميكانيكية كمن يسمّع درس محفوظات: "قولي إنك سامحتيني، لا أريد أن أموت وأنا أشعر إنك زعلانة مني". قلت وأنا أدير وجهي وأنشغل بالغسيل الذي أنشره: "أنا مش زعلانة منك". قال بسرعة كطفل يشعر بالتأنيب: "أمال إيه التصرفات دي معايا" . تركت الغسيل مرة أخرى يسقط من يدي واستدرت إليه بكل جسمي وأنا فوق الكرسي وقلت في عصبية: "أنا مش زعلانة منك، (ثم بسخرية) ولا فرحانة بيك كمان. مفيش حاجة، مفيش حاجة خالص. القصة دي انتهت". قال بفزع المستيقظ توا من النوم: "يعني إيه انتهت؟". رأيت في عينيه نفس الخواء، لا مشاعر، لا شيء. فقلت بمرارة وأنا أضغط على ألفاظي: "أنت عندما مددت يدك عليّ أول مرة العلاقة انكسرت. ربنا يعلم أنا حاولت أد إيه بعد كده، لكن أنت..." وصمتت لثوان ثم قلت: "ولما عملتها تاني العلاقة ماتت. انتهت". كنت أحرك يدي كالسيف القاطع. ارتبك: "يعني إيه؟ يعني إيه؟ طب ماهو إنت ماكنتيش عاوزة تعملي لي ما طلبته منك، ماهو إنت ..". قاطعته غاضبة، منه وبالأكثر من نفسي: "خلاص، خلاص، أنا آسفة أني أكلمك



fb/mashro3pdf

الآن. هذه العلاقة انتهت. هذه القصة انتهت، انتهت". بدأت أشغل نفسي بالتقاط قطع الغسيل، فقال فجأة وهو يستعيد صوته الطبيعي: "طيب لو انتهت، إحنا قاعدين مع بعض ليه؟". نظرت إليه نظرة تساؤل محتقرة وساخرة: "تقترح إيه حضرتك؟ البيت ومش حاسيبه، ده بيتي!". قال بسرعة: "وهوه ده يعني مش بيتي؟!"، ثم أضاف بسرعة: "وكل الحاجات اللي فيه بتاعتي وشاريها بفلوسي". قلت بازدراء: "وهوه حد داسلك على طرف، مانت قاعد إنت كمان". قال كمن يكرر محفوظات: "عاوزه تتطلقي يعني؟!". قلت وأنا أرفع كتفي وأسقطهما "ما تفرقش". كان الحوار يمضي بهذه الوتيرة التي تقرفني، وأدركت أني أكاد أتدلى مرة أخرى في البئر الخانق. بدأت أتوتر. لا، هذا لن يحدث. أدرت وجهي بسرعة وانشغلت بالغسيل ألتقط قطعة قطعة وأضعها بعناية وفن على الحبال واشبكها بالمشابك في هدوء. أحث نفسي على اليقظة. أراقب بطرف عيني تحسبا لأي حركة فيها تهديد بالهجوم أو الغدر. لا ضمان لأي شيء. إلا أن ما حدث بالفعل أنه يأس فجأة من مواصلة الحديث بعد فترة صمت قصيرة احتملتها على أعصابي، واستدار وابتعد. كان الخوف يشكشك قلبي بإبر رفيعة صغيرة في صمت وبطء. هل سيحاول محادثتي مرة أخرى؟ كيف أتهرب، كيف أهدؤه إن حاول حتى لا يعود لمهاجمتي. ولكن لا، لن أخضع، لن أقوم له بأي خدمة إن طلب مني لمجرد أن أتجنب أن يهاجمني. فلآخذ حذري ولكن أستمر في القطيعة. (قالت لي: "سأزعل منك جدا لو رجعتي للبيت بعد ما حدث!". "خللي اليومين دول يفوتوا على خير وبعدين نشوف"). قلت لها ما قلت وأنا في الحقيقة لا أدري أي شيء عن كيف سيكون المستقبل. يقلقني تراوحه بين الهدوء التام لدرجة الاكتئاب والعزلة، والأحوال الأخرى التي تقترب من الجنون.

وأنا أتجه للحمام كان يقف في الصالة يطلب مني بمسكنة وبلهجة آمرة في نفس الوقت أن أرتب الفواكه التي اشتراها في الثلاجة. ترددت



fb/mashro3pdf

للحظة. نظرت في وجهه. أعرفه الآن جيدا. كان يود لو يقول: هل ترين كل تلك الفواكه التي تحبينها، والتي اشتريتها بنقودي: هيا، أطيعي، واذهبي لترتيبها في الثلاجة. قلت متحججة لأقطع الحوار أني سأفعل عندما انتهي من الاستحمام، وأغلقت باب الحمام بسرعة وأدرت قفله من الداخل. كان ذهني منشغلا به وأنا استحم. ما قاله في الشرفة وما قلته. الفواكه ليست لي بل له فقط، فهو يعرف أني لن آكل منها أو حتى ألمسها. والآن ما بالك؟ زعلانة! ولكن لماذا تتوقعين أو تريدين أن يأتي لك بأي شيء وأنت تقاطعينه؟. يا سلام، ماذا تقولين الآن؟!، وعندما كنت تحت رجليه ماذا كان يعطيني؟!. يتكلم عن السماح، فهل فعل أي شيء للمصالحة. وعيد ميلادي، هل نسيت؟ كان عليه على الأقل أن يرد الهدية التي اشتريتها له في عيد ميلاده.

(بعد اعتداؤه عليّ في المرة الأولى تركت البيت لأسبوعين لأول مرة بعد عشرين سنة زواج. لا أعرف ماذا كان يمكن أن يحدث لو أنها ما كانت هناك. رفعته من فوقي وهو يحاول أن يشل حركتي. يحاول أن يأتي برأسي للأرض، وأنا كالنعجة التي هجموا عليها ليكتفوها للذبح فاستسلمت ذاهلة لا تصدق. رمته خارج الحجرة وهددته إن لم يبتعد، فابتعد، وأنا مذهولة من قلة حيلتي أمام أي احتكاك جسدي عنيف. أتى عيد ميلاده بعدها بأيام قليلة، فاشتريت له كتاب عن الموديل في حياة الفنان لأقول له أني باقية على الفنان، رغم كل ما حدث!).

ماذا أسمي الطريقة التي أقابل بها العالم؟! مسالمة؟ حسن ظن؟ ثقة في الخير الذي لابد سينتصر؟. كان يقول لي أعمامك ووالدك يشبهون رعاة "ماري" الطيبين في التاريخ السوري. يلبسون فرو الخرفان ويعقدون أيديهم على صدورهم وينظرون في وداعة، ليس لهم في الحرب ولا الكر والفر. هل هذا هو التفسير؟ لا أعرف ولكن يبدو أن الحقيقة أنه ليس لدي القدرة على التلاحم الجسدي!. ألهذا شُلت لحظتها قدرتي على التصرف ولم استطع



fb/mashro3pdf

الدفاع عن نفسي، عن جسدي؟!، أم لأن الهجوم أتى من حيث لا أتوقع، من قريب، من حبيب!!. وكنت تصفين نفسك بالشجاعة!. ها ها ها. هـذه والله مصيبة!. سمعت بإكبار عن والدة صديقه الفلاحة التي أنزلت الرجل عن حماره لتمرغه في الطين بيد واحدة. قوّاها إحساسها بالإهانة وبأنها على حق وبأن الجبان الذي خاض في سيرتها يستحق ما يجري له. ولكن، هل مشكلتي هي في المواجهة الجسدية فقط، أم في أي مواجهة؟!. (صرخت فيّ وفاء زعيمة حركة الطلبة في السبعينيات: "طبعا لا تتركيها تنسحب. ماذا تقولين أنت الآن؟! تشجعينها على السلبية والمسالمة!!. في هذا الموقف بالذات ستضر ولن تنفع!!. الطالبات انتخبنها في عملية ديمقراطية. كيف تتخلى عن مسئوليتها مع هجوم بضعة منهن وانتقاداتهن؟!!"). وعندما سألت في النادي عن تدريب الدفاع عن النفس للكبار، نطق المدرب بدعابته الثقيلة: "... للتي يضربها زوجها"، فبللني العرق البارد والباقون ينظرون لي باندهاش. آه. خلاص، القصة دي خلصت. أحاول أن أصرف ذهني إلا أني ضبطت نفسي مرة بعد أخرى أفكر في المشكلة وأنا أستحم. ماذا سيحدث عندما اخرج من الحمام؟!. هل سأجده واقفا متحفزا، وأرجع للخوف. أحيانا ما يظل يتابعني من غرفة لغرفه، للشرفة، للحمام، لترابيزة المكواة في مدخل حجرتي، للمطبخ، للصالة. يكرر: "وأنت... ما نفعك؟!، غدا سنرى ماذا ستفعلين بحياتك!". هل أجده منشغلا بالتليفون وقد تحول انتباهه لموضوع مشكلة أخرى مع مدام سي آي إيه؟!، هل سأجده نائما على الكرسي؟!. أي شيء، أي شيء يا رب فقط ألا يكون متنبها لي، حتى لا أخاف. لا أريد أن أخاف. هل تعرفين ما أريده فعلا الآن: أن أطرده تماما من تفكيري. أفكر في موضوع آخر. أنشغل بشيء آخر ولكن بدون أن أتخلى عن حذري، فهل سيحميني الحذر؟!

(أيقظني فصنعت القهوة وأخذت قياس السكر في الدم بالجهاز الصغير. قال بيأس وعدمية أنه لم يتناول أدويته عندما كان في البيت

fb/mashro3pdf

الريفي، وأنه تعب هناك، وأنه تعبان الآن. لم أعلق. عندما عاد بالأمس من البيت الريفي كان يبدو محبطا رغم أنه ذهب مع صحبته المفضلة، وأتى مصورو التليفزيون كما قال. تعجبت إذ وجدته قد أتم ارتداء ملابسه وحده دون مساعدة وقال أنه سيذهب للمرسم مبكرا ليبدأ الرسم. قلت في نفسي: هناك أمر غامض، ولكن الأكيد أن لديه أزمة داخلية ما. فتح الباب ليغادر فاتجهت للمطبخ. جلست على الكرسي المرتفع أمام الحوض لغسل الأواني المتراكمة. بعد دقائق انفتح باب الشقة مرة أخرى وجاء الفنان للمطبخ مباشرة ليطلب مني عصير برتقال. "بسرعة، أريد أن أنزل لأرسم". "حاضر" وقلت في نفسي سأنتهي بسرعة من غسل المواعين ثم أعصر البرتقال. الحوض ملآن، ولا مكان لغسل البرتقال قبل عصره، ثم أني لا أود أن أخلع وألبس مرة أخرى قفاز المطبخ المطاطي الضيق، خاصة أني قاربت على الانتهاء. استمررت في التشطيب بأقصى سرعة لأنتهي. أدعي دائما أني بمهارتي وسرعتي في غسل الأطباق ممكن أن أغلب صوفيا لورين في فيلم "أكثر من معجزة" وأفوز بقلب الأمير، عمر الشريف. ابتسمت لنفسي. أتى الفنان مرة أخرى وبدا من وجهه أنه بدأ في الغليان. "لا أقبل هذه الحركات، أن أطلب منك ولا تنفذي فورا!. تصرفات كانت تنفع مع نوع الرجالة اللي زي ......، لكن لا تنفع معي أنا!". لم أرد. "أنت لم تخلقي لتكوني زوجة، المنطقة التي أتيت منها، نشأتك لا تؤهلك. لا أنت ولا أخواتك ولا صديقاتك. أمهاتكن لم تربيكن لتصبحن زوجات ناجحات ...." كنت أنهي بسرعة التشطيب، حاولت إسكاته بأن أتعامل معه كالأطفال كما فعلت في الأيام الأخيرة. ثم بدأت أغني وأنا أنهي بأقصى سرعة آخر ما في الحوض. قُطمت الأغنية، فقد فوجئت به يمسك بفكي بشدة. آه، ها قد عاد لاضطرابه. صبرت، قلت لنفسي فلأكن حكيمة حتى تمر الأزمة. يده مازالت ممسكة بفكي. كرر عدة مرات "لا تغني بهذه



fb/mashro3pdf

الطريقة تاني". قلت بخضوع: "حاضر". كرر: "ماتغنيش تاني" ويده تواصل الضغط على فكي وتهزه. قلت وأنا أحاول أن أتملص: "ماذا أقول إذن لأوقف كلامك الذي يؤلمني؟!". كانت يده تزيد في الضغط. شعرت أنه بدأ يفقد السيطرة على نفسه وأقترب الأمر من مرحلة الجنون. حاولت التملص، فاستماتت يده على فكي وبدأ يسحبني لأسفل، في اتجاه الأرض. كنت أضحك من الارتباك. بدأت اشعر أني أفقد الأمل أني إذا تملصت سأنجح في التخلص من قبضة يده. كانت يداي ما تزالان في الحوض، ورأسي تميل لأسفل وأنا أقاوم. رششته بالماء، مرة، ثم أخرى. قلت لنفسي ربما يبعده الماء. لم يحدث بل ازداد جنونا. لم أكن أنظر لوجهه، ولكن كنت أعرف تماما كيف يبدو الآن فأنا أعرفه جيدا، أكثر من عشرين عاما، أليس كذلك؟!. هو الآن "ياقاتل يامقتول"، عيناه تبرقان في تحدٍ شرير وعضلات وجه متقلصة. ترك الوحش يستيقظ دون غطاء أدب الطبقة المتوسطة لعائلات الحي القديم الذي تربى فيه. كل ما أفكر فيه الآن هو التخلص من كلابات يده التي تشدني الآن لتوقعني من فوق الكرسي في اتجاه الأرض. أخذت يدي بلوفة الأطباق المليئة بالصابون والتي كنت أدعك بها الحوض بعد أن انتهيت من التشطيب ووجهتها لوجهه الذي لم أعد أراه الآن، فقد أصبح رأسي في مستوى قاعدة الكرسي الذي أجلس عليه بعد أن تحكم تماما في اتجاه جسدي. ضايقه ذلك بشدة، فاستطعت أن أفلت نفسي وانتصبت واقفة وعدت بظهري مبتعدة خطوتان لأقف جوار الشباك ذي القضبان الحديدية. أضحك بهبل، بارتباك، بصوت خافت وهستيرية. أتألم حتى النخاع. جانب وجهه مليء برغاوي الصابون، وكذلك كتف القميص وجانبه. شهّدني مشيرا بأصبعه لرغاوي الصابون معاتبا: "هل يرضيك هذا؟". كنت أضحك وأبكي بهستيرية وضعف. قلت: "كنت أريدك أن تتركني". وفي لحظة ارتفعت يداه في الهواء لتصل لي رغم قصر قامتِه

fb/mashro3pdf

بالنسبة لي. وفي لحظة كان يهجم على رقبتي وهو يقول: "تفكرين ممكن تغلبيني؟!". يده تمسك بعنقي، بقصبتي الهوائية بالتحديد. يغرس أظافره في رقبتي. لم أعد اسمع ما يقول، لم أعد أفهم ما يكرر، ولا يهمني. كان دماغي من الخلف ينحشر بين القضبان الحديدية. بدأت عيناي تظلم، وبدأ الهواء يقل في الدخول لصدري، وبدأ ضغط يده على عنقي يخنقني. سمعت نفسي أشخر. لم أصدق. هذا صوت تنفسي؟!. هل أصبر هذه المرة أيضا حتى لا أستفزه أكثر؟! ، أصبر فربما يتركني من تلقاء نفسه؟!. طالما صبرت، طالما... فهل تموتين الآن؟ هل تموتين الآن؟ هل تتقبلين الموت اليوم؟ تودعين الآن؟ لأ، طبعا لأ. كفاية. لم أعرف كيف دفعته. وعندما اعتدلت لآخذ نفسي لم يدخل الهواء مباشرة في قصبتي، فارتعبت. كانت لحظة رعب فتحت عيني فيها ورأيته يعاود الهجوم عليّ فدفعته بكلتيّ يداي ورأيت كتلة جسده الربعة ترتطم بباب الثلاجة. كانت كفاه متقلصتي الأصابع مازالتا معلقتين في الهواء أمام وجهه بمستوى كتفيه . أخذت قصبتي الهوائية ثوان حتى انفك انطباقها وعادت لتمرير قليل من الهواء لرئتي بالتدريج. كنت أصدر أصوات هستيرية بين الضحك والبكاء لكن وجهي كان متشنجا. كنت غاضبة وهناك ما يعتصرني. كان حزني متجسدا، ذا كتلة، وكثافة، وضغط، في عينيّ، بقلبي. وقف هناك، وقد بدا أنه أصبح أهدأ مقارنة بدقائق مضت، يشير بيده لوجهه وملابسه، ويعاتبني: "كده؟!، بللتني، وبماء وسخ!". كانت عيناي متسعتين لآخرهما، تنظران إليه. غير مصدقة. أشعر بالدم فيهما يكاد يتفجر. كان قلبي يغص، يؤلم. كانت رقبتي تؤلمني، وحنجرتي نصف مغلقة. شعرت أن جسدي معلقا في الفراغ خفيفا، يرتجف. كان شعوري بجسدي يشبه شعور حركة الذراعين بعد التمرين باستخدام الأثقال. بمجرد وضع الأثقال على الأرض يصبح إحساسك خفيفا، طائرا. كان ما يزال يشير بيده للماء والصابون في وجهه

fb/mashro3pdf

وملابسه ويكرر بصوت معاتب، لدهشتي هادئا: "كـده؟!.. كـده؟!". قلـت بصوت متحشرج منخفض لا أدري كيف خرج مني: "إنت كنت حتمـوتني ...". فانطلق: "أمال أتركك تضربيني، اسيبك تمـوتيني، أسـيبك تزقينـي، أسيبك تغرقيني ميه.. لا، إنت فاكرة عشان طويلة.. لأ دا أنا أقدر، وأقدر. هي دي مسكة تُميت؟! ده فيه قبضة أخرى تؤدي للموت، تحبـي أوريهـا لك؟!". وبرقت عيناه كالأطفال الأشرار الـذين يـودون تجربـة ألعـابهم الخطرة، إثباتا للنفس وتهديدا للآخرين. تراجعت خطوة للـوراء وظهـرت المقاومة في عيني، فتراجع هو أيضا. ظل يتكلم، يحـاول أن يثبـت أنـي أخطأت، فأنا لم أصنع عصير البرتقال وقت طلبه بالضبط، حتى يستطيع أن ينزل ليشتغل كما ذكر في الصباح. كنت أنظر ذاهلة. قدماي علـى الأرض وظهري ملتصق بالرخامة بجواري. كنت أتساءل متى ينتهي كل ذلك، متى ينتهي هذا الكابوس؟!. أود أن أذهب لحجرتي، أو للحمـام، فأغلقـه علـى نفسي، لأستعيد نفسي ولو قليلا، أهدأ. عندما تطـورت كلماتـه المنطلقـة كالقذائف إلى نقطة: "ياللا بأه، اعملي لي البرتقال الذي طلبته..". صعد الدم إلى رأسي مرة أخرى. وبعد أن كنت أحاول تهدئة نفسي والموقـف كلـه، شعرت بالاستبياع. " إيه؟.. عصير برتقال، إنت فاكر كل ما تعوز حاجـة تهددني فتنولها، لأ ، ده أنا لو مت دلوقتي، ده لـو قتلتنـي دلـوقتي مـش حاوطي راسي ولن أمرر عاصفة. انتهينا. الموضوع دخـل فـي كرامـة وحياة". كنت أصرخ وأشوح. عضلات فمي وفكي تتشقلب وكـل جسـدي وذراعاي تتحركان في كل الاتجاهات. ثم صمت فجأة. وقفت جوار بـاب المطبخ في مقابله، وهو يسد الباب بجسده. عقدت ذراعاي على صـدري، ووقفت على رجل ونصف، ونظرت إليه، مليا. سألت نفسـي: مـن هـذا الرجل؟ إخص عليك وعلى أصلك. لما نشوف أصل من منا يغلب الآن. لن اقبل الذل بأي مسمى بعد الآن. انتهينا. هكذا كررت لنفسي وأنا واقفة هناك



fb/mashro3pdf

أنظر إليه، مباشرة في وجهه، عينيه، كيانه، الذي أصبح الآن كريها بالنسبة لي، بعد أن كان أبدع وأهم ما في الحياة. هاهاها. هذا هو ما نحن فيه الآن!. أبدع وأهم ما في الحياة!... هاهاها ...

ارتبك وبدأ يكرر بصوت منخفض مهزوم: "ستعملينه، غصب عنك، سأجبرك. أحسن لك أعصري لي برتقال..". كانت الحروف تصغر وتتلاشى وهي خارجة من فمه وفي النهاية لم أعد أسمع إلا مجرد غمغمة، غمغمة كلمات. قلت بثبات وتصميم المستقتل: "إنت مالكش حاجة عندي. كان ممكن أن تأخذ عيني بالمعروف، لكن كده.. مالكش حاجة عندي، وأعلى ما في خيلك اركبه، مالكش حاجة عندي... مالكش حاجة عندي". كنت أضغط على الحروف وأنا أمد رقبتي ليصبح رأسي قريبا من رأسه، من أذنيه، ليسمعني أفضل، لأثبت كلماتي، أغرسها. كان مرتبكا ولكن بدا أنه لا ينوي التراجع، إلا أنه أدرك أنه لن يكسب إذا حاول الاعتداء علي الآن. بادأني: "ما معنى "مالكش حاجة عندي"؟!، يعني ماقدرش أطلب منك حاجة؟ .. يعني .. (بدأ يتلعثم ويتلجلج) يعني لو جيت جعان ماقدرش أطلب منك تحضري أكل؟!". قلت، بحروف واضحة: "لأ، ماتقدرش". قال: "يعني تطبخي لنفسك. تطلبي مصروف البيت وتملي الثلاجة لحمة، وتاكلوا بفلوسي، وأنا ماكلش؟". قلت بسرعة: "أنا مش حاكل بفلوسك بعد كده، ده قرار، مش حاحط في بقي لقمة بفلوسك". رفع يده، وفتح فمه وحرك رأسه محاولا الاعتراض، إلا أني أزحت وجهي بعيدا. ابتعدت خطوتان للوراء لأقف في منتصف المطبخ حيث مكان جيد للإعلان: "أنا لن آكل شيء أنت دفعت ثمنه مرة أخرى .. انتهينا .. أنا لن أترك البيت، ولن آكل من فلوسك، ومش حاعملك حاجة. ماتقدرش تطلب مني حاجة، مالكش حاجة عندي". قال راجيا: "أنا ما أطلبش منك حاجة، لكن أنت تعملي لي من نفسك، مش كده؟!.". قلت وأنا أشعر أني أنجر معه في هذا النوع من الحوار الذي ينتهي دائما لما يريد. قلت "أيوه، الأكل حيكون الظهر على



fb/mashro3pdf

البوتجاز، لكن إني أقدمه لك على الترابيزة تاني، لأ، انتهينا. إنت فاكر إيه: حاقبل تاني نرجع لوضع التهديد ده، أنا لن أسمح مرة أخرى أن يُطلب مني شيء وأخاف أن أقول لا لأي سبب فتهجم عليّ ....". رد بسرعة وقد بدأ يستعيد إستئساده: "ولكن لماذا تقولي لا. الزوجة الكويسة تحاول أن تريح زوجها. أنت لم تؤهلي لتكوني زوجة. ماتنفعيش في حاجة..". صرخت: "إيه ده!، الظاهر نسيت نفسك مرة أخرى!، أنت لا حق لك أن تجبرني لأعمل أي شيء. لا يوجد رجل محترم يمد أصبع على زوجته. لا بل ليس هناك رجل محترم يمد يده على أي واحدة ست. مش يحاول يخنقها، يموتها!". امتلأت عيناه بالخوف من التورط في أن يعترف، أن يخجل من نفسه، أن يعتذر. رد بسرعة: "أنا لم أمد يدي عليك، أنا كنت أمنعك. أنت دفعتيني. تريدين أن توقعيني". ذهلت من رده. صرخت: "إيه؟!، ده جنان رسمي. أنا اللي...؟! إنت بتقول إيه؟!.. ده جنان رسمي.... إوعى.. (وزحته من طريقي) لازم أكلم حد يعقل الكلام ده". لم يحاول منعي إلا أنه قال بتوسل: "حتكلمي·مين؟، واللي حتكلميه حيعملك إيه يعني؟!". قلت: "على الأقل أشهده، إيه الجنان ده؟!". وأنا أطلب الرقم ظل يروح ويجيء في الصالة كالطفل الذي ينتظر العقاب، إلا أنه يحاول تهوين الأمر على نفسه: "إيه يعني، مايهمش، حيعمللي إيه يعني ..". رد الصوت وبعد تحية مقتضبة قلت: "أنا طالباك عشان أشهدك إن الفنان كان حيموتني، كان حيخنقني النهارده!". غمغم على الطرف الآخر من التليفون بكلام غير مفهوم فهمت منه: "أنا أعمل لك إيه ...". قلت: "أنا فقط أُشهدك!". قال: "أنا قلت لك موقفي من قبل. هذا الأسلوب غير مقبول لأي سبب، ولا ألومك على أي شيء. إللي إنت عاوزه تعمليه اعمليه، ولن يلومك أحد". ظل الفنان يروح ويجيء، وجهه متألم ومذنب كطفل يلوم نفسه قبل أن يلومه الكبار. ظل يكرر: "هي مش بتعمل لي حاجة، أنا بس طلبت تسيب اللي في إيدها وتعمل لي عصير، أنا... أنا..". "إديهولي .." فأعطيته السماعة،



fb/mashro3pdf

استمع لثوان ثم قال "أنا مش باهزأ نفسي، لكن، .. آه .". كان وجهه مدلدلا كطفل يتلقى اللوم والتقريع. بدأت أشفق عليه. هناك بالتأكيد شيء في طفولة هذا الرجل. تركته ودخلت حجرتي، شِددت من الدولاب أي ملابس ونويت أن ألبس بسرعة وأذهب لعملي. قلت لنفسي: سأغلق على نفسي باب الحمام لأهدأ قليلا، ثم أنزل بسرعة. قبل أن أخرج من الحجرة كان ورائي. أنهى المكالمة وجاء يقول أنه نادم وأنه آسف إلا أنه يجب أن أعتذر أنا أيضا. قلت بحدة: "أعتذر، أعتذر على إيه؟". قال كالأطفال: "عشان بليتيني ميه، وعشان ماعملتيش برتقال، وتسببتي في كل هذا التعطيل". يا نهار اسود. حتى الدفاع عن النفس يريدني أن أعتذر عنه. كنت قد بدأت أنفصل عن الموقف وأتفرج. أبتسمت وأنا حزينة. أردت إنهاء الموقف، وتمريره، كنت أود أن يمر، يمر. زحته من أمامي وذهبت للحمام.

أغلقت على نفسي باب الحمام ووقفت وراءه. سمعته يروح ويجيء في البيت، يزيح الأشياء في طريقه، ويرفع أشياء ويضعها مرة أخرى. قلت لنفسي: فلتهدئي، فلتهدئي. خلعت ملابسي ببطء ووقفت أمام الحوض بقميصي الداخلي لأغتسل. نظرت على وجهي التعس وشعري المهوش، و... رقبتي .. آه ..آه ، ياربي، أصابع!!.. علامة حمراء من الناحية الشمال وأربع علامات حمراء كالكدمات حولها جروح صغيرة على الناحية اليمين. وضعت يدي على رقبتي، وبكيت، بكيت. كفه، أصابعه ماتت على رقبتي، هذا هو ما يصنع مثل تلك العلامات. لقد كان يخنقني. يقتلني، ينتزع حياتي. فتحت باب الحمام بعنف وخرجت، وجدته يجول في المنزل جيئة وذهابا، كنت في حالة من الثورة والغضب لا يقف أمامها أحد أو شيء. ظل واقفا ساكتا ينظر إلي خائفا كالطفل الذي شخ على روحه، كاسيا نفسه بطبقة صلبة من الدفاع عن نفسه الهشة وحمايتها، مهما كانت الظروف. سيفعل أي شيء للدفاع عن نفسه، ولو اضطر أن يدوس عليَّ.. اتجهت للتليفون وطلبت الرقم مرة أخرى وقلت له أني سأعمل محضر "عدم



fb/mashro3pdf

تعدي" في القسم ، أو أنه هو يترك البيت. تجاهل النقطة الثانية، وظل يحدثني من الطرف الآخر في التليفون عما سينفعني من بلاغ البوليس. كان صوته قد أخذ رنة المحامي، ولكن محامي الخصم. كان يعرف أن الفنان قد أخطأ، ولكنه أراد أن يوصل لي أنه لن يفعل أي شيء يكون في مصلحتي وقد يضر الفنان. لن يقف معي ضد الفنان أبدا. ظل يقول: "إعملي ماتريدين، لكن تكلمي بالعقل. فيم ينفعك هذا البلاغ؟. في طلب الطلاق؟ فقط..... لكن لن يصلح أي شيء...". استمر في الكلام على هذا المنوال،. قلت لنفسي وأنا اسمعه في التليفون: "خذلني .. هاهو آخر يحسن الخذلان، ولكن على الأقل أشهدته". أنهيت حواري معه باقتضاب. ألقيت السماعة بيأس للفنان. قلت لنفسي: "هؤلاء ناس الخذلان عندهم شيء أصيل، ماذا كنت أنتظر منه؟. كنت أبكي، أصرخ بصوت عال: "أنا غاضبة لنفسي جدا، غاضبة لنفسي جدا". ذهبت للحمام لألبس. وضعت إيشاربا رغم حرارة الجو الربيعية حول رقبتي المصابة، أخذت حقيبتي وغادرت. كل هذا والفنان ينظر إلي وهو واقف بعيدا في الصالة. مرة واحدة طلب بصوت منخفض أن أسامحه، قال أنه لن يستطيع أن يرسم وهو في هذه الحالة من الزعل، أو أن يكون "حد" زعلان منه!. قلت " ياسلام!، لأ، مش حاسامح، مش حاسامح.... أنظر..". وكشفت الايشارب عن رقبتي، "أنظر، أنت كدت تقتلني، وأنا مش مسامحة. أنا غاضبة جدا لنفسي ، غاضبة لنفسي جدا، جدا". ذهبت للعمل سيرا بدلا من التاكسي رغم تأخري. أردت تصريف طاقة سلبية شعرت أني أجبرت على ابتلاعها. كان كل جزء في جسدي يؤلمني. قلت لنفسي هازئة: "إيه الحكاية، عاملة زي ما تكوني أخذت علقة، هاهاها". كنت أسخر من نفسي ومنه ومن الموقف كله. "ده بس مسكك كده بس من فكك!، فقط!!، وبعدين حاول يخنقك، بس!! .. ليه بأه كل جسمك واجعك". تحسست الايشارب حول رقبتي، وتلفت حولي. أنظر للرجال والنساء السائرين مثلي في الشارع: "أيوه يا جماعة، الست دي انضربت



fb/mashro3pdf

النهاردة. الست الشاطرة الحلوة دي اللي عاملة نفسها ألا فرانكا جوزها ضربها، عشان يأدبها". طفرت الدموع لعيني. قلت لنفسي: "لا داعي لإيلام النفس أكثر من هذا. هوني على نفسك. ياما عند الناس ويجري لهم. هذه المرة أنا مش زعلانة، هذه المرة أنا غاضبة لنفسي. هذه المرة أنا مش زعلانة منه، هو ليس الموضوع، هذه المرة أنا أفكر في نفسي، لا أفكر فيه. أنا لن أسمح أن يتكرر هذا مرة أخرى أبدا. أنا أعز على نفسي من هذا. إلى الجحيم به وبهذه العلاقة المريضة معه. في ستين داهية بشفقتي وحدبي عليه وإحساسي بالمسئولية التي لا يقابلها أي حنان أو إشباع من أي نوع. فقد كدت أن اُقتل.. كدت أموت. لا أريد أن أموت الآن. عندي ما أود قوله. أريد أن أحكي. لازالت هناك أماكن أود زيارتها وأشياء أحبها: البحر، والزرع، والهواء العليل، الدفء والحب الذي لم أفقد إيماني به، والذي أود الاستمتاع به. التواصل مع الناس، فهم شيء جديد، والإحساس الحلو بالفن، بالطبيعة، بالمشاعر. لا، أنا لم استغن عن عمري بعد، أنا أريد أن أعيش". وصلت لمكان عملي. أنا حزينة، ولكن مرفوعة الرأس. كان لدي الكثير لأقوم به. الحمدلله لم يلاحظ أحد ما حدث برقبتي إلا أحد زملائي قويي الملاحظة فاخترعت قصة لا معقولة. لم يصدق ولم يكذّب. أدار وجهه ومضى. هذا شأني، أليس كذلك؟!. طلبني الفنان على تليفون المكتب عند الظهيرة، فأغلقت السماعة مباشرة. طلب مرة أخرى وبمجرد أن رددت قال مباشرة دون انتظار: "عاوزك تسامحيني، أنا تعبان أوي، أنا حاسس وحش اوي ..". أغلقت السماعة مرة أخرى دون أن أرد، وابتسمت في سري في مرارة. مرة أخرى يحكي لي عن مشاعره هو. هو زعلان أوي. هو يؤنب نفسه جدا، هو، هو... ماذا عني؟ ماذا عن كيف أشعر أنا؟! في ستين داهية هو، وما يشعر هو. ينعل أبوه هو.

عندما انتهيت من عملي قررت ألا أرجع للبيت وأبقى فيه. عندما فتحت باب البيت بهدوء كان من السهل تجاهل وجوده تماما لأنه بالفعل كان



fb/mashro3pdf

منسحبا. قلت لنفسي (عتاب الندل اجتنابه) و(العايد في الفايت نقصان في العقل)، وعندما انشغل بالتليفون كان يتكلم عن خناقة جديدة بينه وبين صاحبة البالون وسمعته يقول عن المدام: "ماذا تظنني؟ أنا أبدا لست مثل زوجها الذي وضعت له الشنطة جوار الباب فأخذها ونزل. يعني طردته. أنا حاجة تانيه. ما عندهاش فكرة عن النوع ده من الرجال. دا أنا التانية إتأخرت بس في حاجة طلبتها منها النهاردة كدت أقتل". فعلا، كاد يقتل!. مرت عليّ بسيارتها فنزلت بسرعة وهدوء دون أن يشعر. نظرة واحدة لوجهي فهمت هي منها كل شيء، فلم تعذبني بالأسئلة. قررنا زيارة أستاذها الذي أحترمه أنا أيضا كثيرا في المستشفى. جلسنا علي كرسيين بجوار فراش المستشفى العالي. قال أنه يشعر بتحسن ثم ظل يكرر وهو يحدق في رقبتي والايشارب: "إيه الأناقة دي في الحر ده؟!". لم أصدق أن الأمر ممكن أن يخطر على باله، إلا أن اصراره على الحديث عن الايشارب جعلني أتحسس مكانه على رقبتي طول الوقت. لم نرغب كلتانا في العودة فذهبنا للسينما. فيلم "الجمال الأمريكي". كانت أول مرة أسمع فيها أن اللخبطه في الأدوية يمكن أن تؤدي لبارانويا).

**(يصرخ مدرب التجديف عندما يرى موجة عالية "سيّا، سيّا". يتوقف اللاعبون عن التجديف، يحركوا المجاديف لأعلى وأسفل بشكل رأسي مع الماء. يقفوا ساكتين حتى تمر الموجة. التقدم ليس مهما الآن، المهم الطفو، المهم ألا تنقلب المركب، فأقدام المجذفين مربوطة فيها).**

fb/mashro3pdf

# ٧

( كانت خزانات الماء العالية محمولة على قوائم ثابتة تتراص جوار بعضها على واحد من الجوانب الداخلية لسور الملعب العريق. ينفتح الماء كل فجر ليملأها أكثر، وأكثر، وأكثر. كنت أقول لصاحب الملعب "لا بد من تركيب عوامة تحد من دخول الماء عندما يمتلئ الخزان لحد معين، فلكل شئ طاقة". يرد ساخرا مني "البحر يحب الزيادة" أقول "هذا ليس بحرا، انه خزان له طاقة، كل شيء له طاقة احتمال." يرد متعاليا "أتدعين الفهم الآن؟! من علمك كل ما تعرفين؟ ألست أنا من صنعت منك ما أنت عليه الآن؟ أم تنكرين فضلي؟!" أردد "لا أنكرأبدا، ولكن تعلمت أيضا أن كلمة الحق يجب ألا تُحبس، وإلا.." يقاطعني هازئا "الآن تنساب الحكمة من بين شفتيك، تعتقدين أنك كبرت، أصبحت فيلسوفة؟. ما أنت إلا صنيعتي، إياك أن تجرئي على رفع رأسك أمامي". خبط بيده على أول الخزانات جواره وأعلن "مزيدا من الماء، مزيد ..". كان صاحب الملعب، كعادته في الأوقات الأخيرة يحتال بكل طريقة للحصول على ماء السقاية وتخزينه، خوفا من أن يحتاج يوما ولا يجد. كانت مفارقة لفتُ نظره إليها مرارا "تعود نباتاتك، منذ سنوات، على العطش. تعودها على الأقل بالتدريج حتى لا تطلب المزيد. تختبر احتمالها وأنت تخزن الماء في



fb/mashro3pdf

خزانات امتلأت لحافتها، ولم تعد تحتمل لقدمها ما تحمل. لماذا الخوف؟، لماذا ؟ ".

وفي يوم، ودون إنذار، انفجرت خزانات الماء التي جاهد بدأب لسنوات لتصميمها وملئها. كان لانفجارها دوي، واندفع الماء كالشلال. غطى ارض الملعب، وأخذ يعلو. جريت هنا وهناك، أصرخ بلا وعي. غمر الماء أقدامي، وصل لركبتي. رأيته يعدو، متجها إلى حيث يناديه جامع أوراق الشجر عند سلم برجه الحصين. عدوت ناحيته وأنا أصرخ "أين فتحات الطوارئ التي أخبرتني أنها موجودة؟". توقف ناظرا للأرض في تفكير. استدار ببطء، ناظرا إليّ في شك "آه، تريدين فتح أسواري حتى يأخذ من خيري العامة والسوقة ومن لا يستحقون. ما هي مصلحتك في ذلك؟ ماذا ستكسبين يا ترى؟ هه؟ أجيبي". شلتني المفاجأة. ذاهلة أتطلع إليه. قلت كالمنومة "ولكن البستان سيغرق". أكمل بصوت أعلى، كما لو كنت لم أقل شيئا: "آه، تريدين أن تبذري في الماء الذي خزنته في سنوات، تريدين أن تعطي من خيري للسوقة، ومن لا يستحقون..". بدأ يجعر في غل وغضب هائلين، كعادته عندما يسقط في يده. لم أدر إن كان يفهم عواقب ما يحدث، أم شله الخوف.

بدأ يصعد درجات سلم برجه العالي الذي كان قد بناه لنفسه وحرم دخوله عليّ، آخذا معه جامع أوراق الشجر. كان الماء يعلو وصاحب الملعب العريق ينظر تحت قدمه لارتفاع الماء، كما لو كان لا يفهم، لا يصدق. يصعد درجة، وينظر، ثم أخرى وينظر، وجامع أوراق الشجر يستحثه، أن يترك كل شيء وراءه "المهم هو نفسك". يستحثه، فيصعد درجة، ويلتفت، ينظر للماء، ويصعد أخرى.

وصل الماء لصدري ، لرقبتي، لفمي، لأنفي، فقفزت لأعلى عائمة بساقي وذراعيّ. نظرت إليه، واقفا لا يتحرك، ينظر تحت قدمه، ثم يصعد.



fb/mashro3pdf

صرخت أناديه "تعال أساعدك نخرج من هنا. أترك لي جسدك مسترخيا، أطفو بك، نسبح للخارج ". رد دون أن ينظر لي "أنت مجنونة، أين أذهب إن تركت ملعبي العريق؟! أنت مجنونة. أأتركه لتستولين عليه أنت؟! لا أبدا. ربما يغرق الآن حتى لا تسنح لك فرصة الاستحواذ عليه في المستقبل". صرخت ملتاعة "إذا لم تخرج الآن سيكون من الصعب أن تخرج أبدا. بعد أن يغمر الماء كل شيء ربما تقعدك الصدمة". رد هازئا "أية صدمة؟!، أستطيع في أي وقت، وأي مكان، أن أبدأ من جديد". كان تيارا، ظل يدفعني من نقطة لأخرى في اتجاه الباب. أخذت أؤخر اندفاعي بأن أتشبث بكل يديّ بذؤابات النباتات الطويلة الظاهرة فوق سطح الماء تتمايل مع التيار، وأنا ألف عنقي ورأسي لأرى أين هو. أصرخ، أستحلفه أن يأتي معي. كان يصعد درجات السلم الموصلة لبرجه العالي، يدفعه جامع أوراق الشجر من ظهره ساندا إياه. بدا مذهولا، يلتفت مع كل درجة لينظر ما يحدث، غير مصدق. ألقى نظرة أخيرة عليّ، كما لو كان لا يعرفني، لا أخصه في شيء. ومضى في صعوده.

عندما غصت لأول مرة، كان المنظر مفزعا. كان ما رأيت رهيبا ، كحلم سريالي مفزع، لا علاقة له بالواقع. النباتات الطويلة تتمايل، كرقص المذبوح. كنت أعرف أن لديها أيام قليلة ستبدو فيها كحال ما كانت عليه، إذ أنها بعد ذلك ستتحلل، وينتهي أي أثر لما كنت أعرفه، أو آلفه. الماء يغمرني ويرتفع فوق رأسي بشبر على الأقل. كنت أحافظ على توازني بصعوبة وأنا أخطو متقافزة، كالسائر على القمر دون جاذبية الأرض. تلف ساقاي على بعضهما عندما تقع عيناي على شيء ما. الحصان الخشبي الأخضر الذي كان جوار باب الدخول. أجزاء اللون الباقية عليه تلمع، كلازاورد، وهو يتهاوى، وقد بدأت سيقانه الخشبية الأربع التي تحمله في التحلل. غدا سيصبح رأسه في الأرض، بلا لون، وبعد غد، لن يبقى له أثر. ستنتصر سطوة الماء.



fb/mashro3pdf

كيف تحملت أن أغوص، عبر العطن، والبقايا. مخلفات نفائسه، وأشيائنا المتكسرة. أطلال، أطلال حياة. بقايا توجع القلب، تدميه. أغوص، فينعصر قلبي، مع كل خطوة. أنظر حولي، ثم أغمض عيناي، أحاول ألا تأخذني الذاكرة للتاريخ، لحكايات الأشياء، حكايتنا، حكاياته، حكايتي. كيف كنت أغوص وأحمل الأشياء وأعوم بها، ثم أخرج حاملة إياها على ظهري، كما تُحمل السنوات. كيف تحملت أول مرة، ثم ثانية، ثم ثالثة، ثم أخرى، وأخرى حتى أصبح الذي أخرجته كومة كبيرة. اقضي وقتا كل يوم في تنظيف قطعة قطعة. أرفع الوسخ والصدأ عن سنوات قضيتها هناك. إلا أن ما أصاب الملعب أصابه في الصميم، وكأن الطوفان كان اختبارا لخامات الأشياء. كل يوم أتجه للكومة كالمسير وأفكر "هل ينتهي هذا الكابوس".

أحاول ارتقاء السلالم التي تغمرها المياه. بدأت تتآكل بفعل المياه الجبار. أصعد، بحذر، بصعوبة، ولكن أصعد. درجة، درجتين. صعب، صعب ولكن أدفع نفسي، أتساند بكفي، بذراعي، بركبتيَ. على بطني أزحف. كنت ألهث. عندما وصلت لمنتصف السلالم رفعت رأسي من بين كتفي، وقد استندت على كوعي. كان جامع أوراق الشجر يقف في أول السلم، بالأعلى، وقد بدل ملابسه، بأثواب زاهية مزركشة، واسعة، أكبر بكثير من مقاسه. ينظر إليّ بطرف عينه، وقد أمال رأسه الحليقة تماما قليلا على كتفه. يقول بفحيح نتن "لن تجديه، ليس هنا. مهما كان جهدك المبذول، لن تجديه، أتفهمين؟ لن تجديه!". كانت ثقته جارحة، يضغط على الحروف "لن تجديه، لن تجديه". عيناي ملئ بالدموع، مغشاة، إلا أنها ترى. أما صاحب الملعب، فأراه لو ملت برأسي قليلا ونظرت، هناك، مستندا على حافة الشباك، كفاه تحتضنان كوعيه المستقرين، وقد ارتفع كتفاه قليلا فلم يبق من رقبته القصيرة شيئا، ناظرا إليّ، كما لو كنت على بعد أميال، متفرجا. يراقب الجهد الذي أبذله، منتفخا بذاته، التي يتوهم



fb/mashro3pdf

خلودها. ينظر، بلا مبالاة، دون اكتراث، على الحياد. ينتظر: متى تبدأ المعركة "عليه"، بيني وبين جامع أوراق الشجر، الذي أمسك بشوكته المسنونه، وراء ظهره، تحسبا. أقطب ما بين حاجبي، وأنظر، يكاد الوجع ينسكب من عينيّ. كيف أوصلت نفسي إلى هذا؟ كان الجهد الذي أبذله هو لاسترجاع شيء ما. استرجاع ما لا يرجع، ما صنعته بخيالي وعشت عليه أمدا طويلا. جهدا لأعيد إليه ما لم يعد يحتاج. أعيده إليه، أعيدني أنا إليه، عنوة. أي جنون؟! أي مرض؟!. وأية معركة يتوق هو لمتابعتها؟!. أنادي نفسي كما لو كانت بعيدة، بعيدة. أناديها وأسألها "ما الذي يستحق هنا؟!، أفيقي، لا شئ، لا شئ".

أعود أدراجي. أتركه لأوهام سحره، ولشك وخوف يتملكه من الآخرين، ولجامع أوراق الشجر الذي نال الترقية التي سيدافع عنها بكل ما أوتي. أعود لملعبي منهكة الجسد، إلا أني مليئة بطاقة، طاقة يصنعها الوعي، كمصباح أنير بعد ظلام. أدلق على روحي ماء بالملح، فتلسعني جروحي. أئن، وأبكي، تنهمر دموعي من عينيّ المغمضتين. تكوي جروحي ثم تذبل. يذبلها الملح، والألم. تذبل فتندمل، وبعدها أطيب وتغرقني الشمس بعطية كرمها.

ثم جاء يوم ، لم أشعر أني عدت قادرة على خوض ذلك كله للوصول إليه. تعبت، تعبت، فلم أذهب. جلست في مكاني، في ملعبي. الهواء، والشمس فوقي، والأمان. لا أقوى على الحركة فلم أذهب يومها للملعب العريق ، إلا أن كلي هناك، ذهني ومشاعري والحياة. وهل هناك حياة إلا أن أكون معه، وحوله؟! عيناي معلقتان، على الأسوار العريقة، على طرف شباك صومعته العالي. ترى: هل تساءل لماذا لم تأت؟!. لمت نفسي كثيرا لأني لم أتحامل على نفسي وأذهب. ماذا لو احتاجني في شيء ما؟ ماذا لو تساءل؟ لا أوده أن يتحير. وددت لو أنه أطل: عندها سيراني. سيعرف أني منهكة ، ويعرف أنه كان رغما عني أني لم أذهب. لو ينظر



fb/mashro3pdf

الآن لأطمئن أنا عليه!، لو ينظر؟. غصصت عندما مضى اليوم ولم يسأل. عيناي معلقة. أرى خياله من ملعبي، من وراء شباكه، يروح ويجئ داخل برجه. جامع أوراق الشجر أيضا يروح ويجيء. كأن لا شيء!. يمارس حياته، كالعادة، بينما أجلس أنا هنا، عيناي معلقة تسعى لتلمح خيالا أو أثرا لحركة. لا أشعر لا بالشمس ولا بالهواء. لا أشعر بنعمة الأرض الصلبة الجافة تحتي. لا أشعر بأي شيء. فأنا لست هنا، أنا هناك، أراه بعين خيالي، يتحرك في محيطه كالعادة، دوني .وأنا هنا ملقاة، منهكة، أندب. ساقاي بطولهما على الأرض، وذراعاي ملقتان جواري، وقد تهدل كتفاي ومالت رأسي للخلف. أصبح بعدها الدوران في الصباح والمغارب حول أسوار الملعب العريق عادتي. أستروح به ذكريات قديمة، ترن كأجراس صغيرة جميلة متنوعة الرنين في رأسي، فأتوقف مبتسمة في شجن. أتنهد، أشد الهواء لصدري، أفرد ظهري وأنظر أمامي وأمضي.

كانت أرض الملعب العريق في الأشهر الماضية قد تشربت الماء الذي تسرب بعيدا بعيدا في باطنها، وتولت الشمس تجفيفها حتى التشقق. وعندما رأيت العمال يوما يرفعون أكوام الأنقاض مشوهة الملامح يرمونها في سيارة صدئة لإلقائها بعيدا وقفت جوار البوابة أنظر. بقايا مبتورة مختلطة بتراب ورمال متحجرة ، وسخام. هل أمضي من هنا؟، أدير ظهري لكل شيء وأمضي؟!، أم ارتمي على البقايا، أنشج سنوات طويلة مليئة؟!. جلست على الأرض أرقبهم، قربت ركبتاي من ذقني واحتضنت ساقاي بذراعي وقد شبكتهما بقوة آلمتني. أسندت ظهري على سور الملعب العريق من الخارج قرب البوابة ولم أعبأ بالشوك الذي أصبح ينغرز في لحم كل من يستند عليه أو يقترب. استغرقتني مراقبة الكومة تنقص في مكان لتعلو في الآخر كمشهد سيريالي. أنس العمال بي. كانوا مجموعة من الغلابة لا تدري أي شيء عما حدث أو عن طبيعة ما يكومونه. كلما ألقوا مقطف انزلق، فيهرولون محاولين تجنب انهيار



fb/mashro3pdf

**الكومة. أشرت إليهم في هدوء "لا تدعوا الكومة تعلو، ألقوا على الأجناب. أحضروا البقايا الكبيرة أولا قبل الصغيرة، كان الله في العون، عونكم وعوني".**

**عندما نادى جامع أوراق الشجر بعد قليل على أحد العمال شعرت وهو يكلمه أني موضوع الحديث. كنت قد نسيت، خلال الأشهر الماضية، ذلك الغل والتوتر الذي ينشره حوله. كان لعابه يتطاير مع انفعاله وتطرطش تفافته داخل أذن العامل وجانب وجهه حتى غطته فالتمع. أيقنت ساعتها من طأطأة رأس العامل-أن جامع أوراق الشجر الجافة هو من أحضر العمال. يشعرون أن رقابهم في يده فيحتملون. راقبته عندما بدأ في صعود درجات السلم المتآكلة، في حذر العارف. كانت رأسه بين كتفيه وذراعاه الطويلتان تتدليان أمامه و تتأرجحان يمين شمال، يمين شمال، كغوريلا. راقبته وأنا أعرف أنه هو من يراقبني، حتى وهو يبتعد بظهره بعيدا. سيستدير لينظر، وهكذا فعل. اقترب العامل المسكين. ألقى إليّ بالرسالة، بحياد الغير فاهم وانتظر. اعتدلت واقفة. نفضت ملابسي وكفيّ اللتين استندت بهما. نظرت لوجهه وأشفقت عليه من التبلد الذي يصنعه الجوع. رفعت رأسي لألقي نظرة أخيرة على ذلك الواقف أعلى السلم في ترقب المتأكد من الانتصار، أي انتصار؟!. هززت كتفيّ. أدرت ظهري منصرفة. وقبل أن امضي التفت، فلمحته، هو، من ملك حياتي في السابق، ينظر من وراء زجاج النافذة.**

صور وكلمات هي قبلة وداع ، أمسح بها على مفردات بيتي العزيز الراحل. حياتي السابقة. أمسح بها بعيني، وأذني، ويدي، وبقية حواسي ومشاعري، ليرقد في نهاية سكونه الأبدي. لم تنجح رائحة الاحتراق العطنة والهباب على يديّ ورجليّ، كالصبغة، من أن تمحي، بعد، كل تلك الذكريات وخطرات الفكر والاحساس التي عشتها وعاصرتها مع كل تلك



fb/mashro3pdf

الأشياء التي احترقت الآن. عشرون عاما، إلا أشهر قليلة، هي الجزء الأكبر من عمري الواعي، عشتها في هذا البيت بين هذه الأشياء. أشياء كثيرة، ربما أكثر من طاقتي على استيعابها جميعا. إلا أني الآن، بغيابها ، أستحضرها حية ومؤثرة، ربما أكثر من وقت كانت حاضرة حضورا فعليا ، إذ زمن غيابها لا يقاس، حتى الآن، بعمر حضورها. كل تلك السنوات. كل يوم في الصباح، والظهر، وبعد الظهر، وفي المساء. في الليل، أقلق ، فأجوس مغمضة العينين، وسط الأشياء التي أعرف أماكنها، أحجامها وأشكالها، ربما أكثر من معرفتي لمقاييس جسمي وأبعاده. إن للأشياء حياة خاصة بها ترتبط بالأصابع التي صنعتها أو تناولتها، بما حُكي عنها، بأبصارنا تقع عليها مرة بعد مرة. هل هناك ذاكرة للأشياء التي اختفت الآن أو تحولت إلى مواد أخرى؟ المادة لا تفنى، هكذا يقول القانون الطبيعي، ولكن الأشياء تفنى بالنسبة للشخص الذي عرفها على صورة معينة لم يعد لها أثر. حجر، خشب، حديد وزجاج، أسمنت، وفراغ حدده المعماري في البداية ثم تشكل بأنفاس من عاشوا فيه.

دخلت الشقة المحترقة وأنا أحتضنها وقد غطى الرماد والهباب وجهها وملابسها التي كانت بها وقت الحريق. عيناها الجميلتان مفتوحتان على اتساعهما وقد علقت فيهما الدموع. كان الكابوس الأول أن نصعد السلالم العالية في ظلام حالك فقد قطعت الكهرباء عن المنطقة كلها. نتلمس طريقنا بحذر على السلالم التي أخذ الماء يتدفق عليها من أعلى. أحتضنها وأهمس "الله أكبر، ياساتر، الحمد لله على السلامة". دخلنا البيت، من الفتحة التي كان الباب محلها وفي نظرة واحدة رأيت كل شيء. في نظرة واحدة رأيت ما كان وما آل إليه الأمر. كأن عيني ترى الماضي والحاضر في نفس الوقت. في الأيام التي مضت منذ يوم الحريق أشعر كما لو أن قلبي يدمع، ينزف دما. أكاد أسمع أنين الأشياء، تأكلها النار، بنهم، بسرعة، وهي لا تملك من أمرها إلا البقاء ساكنة، كما بقيت دائما، مستسلمة لقدرها. أبحث



fb/mashro3pdf

وسط الرماد والقطع المتفحمة المفتتة، فأجد قطعة من مفرش مشغول بخيوط ملونة من جانبه، أو رأس تمثال صغير ظل مركونا في دولاب صغير لم يجد أبدا فرصة للعرض منذ وصل لبيتنا. فتات وخرق من ملابس، أغطية للكنب والفوتيات كانت قد اختيرت بعناية. الألوان والنقوش، دائما ذات ذوق رفيع. صفحات احترقت أطرافها حتى لم يعد إلا منتصفها من كتب اخترناها أو أهديت لنا أو أهديناها لبعضنا، أو جمعت من أرصفة الكتب القديمة في القاهرة أو في أوربا، أو من بيوت عجائز عرفهم الفنان وصادقهم وانتقلوا لرحمة الله. أرادت عائلاتهم التخلص من عبء حفظ أشيائهم. كتبهم وصورهم، ذكريات ومتعلقات. احتفظنا بأشيائهم الصغيرة التي لم تعنِ شيئا إلا لهم. شاهدة على عصر وحياة كاملة مضت. عزّ على الفنان أن تباع على الأرصفة، فكان مصيرها أن أكلتها النار في بيتنا. بقايا سجادة إيرانية اشتراها الفنان يوم عرضت عليه عشية زواجنا. قررنا ساعتها وفورا أن نتخلى عن فكرة دهان الحوائط. غطينا بالسجادة الضخمة مكان بقع الدم المتخلفة عن قتل الناموس جوار سريره. قال البائع أنها كانت ملك أحد أفراد العائلة الملكية الإيرانية التي سقطت في سنة زواجنا. كانت سجادة نادرة بشخوصها الأربعة واقفين ينظرون. رجل وامرأة وبينهما فتاة صغيرة ملتصقة الحاجبين ، وفوق رؤوس الجميع فتى فوق حصانه شارعا سيفه في الهواء. قلت له: هذه أنا وهذا أنت وهذه ابنتنا التي ستأتي، ولكن من هذا الطائر بفرسه فوق رؤوسنا؟ فابتسم وقرر شراءها فورا.

الأشياء تأكلها النار، صغيرة وكبيرة، صلبة وطرية، ملساء، وذات خشونة. كنت أجر أقدامي في أنحاء المنزل المحترق. مرتفعات ومنخفضات. الأشياء كلها تحت أقدامي، بعد أن كانت حولي وفوق رأسي، تحيطني وألمسها. أشعر بها الآن كما أشعر بالموتى في أماكن حياتهم التي كانت. أشعر بهم، ولكن لفترة من الزمن، إلى أمد ما، ثم يختفي إحساسي



fb/mashro3pdf

بهم، تدريجيا. أبحث عنهم فلا أجدهم، كأنهم لم يكونوا، أبدا. يغص قلبي وأستسلم لبدايات انسحابهم النهائي. هل عندما ينقلون كل تلك البقايا، يلقونها في مكان ما بعيدا في الصحراء سيبدأ أيضا شعوري بالأشياء وما أذكره عنها في البهتان، ثم الاختفاء التدريجي؟ هل سأحزن وقتها، كأن جزءا من حياتي قد مات؟. هل يخفف حزني الآن أو ساعتها تسجيل كل مشاعري، ذكرياتي. أن أكتب كل الحكايات، الصغيرة والكبيرة. كل ما يتعلق بالنور، بالظلال، بالخيالات المنعكسة، بالخامات. الأصوات. كل أصوات المكان. حفيف مرورنا جوار الأشياء، ارتطامنا بها الذي كان كثيرا ما يحدث لتزاحمها ، فتترك فينا بقعا زرقاء، لن نعاني منها بعد الآن. الأصوات: صوت جر كرسي على بلاط ، على سجادة. فتح دولاب، أو غلقه. أصوات الأجراس الصغيرة المختلفة الأشكال والأحجام والمعادن، علقناها معا على باب الشقة. أجراس هندية وصينية كالأقماع عدنا بها من محلات ذات بضائع غير معتادة في لندن، وصوت الجرس السالزبورجي الأكبر في الحجم، وحيدا وذا صوت مميز على أكرة باب حجرتي. شريطه المزخرف وصوته يذكرني بيوم وحيد قضيناه في سالزبورج نمضي بدقة حسب خطة سير رسمتها صديقتنا لنا على خريطة لنقضي زمنا بين مواعيد قطارين: آت من فيينا وذاهب إلى شتوتجارت. ظلت تسأل طوال الوقت: "وأين قصر البارون في فيلم صوت الموسيقى؟". صوت أنفاسه الثقيلة وشخيره المتقطع وهو على كرسيه وقد سقط في النوم في ساعات المساء الأولى. صوت تقلبها أثناء الليل فأسمع طقطقة خشب السرير وارتطام يدها اليسرى بالساعة في معصمها في جنب السرير المرتفع. صوت جرس التليفون في الصالة، يتلوه بفارق ثوان صوت جرس التليفون الآخر بحجرة الفنان. أجراس سرج الحصان النحاسية كرات معلقة بسلسلة السيفون في الحمام الكبير. وضعهم الفنان هناك في نزوة يحتفل فيها بكل مرة ينجح في إنجاز



fb/mashro3pdf

أمعائه الصباحي أيام كان وحيدا بلا عائلة. جرس الباب المكتوم يُسمع بالكاد، تعب الكهربائي في إصلاحه ولم ينجح في النهاية فتركناه كما هو، إذ ناسبنا صوته الهادئ ، حتى ولو لم نسمعه، فمن يريدنا حقا سيقرع الباب بإصرار أكبر. وصوت الحمام واليمام، يتجمع خارج شباكنا، يقف ويلعب ويتبادل الود، يهدل وقت الغروب أو في الصباح الباكر في مواسم لم ندرك أبدا متى تبدأ ومتى تنتهي. أنظف إفرازاته من على حرف الشباك وأراقبه في السماء الممتدة أمامي. صوت مفاتيح الفنان. يقف المصعد بجلبته المعتادة فأسمعه من حجرتي. خطواته ذات الإيقاع المنتظم المميز بأحذيته التي يحرص على تركيب الحديد في كعوبها. يتوقف فجأة في نصف الطرقة الخارجية ليخرج المفاتيح من جيبه. يحتك المعدن وهو ينتقي من بينها مفتاح بيته. أغمض عيني وأنتظر، سيسرح قليلا الآن رافعا رأسه وعيناه لأعلى، ثم يبدأ في الحركة ببطء نحو الباب، يغرس المفتاح ويلفه، فيفرح قلبي، أو أتوجس. هل كان للبيت رائحة تميزه؟ بالتأكيد. إلا أنني تعودت عليها فأصبحت (اللارائحة). علق أحد الأصدقاء يوما وتساءل عن كيف نعيش وسط كل تلك الأشياء القديمة. ربما كانت هي رائحة المنزل هي رائحة التراب والتخزين، تختلط أحيانا برائحة كيك أو بسكوت خبزناه يومها، أو تسخين طعام وقت عودة الفنان من مرسمه. ربما رائحة نفتالين نفاذة ليومين أو أكثر بعد أن أقوم بلف السجاد بورق الجرائد والدوبار. نحمل السجاجيد الملفوفة بإحكام لأعلى في السندرة عندما يأتي الصيف، أو لأسفل عندما نبدأ في استشعار برودة تؤذن بمجيء الشتاء. "كما لو كنا نحمل جثث موتى"، فنضحك ، أنا ومن تساعدني. لون الأرضية الذي اعتدته تماما حتى لم أعد أراه، وملمسها. كنا نفخر أن هذه الأرضية الفينيل لم تتغير منذ بناء البيت في سنة تسعة وثلاثين. هل التعود هو الحب؟ هل الحب هو التعود؟ هل يؤدي أيا منهما للآخر؟. كل هذه الكتب القديمة!.



fb/mashro3pdf

"كيف تنامين في هذه الرائحة؟!". تشممت الهواء ربما أكتشف ما تتحدث الصديقة عنه، أو ربما أكون قد تعودت لدرجة الإدمان. تعليق ابن صديقتي الأخرى كان أكثر مباشرة: "لكل حدث في الحياة وجهان. وربما حدثت لبيتكم هذه الكارثة حتى تجربوا بعدها العيش في بيت حقيقي، عادي، وليس مخزنا أو حتى متحفا يزدحم بأشياء غاية في الجمال تحملون مسئولية المحافظة عليها والعناية بها طول الوقت".

كيف اعبر عن الغنى في هذا البيت؟ الألوان، الأضواء، الملامس، الروائح، الأصوات، الخامات، عبق التاريخ والقصص. عشرة طويلة وعميقة. إلا أن أعظم ما أفتقد هو باب حجرتي المغلق عليَ. يمنع ويسد عني الأصوات خارجه، خارجي، الانفعالات، اهتمامات آخرين، لا تجذبني، بل ربما تتعسني. افتقد حتى أكرة الباب. كم مرة لامست يدي. أفتح الباب في هدوء، أو وأنا سارحة. أفتقد سكون الحجرة وثبات كل ما فيها. صور على الحائط، شيالة الأحذية المعلقة على ظهر الباب، ستائر خفيفة من قماش قديم مدككة في سوست مثبتة مباشرة على زجاج الشباك. الكتب على رفوفها. درفة دولابي الضخمة المكونة من جزء من سقف جامع مزخرف برصانة وسحر. الكمبيوتر مغطى بمفرش حريري باهت الألوان اشتريته من وكالة البلح. عودي يقف مستندا لظهر أحد الكراسي الفوتيل الضخمة في الحجرة. الكرسي الأبيض الصغير ينوء بحمله من الملابس المغسولة التي لم أجد الوقت لكيها يوما بعد يوم. الترابيزة الصغيرة الرصينة المزخرفة بالصدف جوار سريري، أنظر إليها دائما بود الرفيق المخلص. المكتبة الصغيرة القديمة في مواجهة سريري مباشرة كتب على أعلاها بخط جميل: ما تفعله اليوم تلقاه غدا. أظل أكررها لنفسي: ما تفعله اليوم تلقاه غدا، ما تفعله اليوم تلقاه غدا. أثبت بصري على اللمبة الضخمة المتدلية من السقف، كبيضة عملاقة من الزجاج الشفاف البديع، محاطة بأسلاك نحاسية مجدولة أو مضفرة لحملها وحمايتها. بداخلها كرة صغيرة من الأوبالين

fb/mashro3pdf

نصف الشفاف. أقف بحرص على السلم القديم الذي أعاني من قلة ثباته. أحل اللمبه وأضع أخرى سليمة ثم أسقطها بحرص في داخل الكرة الأوبالين. أفكر أنها فكرة ذكية، تكسر الضوء وتهدؤه. ابتسمت وأنا أنزل من على السلم بحرص ثم أغلقه وأحمله مائلا لأضعه مكانه في البلكونة الصغيرة. إنها فكرة الفنان. تبنيتها عندما أعجبتني وحافظت عليها، كما تبنيت الكثير من أفكاره وحافظت عليها، ربما أكثر منه. أفتقد رائحة مخداتي، رائحة أغطيتي، اللا رائحة. مكان شبشبي على الأرض، أتحسسه بقدميّ، فأجده في ثوان معدودة حيث أتركه دائما. ودائما كتاب ما أو مجلة ما أو ورقة ما تقبع على طاولة رخام مستديرة ذات أرجل غليظة كأرجل طائر خرافي بجوار السرير. أنامْ على سريري بعد القراءة، أغمض عيني، وأشعر بالكتاب، بالأوراق، تتنفس جواري في دفء وألفة.

صورة البحر تقبع مستندة على كلا من جهاز الاستريو والسماعات. الصورة يلفها الظلام، فلا أرى تفاصيلها، ولكن أميز الرمال الذهبية التي تحتل أغلب مساحة الصورة، وأترك البحر لخيالي، يشم رائحة هوائه، ويسمع صوته، يملأ العين والقلب. أتذكرها الآن فأتذكر السلام والسكينة على شاطئ هادئ كالذي شهد طفولتي وشبابي. زاره معي الفنان مرة يتيمة لأجد بعدها أنه رسم هذه الصورة الوحيدة لبحر غير بحر الاسكندرية الذي عشق رسمه هادئا أو هادرا دون شاطئ أو رمال. تنظرِ للصورة، ولكن ليس بعينيك فقط، بل بكل كلك، فتجد أبعادا أخرى أضافها الفنان، ككل صوره، لما كنت تعتقد أنك تعرفه حق المعرفة. الرمال الذهبية تصبح رمالا فائقة النعومة والدقة والخطر. تعطيك الأمان لترتاح وتسترخي فتتحرك بهدوء مرعب لتبتلعك، وأنت سعيد. تفقد كل ما لك وعلى وجهك ابتسامة خدر. تحيطك الرمال الناعمة من كل جانب، تغلق أذنيك وعينيك وأنفك. تستلذ بالخدر، وتنتهي. هل كان خائفا من الرمال الناعمة؟، هل كنتُ أنا؟ لم يسع الوقت أن أعلق هذه الصورة واحترقت عن آخرها فلم أجد لها أثرا.



fb/mashro3pdf

أنقل عيني بين صورة البحر وبين صورة الورد المعلقة على الحائط فوقها. كان إلهام معرض الورد من رائحة نوعا مصريا من زيوت الأطفال كنت أستخدمه للمولودة برائحة ورد بلدي نفاذة لم يعجبني أو يعجب الفنان، إلا أننا احتملناه، إذ لم تكن هناك بدائل كثيرة من المستورد أو المحلي في ذلك الوقت. لم يدرك كلانا علاقة لوحات الورد التي ظل يرسمها بعد تقبيله ليد وقدم الرضيعة في الصباح قبل خروجه للمرسم لمدة شهر تقريبا. لم ندرك إلا عندما انتهت العبوة، فوجدنا أنه قد توقف عن المرور كل صباح بمحل الزهور لينجز صورة لتكوين من ورد بلدي مختلف الألوان في فازة. ينتهي منها بشحنة انفعالية عالية جدا في يوم واحد وهو الذي تعود أن يعمل في كل لوحة من لوحاته لمدة سنين حتى يقتنع أنها اكتملت. كنت أقضي نهاري وحدي في قاعة المعرض حتى لا يترك هو عمله. ثم أعود في الظهيرة للبيت، لنعود معا ليقابل رواد المعرض ومحبي فنه الذين يزيد عددهم في المساء. كنت أتجول في المعرض في تلك الصباحات فأستمتع وحدي باللوحات، إلا أن هذه هي التي وقعت في غرامها منذ اللحظة الأولى إذ حملتني بهجة وشجنا في نفس الوقت. ظللت أدعو أن تبقى دون بيع للنهاية حتى تأتيني الجرأة فأطلبها لنفسي. وهذا ما حدث. كانت الصورة مثارا لتأملي منذ رأيتها أول مرة وحتى آخر يوم لها. كن أربع وردات في فازة معدنية ذات شكل أنثوي رصين، اثنتان منتصبتان، ثالثة ناضجة ومتفتحة وبدأت في الميل، وجوارها رابعة، صغيرة مغلقة. كان انكسار الرابعة يشجي قلبي تعاطفا وحنانا وتواصلا، وكانت الناضجة تشد أزري وتؤنس وحدتي، أما المنتصبتان فكانتا عوني على مواصلة الحياة اليومية. لم أتأكد أبدا من اللون الحقيقي للزهور، ربما بنبي، ربما بلون الخوخ، إذ لف الزهور والهواء حولها ذلك الغلاف الرمادي المفعم بالألوان الخفية الذي اشتهر به الفنان. عجينة سميكة توزعت بفرشاة عريضة ثم خربشات لسطح اللوحة تملك حب الحياة والانفعال بها. كان حرف المائدة التي حملت



fb/mashro3pdf

الفازة خطا مائلا يجاوب شيئا ما في داخلي لم أجد أبدا التعبير المناسب عنه. كانت اللوحة تحدثني، تؤنسني، تنصحني، تصبرني، تعطيني أملا، تعلمني حكمة أتقبل بها الحياة، وأحبها، بكل ما فيها. جوار لوحة الورد كان هناك كليما معلقا تقف فيه طيور بأرجل ضخمة. حجم الأرجل أكبر من حجم الطيور نفسها. تساءل الفنان وقتها: ما هي طبيعة الخوف الذي ربما تملك الطفل الذي نسج هذا الكليم؟!. بجانبهما لوحة صغيرة لسلم بيت الفنانين في درب اللبانة رسمها الفنان في بداية حياته بقيت بالصدفة بعد نقل كل لوحاته التي استعادها بعد موت صديقه العجوز. اضطرني الفنان أن أضع لوحاته التي كانت في حوزتي وراء الباب في حجرتي لأنه لا يحب أن يرى عمله في البيت. كان يقول لا أحب أن أرى نفسي في المرآة.

صورتي شبه المحترقة التي كان الفنان قد رسمها في أول معرفتنا تقف جوار الدولاب الأسود المعدني في الحجرة الصغيرة التي استعملتها لتخزين ما بقى بعد الحريق. تقوس إلى درجة كبيرة لوح السيلوتكس الذي كانت اللوحة ملصوقة عليه. اصعد على كرسي المطبخ الخشبي الصغير وأحاول رفعها لترقد فوق الدولاب، بعيدا عن زحام الأشياء الملقاة في أرض الحجرة تنتظر دورها في الغسيل أو التنظيف والترتيب. هززت رأسي. حملت الصورة مرة أخرى ونزلت من على الكرسي وبدأت في نزع التوال المرسوم بحرص من على لوح السيلوتكس المقوس. طرأت لي الفكرة بعدها مباشرة: سأبعثها لصديقنا روبرتو. إن أمكن إنقاذها فبها ونعمت، وإذا لم يكن فليلقها هو في نهر السين لتلقى مصيرا محتوما إذ لن استطيع أنا أن افعل ذلك. كنت قد تحدثت عن الصورة مع الفنان بعد الحريق إلا أنه رفض حتى أن يراها أو يتعامل معها. اعجبتني مقدرته على تجنب الألم والبداية من جديد. رغم ما قاله المرمم المحترف "لا فائدة، فالزيت المرسومة به قد احترق"، فمازال لدي أمل. صنع المرممون في لندن معجزة للوحة من رسم الفنان حاربت حتى استعدتها لأحد أصدقائه



fb/mashro3pdf

ممن كانوا قد استولوا عليها وأهملوها حتى ساحت ألوانها من حرارة الكويت الشديدة وصارت كتلا معجونة.

أضغط على زر المصعد. رقما جعلته رقم حظي المتفائل. طرقة عريضة وسقفها عال. غالبا مظلمة في السنين الأخيرة بعد أن انقرض جيل البوابين الذين يحضرون السلم الطويل جدا لتغيير اللمبات في السلالم. على الباب ترى ثلاثة ثقوب لثلاثة كوالين لا نستعمل منها إلا واحدا. عندما أفرغت حقيبتي لأول مرة بعد الحريق أمسكت مفاتيح بيتي بيدي ورفعتها أمام عيني وظللت أحدق فيها: الآن، لا ثقب ولا كوالين ولا حتى باب. لماذا أحتفظ بهذه المفاتيح؟! ألقيتها على المنضدة الصغيرة جواري فانعصر قلبي وأنا أسمع صوت جلجلة المعدن وارتطامه بالسطح الخشبي. ثلاثة مفاتيح لثلاثة كوالين لا تعني الآن أي شيء. على الباب من الداخل ستارة صغيرة تغطي بالكاد الشراعة. ستارة حمراء من قماش ستان قديم مثبت عليها زهرات صغيرة مشغولة بالخيوط مقصوصة من مفرش قديم جدا. طالما أعدت تثبيت حروفها على القماش كلما بلي الخيط. كلما فتحت الشراعة لأرى من الطارق من وراء حديد الباب وهممت بغلق الشراعة بعدها عض حديد الشراعة جزءا من الستارة الصغيرة المثبتة، فأرفعها بيدي لأتمكن من غلق الشراعة دون عائق. لم أفكر في كيفية أخرى لتثبيت الستارة رغم أن مكان عض الستارة بدأ يظهر واضحا. افتقد الآن المقبض الحديد الصغير المستطيل. أحركه بين أصابعي فأستطيع جذب الشراعة لتنفتح. كررت ذلك كثيرا حتى ألفته. هذه الشراعة بالذات لن أتمكن بعد الآن من فتحها أبدا لأرى من بالباب أو لأصنع تيار هواء إذ كان باب الشقة هو بحري البيت. أفتح الشراعة فيتحرك طاقمان من الأجراس: ست أجراس مخروطية متدرجة في الحجم صنعت في الهند اشتريتها من لندن وصنعنا من أجلها حامل حديدي مزخرف لتصبح حرة فتصدر أصوات رفيعة مجلجلة، والأخرى تقليد لأجراس البقر، أربعة أجراس ذات صوت غليظ، متدرجة



fb/mashro3pdf

في الحجم والصوت مثبتة فوق بعضها بشريط قماش مزخرف. اشتريناها معا من سالزبورج في الساحة التي انتظرنا فيها التلفريك الذي صعدنا فيه للجبل لتناول الغداء في مطعم هناك ونحن ننظر على المدينة يرشرشها المطر الخفيف وهي تحتفل بمهرجان موتزارت الموسيقي. منحنية على ركبي أثناء التنقيب في أكوام الركام في الصالة وأمام الباب كنت أجد من وقت لآخر أحد الأجراس. أمسكه. أعتدل. أنظفه من الخارج ومما ملأه من رماد وركام، أهزه بجوار أذني، فربما سمعت له صوتا. تغشى عيني بالدموع. من حين لآخر كان يحدث باب شقتنا صريرا وهو يفتح أو يغلق. آه، توجد زلطة صغيرة تعوقه وترى أثرها على البلاط في خربشة جزء من الدائرة ترسمها الزلطة أثناء حركة الباب. لا ألق بالا مرة أو مرتين ثم لا أصبر. أحضر من المطبخ السكين الطويل جدا ذو اليد الخشبية البنية وأمرره تحت عقب الباب وهو مفتوح قليلا عدة مرات، فتتدحرج الزلطة الرفيعة بعيدا. أبحث عنها وأنا أتحسس بيدي مكان الصوت. أدخل من الباب فتمتد يدي مباشرة على مفتاح النور على الشمال. وحدة الإضاءة في المدخل كانت من تصميم الفنان. كانت واحدة من الأشياء التي تراوح شعوري ناحيتها. صندوق من النحاس بشقوق مثلثة لتنفذ الضوء. فتحته الضيقة تسمح بالكاد أن أمرر يدي لأغير اللمبة فتجرح يدي في كل مرة، فأكره نفسي، وأكره وحدة الإضاءة، وأكره تعلقي على سلم عتيق يهتز بي مع كل حركة وأنا مضطرة أن اصعد لآخر درجة فيه لأصل لوحدة الإضاءة القريبة من السقف. حتى جاء يوما كهربائي شاطر بفكرة نيرة. أطال السلك فتدلت اللمبة خارجة من وحدة الإضاءة. أصبحت أغيرها بسهولة، ثم أشد السلك من أعلى وأقصره للطول المطلوب وأثبته، فتنطلق مثلثات الضوء صغيرة راقصة على حوائط المدخل الصغير، فأحب ضوءها، وأحبه، وأحب تصميماته، طالما لا يجب أن أغير اللمبة بالعذاب. وعلى الجدار الذي يرتكن عليه باب الشقة عندما يفتح علقت قطعة من

fb/mashro3pdf

الصيرما الجميلة ولكن في حالة متدهورة. مشغول عليها بخيوط الذهب كلمات لا أذكر الآن أهي آية أم مجرد أسماء، ولكن كان خط عربي جميل وحوله وتحته زخرفة إسلامية. أعترف أني لم ألق لها بالا. كانت جوار الباب: عندما أعود، افتح الباب تكون وراءه فلا أتأملها، وعندما أخرج أفتح الباب فتختفي وراءه. فقط عندما كنت أهزها يوم التنظيف لأنطر التراب منها بحذر حتى لا تتقطع في يدي أو تتفكك منها خيوط الذهب كنت ألاحظ أنها جميلة، إلا أني تعاملت معها كحمل، كشيء مفروغ منه، كشيء زائد. عندما كنت أنقب في ذلك المكان بالذات بعد الحريق، تحت ذلك الحائط وجدت الجزء الأسفل المزخرف منها مدفون تحت المكان الذي كانت فيه. رفعته ونظرت. ماذا أفعل به الآن؟ أريته لموظفي الآثار كجزء متبقي من قطعة مسجلة فقلبوا شفاههم وطقطقوا بألسنتهم، ثم ألقوها جانبا واعتبروها في دفاترهم "غير موجودة". بجوار الصيرما كانت هناك مرآة صغيرة بإطار مزخرف بالصدف. كانت دائما هنا ولا أذكر متى جاءت للبيت. كنت أنظر على نفسي فيها وأنا أنظفها وأقول لنفسي المفروض أن ننظر فيها ونحن نغادر المنزل حتى نطمئن لتمام هندامنا، إلا أني لم أفعل أبدا. أتذكر جمالها ويحزنني ألا أتذكر الآن تفاصيل ملامحها. بجوار ذلك الحائط وفي ذلك المكان بالذات يقبع الحصان الأخضر الشهير. لم يغير مكانه منذ دخلت هذه الشقة لأول مرة وحتى أكلته النيران. حصان كامل، دون أذنان أو ذيل، يرتفع نصف متر عن الأرض. هو جزء من أرجوحة دوارة قديمة. أحبه كل الأطفال الذين أتوا لزيارتنا عبر السنين، إذ بمجرد أن نجلسهم فوق الحصان تنتهي أي مشاكل لهم. كان أملسا، على ظهره قرب رقبته خرم مستدير وضع فيه الفنان منذ زمن عدة عصى للاتكاء ويقول "للمستقبل". مدخل الصالة ذو آرش دائري مثبت فيه ستارة عتيقة من قماش كتاني خشن النسيج ذو لون سمني رمادي من القدم وتراكم التراب تتحرك مع أي داخل أو خارج من الباب. عندما اهترأت من مكان مسك الأيدي، أخذت يوما



fb/mashro3pdf

كرسيا وجلست جوار الستارة لأرتق مكان المقطوع وهي على حالها معلقة وأثبت قطعة من مفرش كروشيه قديم وأنا استمع للموسيقى تنطلق من الجهاز في حجرتي تعزف أغان تركية قديمة، والضوء القادم أثناء الغروب في بداية الصيف من شباك الحجرة البعيد يضيء لي الصالة وينعكس على قطعة بلاط خضراء ساحرة من السيراميك الفارسي القديم حولها إطار خشبي بسيط. تحتها وضعت قطعة أثرية من الرخام كأنها عامود صغير. كان شاهد مقبرة نقش عليها ببروز كتابة كوفية قديمة كان الفنان قد وجده مع المهندس المعماري صغير السن وهما يجوبان جبانات المماليك ليشعرا أنهما أنقذاه فقد كان مطمورا بالتراب والزبالة. علق مباشرة بجوار المدخل مقرنص خشبي كان جزءا من بناء مسجد قديم، فوقه قاعدة خشبية مكعبة لتمثال مسطح إحدى ناحيتيه كالون حقيقي صدئ يعلوه علاقة من الحديد وفي ظهره لصق مفتاحه ليشهد بأن المفتاح لن يفتح كالونه أبدا إذ سيظل هكذا على الناحية الأخرى لا فائدة ترجى منه. ظل استعمال ذلك التمثال لسنوات مكان لتعليق مفتاح شقة جارتي الذي تركته عندي للطوارئ. كنت أيضا أستعمل قاعدته الخشبية كثقاله أضع تحتها وصل كهرباء يجب دفعه، أو رسالة سيأخذها صاحبها بعد قليل. فوقه علقت قطعة نحاسية لفتت انتباه كل من زارنا. دمعة كبيرة من النحاس المطروق كأنها وجه امرأة بلا عينين أو أنف أو شعر. تعرف أنها امرأة فقط من شفتين مكتنزتين مغلقتين على ابتسامة غامضة. عندما وجدت هذه القطعة بعد الحريق تعجبت أنها لم تنصهر من الحرارة. كانت قد داستها الأقدام وتساوى بالأرض بروز الشفتين وغطى سطحها الأسمنت والأتربة والرماد الأسود. في مواجهة المقرنص، على الناحية الأخرى من الصالة كان يوجد دولابا لم تكن درفتاه تغلقان بإحكام، فأقل هواء أو حتى حركة جواره تفتحه. صنعنا له مفتاحا وأصبحنا نغلقه به فأصبح كل من مر جواره يصطدم بالمفتاح ويوقعه على الأرض وخشيت أن نفقد المفتاح أحد تلك المرات فتركته مفتوحا. كان فوق



fb/mashro3pdf

ذلك الدولاب طبق منقوش بالزخارف الإسلامية الملونة من الداخل والخارج لم يسجله موظفو الآثار "لأنه فارسي وليس مصريا". ثارت مناقشات وقتها عن ما هو الإسلامي وما هو المصري ، العربي، الفارسي والتركي، وكيف يتحدد مكان صنع قطعة وجنسية صانعها وقد اتسعت الدولة الإسلامية عبر تاريخها واختلطت الثقافات وتأثرت ببعضها وتنقل الصانعون كثيرا. وكان هناك وعاء نحاسي كنت أدفس فيه كل الوصولات: إيجار، نور، تليفونات. كان هناك أيضا طبق من المعدن المطلي بالفضة على شكل ورقة عنب أو ربما توت ضخمة بحجم ثلاث أكف متجاورة، تقف على ثلاثة أرجل دقيقة ويد الطبق هو فرعها المزين. كنا نحب أن نملأه بأبو فروة في الشتاء. علي طرفي سطح الدولاب تمثالان متناقضان. أحدهما ثقيلا ساكنا راسخا من الرخام الأبيض يمثل فتاة بلا رأس تمسك بطائر بحنان بالغ. يد تحت الطائر تحمله، ويد فوقه تحميه وتمنعه أيضا من الطيران. التمثال الآخر لفارس بدرع، ذراعاه جناحان. كان بلا اتزان، يقع كثيرا رغم قاعدته الرخامية التي كان يلف حول محور فيها. في المنتصف بينهما كان التمثالان الأثريان المكسيكيان من الفخار البني. رجل يرفع ذراعه الأيمن لأعلى وامرأة تحمل ما يشبه رأس الثوم الكبير. كلاهما عاريان تظهر أجزائهما التناسلية بوضوح ويبرز البطن الضخم متدليا. كان حجم رأسيهما صغيرا بالمقارنة بحجم الجسم العريض المترهل وعلى وجهيهما سكينة كسكينة ما بعد الجنس، أو الموت. حكى لي أحد أصدقائه أنهما كانا هدية عائلة سيدة مكسيكية أرستقراطية بمناسبة زواجها من مصري. هدية أثرية لا تقدر بثمن. إلا أن المصري المتدين قال لها أنه لا يريد "أصناما" في البيت. بعد ظهر أحد الأيام قطع شوارع وسط المدينة في القاهرة رجلان في منتصف العمر، أحدهما طويل جدا والآخر قصير جدا وهما يحملان الصنمين على أذرعهما. يقول المعماري بإيمان شديد للفنان "هل يعرف هؤلاء المارة أننا نحن أعظم اثنين في مصر؟!". عندما وجدت قطعا من التمثالين بعدها تحت



fb/mashro3pdf

الركام كان رؤية داخل التمثالين بشكل الفخار الأثري القديم كما لو كان بناء معماريا. كانت النار قد زادت من صلابة الفخار إلا أن احتراق ما تحته أسقطه من علٍ فتحطم.

داخل الدولاب وفي الفراغ فوق الأدراج وضعت صندوقا يبدو عليه القدم، مزخرفا بورق ملصوق بعناية، يفتح بمقابض دقيقة. هذا هو صندوق الفضية التي اشتراها الفنان بعد زواجنا بقليل. في الأدراج كانت المفارش و فوط المائدة من الكتان البنفسجي والبرتقالي. اشتراهم لي الفنان لأستعملهم على الطاولة المنخفضة في الصالون التي كان يسميها طاولة المركب، إذ تصميمها وثباتها على الأرض كان من أجل المراكب، وكنت أسميها "ذات الخريطة"، إذ وضعت تحت الزجاج خريطة قديمة للبحر المتوسط والبلاد الواقعة عليه بأسمائها القديمة. كانت هناك أيضا المفارش التي طرزتها على قماش كتاني لونه سمني. زهور ملونة منتشرة، كما لو كانت ألقيت بعفوية فوق القماش النظيف المكوي. رأيت قطع قماش مفتتة محترقة الأطراف تحمل بقايا الزهور الملونة، فكان أول شيء فجر الدمع من عيني بعد أيام من البحث والتنقيب في الأنقاض وأنا رابطة الجأش. تذكرت يوم اخترت الخيوط الملونة من محل "بوابجيان" بعد زواجي بقليل، وجلستي في الشرفة الصغيرة مع الإبرة والمقص. تذكرت مكان المفرش على طاولة الشاي ، والأكواب مقلوبة ومرصوصة يظهر من تحت زجاجها اللامع النظيف البراق بعضا من تلك الزهور المنتشرة، وأطراف المفرش تتدلى برقة بجوار قوائم الترابيزة. كنت ألبس على رأسي إيشاربا قطنيا ملأه التراب، وأضع على أنفي منديل رأس من الشاش لأحمي جهازي التنفسي من التراب والرماد والروائح النفاذة غير مفهومة المصدر إذ كنت قد أصبت بحساسية شديدة من البقاء في الشقة أول يومين. كان العرق، أو الدموع ، تسيل فامسحها في كتف البلوزة، أو كمها، وأواصل البحث بين الرماد. أربط أكياساً من البلاستيك فوق حذائي وأضع يديّ في قفاز من المطاط.



fb/mashro3pdf

ألقيت جانبا بقطع المفرش محترقة الأطراف ذات الزهور الملونـــة فـــوق كومة النفايات. قلت لنفسي وأنا أدير وجهي بعيدا: لقد استعملت هذا المفرش كثيرا، واستمتعت به ، وأنا أصنعه، وأنا أكويه بعد الغسيل، وأنا أفرشه ثم أمسح بيدي على زهوره قبل أن أضع الأشياء فوقه، وقبل أن أطويه لأضعه مكانه في الدولاب. خلاص، ياللا، مع السلامة. المفارش الكبيرة في الدرج الثاني. أزرق بترولي من قماش كتان اشتراه لي الفنان فقصصت منه جزءا وثنيت حرفه على ماكينة الخياطة ليصبح مقاسه مناسبا للمائدة الرخاميـــة. مفرش أخضر بحواش صفراء، كان لزوجين مسنين من أصـــدقاء الفنـــان اشتراه بعد وفاتهما لأنه يذكره بأيام كان يأكل عنـــدهما. مفـــرش ذو لـــون أزرق سماوي كان في بيت الفنان سابقا لزواجنا. نـــاعم ونســـيجه جميـــل بخيوط لامعه قليلا كالحرير. كنت أحبه كثيرا، وعندما بدأ يبلى قلـــيلا مـــن منتصفه قلت لنفسي لن أستعمله كثيرا حتى يبقى معي أطـــول مـــدة. قلـــت لقطعه المحترقة وأنا ألقي بها جانبا على كومة الزبالة: مع السلامة. كـــان هناك أيضا فوط سفرة بيضاء من القطن الناعم ، اشتريناها مســـتعملة مـــن أحد محلات الأشياء القديمة بوسط القاهرة ، ذات مقاس فخم كبير تـــذكرني بالأفلام القديمة عندما يضع الرجل بالطربوش فوطـــة الســـفرة البيضـــاء الضخمة في عنقه وهو في المطعم. في الدرج الثالث كانت هنـــاك أشـــكال وأصناف من الملاعق والشوك والسكاكين الفضية. كان هناك أيضا علبـــة أنيقة مغطاة بقماش القطيفة تحتوي طقم السمك شـــوك وســـكاكين رشـــيقة. العلبة قد باشت وتهاوت بجرد أن لمستها لأرفعها، فألقيتها جانبا فوق الزبالة وأنا أضع الفضية الجميلة في الجردل المجاور الذي أضع فيه الأشياء التي أجدها وسط الأنقاض. بقي أيضا طبـــق خزفـــي ملـــون صـــغير ذكرنـــي ببرطمانات الزيتون الأخضر أخلله بالملح والليمون والفلفل الحـــامي علـــى الرف العالي في المطبخ للموسم القادم. كان هناك صينيتان من الفضة. كان الفنان قد اشترى إحداهما، الأقل في القيمة، وقت أن نبهته أيام زواجنـــا أن



fb/mashro3pdf

يحضر الملبس والشوكولاته لساعة كتب الكتاب ففعل. ثم بعد زواجنا عثر على صينية أخرى قيّمة فأحضرها لي بفخر. كان يحب كثيرا أن يحضر الأشياء الجميلة لمنزله. يقول "للزمن، نبيعها إن احتجنا".

على الناحية الأخرى من باب البلكونة المطلة على المنور وبينه وبين باب حجرتي كانت هناك قطعة أثاث صنعت حول قطعة من باب جامع أثري، يجذب النظر دائما العمل الفني المعلق على الحائط فوقها. أوراق شجر رقيقة وكثيرة من الحديد الأسود المشغول (الفيرفورجيه) تلتف وتتشابك مع أفرعها لتصنع في النهاية شكلا شبه مستدير علقت فيه بتركيب فني لمبتان صغيرتان للإضاءة. على الرف وتحت قطعة الحديد مباشرة كانت تتجاور أواني زجاجية ملونه بديعة من الزجاج المنفوخ والكريستال، شمعدانات من الفضة ومن البرونز ومرآة مستديرة بيد طويلة مزخرفة هدية من الهند. وفي الرف الأسفل كانت هناك نسخا من الكتب التي كتبها الفنان تستعد لأن يهديها ونسخا من المجلات التي نشر فيها مقالاته أخيرا.

في الناحية الأخرى من الصالة كان الدولاب الصغير الذي وضع عليه التليفون. وفي داخله تكومت الأشياء التي تستعمل في مواسم معينة، مثل الحمامة البيضاء الوديعة من الصيني، بحجم الحمامة الحقيقية أو أكبر قليلا. ظلت تنتظرني لعدة سنوات وأنا أراها في فترينة مكتبة منجوتزي الإيطالية في شارع فؤاد التي اختفت الآن من الوجود، توضع للعرض عندما يقترب عيد الفصح وشم النسيم فأقول لنفسي ولماذا أدفع هذا المبلغ لأستعملها يوما واحدا في السنة، ثم اشتريتها في النهاية بعد أن آمنت أنها انتظرتني كل تلك السنوات. كان ظهر الحمامة مفرغا، نملأه بالبيض الملون لمائدة إفطار شم النسيم. نعلق زينة شم النسيم التي صنعتها ابنتي في المدرسة وكنت أحتفظ بها من عام لعام داخل تلك الحمامة البيضاء: أرانب وأسبته وبيض من الورق الملون وبيضة حقيقية فرغتها وصنعت حولها زخارف من الخيوط الملونة. ثم نحمل حقائب القش التي ملأناها بالسندويتشات ومفرش ملون



fb/mashro3pdf

لنجلس عليه من أجل "بكنك" في بلكونة شقتنا الصغيرة. فوق التليفون كانت هناك صورة صغيرة جدا لوجه امرأة يشبه الكمثرى رسمه فنان في أواسط العمر كنت قد قابلته مرة واحدة بعد زواجنا. هادئا ودمثا. ظل مدة في مستشفى للأمراض العقلية وبعد خروجه استطاع- لا أعرف كيف - أن يقنع الفنان أن يكتب عنه كتابا، فسلمه الفنان كل ما كان قد كتب عنه في الصحافة منذ تخرجه وكثيرا من الصور والوثائق. ثم غاب مدة طويلة وعندما عاد قال وهو يبتسم ابتسامته الواسعة أن كل شيء غرق في النيل مع بقية أشيائه كلها وهو ينتقل من مسكن لآخر وأنه كان على الفنان أن يحذر أن يعطي أشياءه لخريج مستشفى الأمراض العقلية. بجانب تلك الصورة كانت هناك لوحة صغيرة لقطعة من النسيج القبطي الأثري لسمكة كنت أحبها كثيرا. أركز عليها نظري وقت أن أرد على التليفون. وجدت تحت الركام نوتة التليفون مطمورة، ملتصقة الصفحات، وقد ساح الجلد الصناعي الذي كان يغلفها واختلطت أسماء وأرقام وعناوين أشخاص دخلوا حياتنا بشكل أو بآخر.

بجوار ذلك الدولاب والتليفون كان هناك كرسيان صغيران رشيقان كان اتزانهما رغم صغرهما يجعلهما من القوة بحيث يمكن لأي ضيف مهما كان حجمه أن يجلس على أي منهما. نزيحهما قليلا لنضع بينهما شجرة الكريسماس التي نشتريها في الموسم، ونير فوقها فانوس رمضان الضخم الذي طلب الفنان من الكهربائي وضع لمبة داخله. ثم نستخدمه أيضا كوناسة في الليل بعد أن نغلق كل الأنوار لننام. أصر الفنان أن تكون لعب ابنته حقيقية فأحضر لها هذا الفانوس بدل الصغير اللعبة وأشترى لها أدوات مطبخ من النحاس. حلل صغيرة بأغطيتها وكازرولات صغيرة بيد طويلة من النحاس الأصفر من الخارج ومجلوة بالقصدير الفضي من الداخل. فوق باب الحجرة لوحة خشبية من الخط العربي لا أذكر الآن ما كان مكتوبا فيها. أصيبت بشدة عندما غرق بيتنا بالماء المتسرب من الشقة



fb/mashro3pdf

التي تعلو شقتنا أثناء إحدى سفراتنا للخارج فقام صديق الفنان أستاذ الفنون التطبيقية بإعادتها لحالتها الأصلية بمهارة فائقة. تدلى من حلق الباب منجرة أثرية من النحاس معلقة بثلاث سلاسل تخبط رأس كل طوال القامة ممن يدخلون الحجرة إلا من خفض رأسه في الوقت المناسب. تدلت أيضا من حلق الباب الكرة الذهبية الضخمة التي كانت زينة الأفراح والسرادقات زمان.

في منتصف الصالة كانت مائدة الطعام، قطعة مستطيلة من الرخام تقف على قاعدة من الحديد. أضع فوقها مفارش تركية قديمة بنقوش جميلة مشغولة بخيوط ملونة مصبوغة بصبغات طبيعية أغيرها من أسبوع لآخر. وعليها أوان نحاسية مختلفة يهوى الفنان شراءها. أربع كراسي قديمة منقوشة الظهر حول المائدة والخامس إلى جوار التليفون. يا طالما جلسنا عليها، تحدثنا وضحكنا، أو بكينا. وضعنا أشياءنا عليها أو علقناها على ظهرها. يا طالما نظفتها وملت حتى الأرض لألمع الخشب العرضي الذي يمسك بأرجلها، وربطت المخدات بأربطتها القصيرة نسبيا. كم من أصدقائنا جلسوا هنا وأكلنا معا ونحن نضحك ونتكلم. من هؤلاء مازال على قيد الحياة ومن منهم مازالت لهم بنا علاقة؟!، ومن اتخذ لنفسه مسارا ابتعد عن مساراتنا؟.

أجمل حجرة في نظري كانت حجرتها التي اختارت بنفسها كل ما فيها بعد أن بدأت تنمو وتحتاج لاستقلالها. السرير ذو التصميم الغريب مباشرة على شمال الداخل وفوقه مفتاح النور نمد أيدينا إليه من خلف المرآة المعلقة. دولابها كان دولابا جديدا. قطعة الأثاث الوحيدة الجديدة الجاهزة الصنع التي وافق الفنان على شرائها بعد جهد، فقط ليرضيها. وجدت في مكانه بعد الحريق بقايا ما كان فوقه. عجلات كبيرة بقيت وحدها مع بعض السوست المخلوعة تذكرني باليوم الذي اشترينا فيه تلك الحقيبة ذات العجلات من لندن لنحمل الأكياس الثقيلة المليئة بالكتب التي اشتريناها



fb/mashro3pdf

من مكتبات شارنج كروس. اختارت أن تكون الكنبة الرشيقة المغطاة بالقطيفة البنية الداكنة في حجرتها تلقي عليها بحقائبها المختلفة يوما بعد يوم وتتكوم الملابس التي ارتدتها أو التي ترددت في ارتدائها، وأضع الغسيل النظيف لينتظر أن تضعه في الدولاب. وعلى الأرض جوار الكنبة وأمام السرير تتناثر الأحذية والصنادل، كل فردة في اتجاه، جْربت لبسها جميعا حتى استقرت على احدها لتخرج به. فوق الكنبة علقت لوحات مطبوعة من الحفر الياباني التقليدي لرؤوس نساء غاية في الرقة أهداها للفنان صديقه الياباني الذي كان مديرا لأحد البنوك إلا أن عشقه للفن عمق صلته بالفنان والتي استمرت لسنوات حتى بعد أن غادر القاهرة. اختارت أيضا أن تعلق في حجرتها ثلاث صور لمستشرقين. واحدة صغيرة لأطفال في كتّاب لتحفيظ القرآن، والثانية لدراويش المولوية، والثالثة لحفل رقص في حراملك احد البيوت والسيدات والجواري يرقصن أو يجلسن في دعة على الجوانب. في منتصف الحجرة على الأرض كانت سجادة بأرضية من اللون الأزرق قال الفنان أنه لون نادر في ذلك النوع. وفوق السجادة كانت الترابيزة المربعة الصغيرة يغطي سطحْها بلاطات فارسية مزخرفة يغلب عليها اللون التركوازي. تدلى من السقف في المنتصف نجفة ذات زخارف نحاسية طائرة في كل اتجاه تزاحمها من كل اتجاه الكرات الزجاجية القديمة من ألوان مختلفة وأحجام تتراوح بين حجم البطيخة الكبيرة وحجم البرتقالة كانت تستخدم في زينة الأفراح والمناسبات قديما. أحبها الفنان وجمع منها كل ما وجده لدى تجار العاديات القديمة.

مكتبها كان ذا سطح متسع مصنوع من قطعة واحدة من الخشب. يفخر به الفنان ويقول "أثاث إنجليزي". تتناثر فوقه فوضاها المنظمة، تماما كأبيها. وفوق المكتب الشباك الواسع بحافته التي امتلأت بعشرات الأشياء الصغيرة. صور صغيرة في إطاراتها، تذكارات من بلدان مختلفة، عرائس تمثل ملابس الشعوب، أكواب امتلأت بأقلام جديدة وقديمة، حصالة من



fb/mashro3pdf

الفخار ملأتها بعملات صغيرة كانت هي كل ما نجا مما كان على المكتب ووجدته تحت الركام. المكتب أمام الشباك الواسع ووراءه كرسيان لهما ظهر عالي ومساند للأيدي، عليه مخدات مربعة كبيرة من حرير دمشقي أبيض وبرتقالي وأزرق. أطل على الحجرة فأرى ظهر الكرسي ويظهر رأسها منكفئا على كتاب أو سارحة في الشباك أمامها ويدها تلعب في شعرها. (أضع كوب الليمونادة وأنظر معها للسماء في ذلك اليوم من شهر إبريل، السماء تتحول من لون التراب الخماسيني إلى الأصفر ثم الأحمر ثم الأسود، وأشعر بيدها القوية تمسك بيدي دون أن تتكلم وأظافرها الخائفة تنغرز في لحمي. أما في يوم زلزال ١٩٩٢. فقد كانت تجلس على الطاولة المنخفضة في حجرة الفنان تحت دولاب قمصانه. كان يستعمل تلك الطاولة كدرجة سلم ليأتي بمنديل من الرف الأعلى في الدولاب. كل شيء يهتز وهما ينظران في نفس الاتجاه نحو الضوء في البلكونة. وأنا في الصالة أنظر للمباني على البعد تتمايل فأقول في نفسي أنه يوم القيامة، وأننا سنهنأ بأن نكون معا جميعا مرة أخرى، مع بابا الذي فارق الحياة في تلك السنة. أتجه لها وهي تصرخ فزعة وعيناها مثبتتان على المباني المتمايلة في الخارج فلا أستطيع الإسراع إذ أتطوح يمنة ويسرى في طريقي إليها. والفنان جالس، نفس جلسته المعتادة، رافعا ساقه على مسند الكرسي يبتسم لنا في اطمئنان. ثم نسرع كلتانا لندق باب جارتنا التي تزوج كل أولادها وبقيت وحيدة فتفتح لنا وقد زاغت عيناها والصليب في يدها تضغطه لصدرها). سأفتقد صوت الاحتكاك العنيف لأرجل كرسيها على الأرض وتزييق خشب الكرسي وهي تدفعه بعيدا عن المكتب لتقوم. أسمع الصوت فأتوقع أنه في أقل من دقيقة سترفع سماعة التليفون أو ستكون معي في حجرتي لتقول "نسيت أحكيلك.....". وعلى طاولة صغيرة مزخرفة بالصدف جوار المكتب وضعت هي جهاز التسجيل الحديث وأشرطتها، وأبقت منتصف الحجرة فارغا لزوم الرقص. تأخذ من دولاب والدها الفنان



fb/mashro3pdf

كوفيه حريرية زرقاء بشراشيب طويلة لتجعل شعرها طويلا، وقد تلبس ملابس فوق بعضها للوصول لمظهر معين. كانت المرآة الوحيدة الكبيرة التي يمكن أن ترى فيها نفسها كاملة في حجرة الفنان على الدولاب الذي كان يطلق عليه "الفرنسي". كان يصبر تارة وتارة أخرى يتضايق فيشخط ثم ينادي عليّ ليترك لي مهمة أبعادها. كانت تتسلق لتجلس على رأسه وتسند ظهرها على ظهر كرسيه الفوتيل الكبير، تلعب في شعره كأنها تغسله، تشد شعر حاجبيه الطويل وتدخل أصابعها الدقيقة في أذنيه وأنفه وفمه فيناديني لأبعدها، فأحملها فتبكي فيرق لها ويقول لي "خلاص، اتركيها، لا أريد أن أسمعها تبكي لأي سبب"، فأتركها ضاحكة: "آل يا داخل بين البصلة وقشرتها". اقترحت عليه حلا أن يصمم لها مرآة تضاف لحجرتها وبذلك تستغني عن الرقص والتنطيط في حجرته. فصمم إطارا على شكل زخرفة المفروكة الإسلامية من عصى خشبية دقيقة تمسك بمرايا طولية، وطلب من النجار تثبيته على باب حجرتها الزجاجي الجرار. ثم قرر بعد أن رأى جمال الفكرة أن يكرر النموذج على كل الأبواب في الصالة. وبجوار باب الشرفة كان الدولاب ذو الباب المغطى بالزخارف الإسلامية مملوءا بكتبها التي انتهت من قراءتها، ورتبنا تحته لعبها القديمة. كانت تحتفظ بعرائس "باربي" التي اشترتها بعد أن بذلت جهدا لإقناعي فاشترطت أنا أن تشتريها من مصروفها دون ملابس. لم أحب السفه والنعرة الاستهلاكية التي ترتبط بمثل تلك اللعب. وهكذا قضينا أياما نعمل سويا: هي تصمم ملابس "الباربي" للصباح والسهرة وللرياضة، تختار الأقمشة من البقايا الكثيرة التي أحتفظ بها وأنا أقوم بالتنفيذ ونحن نتكلم ونتخيل.

في الأيام الأولى بعد الحريق كنت أرتمي على السرير في البيت الآخر فأقع في النوم فورا. لا مقدمات، لا أحلام. نوم كالموت. ثم أصحوا بعد منتصف الليل فجأة ولا أعرف أين أنا. أجمد مكاني، أغلق عينيّ



fb/mashro3pdf

بسرعة مرة أخرى وأقول لنفسي "لعله كابوس". وفي الصباح أفتح عينيّ، وككل يوم منذ الحريق يفاجئني ضوء غير الذي تعودت، وتفاجئني أشياء أخرى تقع عليها عيني. أحيانا يصبح الموقف كفيلم رعب. ما زلت أفاجأ حتّى بعد مضي خمسة أسابيع. وكيف لا؟ وهل تقارن خمسة أسابيع بحوالي عشرين عاما؟ أظل بعد أن أستيقظ مستلقية في رقدتي أنظر حولي. أغمض عينيّ بشدة فيتقلص وجهي، وأغرق نفسي في حلم.

أرى شبابيك بيتي وقد أصبحت شواريق محترقة، كفم متفحم لـتعس، محاطة بسواد هباب ملتصق بالحوائط التي تحيط بالشبابيك. أشعر بنفس المشاعر حتى بعد إحلالها بحلوق ودرف من الخشب الجديد اللامع المصقول. تحولت شبابيك بيتي، الذي كان بيتي، إلي شبابيك جار ما. لم أعد أرفع عيني وأنا في الشارع في طريق عودتي من عملي لأنظر شرفتي حيث كان زرعي يملأ الشرفة ويخرج من فتحات السور. أنبه نفسي أنه لا داع لأن أذكر نفسي متى سقيته آخر مرة ومتى يجب أن أسقيه، إذ أنه لم يعد هناك. لا هو ولا الغسيل الذي وضعته على الحبال، ولا شيش شرفة الفنان الذي تقشر دهانه وقد أسدلته في الصباح قبل أن أغادر البيت ليحجب الشمس عن الحجرة فتظل رطبه تنتظره. الشمس في الشتاء لا تجدها إلا في شرفة المطبخ فقط ، حيث أجلس على الكرسي الصغير الذي حملته لهناك وهي على حجري في يوم الجمعة. نغلق أعيننا ونستكين لدفئها، ونحن نسمع ونرى صلاة الجمعة في الزاوية الصغيرة التي تشترك في الجدار مع أحد أشهر خمارات القاهرة العريقة. نراقب بحب وألفة جيراننا النوبيين الذين يسكنون الأسطح المحيطة بنا. نجلس هناك متجاهلين رائحة رمل القطط التي تخزنه الجارة جوار باب مطبخها الذي يشترك معنا في نفس البسطة.

بيجامته التي نجت من الحريق، لأنها كانت في سبت الغسيل في الحمام، ترقد الآن بين أشيائي في درفة الدولاب الذي أُخلي لي في الشقة



fb/mashro3pdf

الأخرى. وضعتها في البداية في رف خصصته له ينتظر أن تضاف فوقه ملابس أخرى. ثم أدركت أنه لن يُستعمل أبدا إذ لم ينم معنا في نفس المكان إلا مرة واحدة تعسنا فيها جميعا فلم يكررها فاستعملت الرف لأشياء أخرى. مازالت البيجامة هناك، تحت كل الأشياء الأخرى، تنتظر. ماذا تنتظر؟ وماذا تمثل لي الآن؟ دخل هو الشقة معنا مباشرة بعد إطفاء الحريق، ثم لم يدخلها مرة أخرى إلا بعدها بأشهر بعد أن فرغت وحدي من التنقيب وأزيلت الأنقاض. بدا كما لو انها أصبحت بالنسبة له مجرد شقة خربة تحتاج لمهمة الإصلاح واستعراض التصميمات التي يتحمس لها. كان أحيانا بعد الحريق ما يطلبني في التليفون ليسألني عن شيء كان فوق الدولاب في حجرته فأقول له أن الدولاب نفسه لم يعد له اثر فيسكت فجأة ثم يضع السماعة دون تحية. أشفق عليه. أقول لنفسي: لا يتخيل أم لا يصدق.

مضى الزمن. التأريخ بما قبل يوم الحريق، وما بعده. كانت الدنيا قبله كما كانت ، وكنت ما أزال في بيتي. وكانت المشاكل اليومية هي التي تشغل تفكيري. الآن: أين أنا وبماذا أشعر؟. ياه، مر عليّ الكثير. أين أبدأ؟. أتحدث عما حدث. أتحدث عن الراهن. أتكلم عن المستقبل، محاذيره واختياراته أو وعوده. أتكلم عما أنوي، عما أتمنى، أتحدث عن المخاوف، أم أستمر في الحديث عن الآمال الضائعة التي كنت مغرمة بالتحدث عنها قبل الحريق. أتحدث عنه؟، ما أراه وألمسه الآن؟، أم فكرتي عنه؟ أم ما أتمنى وأنتظر منه؟. ما علاقة كل ذلك بثقتي في نفسي؟، ثقتي في الحياة والمستقبل؟. ماذا أنتظر؟ هل هذه حياة؟ . بالأمس كان آخر يوم في فرز ما أنقذته من بقايا بيتي بعد الحريق. غسلت كل الخرق، ورميت ما لا لزوم له. نظفت المكان الذي خزنت فيه ما أنقذته ورتبت الأشياء القليلة التي تبقت وتحتاج أن أفرزها من أدوات خياطة كانت في صندوق لم يمسسه الحريق في حجرتي، فقط تغطى بالهباب الأسود. غيرت أكياس النايلون بأكياس



fb/mashro3pdf

جديدة وغسلت العلب البلاستيكية التي تحوي أشكال وأحجام من الأزرار وعلب الإبر والدبابيس من الصفيح مكتوب عليها أسماء ماركات الشكولاته والسجائر القديمة. غيرت الأكياس الورقية التي حملت أسماء محلات في لندن وفي ألمانيا واحتوت على شرائط الساتان الملونة، لامعة، سادة أو مشغولة بالوردات والزخارف الرقيقة. تخلصت من علبة ماكينة الخياطة الفارغة التي سرقت منها ماكينتي التي كانت هدية من صديقه الطبيب الشهير وزوجته بعد الحاج أن أختار ما أرغب فيه. أعجبتني الفكرة بعد أن قرأت في مذكرات سوزان طه حسين "معك" عن هدية أهل زوجها لها. كان فرحا نادرا وصافيا الذي شعرّت به عندما وجدت ثاني يوم بعد الحريق أن ماكينتي سليمة في أقصى زاوية من حجرتي التي لم يصلها الحريق. إلا أنه بعد أيام حزنت كما لم أحزن على شيء عندما فوجئت بسرقتها غدرا. وجدت العلبة كما هي مغطاة ولكن الماكينة نفسها غير موجودة. بكيت بحرقة. قال لي يومها سآتي لك بغيرها. هززت رأسي وكفكفت دمعي إلا أني كنت أعرف أنه لن يأتي لي بغيرها ولا بأي شيء من الآن فصاعدا. وجدت أيضا ألبومات الصور في الجزء الذي لم يحترق تماما من حجرتي. كتمت الصور داخل الألبومات التي ساحت صفحاتها وأغلفتها البلاستيكية. انسدت عنها منافذ الهواء. سنوات من الذكريات، حياة كاملة، مضت ولم تبق منها إلا صور. لم تصل الحرارة أو اللهب للصور، لم يصلها حتى الهباب. بقيت بحدودها، بأشخاصها، ببريقها وبريق السنين. كان علي أن أفصل الصفحات بالمقص وبحد سكين. كأن الحريق قد دفن الماضي، مكتوما. لا الهواء ولا الحرارة وصلت للذكريات. وبدلا من أن تبلى ظل السعيد منها براقا موحياً. وضعت جانبا كيس فيه بقايا ما ردم تحت دولابه من فصوص وأحجار كريمة وقطعا من زخارف فضية كان يجمعها. سأعطيها له لاحقا ليفعل بها ما يشاء. خزنت الكتب التي تهببت كعوبها وأطرافها في صناديق، ووضعت دوسيه كتاباتي ونماذج كتب الأطفال التي



fb/mashro3pdf

كنت قد جمعتها على رف عال. نظفت جزءا من الطاولة التي يمكن أن استعملها كمكتب ووضعت عليها أدواتي منتظرة أن أدفع نفسي للعمل. طول اليوم أدفع نفسي لأن يكون لدي مزاج مختلف، أقاوم الكآبة. أدفع نفسي ألا أفكر في إمكانية بيت جديد، في الفنان، في علاقتنا. ولكن تعبت. ماذا سيحدث لنا؟ هل نعود؟ وإذا لم نعد؟ ماذا أفعل بنفسي، بحياتي؟. أنهر نفسي: توقفي. أوقفي التفكير في هذا الاتجاه. اغتنمي اللحظة واسعدي. أنت الآن وحدك، أكثر حرية وراحة. على الأقل بلا خوف. أنت الآن مرتاحة من ثقل مضي أيامكما معا، من التقييم المستمر لك ولعلاقتكما المجمدة، والمحاولات اليائسة، البائسة، اللا مجدية لاحيائها. طاقتك لم تعد مهدرة، استغلي الفرصة، وإنسي، إنسي. عندما يمضي هذا الشتاء، سيكون مضى صيف وشتاء ونحن "لسنا معا". سيصبح شيئا طبيعيا بعد أن كان من المستحيل ألا نكون معا. وسأتعود. ("بالنسبة لك: لماذا تريدين أن نتزوج؟"، قلت: " لأني أحب أن نكون معا، دائما معا"). من وقتها حرصت أن نظل معا، أرفض دائما أن تفترق، عائلتي الصغيرة. كنت دائما اشعر أن الفراق سيحمل بذرة تسرب الحب.

(أنت لم تترك قضية واحدة مشتركة، موضوع مشترك واحد، صديق مشترك واحد. أنت تواصل تقطيع كل الخيوط التي تربطنا، واحدا وراء الآخر. كل تلك السنين وأنت تتكلم عن الانفصال، وها قد تحقق. تريدني أن أسعى إليك؟ مرة أخرى؟! بعد كل هذا؟!. أدق بابك مرة أخرى؟! تاني؟! بعد كل هذا الذل كل تلك السنين، بمناسبة ودون مناسبة تقول لي "أنت دققت علي بابي، إنت اللي جيتي...").

وجدت أكياس الخرز الزجاجي الملون مختلف الأشكال والأحجام التي كنت قد اشتريتها من باعة الأشياء المستعملة الرخيصة على رصيف وزارة الأوقاف في شارع نوبار. كنت أحب أن أمر من هناك في طريق عودتنا للبيت فربما وجدت شيئا، وتكره ابنتي أن نمشي من هناك بسبب الرائحة،



fb/mashro3pdf

فقد كان ذلك الرصيف بالذات بالنسبة لناس كثيرين ولا أدري السبب بديلا للمراحيض العمومية. قضيت يوم العطلة كله أعمل في مشروعي الصغير المفرح. غسلت الخرز ثم علقته بخيوط النايلون الشفافة في عناقيد تتباعد حباتها وتتدلى من سقف الحمام وفوق الستارة البلاستيكية التي تحيط البانيو، فيبدو للناظر، في كل مرة يدخل دورة المياه، يبدو كما لو كان نثرات من لون تطير عابثة مرحة في هواء ذلك الفراغ الصغير الذي يفعل فيه المرء كثيراً من الأشياء المتناقضة.

أيقظتني الشمس في اليوم التالي. دفء وحنان، خدر لذيذ. في ذلك الصباح كانت الشمس تتسرب في حذر رحيم إلى خلاياي، فأتنبه. مازلت حية. بللي في طريقه إلي الجفاف. ألعق جراحا قديمة كانت قد أغلقت من قبل على قيحها، فظل داخلها ينخر فيّ كالسوس دون أن يظهر. جراح قديمة تفتحت وأنا أغوص في الماء يوما بعد آخر. كنت أواسي جراحي بلساني، وبراحة يدي، بالأديم الطاهر من تحتي، وبملح الأرض، مع ألمه. كان ملعبي المهجور رحمة وبركة، عونا لم أتوقعه، ملاذا رائعا. أتلفت حولي، تتفتح عيناي كل يوم على مناطق الجمال والسحر فيه. كان سحرا هادئا بسيطا، يتسرب إلى النفس دون ضجة أو جلبة. سحرا حفزني، رغم إنهاكي، أن أتجول كل يوم في ركن أو ممر، فأرى وأتفتح، ويتخلل جماله مسامي. وفي يوم، تنبهت أن ساكن البرج، ذو السلالم ، بحارسه غبي الشراسة، لم يعد يشغلني. في البداية كان ملعبي يشغلني ساعة، ثم أهرول عائدة لتطلعي البائس لشباكه العالي، ولرواحه ومجيئه. كان تطلعا مؤلما. أقسى ما فيه أنه بدا كما لو أن لا نهاية له. ثم أصبح شبيها بالخنقة التي نشعر بها قبل أن نصل مباشرة لنهاية النفق المظلم الذي يقول الحدس أنها وشيكة. ثم امتدت الساعة لساعات، ثم أصبحت أنساه بالأيام، بعد أن كان لا يفارق تفكيري، كقرضة عالقة تمص دم كلب عاجز. بهدوء وتؤدة



fb/mashro3pdf

أعمل في ملعبي. لا أستعجل نفسي، ولا أسمح لأحد أن يستعجلني. كفاني. أختار أنواع النباتات وأماكنها، وأترك مساحات شاغرة لتتنفس، وأتنفس. كنت أصف الأصص الصغيرة لمجموعة النباتات العطرية على السور الحجري للناحية الشرقية لملعبي عندما وقف طائر مغرد صغير على كتفي. جفلت. التفت فطار بسرعة وخفة وهو يبتسم لي. لف دورتين حول رأسي، ثم حط على حرف السور جواري وهو ينظر لي. دق قلبي. لاحظ الطائر ذلك فاتسعت ابتسامته وبدأ يغني لي ما يعرف أني أحب. يغني في ثقة. أدهشني، فالتفت إليه وتساءلت كيف عرف ما أحب؟!. ما أسعدني كان رغبة كائن ما في إسعادي، بعد أن كان همي الأوحد إسعاد الآخرين. كطبيعة الطيور ظل يتقافز من مكان إلى آخر، أعلى، أسفل، يميني، يساري، وأنا ألفت عيناي، رأسي، جسدي كله في اتجاهه كلما تحرك. أعجبني، إلا أن ما أطربني فعلا أنه جاءني. أدرك انجذابه لي، ولملعبي. عندما حان الوقت لأن يطير، كطبيعة الطيور، أدار ظهره، وطار. علقت عيناي به، وللحظة تساءلت: هل أقوى على فراقه بعد أن جربت؟! هل أجد لي جناحين فأطير وأسلك معه مسالك الطيور؟!

طار العصفور الجميل. تابعته بنظري وبقلبي. أدركت في تلك اللحظة أن قدماي على الأرض، أرض ملعبي. حولي نبتاتي الوليدة، زرعتها بيدي هاتين، وأرقب نموها بعيني الحدب والحنان. أنا من أنا. وأنه وإن كان العصفور قد شجاني لأنه أحبني، فذلك لأني من أنا، وليس لأني تقليد مسخ طائر أتبعه من فرع لفرع لأحظى باهتمامه لوقت أطول، فهل أترك ملعبي بعد أن وجدته أخيرا؟!.

fb/mashro3pdf

# ٨

الساعة قبل السابعة. الشمس حمراء ذهبية، تغرق جزءا من واجهات البيوت المقابلة لشباك المطبخ حيث أطل، وألقت العمارة الضخمة التي اسكن فيها بظل جاثم علي الباقي. عدت لسريري تحت البطانية وتحت قدمي قربة ماء ساخن تبعث الدفء. فتحت فرجة صغيرة من الشباك تدخل الهواء الذي مازال نقيا في الصباح الباكر. مازلنا في أيام عطلة العيد وأنا اشعر أني محبوبة: من خالتي، من زوجة عمي الحكيمة، من أخوتي ومن صديقاتي وزملائي. محبوبة من أمي، أعيش الآن في بيتها، أنام على سريرها ومخداتها ومنشفتي في الحمام من مناشفها التي حافظت عليها منذ صبانا، وأستعمل سكاكينها التي اختارت مقاساتها وأشكالها ومصافي من السلك من كل المقاسات كل له استعماله الخاص. أشرب مرمرية دافئة من أوراق الزرعة الصغيرة في الشرفة، وأستمع لموسيقى هاندل للهارب والفلوت من شريط تسجيل. كان الفنان قد اختار الاسطوانة من محل العاديات القديمة في لندن بحساسيته الفائقة للموسيقى وطلبت أنا من ابن صديقه الشاب هاوي التكنولوجيا أن يسجلها لي على شريط تسجيل. كان الشريط في سيارتي ولذلك نجا من الحريق وها أنا ذا أستمع له بينما تقبع الاسطوانة الأصلية مخزنة مع مئات غيرها في مرسم الفنان دون أن يسمعها أحد. أكياس المخدات الجديدة المقصوصة في كومة فوق ماكينة



fb/mashro3pdf

الخياطة التي استعرتها من أختي، وطبقتان من الساتان الأبيض سأصنع منهما كيس للبطانية التي اشتريتها من الواحات ولا تفتأ تطلق الوبر الأحمر والأبيض من خطوطها العريضة حيثما حلت. على الأرض بجوار السرير ينتظر الكيس النايلون الضخم يشف ما في داخله: أوراق وأوراق. وجدت صندوق الأوراق الصباحية في الرف الأخير في مكتبتي وأنا ابحث في أنقاض الحريق، حيث قبع دائما، بعيدا عن نظري وعن نظر الآخرين، مغطى بالهباب وقد ابتل هو وما بداخله. أخرجت الأوراق التي اعتدت على كتابتها كل صباح ووضعتها على جرنال قديم وتركتها لتجف ثم دفستها في كيس نايلون وضعته على رف عال. أنظر له كل فترة وأراود نفسي.

ماذا يغرينا بالنظر في أوراقنا القديمة؟ دفاترنا القديمة؟ أتذكر طبيبي وهو يقول بلهجة المشمئز ليدفعني بدوري للاشمئزاز "وهل تحبين أن تفحصي ما خرج من بطنك من قيء؟ ما أهمية أن تكتشفي ما كان جيدا وما كان فاسدا مما أكلتيه؟ ماذا ستستفيدين؟ هو في النهاية قيء. فكري في "الآن". عيشي، واتركي الماضي لشأنه". فهل أنصت له؟ ماذا عن تلك الأوراق، وقد ساحت كتابتها على بعضها وتمكنت منها رائحة العطن والرماد وملأ الهباب أطراف أصابعي كلما تناولتها؟. لماذا كتبتها ولمن؟. في وقت من الأوقات تصورت أني أكتب لأتحدث مع نفسي، لأفهمها، وأسلك الخيوط المتشابكة. ألست من اشتهرت بذلك في بيوت العائلة؟. تعطيني إحدى سيدات العائلة علبة الخياطة، من الصفيح القديم مزينة برسوم شخصيات فرنسية في مشاهد غرامية، أو من الخوص المتداخل بالجلد، أو من الخشب على شكل أدراج مغطاة بقماش ملون حال لونه من القدم. أتسلم العلبة، التي جعل الزمن والإهمال والسرعة والمشاغل، جعل كل الخيوط الملونة تتشابك مقتربة أو مبتعدة من البكرات الأصلية. أسلك الخيوط، وألف البكر وأرتبه بألوانه المتدرجة في الأدراج أو زوايا العلبة.



fb/mashro3pdf

أود لو أتصالح مع الماضي. لا أريد أن أعاديه أو أخاف منه ولكن لا أود أن أحن إليه أيضا. لا أريده أن يشلني عن الحاضر. أود أن أتعلم منه لأستمر. يضيف لي ولا ينقص مني. أنكأ الجراح لأخرج القيح وأتركها بعدها للهواء الطلق، وأبكي، فأنا دائما أؤجل البكاء لفيما بعد. هل يمكن أن تكون الحكاية هي البلسم؟. عندما أحكي، تصبح الحكاية فجأة خارجي، أمامي. أتأملها وأتعلم منها، بل واستمتع بها، تماما كمستمعي. لماذا إذن لا أخرجها، فأتطهر وأرتاح، بعد أن كانت راكبة على قلبي. إن الحكاية كالنسيج، كالبناء. عندي الخيوط، عندي اللبنات، ويبقى أن أصفها فوق بعضها، واحبكها، لتتماسك. أقرأ، وأتأمل، وأجمع القصاقيص والصور والحكايات، كأني أعد للوحة كولاج، وأنتظر. إن الذكريات مهما كانت واضحة في وقت ما لا بد لها من أن تغم، تطمر، تتبعثر. ولكن ما الذي يجعل بعض الذكريات تتهاوى قبل غيرها، كنيجاتيف أفلام تعرضت للضوء، كأسفنج صناعي يتحول لبودرة مع الزمن، فيفقد تماما شكله الذي كان له، وسادة أو مرتبة. كانت فرانكا في التسعين تحل الكلمات المتقاطعة باللغة الإيطالية لتحتفظ بذاكرتها، أما زوجة عمي الحكيمة في الثمانين فكانت تدرب نفسها بان تستلقي على سريرها وتستدعي الذكريات بشكل منظم لتبقي مرونة وحركة خلايا مخها. اليوم تتذكر رحلتها إلى باريس عندما طلبت من زوجها شديد التحفظ أن يقبلها في الشارع كما يفعل الناس حولهما، وغدا تتذكر شكل بيتها وقت أن كانا في الجامعة في لندن وقت الحرب العالمية الثانية بالتفصيل. تنجح أحيانا وتفشل أخرى، فتسأل أختها أو ابنة خالها: " هل كان بابا ينام في بيجامة أم في جلابية". قلت لنفسي يوم أن سمعت هذه القصة: آه ، هذا أتذكره جيدا. بابا كان ينام مرتديا البيجامة. بيجامات كستور بتقليمات تقليدية. ولكن متى دخلت الجلابية حياته؟ هذا ما لا أذكره جيدا. عندي ذكرى ( مجمدة) لبعض الناس أو الأشياء. ولكن هل



fb/mashro3pdf

كانت هناك فعلا تلك "الأشياء"، هل كان شكل هؤلاء "الناس" كما أذكره؟، أم أني اخترعت الحكاية كلها اختراعا.

(وهكذا تحقق أمام عيني تحطم ما حننت إليه، ما سعيت للتعلق به، كما لو كان سببا للحياة نفسها. تحطم قطعة قطعة حتى لم أعد أتعرف على معالم تهديني للصورة القديمة التي أسستها في خيالي. كنت انتظر عودته، بطل خيالي، الذي صنعته منذ سنوات ما قبل الزواج).

ما وجه الصلة بين الصورة التي صنعتها لفنان عملاق متحدي، وكلامه عن كرامة الإنسان والموقف الشريف، وبين صورته وهو يشكو من تباريح الصد والهجران من سيدة سميتها مدام سي آي ايه، تعده ببالون دعاية وثروة يبدو أنه يتوق إليها إذ أصبحت هي معيار التحقق والنجاح. كيف أصدق أن الشخص الذي يكتب الآن في تلك المجلة الشهرية بتلك السوداوية وقد التف اهتمامه حول نفسه وأصبح شاغله صنعة يحاول اتقانها، هو هو نفس الشخص الذي ألهم جيلا بكامله بعنفوان الحياة الذي يتفجر من مقالاته في الستينيات وأول السبعينيات. الحنين هو لحلم لم أعد متأكدة إن كان قد تحقق في الواقع أبدا! أم ربما أنا التي لا تتذكر؟!. الكتابة فقط تتركه حيا نابضا، ولكن في عالم خاص، إذ ذاكرتنا تبقى ما كان حاضرا على حاله، تبقيه كحاضر أبدي، ولكن ليس حاضرا حقيقيا، فالحاضر حاضر، لا يمكننا الكلام عنه، نعيشه ولا نتحدث عنه أو نحكيه.

اعتقدت دائما أن ذاكرتي ضعيفة. فلم أتذكر كلمات خناقة، أو لماذا زعلت، أو تفاصيل تصرف ما. ألمح هو دائما بسخرية لذاكرتي الضعيفة. وبما أني ملت لتصديقه في كل الأمور الأخرى، فقد صدقت تشكيكه فيّ والتقليل من شأني. متى بدأت ذاكرة الغضب تأخذ شكلا وكيانا تمهيدا لأن تدفعني لأن أعي لذاتي وأحافظ عليها، ماضيّ الذي تناسيته، تاريخي الشخصيّ الذي تجاهلته لسنوات لمجرد أنه قلل من قيمته. أين نشأت وحكايات عائلة أبي القديمة التي احتفظت بها عبر القرون والبلاد،



fb/mashro3pdf

وذكريات يُتم أمي ومعاناة عائلتها حتى خرجوا من النفق. وما قيمة الذاكرة إن كانت مجرد حشو معلومات لا يقابله فلسفة تصنع عمقا إنسانيا وتجعلنا نشعر أكثر بالآخرين ونقدر موقعهم منا وموقعنا منهم. وهكذا توصلت أن ذاكرتي انتقائية. خليط أصوات الذين عبروا في حياتي. ليس بالضبط أصواتهم ولكن تأثيرهم عليّ. ما أقصد أن أتذكره لا أنساه أبدا. أصنع له علامات من مشاعري. ذاكرتي إذن هي ذاكرة مشاعر. هناك أيام، أحداث أو أشخاص تحفر لنفسها مكانا في الذاكرة. وهناك أيام تمضي، كما لو أنها لم تكن. مع الأطفال الذاكرة تختلط بالخيال وما نطبعه على الحقيقة من مشاعرنا. ما أحببناه وما خِفنا منه. فقطعة من جاتوه الطفولة من المحل اليوناني بمدينتي الصغيرة لا يوجد ما يضاهيها فيما ذقته في أحسن الأماكن في مصر أو في اليونان نفسها فيما بعد. الشعور بالخوف الذي سمرني في مكاني لمدة طويلة وأنا عائدة من دورة المياه في وسط الليل في بيتنا هناك، خوفا من مارد يقف في انتظاري متربصا تحت ساعة الحائط المعلقة عاليا والذي اتضح بعدها أنه جاكت بابا التي أعادها الكواء بعد تنظيفها بالبنزين فلم تحب ماما أن تضعها في الدولاب حتى تطير الرائحة. لعب العصرية في المصيف، ودخول الليل ولمبات الشارع تضيء مرة واحدة. هل كنا نخاف لأن الدنيا حينها ستكون معادية، كما قالوا لنا في القرية: "عودوا بسرعة قبل المغرب وإلا أتت الخفافيش تمسك في شعوركم، أو تمسككم من أعينكم، لا تتركها إلا بدق الطبل البلدي". هل نظل نفس الأشخاص بعد كل ما يمر بنا. وهل أتعرف على نفسي عندما أرى صوري القديمة، أشيائي القديمة. أجد نفسي قد نسيت. نسيت شكل صفحات كراسة وصفاتي التي احترقت وقد كنت قد جمعتها على مر السنين. أذوق الطعام فيعجبني فأطلب الوصفة واكتبها في كراستي باسم من أعطتني إياها كما تفعل ماما. أجرب نفسي والخامات. ألتزم أو أتحرر من الوصفة الأصلية، وأتلقى ردود أفعال ومجاملات. نسيت. نسيت مكان مفتاح الإضاءة الذي



fb/mashro3pdf

كان. فقط تداهمني الذاكرة أحيانا بلعبة ماكرة، فأمد يدي بلا وعي للمكان القديم فلا أجد شيئا. أجد نفسي قد نسيت. نسيت رائحة جسده، عرقه، التي عشقتها. كنت أتشمم فانلاته وقمصانه وأنا أجمعها من أرض الحجرة أو من الحمام قبل أن ألقيها في سبت الغسيل. أتذكرها فقط في رائحة عرقها إن بذلت جهدا ما مباشرة بعد الاستحمام. نسيت رائحة أنفاسه التي أحببتها، التي كنت اقترب منه بهدوء وهو نائم لأتشممها. أنظر في اتجاه الباب للصالة، وأود تذكر ما كان هناك والمنظر قبل الحريق، فأتعثر، وكأنما يقول لي عقلي في عتاب: لماذا؟! لماذا تحاولين؟! هل ينغصك شيء في واقعك الآن؟! أتعجب من نفسي ومن ألعاب العقل. كنت أتحسب لذلك، فكتبت، إلا أني لم أكمل ... فقد كان الألم أحيانا شديدا.

ما هو موطن الإنسان؟ ومتى يقبل أن يغيره ، بل يسعى لذلك؟ يمكن أن يكون الوطن فكرة، شخصا أو مهمة ما. وماذا إن انتهت؟ خلصت؟. اعتبرت الفنان موطني لزمن طويل. أينما يكون، وما يريد، مهمة الحفاظ عليه واستمراره كفنان. ثم بعد ذلك بدأت مهمة الحفاظ على نفسي أنا أيضا. نصحت نفسي بالعودة للجذور، لما قبله. فهل أنتمي أنا - الآن - إلى ما قبله؟. وهل أنا كأمي أو كعمتي؟! وهل أشبه لنفسي قبل أن أعرفه؟!، بالطبع لا. ليس بسببه ولكن بسبب الطريقة التي خضت بها حياتي، الطريقة التي تركت بها ما مر بي عموما يعلم فيّ ، الطريقة التي استوعبت بها التجارب والحكايات، الحقيقية أو الوهمية. استيعابي للناس الذين عرفتهم. كيف أكون كأمي أو كعمتي وقد فات عليّ ما فات، وبعض ممن عرفت لم تر أمي أو عمتي لهم شبيها بأي شكل. ماما تقول لي: "أيوه ، تمام، هكذا أحلى. تبدين الآن بالضبط كما كنت وأنت صغيرة في صورة التقدم لشهادة التوجيهية. ملموم بفرق في المنتصف. لا أحب أن تتركي شعرك ليصبح منفوشا وهائشا ناشفا". ابتسم لأخفي عدوانيتي التي نبتت فجأة، إلا أني لم أستطع السكوت: "لكن أنا، من داخلي لم أعد أشبه هذه الصورة خلاص، وبشكل



fb/mashro3pdf

نهائي". هل كنت صادقة تماما؟. نهائي! فعلا؟!. هكذا قلت. هذه مبالغة، أليس كذلك؟!. ولكن ربما لأن الملاحظة ضايقتني. تريد أن تعيدني. ربما هذا يريحها، ولكنه ليس الحقيقة بأي حال. فالماضي ماضٍ. لا أنت هو أنت، ولا الناس هم الناس، ولا الظرف الزماني هو هو. ولكن البعض يحب النستولجيا. النستولجيا هي الحنين لتكرار وقت كنت فيه أسعد، أو اعتقدت أو تتذكر أنك كنت فيه أسعد. وقتا كنت فيه أكثر راحة أو استقرارا. النستولجيا قد تعني أيضا الحنين لشيء متخيل، لم يحدث أبدا، بمعنى أن حنينك يكون لشيء لم تختبره أبدا، وتعتقد بل وتؤمن أنه ما إن يأتي فسيأتي لك بالسعادة. يقول ميلان كونديرا في روايته "الجهل" أن النضج معناه أنك لن تود تكرار الماضي أو العودة للعيش فيه. لأنك ستدرك ، بوضوح أكثر، أن الماضي بذاته تماما لن يعود أبدا، لأنك أيضا لست نفس الشخص. فما يشبعك الآن ربما تغير عن ما كان يشبعك في الماضي. أعتقد أن عنده حق، وإلا فكيف تفسر أن يتحول شخص ما كان أهم ما في حياتك، إلى شخص هامشي، لا يعنيك، بل ربما تتجنبه بسبب الازعاج والقلق الذي يسببه. هل كان يمكن أن أتخيل ما أصبح إليه حالنا الآن؟ وهل كان ذلك المكان، أو ذلك الشخص الذي أحن إليه موجودا أبدا؟، أم كان من صنعي؟. نتعلق بالماضي ونتمنى عودته، إلا أنه لن يعود. الأفضل الاعتراف بذلك. أن نقبل الوحدة من أجل مواجهة النفس، نتعدى إحباط اللحظة بتحقيق شيء جديد، وليس بمحاولة استعادة الماضي. أتذكر أحيانا بشوق كل ما تركت، كل ما ضاع، رغم أني أعرف أنه ربما إن عاد فسأدرك من جديد مرة أخرى كم هو متآكل، كم أصبح لا يصلح لي. أنظر في المرآة المستطيلة في الحجرة الصغيرة على الأقل مرة في اليوم. أمامها مباشرة طبق مخضر صنعه المعوقون عقليا في مدرستهم لذوي الاحتياجات الخاصة بأن ضغط أحد الأطفال بكفه المفلطحة على الطين الطري. أضع عليه أشياء: حلق ارتديته بالأمس وكسلت أن أعيده لمكانه مع بقية أقراطي، مرآة وملقط، بنسة شعر



fb/mashro3pdf

ذهبية. يقبع أيضا مفتاح الشقة الأخرى. هكذا أصبح اسمها: الشقة الأخرى؟ لماذا يجب أن أشعر بأي مشاعر؟، ولماذا يجب أن أبحث عن المشاعر إن كانت لم تعد موجودة؟ وأين هو؟ الفنان، زوجي، حبيب العمر، العشرة الطويلة، الانتماء، الأستاذ، مصب حناني واهتمامي لسنين طويلة. أين هو؟ لا جواب، صمت تام. هل أنت حزينة، مندهشة، هل تودين استعادته؟ استعادة ماذا؟ أي جزء، فهو في الحقيقة أصبح بالنسبة لي عدة أجزاء. أم هل تودين فقط شفاء الجراح، استيعاب الدروس، هضم التجربة، والخطو للمستقبل، مستقبلك.

هل يتذكر الناس أحلامهم الجميلة أم كوابيسهم أكثر؟ يوم رأيت أبي في الحلم بعد موته كان حلما جميلا. فرحت إذ رأيته فقد كان قد أوحشني. لا أتذكر التفاصيل ولكن أتذكر شعوري وقت الحلم، متعتي باستعادة وجهه الطيب. أما الكوابيس فكثيرا ما أتتني عن تلك الكومة من المخلفات التي تزايدت أمام باب الشقة بعد الحريق، ثم انتقلت ذات يوم بجوار باب العمارة لتأخذها عربة نقل لتلقيها خارج القاهرة، في الصحراء. أنظر لها فأسرح ولا تطرف عيناي. أرى خيالات كائنات بائسة تتنقل فوقها للبحث عن شيء ينفعها، شيء يمكن استعماله، فهل ستجد؟!. كابوس آخر أتى وأنا بين اليقظة والنوم. كنت أخرج من أعماقي، من داخل داخلي، بطريقة ما جسدية، حسية ، أخرج صفيحة من صفائح تخزين الجبن أو الزيتون، تشبه صفائح فيلم "العار" من إخراج عاطف الطيب، التي خزنوا فيها الحشيش في البحيرة. أخرجت الصفيحة من داخلي فكانت أيضا مهترئة ومتآكلة، خاصة في قمتها وحول الغطاء. فتحتها بسهولة، وأخرجت منها، وقلبي يؤلم، طفلا مبتسرا، مولودا قبل موعده، ناقص النمو. رأسه كبيرة، ذراعاه وساقاه رفيعة، كفه كبير وأصابعه واضحة وصدره عريض، وعلى التو خطر في بالي إنه يشبه صدر الفنان وهو عريان. أكتافه، وتحت رقبته، واتصال الصدر بالذراعين. كان ميتا. وقلت لنفسي: أعرف أنه ميتا. لماذا إذن دفنته في الصفيحة داخلي وهو ميت!. لماذا؟ لماذا أريد أن أحتفظ به ميت؟ لماذا



fb/mashro3pdf

لا أريد التخلص منه؟ أتركه، أنساه، وأقلب الصفحة. لماذا أدفنـــه داخلـــي ليظل طريا، كالحفظ في الفورمالين، كي لا يصبح نتناً ككل الأشياء الميتة. لكنه كان يدعو للشفقة. أطرافه مدلاة ورخوة، ورقبته لا تصـــلب الـــرأس، ومع أي حركة تروح في كل الاتجاهات. (رمت الممرضات الجنين المولود في الشهر السادس على الترابيزة التي أقف جوارها أراقب طبيب النساء في حجرة عمليات مستشفى السويس. سمعت صوت خبطته في الحائط. انتبهوا هم للأم التي كانوا ينقذونها من حالة انفجار في الرحم، وظللت أبحلق أنـــا في الجنين الملقى على الترابيزة، ملطخ بالدم والسوائل اللزجة ،يحاول شـــد الهواء ويعجز. صدره يرتفع ويهبط وقلبه يدق تحت الجلد الرقيـــق الأزرق المكرمش. شدوني لخارج الحجرة وهم يخرجون الأم على الترواللي وتركوه وحده). أنا أيضا أخرجته من صفيحة الجبن ووضعته على الطاولة، راقـــدا على جنبه، ذراعاه ورجلاه تتكوم على بعضها. أحاسيس مختلطة. شـــفقة، ويأس. أزف الوقت أن أخلي داخلي من جثة تسممني بالأمل الكاذب، وأقلب الصفحة. كنت أريد أن أبكي وأنا داخل الكابوس، الآن أيضا أريد أن ابكي.

قضيت بالأمس ليلة، لم تحدث لي منذ زمن، منذ لم أعد مع الفنان في بيت واحد. ليلة تشبه ليالي سابقة كثيرة نقضيها هو يؤلب علـــيّ ضـــميري وأنا ألوم نفسي وأشعر بالذنب. ثم أقاوم وأرجع، ويعود هو للضـــغط مـــرة أخرى، فأشعر بالذنب مرة أخرى. الفرقعات الصغيرة التي صنعتها رفيقـــة الرحلة لذلك المنتجع الشتوي على البحر الأحمر نكدت علي حوالي نصـــف الرحلة إلا أنها ساعدتني في اتخاذ قرار: لا يجب أن أضع نفسي بأي حـــال من الأحوال تحت ضغطه مرة أخرى. أدركت أخيرا أن هذا هو رد الفعـــل الفطري للمحافظة على النفس. يقول طبيبي: "هل يجب أن تجربي مرة بعد مرة المشي على قشرة الموز؟ تقولين لنفسك بصوت عـــال "أنـــا جـــدع" ، خلاص ، سآخذ حذري، لن أنزلق هذه المرة". أدركت أخيرا بعد تجربة هذه الرحلة أن هناك بعض الناس يجب أن نتعامل معهم من بعيد. لا ندخل أبدا



fb/mashro3pdf

في دوائرهم، ولا نترك أنفسنا أبدا لهم. في هذا الجو السحري في الخامسة صباحا أمام البحر وصوت أمواجه الذي لا يوجد غيره، يعز علي أن أتذكر أي شيء يمكن أن يضايقني أو يدعوني للقلق. لكن لا، لابد أن أذكر نفسي، أنتقد نفسي وأعالجها، حتى لا أرجع مرة أخرى للأحلام. إلا أنه هنا مع كل هذا السلام، تشعر أن كله سيمر. مثل تعاقب الليل والنهار هنا، مثل الفصول وراء بعضها. مثل الناس يأتون ويرحلون. أجلس على المرسى الخشبية داخل البحر وصوت الموج يملأ أذنيّ والهواء يملأ الفراغ حولي، يدفعني ولكن دون إزعاج. الشمس تسخن بالتدريج على ظهري وأكتافي. هذا الدفء في يناير، أية نعمة؟!. عانيت كثيرا بالأمس ليس فقط من إحساسي بالذنب، ولكن من عجزي أحيانا عن التصرف، عن رفع الضغط عني. كان لابد أن أصمم لأنتقل من الحجرة. ظلت تصرخ بهستريا وأنا أحاول أن أقاطعها، أهدئها، ولكن بلا فائدة. عندها فكرة مسيطرة أني أنانية مستغلة، وأنها ضحية. قالت: "كأنك تقولين لي أن أفتح قبرا واقعد فيه". تأثرت وشعرت بالذنب مرة أخرى. (شكواه المستمرة مني لطوب الأرض أعطى من يسمعه هذا الانطباع. أعطاني أنا نفسي هذا الانطباع فأبدأ بالدفاع عن نفسي. ثم أشعر بالظلم. لماذا يكون كل شيء مسئوليتي وحدي. ثم أرد على نفسي " اليد لا تصفق وحدها". إن جعلي أشعر بالذنب جزء من دفاعه هو الشخصي عن نفسه عندما يشعر بالعجز أو عدم الرغبة في تقديم شيء، عندها يعلق على شماعتي كل تعاسته ومرضه وتقدمه في السن والدهر الذي لا يمشي على هواه). لماذا يجب أن أتحمل ذنب أنها لم تسترخ في تلك العطلة. هي التي شبكت نفسها في موضوع تعلم الغطس. ظلت تذهب وتأتي وتقرأ وتذاكر، تشاهد فيديو، تسأل وتجرب. ليس ذنبي أنها لم تستطع أن تريح أعصابها. هذا هو اختيارها. ثم أني أعتقد أني زميلة رحلة لطيفة. تعلمت في الفترة الأخيرة أن أقيم نفسي بكرم وألا أنقص قدرها، وتعلمت أيضا ألا أحتمل ما يزيد عن طاقتي.



fb/mashro3pdf

أجلس على طرف اللسان داخل البحر يأتيني صوت الموج والشمس دافئة على ظهري وجانب وجهي. السمك الصغير بأشكاله الكثيرة يسبح بجواري. أدقق فأرى صنفا جديدا في كل مرة، فأفرح. زرقة المياه وهدوءها تمسح كل الهموم. البحر شيء جميل ، السكوت جميل، والشمس والهواء على بشرة مكشوفة شيء جميل. أن يُعد لك الطعام وتنظف الحجرة شيء جميل. الرياضة والسباحة والمشي والنوم والاسترخاء شيء جميل. استرسال التفكير شيء جميل. أقول لنفسي: أنتما أتيتما معا في رحلة، أنت دفعت حسابك بالكامل. عندها مشاكلها إلا أن هذا ليس ذنبك، ثم أن ذوقها في الحياة وطريقة استمتاعها* يجعلها تتوتر وتتعب أكثر. لا تتركيها تنقل لك توترها. تجاهليها وعيشي كأنك هنا وحدك. فقط الحد الأدنى من الذوق والكياسة. لا تحاولي تهدئة أعصابها أو أن تسأليها عما يضايقها. هل رأيت كيف هاجمتك عندما حاولتي مساعدتها بالأمس؟. أحيانا ما تكون سكينتك مستفزة للمتوترين أصلا. ربما كانت هذه أيضا جزءا من مشكلة الفنان. كان يجب أن تبتعدي عندما أصبح وجودك الرائق يوتره. والآن عليك تفادي انفجاراتها وعندما تعود للهدوء استمتعي بصحبتها من بعيد فقد كانت دائما إنسانة بكل معنى الكلمة ولطالما كانت حواراتنا عونا على الظلام الذي كان يحيط بي. قالت لي في بداية معرفتنا: "أنت عشت في حرمان شديد!". رددت: "هل تعرفين أني لم أدرك ذلك لمدة طويلة جدا!. الإدراك أني أعيش في حرمان كان التطور الأصعب. يا طالما تمنيت كلمة حلوة من القلب، طبطبة على الظهر. انتظرت أن يقول: عاشت يديك، ياللا نروح مع بعض ..، هل تحتاجين لشيء؟ تصبحين على خير، أنت تعبت: كفاية كده، أنا جبت لك هدية، إذا نفسك تروحي هناك إذهبي طبعا مادمت ستسعدين وتستريحين. تمنيت كلمة حلوة ولو مجاملة، ولو لأنه يريد أن يحتفظ بي. كنت أريده أن يحاول الاحتفاظ بي. ثم كانت وطأة الحرمان أصعب عندما اكتشفت أنه لا يقول لي ما أهفو إليه ليس لأنه لا يعرف، بل هو يعرف،



fb/mashro3pdf

ولكن ليس لي، ليس معي". قالت: "لا داع للشعور بالذنب ناحيته. أنت كنت تعتبرينها علاقة "دم" لا تنفصم وهو سعى لفصمها منذ زمن. لماذا تلزمين نفسك بما فصمه هو؟ إن الارتكان لفكرة علاقة واحدة ثابتة لا تتغير ولا انفصام لها كان مريحا. وسيحدث أحيانا بعد أن جربت الهواء المفتوح ونقاءه أن تحنين أحيانا لدفء وكتمة هواء الحجرة المغلقة، إلا أنها ستكون مجرد لحظات ضعف وتمضي. أنت كنت مرحلة في حياته الطويلة الغنية. والآن يجب أن يصبح هو أيضا مجرد مرحلة في حياتك التي ستجعلينها غنية".

بدأ يحدثنا في تليفونه اليومي الطويل في الصباح الباكر ، كما لو كان في مونولوج طويل، عن انتهاء العمل في الشقة. عن فلوس لشراء الأجهزة. عن مفتاح سيعطيه "لها" في وقت ما آخر الأسبوع. عن مراتب وملاءات، عن مقاعد كبيرة وصغيرة، عن أرفف مطبخ ودواليب للملابس. أود أن أقول وهل البيت تصنعه مثل هذه الأشياء فقط ولكن أبتلع لساني وأسكت. فما الفائدة. يتحدث عما يريد وقت يريد وهو متأكد.

(كأني كنت أقف في مطبخ بيتي، بيتي الذي كان. دخل عليّ الفنان وأنا واقفة أمام الرخامة التي أمام الشباك، ظهري للباب الذي دخل منه، إلا أني شعرت به ورائي. كنت واقفة أقطع شيئا، أو أقوم بشيء ما، جلاش؟ بصل؟ صينية؟ شيء ما. اقترب. لف وجاء من يميني. مد رقبته واقترب برأسه فوق الرخامة وثبت عينيه يراقب بتمعن فيما أفعل). هذا هو الكابوس الذي يتكرر هذه الأيام، لا أكثر ولا اقل. لا أذكر أنه قال أي شيء. فقط نظر. لماذا شعرت بهذا القدر من الكابوسية في ذلك الحلم. (هو، ينظر إلى ما أفعل). يعلق أو لا يعلق، فقط ينظر وأنتظر أنا تقييمه. قلت لنفسي ماذا على وجه الأرض يدفعني لأن أعود لهذا لوضع الكابوسي؟ ماذا على وجه الأرض يجعلني أعود لرجل إن يدخل عليّ أينما كنت وينظر إلى ما أفعل أشعر أنا بالكابوسية؟ أنشغل مرة أخرى بماذا يمكن أن يقول ليؤلمني أو

fb/mashro3pdf

يجرحني، أن يعلق فينتقص مني؟ كابوسية إدراكي أنه يشعر أن من حقه أن يفعل أي شيء ليربيني إن لم أجب طلبا من طلباته وبالسرعة الكافية. كابوسية أن أتدبر أنا كيف أدافع عن نفسي إن احتاج الأمر. أن أواجه مرة أخرى التناقض بين إيماني بعظمة الفنان وبين كابوسية وجودنا اليومي معا.

"أنا لم أعد متاحة للخدمة". هكذا قلت ساخرة لصديقتي الممثلة الجادة وعلى وجهي ابتسامتي الواسعة، يوم قابلتها في حفل إصدار النسخة الانجليزية من" رأيت رام الله". كانت الشمس قد لوحت بشرتي وأكسبني الهواء النقي الذي تنفسته في البحر الأحمر حيوية أسعدت من نظر لي بالقدر الذي أسعدتني. قدمت نفسي للمؤلف باسمي وليس باسم زوجي، وقلت له كم أحببت كتابه وأكبرته من أجله. قابلت يومها أيضا المخرج الشاب الذي كان آخر من صور بيتنا قبل أن يحترق، والمصورة الفلسطينية بوجهها الحزين، وعلم فلسطين دبوس على صدرها. قلت لصديقتي بمرارة: "لقد أتحت نفسي كثيرا، لمدة طويلة، ربما أطول من اللازم. حتى بعد الحريق. قولي عني ما تريدين. إلا أني حتى بعد الحريق نسيت كل شيء وظللت أكرر: فلنستأجر معا شقة مفروشة وننام على مرتبة على الأرض، فقط نكون معا مرة أخرى، معا، مرة أخرى. كنت أعجب من موقفي وأنا أعرض أن ألم الشمل من جديد وهو يقول: "آه .. تريدين أن تضعي رجلك مرة أخرى في حياتي، تريدين أن تستولي على كل ما لدي. ألم تتعظي من الحريق، فربما كان هذا قضاء الله حتى لا ترثيني". يقولها بغل وإيمان وأنا أنظر له غير مصدقة. وقتها أدركت أني مريضة. مريضة بالارتباط به. ماذا لزمني بعد كل ما حدث لأصدق؟ أصدق أن القصة انتهت، والحمد لله بأقل التكاليف. أو كما قالت لي إحدى صديقاتي ربما النجاة من الكوارث البشرية لا تكون إلا بالكوارث الطبيعية. لن أسمح لنفسي مرة أخرى أن أتصرف -كما كنت أسميها- تصرفات الناس الطيبين. أنسى الإساءة، وأدفع الأذى بالمعروف. وإذا نحن عاملنا من أنكرونا وآلمونا بهذه الوداعة، ماذا



fb/mashro3pdf

إذن وفرنا لنقدم لمن يراعوننا؟ وهل يصح أن يجني الإنسان غير ما زرع؟ كيف أسمح أن يستمر خرس قلبي. جدبت عيناي. حدائق الحنان بخضرة الزيتون التي كانت له أصبحتا خرزتا زجاج. له جف نبعي. لا يجب أن يأمل، هو الذي لم يعرف قيمة وقدر مياهه، ولا أظنه سيعرف أبدا. لم يعد يهمني أن يعرف. هذا هو التطور، أنا لم يعد يهمني أن يعرف. أصبحت الآن أكثر توازنا. لم يعد يضايقني غير أن يتصل بي أحد أصدقاء الفنان ليطلبوا مني أن أعتني بالأستاذ في سنه تلك، وأن أدعه يعيش معنا، وألا أتركه لقمة سائغة لمن يستغلونه، ويبعدون عنه كل أصدقاءه، فأضرب كفا بكف بيأس. ثم بجهد جهيد فصلت نفسي تماما عن الأمر، عندها استرحت، وأدرت ظهري للموضوع كله. لم يعد مركز حياتي، لم يعد في حياتي أصلا، أما هو فيبدو فرحا باستعادته حريته التي طالما خاف عليها. عشرون عاما لا تقاس بعمره السابق كعصفور طليق. يعيش وحده الآن. يصنع توازنا ما، لا أدريه ولا أسأل عنه. أما أنا، فأنا لم أعد نفس الشخص. لقد تغيرت أولوياتي، إذ لا يمكن ولا يصح أن تكون أولوية الإنسان أي شئ وأي أحد قبل نفسه فهذا هو واجبه الأساسي. وهكذا أحرص على نفسي، أسعدها وأقويها. أصبحت علاقتي بالآخرين تمر من خلال تلك الأولوية. فأنا أسعد الآخرين بعمل ما أو حتى بكلمة لأن سعادتهم تشعرني بالسعادة. جهدت لأن أعرف نفسي أكثر. كنت قد أوصلت نفسي من قبل لمرحلة لم أعد أعرف فيها ما أحب وما اكره. بدأت في التعرف على نفسي من جديد، وبصراحة يعجبني ما أكتشف. لا أخجل أو أتهم نفسي بالأنانية كما كنت افعل مع نفسي من قبل، ويدهشني أن أكتشف أنه كلما احترمت واعتنيت بنفسي، كلما بذل الآخرون جهدا أكبر في مراعاتي، عكس الوضع الذي يستعد فيه الآخرين لأن يدوسوك لأنك ببساطة شديدة لم تتعود أن ترفع رأسك. أنا خارجة من تجربة عميقة وطويلة ومرهقة وموجعة، لست متأكدة أن جروحها اندملت، إلا أني لا أستعجل.



fb/mashro3pdf

# ٩

كيف أصف حالي، شهر وزيادة الآن. سرحانة، أحلم، بما كان، بما سيكون، بمحاولة تذكر شكل، رائحة، لمسة أو إحساس ما. أشعر أني في أحسن حال. ربما لذلك توقفت عن الكتابة، عن الشكوى للورق والتحليل. أعيش الحياة وأتذوق متعتها. أصبحت مشغولة بما حدث في جسدي من تغيرات، بالإشراق، بالشوق واللهفة. هل أصبحت حياتي تدور حوله؟ ما هذا الذي تقولين؟! أغضب وأنتبه، فقد قلت لنفسي لن أعطي نفسي كلها مرة أخرى لأي أحد، أو لأي شيء، لن يكون كلي لدور واحد في الحياة مرة أخرى. يقول لي وأنا بين ذراعيه: "لماذا تفكرين هكذا كثيرا؟ هل تعتقدين أنه يمكنك توجيه كل شيء في حياتك بقوة العقل؟ تحللين وتفسرين وتحكمين "صح و خطأ"؟!". أراقب نفسي، أستغربها كما لو كانت شخصا غريبا. وصديقتي الكبيرة تقول لي: "معلهش، أعط لنفسك فرصة وبراح، للشبع، للراحة، وللبهجة. أنت افتقدت علاقة طبيعية سلسة لمدة طويلة".

يفتح الباب وتجوب عيناه الخائفة فضاء البسطة والسلم خلفي ويدعوني للدخول هامسا. أدرك عندها فقط ومن نظرته فكرة (ضد القانون). وأنا أتوجه اليه تدور في عقلي أفكار خطوط الرجعة، التبريرات. ماذا إذا سألني أحدهم؟، ماذا إذا أنا قابلت أحداً ممن اعرفهم؟، ماذا يمكن أن أقول؟، أو كيف يمكن حتى أن أعود بظهري. ثم يغلق الباب علينا فينتهي لدي العالم



fb/mashro3pdf

الخارجي، نصبح أنا وهو العالم. نحي أحدنا الآخر بالرغبة والخجل. أقبله على خديه فيجتاحني عبيره، يدوخني ويتسلل لمعدتي ويستقر. نبحث عن أي كلمات لنتغلب على الارتباك. أضع حقيبة يدي على المائدة في الصالة في مكانها الذي أضعها فيه كل مرة، وأستدير لأواجهه فيهجم علي محتضنا بشوق بدأ يفلت عنان التحكم فيه. أقول لنفسي بدلال وشيء من عدم التصديق أو كأني أستكثر: " يشتاق إلي، فعلا يشتاق إلي، ما أحلى هذا الشعور". يقول "تشربين شيئا؟". أقول "نعم، شاي". نتجه للمطبخ معا، نتحرك معا متلامسين، يشد كل منا الآخر إليه بشدة. يراقبني وانا أتحرك في المطبخ الصغير وأشعر بمراقبته فأراقب نفسي، كيف أتحرك بحرية ومعرفة الشاطر. أعجب بنفسي وأتذكر كيف كدت أفقد الثقة. ينتهز فرصة التفاتي إليه، أو يمر من ورائي كأن بالصدفة، فينقض علي محتضنا ومقبلا، مظهرا شوقه. أغمض عيني في استمتاع. نحمل الشاي للصالون. نسمع بعض الأغاني، يحاول ترجمة بعضها، نجلس جوار بعضنا، نتجاذب أطراف أحاديث مفتعلة، لا تهم أحدنا الآخر لهذه الدرجة. أعرف ما يفكر فيه، عنده فكرة واحدة، أعرفها وتعجبني، ولكن أود أن تتأخر قليلا. لنشرب الشاي، لنتحدث قليلا، لنلمس أحدنا الآخر من على بعد أكثر قليلا. ثم لا يعود يصبر. ينتزعني من مكاني لنذهب هناك وأستجيب له.

عندما لا تعود تفرق بين تنفسك وتنفس الآخر تشعر أنكما أصبحتما واحدا. لحظة يهيأ لي فيها أني لا أريد ان أنفصل أبدا عن ذلك الكيان الآخر. أذرع وسيقان تضغط، بشدة، فلا نعود نشعر بحدود أحدنا الآخر. هو يقبل يدي، ثم يدي الثانية، وانا أقبل أصابعه التي تمسك بكتفي. "كيف تعرف ما أحتاجه، ما أفكر فيه وأريده في التو واللحظة؟". يبتسم وهو يمر بيده على ظهري. "أنت بنت صغيرة!. كأنك بنت صغيرة!". يقول أنه يشعر أنه تغير، لم يقض كل هذا الوقت أبدا في تبادل الحنان بعد الحب، أما أنا فلا اشعر أني تغيرت، أشعر أني عدت لطبيعتي.



fb/mashro3pdf

تسألني
أردت كلمتان
فقط...
ألحفت بالسؤال
ماذا أقول؟
كلامي لغة منسية
لغة الجسد، رائحة وملمس
أنوثتي المخبأة
منذ دهر،
رقة وحنان
شفاه تستخدم، أذرع وسيقان
حياة تعود لراحة اليد، وأطراف أصابع
لتلمسك
شعري، ظهري، ويداك
أنفاسك
على خدي،
ونهدي الذي نهض
كلها
لها معنى
امرأة ... مرة أخرى



fb/mashro3pdf

أصدقاؤه، أو بالأحرى معارفه، إذ هو في القاهرة لعقد عمل قصير، يسمونه "الرجل الفرخة". ليس لشيء، إلا لأنه بصورة ما يشبه في الشكل شكل الدجاج متوسط العمر، الذي تعدى سن الكتاكيت ولم يصبح دجاجا كبيرا بعد. رأس تلك الدجاجة صغير مقارنة بجسمها الذي نما وعنقها الذي استطال ولكن لم يكسو الريش تماما بعد. سلوكها أرعن وصوتها حاد عصبي. هم يسمونه "الفرخة" بالأكثر بسبب حركة رأسه بعنقه الغريبة التي تشبه حركة تلك الفراخ المتوسطة العمر. يشرأب بعنقه للأمام رافعا ذقنه وحاجبيه الخفيفين ليركز فيما تقول أو ليركز في موضوع ما، ثم ينتبه لنفسه ولنظرة الآخرين المستطلعة للحركة الغريبة التي قام بها، فيحرك عينيه يمين وشمال دون أن يحرك رأسه، ويعود برقبته للخلف ويحرك رأسه لليسار واليمين بشكل حاد إلى حد ما كأنه يقصد أن يطقطقها ثم ينظر لأعلى أو في الاتجاه الآخر ليداري ارتباكه. النظارة ذات الإطار المذهب على عينيه يدفعها بحركة عصبية بأصبع واحد ليثبتها في مكانها الذي لم تتحرك منه. عيناه بلا رموش تقريبا ولون بشرته أشهب باهت والشعر فوق رأسه خفيف لونه كستنائي كالح يتركه طويلا إلى حد ما ليخفي بداية الصلع إلا أن جسده رياضي يبدو عليه بوضوح اهتمام ورعاية صاحبه له. يلبس أحذية غليظة ثقيلة بأربطة كثيرة كأحذية متسلقي الجبال لم أفهم الداعي لها في جو كجو القاهرة.

زرتها في عيد ميلادها. بعد التحيات والسلامات والمأكولات والمجاملات الشكلية وانصراف باقي الضيوف، أجلستني جوارها بعد أن تفاديت أن تتلاقى أعيننا طوال الأمسية وقالت مباشرة: "انت منورة يابت". احمر وجهي دون أن أشعر ونظرت للأرض. قالت: "السعادة والنضارة والضوء تشع منك. ارفعي رأسك، ولا تخجلي من أي شيء يعطيك بهجة وإرواء". طلبت مني ان أضع شبابي واحتياجاتي في الاعتبار وأن احترمهم ، وأن أفكر في مرور الزمن وفي الفرص التي يمكن أن تضيع

fb/mashro3pdf

بتقدم العمر. قلت ساخرة: "هل ترين الطابور يقف بالباب؟ وما نوعهم يا ترى؟". أشاحت بيدها بسرعة: "أعرف ان اختيارك سيكون صعبا. لأنك نضجتي جدا. دماغك أصبح كبيرا، فمن يستطيع استيعابك؟!. أعرف، أعرف .. سيخافون منك". قلت: "أما عني، فهل أنا قادرة الآن على قبول وضع أن يعاملني أحدهم كناقص عنه، أو يضع قيدا في رقبتي مرة اخرى". قلت كأني أكلم نفسي: "على أية حال ، لا أود تغيرات كبيرة الآن، أنا في احسن حال. أحاول تضميد جراحي، والتغلب على اعتيادات الماضي. أود بالأولى أن استطيع التعبير عن نفسي، إلا أني الآن، وحاليا، أود أن أرتشف، قدر استطاعتي أمتّص الرحيق، حتى الثمالة". فتهز رأسها وتقول: "أنت كالأرض الشرقانة، معلهش .. أعط لنفسك فرصة، أعط لنفسك فرصة".

(يستند في راحة على ذراعيه العاريين المعقودين تحت رأسه. يتنفس بعمق يقترب من التنهد ويسألني فجأة بلغته المتعثرة وهو مغمض العينين: "هل تنوين الزواج مرة أخرى؟". "لا استطيع اتخاذ قرار كهذا الآن. أنا خارجة من تجربة صعبة لم أفق منها تماما بعد. ما زلت مليئة بالجراح، ولا استطيع بعد أن أفكر بالمستقبل بتلك الحرية والتجرد. وأنت؟ هل تنوي أنت الزواج؟". هز رأسه وقال بصوت منخفض كأنه يكلم نفسه: "لا أظن اني استطيع أو أرغب أن أعيش وحدي بقية حياتي". أشفقت عليه وعلى الرجال. سألته برقة ، ربما أكثر بحدب وعطف: "وهل تعتقد ان فرصك يمكن ان تكون متاحة اكثر هنا في القاهرة؟"، رد بسرعة: "غالبا لا". "هل تفكر في العودة لبلدك حتى تجدها قبل ان يمضي العمر أكثر؟". أجاب ساهما: "لا أدري. ولكن عندما أتيت القاهرة قابلتك فتغيرت حياتي. شعرت أن مجيئي للقاهرة كان مدبرا حتى أجدك". شعرت بالزهو إلا اني أجهضته بسرعة بإحساسي بالمسئولية وحسابات تبعات كلامه وما يريده أو يتوقعه مني. قلت بتحفظ، وأيضا بتجرد كما لو أن الأمر لا يعنيني : "أنت لا



fb/mashro3pdf

تعرف كيف ساعدني وجودك في حياتي. أنا فعلا أتمني لك كل خير. فإن وجدتها يوما، المرأة المناسبة لك للزواج، أخبرني، وسأتمنى لك السعادة". فأضاف بسرعة أن هذا سابق لأوانه. ضحكت بارتباك وقلت في استجداء: "نعم أرجوك، ليس الآن، ليس الآن". امتدت أيدينا لبعضنا في عطف ورغبة في العناق، كأننا نلتجأ أحدنا للآخر.)

أنتظر أن تظهر الشمس بين فينة وأخرى من بين طبقات السحب الكثيرة العابرة. أرقد على ظهري متأملة سعف النخيل ينتشر على الأفق ويزخرفه فوق رأسي تماما على شاطئ العريش. خرجت صديقتي من البحر، جففت نفسها واعتدلت بعد أن أشعلت سيجارة. بدا أنها كانت تفكر مليا في الموضوع وهي تسبح بحيث فتحته بمجرد خروجها من البحر. "أعتقد أنك لا تدركين قدر الايلام الذي تسببيه للناس باسم الأمانة تجاه الآخرين وأيضا بسبب رغبتك في البوح والراحة. لماذا تحكين له عن جروحك؟ لماذا تقولين له أنك تقاومين التعلق به؟ لماذا تخبريه أنك مستعدة للتخلي عنه لأي واحدة عندما يكون هذا اختياره؟. لماذا؟ هذا الكلام يربكه ويشككه في صدقك في التعامل مع التجربة، رغم أن نيتك هي العكس كما تقولين". هزت رأسها وأدارت وجهها لبحر الخريف الرائع. "تبدين كما لو كنت غير أنانية، تقولين أنك تفكرين فيهم قبل نفسك، لكن أظن أن الحقيقة هي العكس : أنت لا تفكرين في شركائك في التجربة كثيرا، لا تسمعيهم....". قاطعتها وأنا أقوم جالسة فجأة، أتأتئ وأهز رأسي وأحرك ذراعاي معترضة، استعدادا للدفاع عن نفسي، للدفاع عن صورتي أمام نفسي وأمامها. لم تسمح لي بأن أتكلم إذ أضافت بسرعة طلقات من الأسئلة: "ماذا تسمين أنك لا تقبلين التغيير حتى عندما يصبح حتميا؟ ماذا تسمين بقاءك مع الفنان كل تلك السنوات؟ كم من هذه السنوات احتملت وهو يكرشك بعيد عنه، ينفضك عن جلده كما لو كنت جربة؟. تقولين أنك أردت أن تبقي معه لأنك اعتقدت أن هذا كان في مصلحته، بغض النظر عما



fb/mashro3pdf

يريده هو نفسه ... هل فكرت في ماذا يريد هو لنفسه؟ تقولين أنك تحملت الكثير.... تمام، تحملت... ولكن من قال لك أن تتحملي؟!، والآن مع هذا الرجل المسكين الذي تعلق بك... تريدين القصة أن تقف عند حد معين. نعم تخافين من الجرح، تخافين من العذاب، ولكن: ماذا عنه؟! هل تعرفين شعوره؟!". وضعت وجهي بين كفي، وانثنيت فوق فخذاي أبكي. أطفأت السيجارة وبدأت تربت وتمر بكفيها على ظهري العاري ثم رقبتي وشعري. قالت برقة شديدة وصوت منخفض: "لماذا تفعلين هذا. هذا خطأ. أنت تربكينه وتؤلميه. سيحتار من يصدق. تلك التي تقول بلسانها هذا الكلام أم الأخرى التي منحته منذ دقائق كل تلك المشاعر. سيرتبك وخاصة مع ضعف القدرة على الحوار باللغة وامكانية سوء التفاهم". قلت بين دموعي: "أردت أن أكون أمينة". اندفعت قائلة بحدة: "هناك خيط رفيع بين الأمانة وأشياء أخرى كثيرة. الأمانة يمكن أن تكون غطاء للرغبة في الايذاء للقسوة، لتنمية الايجو ، لإنقاذ الايجو. للأنانية. يجب ألا نستخدم "الأمانة" بهذه الطريقة". ظلت تمسح على رأسي وظهري المنحني برأفة، ثم أضافت برقة وصوت منخفض: "يكفي لكي تكوني صادقة وأمينة أن تؤجلي الكلام في الموضوع، أن تقولي مثلا أنه سابق لأوانه. لماذا اصدار البيانات هذا؟ عندك ارتباك خطر، تتراوحين بشدة بين الكبت وعدم إظهار المشاعر، وبين إطلاق أعنتها بشكل مفاجئ وعلى الفاضي والملآن". تحتضن كتفاي بحنان وأنا أجلس جوارها، أفكر بعمق فيما تقوله، أجفف عيناي ووجهي وأتمخط بصوت، فتبتسم وتحاول أن تخفف عني: "تعلمي أن تقفلي بقك. ألست أنت من كنت تفخرين أنك الكتومة؟".

صنعت لنفسي شايا وجلسنا في الصالة نسمع الموسيقى. قام وأخذ من يدي الفنجان ووضعه على المائدة وقادني للكنبة وغرقت في رائحته. في ضوء الحجرة الخافت أنظر إليه يفك رباط حذائه ببطء واستغراق. دون أن ينظر لي سألني فجأة: "هل تأتين معي في العطلة القادمة لزيارة بلادي". لم



fb/mashro3pdf

ينتظر، بل أضاف سؤالا آخر أكثر لا معقولية: "هل تأتين معي لبلادي للأبد". "أجيبي" قال وقد علا صوته وتشنج وجهه بشكل ما. شعرت أن لديه صراعا ما. نظرت إليه وقلت: "هل هذه دعابة؟" قال بعتاب: "هل هذه اجابة؟!". ألقى بنفسه جواري واحتضنني قائلا: "أريد اجابة". قلت "من الصعب الاجابة الآن وبهذه السرعة". كنت أبتسم محاولة تحويل الأمر لدعابة، إلا أن الصراع الذي لم أفهم سببه كان باديا على وجهه. قال بتوتر: "هل إجابتك أنك لا تستطيعين الاجابة الآن؟". قلت مداعبة: "أستطيع أنا أيضا أن اسألك". ثم قلت بطريقة أقلد بها ايقاع سؤاله: "وأنت، هل تستطيع ان تبقى معي في القاهرة للأبد؟". فقال بسرعة بطريقة قاطعة: "لا، سيكون هذا صعبا جدا". فشهدته على نفسه: "أرأيت؟ القرار صعب". كان جسدانا ملتصقان والأيدي تجوب برقة، تصب الحنان. توقف فجأة وقال كما لو أنه يعاني ألما ما يقاومه: "أخبريني. هل تأتين هنا لهذا فقط؟ أجيبي؟ هل من اجل هذا فقط؟". ابتسمت وحاولت تهدئته. ذكرته بحوار سابق لنا عن نفس الموضوع، ذكرته بإجابته هو نفسه عن سؤال لي: "من أجل هذا و(شيء آخر)". فردد متذكرا: "نعم، نعم، شيء آخر... الحنان، أليس كذلك؟". فأجبت بابتسامة. كنت اشعر بصراع ما داخله لا أتبينه. أخذ يهدهدني في حضنه بعدها كما لو كنت طفله الرضيع وطلب مني أن أبقى معه الليلة، ترددت قليلا ثم وافقت. جاء لي ببنطلون رياضة قطني وبولو شرت رمادية. قال أنه سيقرأ قليلا. أتى بالكتاب عن مصر الذي أهديته إياه وبدأ يقرأ في السرير ثم وقع في النوم فخلع نظارته واستدار ليحتضنني بهدوء وكأنه معتاد أن يفعل ذلك كل يوم، وغطس في النوم. عيناي مفنجلتان وذهني متيقظ تماما. والآن ما الحل؟. يصدر شخيرا خافتا ويتشنج مهتزا بعنف وبشكل منتظم وهو نائم. أدار ظهره وتقلب في نعاسه على كل الأوجه. لم يستقر لمدة طويلة على أي جانب. وأنا أحملق في السقف، وفيما حولي، وأتسمع اصوات الليل والشارع والطيور الليلية وشخيره وتزييق

fb/mashro3pdf

السرير من حركته العصبية وتقلبه المستمر. بدأ الصداع يغزو رأسي. ماذا سيحدث لو قمت من السرير الآن؟ ماذا سيفكر؟، هل سيتضايق؟. آه، ها قد عدت لمرضك القديم. تفكرين في رد فعله وتراعينه قبل راحتك وما تريدين!. في الثالثة صباحا لم أعد أستطيع مواصلة محاولة النوم. قمت بهدوء شديد. أخذت مخدتي وتلمست طريقي بحذر وهدوء. استيقظ، ودون أن يرفع رأسه أو يفتح عينيه أخبرني بلسان نائم عن مكان البطانية، وتساءل عن سبب قيامي من جواره، وقبل أن أجيب كان قد غطس في النوم مرة أخرى.

استيقظت مبكرا، ذهبت للحمام، شعرت أنه استيقظ ، نظرت من باب الحجرة فدعاني بابتسامة لأنضم لع فاتحا الغطاء وذراعيه. اندفعت لحضنه ودفئه. وجهه متورم من النوم جميلا كالأطفال. أخذ يدي ووضعها هناك. فابتسمت وقلت هل تستيقظ هكذا كل يوم؟! تذكرت ما قالته بعض الصديقات عن كيف يستيقظ أطفالهم الذكور من قيلولتهم، ينظرون لأنفسهم مرتبكين، تقودهم أمهم للحمام وهم بين النعاس واليقظة للتبول فيعودون لطبيعتهم. قلت له أني سأعد الطعام. بدأت أصنع عجينة الفطائر. تصرفت. استخدمت شوكتان بدلا من مضرب البيض المعتاد، كنت أسمع الموسيقى عن بعد وأتأمل: ها أنا في مكان آخر، يملكه رجل آخر، اصنع الشيء نفسه. الفطائر التي أجيد صنعها. أنا هي أنا. فقط اقدم نفسي من أول وجديد. قال أنه نظف البيت، وأنه سيقوم بكي ملابسه. جاء يستطلع ما أفعل. يحتضنني من ظهري، يلتصق بي، أشم رائحته فأدوخ. قال أنه سيقوم بتمريناته الرياضية، أخرج الدامبليز من الدولاب وبدأ في تدريب ذراعيه ونظر لي. ابتسمت. ذراعان قويتان تهصران في الاحتضان. يمد ذراعه لي بعد التدريب لأختبره. أقرصه بخفة في العضلة المتصلبة فتغزو عقلي أفكار الشهوة. يؤدي تمرينات الضغط على الأرض أمام المطبخ وأنا انظر وأقلب الفطائر. ألقي بها لأعلى في الهواء بيد واحدة فتنقلب في الطاسة. قام بقفزة



fb/mashro3pdf

واحدة سريعة من على الأرض واحتضن ظهري. ذهب للحمام كثيرا وعندما عاد مرة سألته عما به فأخبرني بصعوبة عن الاسهال. بدأت بسرعة كعادتي بالتطوع بإسداء النصائح فنظر لي نظرة الطفل العنيد الذي يرفض توجيهات الأسرة، فسكت. قال: تتصرفين كماما. سالته عن والدته وعلاقته بها. قاطعني جرس التليفون. وقف مستندا للحائط وقد انفرجت كل أساريره. وضع السماعة وقال أية مصادفة. تسألين عن أمي فتطلبني بالتليفون من الخارج. قلت ضاحكة إن هذا يحدث لي كثيرا، ما يسمى بالتليبثي. ابتسم وأشاح بيده: إذ لا يريد معلومات جديدة كل دقيقة.

كنت قد اتفقت مع صديقتي التي عادت بعد غيبة أن أطبخ لها طعاما مصريا تحبه وأن أدعو اصدقاءها جميعا لتقابلهم قبل أن تعود بعد العطلة. ذهني في فوضى وعندي حيرة: ماذا يحدث مع هذا الرجل؟. ماذا سيكون مني، ومن البيت الجديد الذي يجب أن ابدأ تنظيفه من الجمعة القادمة ونقل الأشياء التي أنقذتها من الحريق إليه. أقف أمام بائع الخضروات. ماذا أشتري؟ ربما الأفضل أن أحدد قائمة مأكولات ثم أبدأ بشراء ما يحتاجه تنفيذ هذه القائمة، أم الأفضل أن أنظر للخضروات فأحدد قائمة المأكولات تبعا للطازج والجيد المعروض منها أمامي الآن في السوق؟ أليست هذه قضية فلسفية يمكن تطبيقها على نواح كثيرة من الحياة؟! الدراسة، السكن، الناس والعلاقات، الرجال؟ "توقفي عن التفكير والفلسفة وأنجزي". بدأت في الطبخ. أول عزومة كبيرة بعد احتراق بيتي وتغير ما تغير. شعرت أنني على شفا البكاء. افتقد بيتي. شباك المطبخ ، والراديو على الرف مغطى بفوطة مطبخ ليظل نظيفا. أفتقد الصواني، صوانيّ، فرني وسكيني، أفتقد حتى الفرشاة القديمة التي أدهن بها الزبد. أفتقد منظر الشمس تغيب بالتدريج ألقي عليها نظرة بطرف عيني دون أن أتوقف عن انهاء الطبخة. وضعت صينية الخضر في الفرن وجهزت اللحم وضعته على نار هادئة



fb/mashro3pdf

وخلعت قفاز غسل الصحون المطاطي وأدرت رقم تليفونه. يتحدث بصوت منخفض صعب الفهم خصوصا مع مشاكل اللغة. ذكر انه سيسافر في رحلة لواحة "سيوه" بعد أن يمر بمرسى مطروح، ثم يعود لوقت قصير ثم يسافر مرة اخرى لبلاده من أجل العطلة الأطول. علقت أنه سيصبح كسندباد الذي يسافر دوما. فلم يفهم أو ادعى عدم الفهم، لا أعرف. قال إنه لا يعرف سندباد. تحدثنا عن ألف ليلة وليلة. قال أنه سمع عنها ولكن لم يقرأها وربما يشتري نسخة بلغته. فكرت أن الأساطير اليونانية أقرب لثقافة الغرب فقلت: "إذن إذا لم تكن تعرف سندباد، فأنت ربما أوليسيس Ulysses الذي يجوب البحار ويمر بتجارب كثيرة في طريقة عودته إلى إيثاكا". ضحك بسخرية شعرت أنها موجهة ضدي. قال "ومن تكونين أنت؟". لم أجب فأنا لا أعرف الكثير عن تفاصيل القصة، فقط أعرف معناها الرمزي. رد بعد قليل وصوته ينم عن مقصد ما لم أفهمه: "أقول لك: ستكونين أنت "كيركي"Circe وضحك. سألته عن دورها في القصة. تمنع قليلا ثم أجاب: "كانت ساحرة، وكانت تحب أوليسيس، ولكي تستولي عليه حولت رفاقه أو اصدقائه إلى خنازير، فقد كانت مشهورة بمعرفتها الواسعة بالعقاقير والأعشاب. ولكن عندما غضب أوليسيس وثار، أعادتهم لحالتهم الأولى". قلت بسرعة: "لا أظن أني كيركي. لست ساحرة، ولا أتضايق من أصدقائك، لو كان لك أصدقاء". كانت حيرتي قد ازدادت. قلت: ولكن ماذا تقصد؟، هناك ما تخفيه عني، هل تشعر فعلا أني كيركي؟، لماذا؟".. تراجع ليسكتني: "أوكي، أوكي، أنت لست كيركي، أنت كاليبسو". قلت في شك "ومن هي كاليبسو؟". قال: كانت ابنة الملك "أطلس" الذي يرفع السماء على كتفيه". قاطعته قائلة: "آه، عرفتها، فعلا هذا أفضل، شكرا. لقد أحبت كاليبسو أوليسيس وساعدته كثيرا. لقد استبقته في جزيرتها لسنوات لأنها كانت تريد الزواج منه إلا أن أوليسيس كان يريد أن يستكمل رحلته ويعود لإيثاكا. وعندما تتدخل راعيته الإلهة أثينا ويأمر زيوس رئيس الآلهة باطلاق سراح



fb/mashro3pdf

أوليسيس ، تغضب كاليبسو لأنها تعتقد أنهما لا يرحبان بعلاقات الآلهة مع البشر الفانين. إلا أن القلق يصيب كاليبسو من ألا يكون حب أوليسيس مقدرا لها، وأن حكم القدر هو ألا يعيش معها للأبد، فتطلق سراحه وتتركه يستأنف رحلته مزودة إياه بسفينة ونبيذ وخبز. يخبرها أوليسيس أنه يعرف أنها أجمل من زوجته، ولكنه يريد أن يعود لبلاده لأسباب أخرى". يصمت تماما، ثم يقول بصوت منخفض: "أنت تعرفين كل شيء...". أرد بسرعة: "طبعا لا أعرف كل شيء، ولكن حواديت آلهة الاغريق هذه تعجبني". غيّر الموضوع بأن سألني عن الميثولوجيا عندنا، هل هي قصص القرآن وألف ليلة وليلة. حاولت توضيح الفرق بينهما حسب فهمي بإنجليزية بسيطة. كان ينصت وأحيانا يقاطعني ليستفسر عن صحة فهمه لبعض الأشياء. قاطعني فجأة قائلا: "أعتقد أنك متعصبة". تساءلت باستنكار: "أنا متعصبة؟! ماذا تعني؟". قال: "ألاحظ ذلك من الطريقة التي تتحدثين بها عن حضارتك وبلدك". قلت بهدوء: "كوني أعرف وأتكلم بفخر عن حضارتي وتاريخ بلادي لا يعني أني متعصبة، ولا يعني أني منغلقة عن الحضارات الأخرى... ولكن قبل كل شيء، ماذا تعني بالتعصب؟". قال بسرعة: "أوكي، اوكي، لا تهتمي بذلك الآن". أحسست أنه تعب ويريد أن ينهي المكالمة فأنهيتها.

كان قد سألني أيضا عن ضيوفي، عما طبخت لهم وعن الحلو الذي سأقوم بصنعه. تمنى أن يأتي اليوم الذي أدعوه لبيتي لأطبخ له فسكت تماما. هل أريد فعلا أن أدعوه لبيتي وأطبخ له؟. لست متأكدة. كنت أشتاق إليه ولكن أعرف في قرارة نفسي أني لا أحبه. الحب شيء آخر، أليس كذلك؟ ولكن: ما هو الحب؟ لا أعرف، ، لم أعد أعرف، لم أعد متأكدة من شيء، ولكن أعرف جيدا أني لا أحبه. تحيرت وشعرت بارتباك أفكاري المتضاربة!. ومع مجيء الضيوف نسيته ونسيت أفكاري المتضاربة ونسيت الموضوع برمته. كنا نجلس حول المائدة، مجموعة من السيدات متقاربات



fb/mashro3pdf

في العمر والاهتمامات إلا أن خلفياتنا والطرق المختلفة التي خاضت بها كل منا حياتها جعلت لكل واحدة مذاقا خاصا مميزا. نتحدث عن موضوعات شتى، شرق وغرب ، سياسة ومجتمع وأحوالنا واحوال أولادنا وعائلاتنا. عندما أتى الرجل الوحيد الذي قمت بدعوته متأخرا علقن جميعا على تأخره وعاتبنه. كان صحفيا صنع ضجة بموضوعات اجتماعية وسياسية في الفترة الأخيرة. كان أصغر منا جميعا بالعمر إلا أنه كان واثقا بنفسه وكان وجوده مشعا، وكان يعرف. عقله المنظم وثقافته العميقة جعل الحوار العقلي يذهب في اتجاهات ايجابية.

رغم رغبتي الشديدة في النوم إلا أني كنت مليئة بالطاقة. وضعت بواقي الأكل في العلب، رتبت البيت وبدأت في غسل الصحون وأواني الطبخ، ثم رتبت كل الأشياء النظيفة في أماكنها ونظفت المطبخ. نظرت حولي وشعرت بالفخر والارتياح ودخلت لأنام. على مخدتي بدأت الأفكار تهاجمني. ذلك الذي تتراوح أحاسيسي ناحيته، وعزومة اليوم واختلافات الضيوف، وبين الغد الذي رتبت أن أنقل فيه للبيت الذي تم اصلاحه ما كنت قد أنقذته من الذي ردم تحت المخلفات المحترقة .

وفي اليوم التالي ذهبت لمحل أدوات النظافة. ماذا شعرت وأنا اقول للبائع هات ده، وده، وده. فرجني على النوع ده، هل عندك لون آخر. شعرت بثقة ومتعة. توقعت أن أكون أكثر انفعالا وعاطفية، ولكن لم أكن. حمل الصبي الذي تخطى لتوه عتبة الطفولة للشباب الأشياء التي اشتريتها للشقة الجديدة ومشى أمامي. لم يكن يعرف الطريق فظل يتلفت ليتأكد من وجودي وراءه وأنه في الطريق الصحيح. تعجبت: لماذا لا يمشي معي، أو خلفي. وضعها على الأرض وانصرف. أغلقت الباب ورائي. أتى بعدها الشباب الذين طلبت من البواب احضارهم ليساعدوني. نقلنا الأشياء من أماكن تخزينها للبيت. أعجبت بقدرتي على التنظيم، كل كرتونه مكتوب عليها ما فيها والأشياء التي نجت من الحريق ملفوفة بعناية واحترام



fb/mashro3pdf

تستحقه. أخذت أجوب الشقة. زوري يغص بالتدريج وأنا أنظر في الأركان الخالية المدهونة حديثا، في الضوء الداخل من النافذة، في اللمبة المعلقة من السقف بدلا من نجفة نحاسية قديمة محاطة بكريات الزجاج الملون القديم مختلفة الأحجام وحجراتنا الثلاث اللاتي لم تعد حجراتنا. وفي الحمام أتت لعيني الدموع: هاهي سلسلة السيفون ذات الجلاجل وقد بقي نصفها فقط. انهرت جالسة على إحدى صناديق الكرتون التي وضعت في منتصف الصالة، أنظر حولي وأنا على شفا البكاء.

عاد اليوم من رحلته إلى واحة (سيوة). يبدو أنه استفاد واستمتع واكتسب لونا وزاد وزنه قليلا. عندما فتح لي الباب وقف على مسافة وراء الباب حتى دخلت. انتظر حتى أضع حقيبتي ومعطفي وتردد قليلا ثم تقدم ببطء لنقبل بعضنا. قلت له وأنا أتفحصه: "هل هناك شيء؟!!". "كله تمام، لماذا تسألين؟" رد دون أن ينظر لوجهي. لأول مرة منذ عرفته أراد أن يشرب. صب لنفسه قليلا من الويسكي في كوب. رفع الكوب أمام عينيه وقربه من زجاج نظارته ثم أعاد للزجاجة بحرص شديد قليلا مما صبه في البداية، ثم رفع الكوب لعينيه مرة أخرى. تعجبت ولكن لم أقل شيئا. أضاف للكوب قليلا من الكوكاكولا. عرض علي فاعتذرت بابتسامة وهزة صغيرة برأسي، فلم يعرض مرة أخرى. سألني: "هل أكلت؟" وأضاف بسرعة أنه أكل بالفعل منذ قليل. نظرت له في حرج واستغراب. لماذا لم يكلف نفسه أن ينتظرني!. ذهبنا للمطبخ. فتح الثلاجة قال: "هذا هو باقي الخس الذي أتيت به المرة السابقة، أكلت أغلبه في غدائي الآن وبقيت فقط ثلاث أعواد". سألته إن كان لديه جبنة بيضاء. قال " آسف، أكلت بقيتها الآن". قلت في نفسي: "الآن؟ ما هذا؟" أخذ يبحث في الثلاجة فوجد بقايا جبنة رومي. أخذت واحدة من عيش السن الجاف وخرجت للصالون. جلست على الكرسي لأنه تمدد على الكنبة التي عادة ما كنا نجلس عليها متجاورين. أمسك بكتاب وهو ينظر لي بطرف عينه ثم أشاح بوجهه بسرعة ليلصق



fb/mashro3pdf

وجهه بالكتاب ليتجنب نظرتي عندما التفت إليه. قلت بعد فترة سكات محرجة ومتوترة وقد علقت عيناي على وجهه: "ماذا حدث؟! هل هناك ما يسوءك. أراك مبتعدا جدا. هناك تغير ما....". قاطعني مردداً عدة مرات": لا شيء، كل ما في الأمر أني أردت أن أتمدد لأستمتع بقراءة كتاب في هدوء في وجودك، هل هذا ممكن؟". قلت بابتسامة لأحاول ازالة توتره وتوتري: "طبعا ممكن. هل هذا كل ما في الأمر؟". قال: "نعم، هذا كل ما في الأمر، هذا هو ما اريده". قلت: "أوكي، استمر أنت في القراءة وسأستمر أنا في طعامي". قام بعد قليل وذهب للصالة ليغير الاسطوانة. اتجه لركن الصالة وانكب على نوتة التليفون يقلبها باحثا عن شيء ما. يطلب رقم ثم يتوقف في منتصفه ، يضغط على زر التليفون ويبدأ من جديد. عندما عاد للصالون تردد في الاستلقاء مرة أخرى. أتى لجواري وجلس على يد الكرسي كما تعود أن يفعل من قبل. مال عليّ. اقترب وجهه من وجهي. توقف في منتصف الطريق وابتعد قائلا:" هل هذا الطعام كاف؟". قلت: "الحمد لله". كرر مبتسما بلكنة خواجا: "همدو ليلاه"... سأل مرة اخرى: "قولي لي فعلا، قولي لي، هل هذا يكفيكي؟" قلت وانا لا أود احراجه: "وهل كان هناك غيره!". تجاهل ما قلت وأشاح بوجهه وهمّ واقفا. قبل أن يعود لكنبته سألته: "هل عائلتك على ما يرام؟". التفت بكل جسده ناحيتي بعصبية قائلا أنه حدثت هزة ارضية أخرى قريبا من بلدته، وأنه يريد ان يحادثهم الآن، فهل أمانع؟. استغربت وقلت أني بالطبع لا أمانع. أنهيت طعامي وذهبت للمطبخ. غسلت طبقي وبدأت في غسل القليل من الأطباق والأكواب الأخرى التي كانت في الحوض. أتى للمطبخ بعد ان انهى المكالمة ووقف خلفي، التصق بي دون ان يحتضنني وهمس في أذني "لماذا تغسلين هذه الأطباق؟ أنت لست الخادمة هنا". نزلت علي الكلمة كدش بارد مفاجيء. التفت إليه في حدة. وضعت عيني في عينه تماما في لوم. توقعت ان يفهم غضبي، أن يحنو عليّ معتذرا، إلا أنه لم ترمش له عين، بل كرر: " أنت

fb/mashro3pdf

لست الخادمة هنا". تصلب وجهي تماما وأنا أغرز عينيّ بعينيه. بدأ وجهه يتحول لقناع ما بالتدريج. تجمعت الدموع في عيني. أشحت بوجهي واستمررت في غسل الأطباق وأنا مطرقة وهو في مكانه لا يتحرك. شعرت أنه ينتظر ليرى كيف سأرد. شعرت أنه لسبب ما يريد إيلامي. شعرت أن هناك شيئا غامضا لا أعرفه. قلت بإنجليزية قصدت أن تكون بطيئة وبسيطة وواضحة حتى لا يدعي عدم الفهم: "كنت اعتقد أنك تفهم. أنا لا يضايقني أن أكون خادمة لمن أحب. هناك شيء تغير لا أتبينه، إلا أنه ومهما كان الأمر، فبالتأكيد ليس هناك ما يستدعي أن تكون قاسيا تجاهي". انتفض مبتعدا: " قصدت أن أمازحك وها انت تصفينني بهذه الصفة". خرج من المطبخ وأكملت أنا غسيل الأطباق والأكواب. عندما خرجت من المطبخ كنت قد نسيت غضبي إلا أنه تبقى منه بعض الحذر. قابلني على مدخل الممر المؤدي للمطبخ. قال وهو يقترب: "ماذا تريدين الآن؟". قلت فجأة دون أن أفكر: "أريد أن أنام قليلا، فقط ربع ساعة". قال بخبث متظارف: "أين؟!". قلت وقد شعرت بحذري يتصاعد: " في المكان الذي لا تكون أنت فيه". هز رأسه بعدم فهم، فقلت: " إذا جلست في الصالة أذهب أنا إلى حجرة النوم، وأذا ذهبت أنت لحجرة النوم أتمدد أنا على الكنبة في الصالة". ابتسم متحيرا وقال: "كما تحبين". استلقيت على السرير محاولة الاسترخاء مستحضرة بعض ما قرأته من طرق الاسترخاء. أرخي قدمك اليمنى، ثم اليسرى، ساقاك، ركبتاك، بطنك، جانباك، صدرك، ذراعك الأيمن، الأيسر، الكتف والرقبة ثم الرأس، جزءا، جزءا، ما أحلى هذه الغفوة. يتحرك في الصالة لا أدري ماذا يفعل ولكن أسمع صوت حذائه الثقيل. شعرت بعد قليل بمن يراقبني. لففت وجهي وجدت رأسه تطل عليّ من باب الحجرة. ابتسمت. اقترب وجلس على حرف السرير. شعرت بصراعه مرة أخرى. فأغمضت عينيّ ولم أتكلم أو أتحرك. تكلم فجأة قائلا مرة أخرى أنه اليوم لا يود إلا أن يقرأ وأنا جالسة جواره. لم أرد ولم



fb/mashro3pdf

يتحرك هو. ثم قال فجأة وكأنه يحاول انقاذ الموقف: "هل تريدين رؤية صور رحلة "سيوة"؟ قلت: "بالتأكيد". قام بهمة وأحضر الصور من كيس داخل كيس داخل كيس. سندت ظهري على ظهر السرير ومددت ساقاي بعد أن اضاء النور وناولني الصور ولف حول السرير وجلس جواري ملتصقا بي. أخذت أقلب الصور وأسأله عن الأماكن والمناظر والناس. بدا أنه يحب أن تؤخذ له الصور: وحده، رافعا رأسه، بالبروفيل، واضعا كفاه على خاصرته مظهرا جسده الرياضي، أمام النخيل، أمام كثبان الرمل، أمام الغروب، أمام المنازل السيوية البسيطة. أخذ يحكي بحماس عن الرحلة، التفاصيل، الرمال، معبد آمون، الصحراء. سألته عن المرأة التي تكرر ظهورها في الصور وذراعه حولها، ثم وذراع صديقه أيضا حولها، ثم وذراع كل منهما حولها وهما يحيطان بها ويبتسمان. راوغ في الإجابة وغيّر الموضوع. كانا في إحدى الصور ملتصقين، يشع الاشباع من عينيها. سألته ماذا كانا يفعلان قبل هذه الصورة. ابتسم في خبث وغيّر الموضوع. (تذكرت الصورة العتيقة التي يحتفظ بها الفنان. يظهر فيها وحده وقد ابتلت ملابسه وتهدل شعره الفاحم على وجهه ولمع وجهه من العرق. أزرار قميصه كلها مفتوحة ويميل متكئا على كوعه على درجات سلم حجري لمبنى اسلامي قديم واضح أنه كان يستخدم كمراسم للفنانين وقد كُتب على ظهرها بخط الفنان الذي اعرفه جيدا "إلى الآنسة "عفيفة" بعد أن أتى يوسف بالفتيات"). شعرت بالغضب، بقسوته. شعرت بالغيرة، وكرهته، واشتهيته أكثر، فالتفت إليه ودفنت رأسي في صدره. لم يتحرك. ظل كتمثال. عدت بسرعة لوضعي الأول وأخذت أقلب الصور في صمت. أخذ هو يتحرك جواري هذه المرة. استسلمت ليديه. كان غريبا. هناك بالتأكيد شيء لا أدري كنهه. أشعر بيديه جافة عصبية، كما لو كانتا تلمسان شخصا مجهولا لا يعرفه. تمدد فوقي بكامل ملابسه، لا يقبلني، ولا ينظر في عينيّ كما عودني، فقط يدفن رأسه في عنقي ويهصرني بكفيه بلا حنان. مد يده



fb/mashro3pdf

بطولها وقلبني بعنف. رقد على ظهري مشيحا بوجهه لكتفي. يتحرك فوقي وهو مازال بكامل ملابسه، يتقلص، وأنا أحاول أن أستدير، أن أشاركه، فلا أقدر إذ يطبق علي ظهري بقوة وتحكم. تصاعد ارتباكي وحنقي وهو يصدر أصواتا مكتومة ثم شعرت بسخونة على فخذي. قفز فجأة وجرى للحمام ليحضر لفة ورق التواليت يفردها بسرعة. أبعدت يده بحدة وتناولت ورق التواليت الذي سقط بجواري، فغادر الحجرة على الفور. تمالكت نفسي وسندت ظهري على ظهر السرير وشددت الغطاء على ساقاي. كان داخلي يبكي. كنت حائرة وحانقة. عندما عاد استلقى بجواري نصف جالس وبدلا من ان يحتضنني كعادته وضع يده على كتفي. أردت أن أبكي ولكن لم أفعل. فقط بحلقت في الفراغ أمامي. سألني عما بي. استدرت له بحدة ونظرت له طويلا محاولة أن أفهم. بعد لحظات من الصمت وأنا أبحلق في الفضاء كرر السؤال عما بي. قلت بصوت مختنق "أود أن اسألك ...." لم أستطع أن أكمل. أخذ يتكلم بسخرية عن أفكار بعض النساء عن الحب والعلاقات، وأن ما حدث اليوم لم يكن من وجهة نظره شيئا سيئا. ابتعدت قليلا ونظرت اليه. شعر بنظرتي فابتسم وجذبني إليه. قال أنه يحمل لي تقديرا خاصا. قلت: "ولكن هناك شيء ما تغير ، أليس كذلك؟" قال بسرعة: "نعم، هناك شيء تغير. نعم، أنا تغيرت، ولماذا أنكر. كل الناس تتغير. لا ضمان لأن لا يتغير الناس، أليس كذلك؟، ألا تتغيرين انت؟". قلت: "نقول بالعربية ما معناه لا دائم إلا الله. بمعنى أنه لا دائم دون تغيير إلا الله." قال: "هل تؤمنين بالله، بإلهكم؟" قلت: "نعم، بطريقتي الخاصة. إلهي كان دائما كريما معي. ما طلبت أبدا منه شيئا ولم يجبني" قال: "مثل ماذا؟" فكرت قليلا. هل أسرد عليه حكايات طفولتي وشبابي، اختياراتي، هل يهتم. هل هذه لحظة مناسبة؟. قلت محاولة الابتسام لأخفف الموقف المتوتر: "طلبت منه أن أعجبك، كما أعجبتني أنت منذ البداية". فرد بعصبية ونبرة ساخرة وهو يضغط على حروفه: "ولماذا لا تطلبين إذن من إلهك ان يشفيك من أثر



fb/mashro3pdf

تلك التجربة غير السعيدة؟!". رفعت رأسي بسرعة ونظرت داخل عينيه فأشاح بوجهه فقلت: "أنت تعرف جيدا أن الكلام عن هذا الموضوع ليس بهذه البساطة. كنت قد اعتقدت أنك تفهم". قال بنبرة ساخرة: "ما كل هذه الجدية؟!... أنت جادة جدا. هل أنت هكذا طول الوقت؟". لاحقته بالسؤال: "وأنت: صارحني الآن ، ما الذي تغير؟" ثم قلت بصوت منخفض دون أن أدري تماما ما أفعل: "هناك امرأة أخرى؟ أليس كذلك؟". أشاح بوجهه وقال "نعم". قلت بصوت أكثر انخفاضا: "المرأة في صور الرحلة؟". هز رأسه بالإيجاب. قلت وأنا أشعر ببداية دوار وغثيان وأن طاقتي تتلاشى: "لماذا لم تصارحني؟ ... لماذا على الأقل لم تلغ موعد لقاءنا؟". قاطعني بسرعة: "لأني أريدك أنت أيضا....". خف رأسي وبدأت أطرافي تبرد وتثقل. قلت بعد قليل وأنا أعقد ما بين حاجباي: "هل توقعت أني سأوافق على مثل هذا الوضع؟"..... قال: "لماذا لا؟ في ثقافتكم لا يمكن للمرأة أن يكون لها أكثر من رجل، ولكن يمكن للرجل أن يكون له أكثر من امرأة... أليس كذلك؟".
بدأت أهز رأسي غير مصدقة أني طرف في هذا الحوار اللامعقول. من هذه النقطة أخذت أسمع جمل الحوار التي ستحدث في ذهني قبل ان تقال، فتؤلمني مرتين. الحقيقة أني بشكل ما رأيت هذا اليوم كله قبل أن يحدث. جمل حوارنا، حركاته، وحركتي، تجعلني أتأكد أكثر واكثر من قوة حدسي فأخاف من نفسي. نعم، أحيانا استطيع التنبؤ وتصبح قدرتي على قراءة الأفكار مخيفة. لماذا لا أصدق حدسي من البداية فاجنب نفسي الكثير؟!.
حاول التعبير بلغته الانجليزية الضعيفة. تكلم عن مشاعره التي لا يفهمها هو نفسه تماما تجاهي ، عن تمرده على التعلق بي، عن حاجته للشعور بالأمان. سأل عني وعن الرجل الذي كان في حياتي لفترة طويلة. قال إن تفوقي و"كمالي" يجعل مشاعره تتضارب تجاهي. عندما هززت رأسي بشدة عندما سمعت كلمة "الكمال" قال بحرارة وشيء من الغيظ أنه لم يقابل أبدا أحدا مثلي: كل شيء فيّ كامل، كل شيء، إلى الحد الذي يجعله أحيانا



fb/mashro3pdf

يشعر بنقصه هو نفسه وعجزه عن الوصول للكمال، وأنه تعب ... تعـب. كنت أحتضن ساقاي بذراعي وأسند ذقني على ركبتي. أهز رأسي موافقـة أو متعجبة أو رافضة، أو أهتز كلي من تلقاء نفسـي بحركـة عصـبية لا أستطيع منعها.

لا أدري كيف غادرته في ذلك اليوم. هل قبلته قبل أن أمضي؟!، هل قبلني هو؟!. كيف حملت أشيائي؟!، هل علقت حقيبتي على كتفي؟!، وهـل وضعت يدي لأتكئ على سور السلالم الهابطة؟!. ما أعرفه جيدا هو أني لم أستدر لأنظر خلفي، إذ لم أرد بالتأكيد أن أحتفظ بصورة في ذاكرتي للباب الذي أغلق بسرعة ورائي كالعادة. قلبي يقفز لمعـدتي، وبطنـي تـؤلمني، وعقلي يلف بدورات سريعة جدا تجعلني أكاد أدوخ.

كنت اسمع صيحات جماهير الكرة من حين لآخر فأتـذكر أن هنـاك ماتش هام. رأيت بعض الصبية في طريقي يحملـون الأعـلام ويرتـدون ملابس حمراء أو بيضاء أو عليها علم مصر. يبدو أن المباراة تقترب مـن الانتهاء وصوت الناس يأتيني من نوافذ الشقق المفتوحة ومن المقاهي التي مررت بها في الشارع ، يصرخون، فمصر متفوقة على الجزائـر بفـارق طفيف والجماهير في انفعال جنوني . بعد أمتـار قليلـة امـتلأ الشـارع والشوارع المحيطة بمئات، ربما آلاف مـن الشـباب والصـبية يغنـون ويرقصون ويقفزون. أقفلت زجاج السيارة واستسلمت لغرقها وغرقي فـي طوفان بشر. تنبهت للشباب يهزون سيارتي الحمراء من جوانبها، يتعاونون لرفعها عن الأرض ثم يتركونها في هياج جماعي وهستريا تملأ الشـارع ، مرددين الشعارات والأغاني التي لم أعد أتبينها الآن بشكل واضح.



fb/mashro3pdf

# ١٠

إذا نظرت من شباك الطائرة عندما تقترب من اليونان تسعد عينيك زرقة مياه المتوسط، وترى الجزر، كقطع أحجار ملقاة. ربما بعثرتها آلهة الأولمب لسبب ما. أنتظر في ساحة المطار الخارجية بعد أن أنهيت إجراءاتي وغيّرت بعض العملة؟ هل يحضر ليأخذني؟ طبعا، أجبت على نفسي بسرعة. غريبة، لماذا تلك الثقة الكبيرة فيه؟

وصل بعد حوالي نصف ساعة، جميلا، مرتبكا. كلانا يكتشف الآخر من جديد. الحقيقة أننا لا نعرف بعضنا جيدا. أخذ يتحدث مطولا عن المطار الجديد والطرق المؤدية له وبعده عن الأماكن المختلفة ، حجمه واختلافه عن المطار القديم، وأنا أتأمله، أحاول التعرف عليه، أحاول التذكر، اكتشف مشاعري، اكتشفه. ظللت صامتة. أخذني مباشرة لمكان على البحر يمكن منه أن نرى بيريوس على البعد. وقفنا جوار مقهى أخبرني أنه لصديق له وحكى أن سيارته اصطدمت بسيارة أخرى في نفس المكان في اليوم السابق يوم افتتاح المقهى. أمرني أن أترك حقيبتي في السيارة وأن أمشي معه . قلت إلى أين؟ فأمرني ألا أسأل، وأن أترك نفسي له. كان يغتاظ كلما سألته. كان يود أن أتبعه وفقط. أن أثق فيه وأترك له نفسي. أخبرته وأنا أبتسم في خجل من قلقي أن في حقيبتي كل أوراقي وتذكرتي ونقودي، كل شيء . ابتسم في ثقة واستخفاف بما اقول وأكد لي



fb/mashro3pdf

الأمان. فعلت ما أمرني به رغم قلقي وتبعته. مشينا على كورنيش جميل وبحر رائق. قليل من كبار السن يعومون في البحر أو يتمشون. بعض الفيلات الأنيقة . كلاب تتجول في هدوء يداعبها هو بقدرة غريبة على التأثير. نوارس تطير تحط على صفحة الماء الهادئة. تلم أجنحتها وتسكن، فتنقلب لتماثيل بيضاء طافية. وصلنا لبيته. مدخل ضيق ملئ بالمزروعات المتروكة لحالها بدون تشذيب. ضوء كهربائي من مصدر فوق الباب يضيء عندما يقترب أي كائن من الباب حتى لو في عز الظهيرة. بلاط مدخل العمارة المبرقش يقود لباب شقة الوالدين ، وعلى يمين باب الشقة تبدأ سلالم حلزونية رخامية ناصعة البياض، تضيء عند الأدوار بشبابيك زجاجية واسعة. مفتاحا الشقتان في الدورين المتتاليين مغروزان في مكانهما من اليابان طوال الوقت. ينشغل بالتليفون، العادي ثم المحمول ثم العادي مرة أخرى، يمشي به من مكان لآخر، بسرعة، عاري الصدر محتفظا بالبنطلون فقط. يتحدث كثيرا وبسرعة، ويسمع قليلا، ثم ينطلق ضاحكا من وقت لآخر. تنبه لوجودي، جالسة على مدخل التراس الواسع وقد وضعت الهدية التي أحضرتها له أمامي منتظرة. قلت له وهو يمسك بهديتي: رجل فرعوني، نموذج فني طبق الأصل لتمثال أثري قديم، يمد قدمه خطوة للأمام. قلت له: "في مفترق الطرق في الحكايات هناك سكة السلامة وسكة الندامة وسكة اللي يروح ما يرجعش". تجاهل ما قلت ، لا يحب الفلسفة كثيرا، وقال أننا معزومان على ملهى يقدم غناء حيا مع البوزوكيا. اعتذرت. كنت أشعر بالاجهاد الشديد. وكنت أيضا أود أن أجمع نفسي أولا لأستوعب أين أنا ومن هذا الرجل الذي أقيم في بيته قبل أن أتعرف على أي أشخاص جدد. كنت قد بدأت أندهش من نفسي كيف واتتني كل هذه الجرأة أن آتي كل هذا الطريق وأنا لم أعرفه إلا قليلا. تركني لأنام فنمت لليوم التالي دون لحظة قلق رغم المروحة الحديدية التي كانت تصدر صفيرا مستمرا، أبقاها هو دائرة لتقاوم حر أثينا الخانق.



fb/mashro3pdf

في اليوم التالي انقلب شارعه سوقا. نصب الفلاحون القادمون من القرى موائد من أعمدة الحديد والألواح الخشبية مفروشة بمفارش بيضاء ناصعة وفوقها شماسي كبيرة ملونة. رصوا خضرهم وفاكهتهم، أسماك ولحوم وجبن، البقول والأعشاب، الأدوات المنزلية والشتلات وأدوات فلاحة الحدائق. بعض الباعة ينادي على بضاعته "بولي أوريا كاربوزي"، بطيخ حلو أوي، أعجبني صوت اسم البطيخ "كاربوزي" فابتسمت. ونحن على مائدة الإفطار في الشرفة تحت المظلة الملونة، سمعت نداء بعيدا باسمه، رد عليه هو صارخا ( أوريستي) بمعنى أفندم أو نعم كما عرفت بعدها. ينادي والده من الدور الأسفل عبر فتحة تصل الشقق ببعضها. خرج ليصرخ على السلالم خارج باب الشقة بكلام كثير ناظرا لأسفل. ينادي عليه الأب كل صباح إذ يعتمد عليه تماما في كل شئونه. وأمه أيضا تنادي كل يوم عند الظهر لتسأل، ماذا "يريد أفراد عائلتها أن يأكلوا؟!. يتناقش الجميع بنبرة عالية. يتكلمون جميعا في نفس الوقت بلغة لا أفهمها. تفكر في البداية أنهم يتخانقون، ولكن بعد قليل تشعر بأن كلامهم يطفح بالحنان والحب.

أخذني في جولات في المدينة. ونحن ننظر من قمة عالية قاد إليها السيارة علق أنها مدينة قبيحة، تمتلئ بالأسمنت وبلا خضرة. يقول أنه رغم ذلك يحبها، ولا يتخيل أن يتركها إلا لفترات محددة. أخذني إلى كل الأحياء والضواحي وحكا لي عن كل منها حكاية. في كل مكان ذهبنا إليه كانت تجذبني مباشرة وتدغدغ حواسي رائحة زهور ياسمين تعبق الجو فأبحث بنظري بسرعة لأجدها، في ركن حديقة وعلى بوابة منزل أو في أصص منتشرة على البلكونات القريبة من الشارع. كانت مدينته بالنسبة لي مدينة الياسمين. ستذكرني رائحته بعدها دائما به، وبأثينا وشوارعها. وفي المساء نعود لألبد في حضنه. يجلسني على ركبتيه. صدري مواجها لصدره، فنسمع صوت تنفس أحدنا الآخر. يسكب عليّ كأس النبيذ، برفق متعمد، ثم يميل، ليأخذ ما سال بشفتيه. أتأوه. فيأخذني لحضنه. يحتويني كلي. يخفي



fb/mashro3pdf

وجهه في رقبتي متنفسا فأستمتع باستمتاعه برائحتي. في الصباح التـالي، أنظر وأنا أقف أمام سور البلكونة، على المقعـد الطويـل، فـي الحديقـة الصغيرة عبر الشارع الضيق أمام البيت. أتخيل نفسي هناك، جالسة أقرأ أو أتأمل. أترك مكاني وأهبط الدرج. أذهب هناك. لا أجد نفسي هناك. فأنـا هنا في البلكونة، أقف أمام السور، ولست هناك. وهكذا أبقى مكاني، أتأمل. عندما رأيت إعلانا عن مسرحية بلوتوس لأريستوفانيس من التراث القـديم ترجم هو لي أنها ستعرض في مسرح أثري خارج أثينا. رغم اتساعه وعلو المدرجات الحجرية المحيطة به بشكل دائري، يتميز بأنه إذا ألقيـت عملـة صغيرة على القاعدة الحجرية في منتصفه فالتصميم سيسمح لآخر متفـرج يجلس في آخر المسرح أن يسمع وقع سقوط العملة بوضوح تام. طلبت منه أن نذهب وأصررت أن أدفع أنا ثمن البطاقات إذ بدأت أدرك مـن أشـياء كثيرة الضائقة المالية التي يمر بها ويحاول جاهدا إخفاءها. كانت الطريـق لذلك المسرح قطعة من السحر الصافي. طريق جبلي متعرج تحده الغابات والقرى الصغيرة من اليمين، ويشرف على البحر من اليسار حيث تظهـر من وقت لآخر على الشاطئ قرى صغيرة في أطرافها مراسـي صـغيرة مربوط فيها مراكب الصيادين الصغيرة والكبيرة. أدار شـريطا لموسـيقى يونانية جميلة مملوءة بالشجن قال إنه اختاره لهذه الرحلة بالذات. استغرقت الرحلة حوالي الساعة والنصف، تمنيت ألا تنتهي أبدا. ونحن ننتظر خارج المسرح، مع الجمهور الغفير الذي تجمع لرؤية المسرحية، فتح موضـوعا ظهر عليه انه تردد كثيرا أن يفتحه: "هل أسهل علي المـرأة فـي بعـض المجتمعات المحافظة كمجتمعاتكم أن تقيم علاقات مع أجانب؟". لم أستطع أن أعطيه إجابة علمية شافية. فأنا لا اعرف عن احصـائيات ولـم أقـرأ دراسات وأصدقائي محدودون ولا أسأل كثيرا. كنت اشرح له ذلـك وهـو ينظر لي بريبة. فكرت ونحن نأخذ أماكننا على المدرج الحجري: "ربما لم يقصد من سؤاله المرأة الشرقية بوجه عام، ربما يريد أن يعرف عني أنا!".



fb/mashro3pdf

جمهور المسرح اليوناني بالفعل جمهور عريق يحترم ويستمتع بتراثه. جلس الناس في صمت تام وكأن على رؤوسهم الطير. كانت مسرحية كوميدية شعرية. لم أفهم كلمة إلا أنه كان عندي فكرة عن الموضوع عموما من الكتيب الذي وزع علينا عند باب الدخول بالإضافة إلى أني أحب أن اسمع اللغات التي لا أفهمها، كما في الأوبرا، فتتحول الألفاظ بالنسبة لي لأصوات موسيقية تظهر شاعريتها بشكل أوضح وأكثر تأثيرا. بعد انتهاء المسرحية قال لي أنه سيأخذني للعشاء في قرية قريبة تطل عليها من الجبل قلعة عسكرية من عصر احتلال الأتراك لليونان. عندما اقتربت السيارة من القرية بعد أن عبرنا مفترق طرق يشير لاتجاهات لعدة قرى ومدن ولأثينا، رأينا القلعة الجبلية مضاءة بالأنوار الكاشفة. كنت أمشي كالمسحورة الى جواره أرفع نظري للقلعة مضاءة الأسوار فوق الجبل، فوق رؤوسنا. مشينا وهو يمسك بيدي، دائما يمسك بيدي، في اتجاه ميناء صغير حيث تتزاحم السيارات في موقف صغير. تتراص جوار بعضها مربوطة بالمرسى أصناف اليخوت والمراكب مختلفة الأحجام والأشكال وتظهر بعيدا في الأفق جزيرة صغيرة عليها مبنى أثري قال إنه سجن قديم مشهور. كانت مدينة صغيرة منازلها المطلة على الكورنيش كصور المجلات، بيضاء بأبواب وشبابيك ملونة بألوان فاقعة، وأصص النباتات تتزاحم في الشرفات وتتدلى منها للفراغ تحتها فروع النباتات مرصعة بالزهور الملونة. المقاهي مزدحمة على الكورنيش يصدر منها صخب خافت لأناس يتكلمون كلهم في نفس الوقت، ويتزاحم المارة أمام بائع الكتب القديمة ، فيقف هو أيضا ويتردد في الاختيار ويغيظني جهلي باللغة. اتجهنا لمجموعة مطاعم بجوار بعضها البعض. احترنا في الاختيار. كلها داخل البحر، ولكل منها شخصيته الخاصة ورائحة الطعام الجيد تخرج منها جميعا. أطباق صغيرة متعددة الأشكال والألوان لمقبلات يشتهر بها المطبخ اليوناني وأسماك طازجة من أنواع عدة معدة بطرق شهية. نأكل ونأكل. نتناقش عن الأكل وطرق



fb/mashro3pdf

الطبخ، وتأثر بلدينا ببعضهما. نشرب الأوزو ونضحك بلا حساب. ثم بدأ يلف ويدور في الكلام. يسألني عن ماضيّ، عن ما سبقه. أحاول التهرب فيلح. الأوزو في قنينة صغيرة شفافة من البلور يتراكم البخار على سطحها الخارجي. "ماذا تريد أن تعرف؟". قال: "أريد أن أعرف كل شيء". سأل عن الفنان، عن حياتي معه، عن انفصالنا. فك الأوزو عقدة لساني فانطلقت أحكي. سأل بحذر عن معرفتي بالرجل الفرخة. اندهشت. "مالذي كان بينك وبينه؟! الأصدقاء كانوا يتكلمون، ولم أصدق. أريد أن أعرف. ماذا كانت طبيعة العلاقة؟!". قلت بلسان ثقيل من الأوزو: " هذه كانت قصة قصيرة انتهت ولا أريد أن أتكلم عنها. لم تكن شيئا مؤثرا ولم تترك علامة في حياتي". أصر أن أتكلم، أن أحكي فحكيت. لم أكن واعية تماما لما قلته، إلا أن ما سمعه جعل وجهه يتغير. قفز من على الكرسي كالملدوغ. نادى النادل ودفع الفاتورة وخرج من المطعم وأنا في أثره. تسارعت خطواتي لألحق به. يمشي كقطار، لا ينظر حوله، لا يشعر بي، يحملق في الأرض وقد وضع يديه في جيوبه. عندما وازيته جذبته من يده بعنف استغربته من نفسي لينظر لي. التفت بجسمه إلا أنه أدار وجهه بعيدا لكي لا يواجه عينيّ. "أرجوك، لا تتصرف معي هكذا". نظر إلي بعين غائمة. ينظر داخله ولا ينظر لي. شعرت أنه لا يوجد أي شيء الآن سيجعله يتنبه لأي شيء خارجه. خلص ذراعه برفق حازم ومضى. وقفت للحظة أنظر إليه وقد شلتني الحيرة كما لم يحدث لي أبدا في حياتي. كنا في ممشى ضيق. البحر على شمالنا مباشرة وعلى يميننا حرف هضبة مرتفعة عليها بعض المنازل في مدرج وتعلو قمتها القلعة التركية ذات الأسوار الطويلة وكانت مازالت مضاءة حتى بعد انصراف أغلب الناس لمنازلهم. مكان جميل، مثير. لماذا كان يجب أن يحدث ذلك هنا، والآن.

في طريق العودة ، كنت أوقظ نفسي وأوقظه بحكايات وحكايات. يقطر صوتي حزنا وحيرة، خيبة أمل ومرارة. مرارة سنوات. كان جو



fb/mashro3pdf

السيارة مشحونا بالحزن. حزنا دفعني، ودفعه هو أيضا للتنهد، لإخراج الآهات طوال الطريق. حكيت عن حورس وايزيس واوزوريس بمناسبة الهدية التي أحضرتها لامه. وحكيت عن حلقي الماسي الضائع، يوم عزاء خالي، وكيف عاتبتني السيدات هناك أني لم أعد أدراجي للبحث عنه. سألته فرد بتأكد: "ولا واحد في المليون أن كان من الممكن أن تجديه. فعلت صوابا. لا يجدي أن تبحثي ورائك فيما فات". نظرت له طويلا وقد غص حلقي وملأت الدموع عيناي. شعرت بجسدي متشنجا يبكي بغير دموع. كان مثبتا نظره على الطريق أمامه، مغلقا كل الطرق في وجهي.

دون كلمة، وقع كلانا في النوم. بالنسبة لي كان نوما كالموت، دون أحلام أو حتى كوابيس. نوم دون مراحل أو درجات. أفقت في الصباح على نور كاشف يملأ الحجرة فقد نسينا أن نغلق الستائر قبل أن ننام. قمت من مكاني وقد قررت أن أغير بطاقة سفري وأعود من حيث أتيت. لم نتحدث، فقد خرج بسرعة فور استيقاظه في الصباح فتناولت إفطاري وحدي والتزمت الحجرة أحاول أن ارتب أفكاري بان أكتبها على ورقة. لم أخرج لأرى ما يفعل عندما عاد وسمعته يحضر السلم الصغير ويحاول إصلاح أو تركيب شيء ما في سقف الصالة. ثم سمعت صوت مدو لسقوط وانكسار شيء فانطلقت للصالة لأرى ما يحدث. اقتربت منه. يقف كطفل بائس، يائس، يدعو للشفقة. وددت لو أربت على كتفه، ولكن خشيت من رد فعله. كان العرق وذرات الاسمنت من السقف تغرقه. كانت عيناه تتحدث. اقتربت منه أريد أن أحتضنه. صاح معترضا أني سأتسخ من الاسمنت والجير اللذان أغرقاه. لم آبه. اقتربت منه واحتضنته، فاحتضنني بعد تردد. نبحث عن شفتينا، أشعر بتنفس جسده الدافئ، واشعر بقلبي يدق بسرعة. ها قد وجدنا بعضنا مرة أخرى بعد ان اعتقدنا انا انتهينا. اختلطت حدودنا فلم نعرف أين انتهي انا ليبدأ هو. حملني إلى الحمام الضيق وأوقفني تحت الدش. فتح المياه فأغرقتني بملابسي كاملة، وأنا مستسلمة مغلقة عيناي.



fb/mashro3pdf

أحتاج إليه، لدفء جسده. احتاج للاحتواء، لحب رجل حقيقي. أحتاج لتفهمه وحمايته، يجعلني أهدأ، أطمئن. يبقيني بين ذراعيه، عارية نقية، أسترخي، أطفو إلى مالا نهاية. أقربه إلي، امسك رأسه بين يدي، أتخلل شعره الفاحم بأصابعي. أقرب فمه الى نهدي ليقبل طرفه، فيفعل. ثم يرفع عينيه لينظر إلي في امتنان، في ابتهال. أشعر بأنفاس بطنه، بثقل جسده ورأسه يتزايد فوقي وقد غرق صدره في العرق، عندما وقع في النوم مستكينا، مثل طفل هده البكاء.

أصرت أمه مرة أخرى أن ترسل لنا طعاما طبخته خصيصا. لحم وبطاطس محمرة وسلطة باذنجان وطماطم، أتى به صاغرا مطيعا لأمرها. شرب كثيرا من الأوزو مما جعله يتوتر مرة أخرى. أخذ ينغلق حول نفسه كلما شرب أكثر. لا أكاد أتبين ما يقول إذ كان كأنما يهمهم لنفسه. كان حزينا، يجتر أحزانا سابقة بدت لي كالجبال. وددت لو ينتهي هذا الموقف، بأي شكل، ولو بانتهاء هذه القصة برمتها، ولو بأن تصبح كأنما لم تكن. كنت قد بدأت أتوتر مرة أخرى فقد أقنعني أن أعود في قراري أن أغادره وأعود أدراجي بعد أن اقتربنا من بعضنا مرة أخرى. والآن بدأ يتوتر مرة أخرى. انتقل إلي توتره ولم أدر ماذا أفعل بنفسي. كان يهمس لنفسه بشجن ويكرر دون أن يبدو أنه سيجيب عن هذا التساؤل: هل تعرفين لماذا ظللت وحدي الى هذه السن؟ حاولت أن أحثه على الكلام، إلا أنه توقف فجأة عن الكلام ناظرا إلي عميقا بعينيه المحمرتين. تيقظ حذره فسكت، وسكت أنا أيضا.

كنت أغسل الأطباق وأنا في غاية الحيرة لا أدري ماذا أفعل بنفسي. أرثي لحالي. هل تركت توترات حياتي لآتي لتوترات أخرى هنا؟ أتى فجأة للمطبخ، فخلص يداي مما أغسله، وخلع عني الجوانتي المطاطي الخاص بغسل الأطباق بحزم قائلا: "هيا، استعدي، سريعا، سنذهب للسباحة". لم يدع لي مجالا للمناقشة أو السؤال كالعادة. ارتديت ملابسي وأحضرت حاجيات



fb/mashro3pdf

السباحة وهو يستحثني بإلحاح: "هيا، لا يجب أن نتأخر، ستغيب الشمس بعد قليل". وفي السيارة ضحكنا حتى انقطعت أنفاسنا، حتى آلمتنا بطوننا، على أي شيء وعلى كل شيء. كنت مازلت أقول في نفسي اللهم اجعله خير. ما هذا التقلب بين الحزن والغم الشديدين، وبين هذا الضحك الهستيري. كان يقود السيارة بسرعة جنونية، فأذكر نفسي بتمكنه من القيادة ثم أسلم أمري كما اعتدت معه. أسترخي. كنت مجهدة تماما، من الحب، ومن التراوح بين الحزن والضحك الهستيري. لم يتكلم كثيرا أثناء الطريق إلا أنه كان يمد يده بين فينة وأخرى فيضعها على فخذي، فأتنبه وأنظر إليه، فيبعدها، ثم أستغرق مرة أخرى في مراقبة جمال الطريق الموازي للبحر لأجد يده تمتد مرة أخرى فيلمس يدي أو ركبتي، وهكذا، دون أن يتكلم، فقط ينظر إلى في رقة وحيرة تشد قلبي شدا، فلا أجد ما أعبر به. بعد حوالي نصف ساعة على طريق بديع موازي للبحر أشار لي في هدوء أن أنظر في آخر الأفق حيث ظهر معبد صغير بديع فوق ربوة وحيدة متحديا الأفق. قال أنه لم يود أن يفوتني الغروب اليوم من فوق ربوة (سونيون). معبد بوسيدون أقامه الأثينيون تخليدا لذكرى الملك الذي ذهب إبنه للحرب وطلب منه إن عاد منتصرا سالما أن يغير أشرعة الحرب السوداء بأخرى بيضاء. إلا أن الابن في غمرة لهفة العودة بعد الانتصار نسى أن يغير أشرعته. رأى الملك الأشرعة السوداء فلم يستطع تمالك حزنه فألقى بنفسه من فوق الربوة الشاهقة. المكان مزدحم بالسياح إلا ان الكل يحترم وجود الآخرين لرؤية طقس الغروب البديع من ذلك المكان المميز. جلس على حجر وتركني أتجول حول المعبد الصغير الأنيق. يراقبني سعيدا بسعادتي. وقفت أراقب مركبا صغيرا بشراع أبيض، يتحرك بسرعة ميتافيزيقية. سرعة تجعلك تشك إن كان ما ترى حقيقة أو حلم، خاصة إن كنت تراه من عل. زرقة الماء البديعة تجعل حركة الريح فوقها تبدو كمخمل خشن. لا تملك إلا أن تتساءل وأنت تقف بأعلى، أيهما أكبر وأعظم: الهواء فوق سطح الماء أم



fb/mashro3pdf

العمق تحته. كانت رؤية الغروب كأنها طقس يمارسه كل المجتمعين فوق الربوة في هدوء وخشوع يشد الجميع لبعضهم البعض. الشمس داكنة الحمرة تلون أعمدة المعبد الموحية، التي مازالت قبلة الملاحين المحتاجين للهداية. اتجهنا للسيارة في هدوء المنتشين يدا في يد. قاد السيارة بهدوء لم اعتده منه: "هل فهمتي لماذا كنت أسرع؟". نظرت إليه بامتنان. اختار موقعا ثم أوقف السيارة أسفل الربوة أمام شاطئ مهجور. تركنا أنفسنا للماء الرائق. كانت ربوة سونيون بمعبدها تشرف على المكان توحى بالصمت والخشوع الواجب. ظللنا نسبح في دوائر حول بعضنا. لا يقترب أحدنا من الآخر إلا بمقدار، ولا يبتعد، صامتين. بدأ الظلام يحل ونحن في تلك الحالة، نسبح في دوائر حول بعضنا البعض. لمعان الهلال أكمل الصورة، الحالة. بدأت كل الأصوات تقل أهميتها، حتى أصبحت لا أسمعها، فقط صوت ما نحركه بأيدينا وأرجلنا من تلك المياه الهادئة تماما، التي بدأت تبدو مع حلول الظلمة كبركة من الزئبق الأسود يوحي بالرهبة. تمنيت ألا تنتهي اللحظة، أبدا. الجبل المغطى بالشجر من بعيد يبدو كما لو كان يضغط بثقله على الماء وعلى طرفه القريب عقد لؤلؤ. أنوار السيارات تتابع وراء بعضها مسرعة. في ذلك المساء كانت الأشجار حول البلكونة سوداء رابضة. كانت تلك الغصون المحملة بالأوراق تبدو كقطع منمنمة سوداء تشكل أجزاء من لغز يأبى التجمع على أرضية من سماء أثينا داكنة الزرقة يتحداها نور هلال جديد وأضواء تتوهج بين وقت وآخر تأتي من بعيد. الأشجار الرابضة تنظر، تشهد ونحن جالسان، جوار المائدة الرخامية، كل في عالمه، كل يكتب بلغته. نتبادل كلمات قليلة، ثم يعود كل لعالمه مرة أخرى. صوت السيارات المسرعة يأتي من بعيد، من الشارع الرئيسي على بعد شارعين. أين ذهبت اليوم أصوات تلك الحشرات التي أقلقت ليل ونهار أثينا أينما ذهبت؟! ظللت أحسبها طيورا مسائية صغيرة، تتبادل أحاديث طويلة، حتى فاجأني هو بأنها حشرات كفرقع لوز تسكن الشجر وتحدث كل



fb/mashro3pdf

تلك الضجة. أين ذهبت اليوم أصوات كل تلك الكلاب، البعيدة منها والقريبة، تؤنسني في ظلام الليل، كما لم تؤنسني أصوات كلاب أبدا من قبل. سكوت يتشكل حولي، فهل تجاوبه نفسي بمثله؟.

قبل أن نغادر البيت في طريقنا للسفر لشمال غرب اليونان حيث يوصلني لصديقة دعتني لقضاء عدة أيام في بيتها المجاور لغابة شهيرة، طلبت منه أن نزور بيت والديه لأشكرهما على كرمهما معي. فتح لنا والده الباب، وبمجرد أن رآني أخفى يده التي ترتعش وراء ظهره فقال لي هو أن أبوه معجب بي كثيرا ولا يود أن أرى علامة مرضه بالشلل الرعاش. مررنا في ممر ضيق مليء بالأشياء المصفوفة على الأرض وعلى أرفف صغيرة حتى قرب السقف. كان قد قال لي أن منزل أمه مليء بالكراكيب، فهي لا ترمي شيئا أبدا. العلب البلاستيكية مختلفة الأحجام، والزجاجات الملونة، بني وأخضر وأزرق، شفاف واصفر، علب الكرتون، وأوراق لف الهدايا، وأكياس قصاقيص القماش الملوّن، والقطع الخشبية والحديدية التي لم أدرك سبب الإبقاء عليها تملأ كل الحجرات، كل الممرات، حتى المطبخ الذي دخلته يوم أردت أن أستعير منها بصلة. جاءت بالقهوة في فناجين بيضاء. لابد أن تكون فناجين القهوة بيضاء، هكذا قالت، صغيرة منتفخة الوسط ضيقة الفتحة لتحتفظ بالوجه ولتظل ساخنة. ضحكت فبانت أسنانها المتكسرة وقالت أن هذا أيضا شكل الفنجان المناسب ليمكن قلبه وقراءة الطالع فيه. عندما هممنا بمغادرة شقة والديه بالدور الأرضي لمحت كراستي الحمراء على المائدة الصغيرة المنخفضة في وسط الحجرة. نظرت إليه متسائلة فقال: بسرعة انه أتى بها من السيارة حتى يقرأها. كنت قد قضيت وقتا طويلا في أول يومين لي في أثينا جالسة على مقعد الحديقة المواجهة للعمارة أترجم له ما كتبت عن لقاءاتنا القليلة في القاهرة قبل أن يرجع بشكل نهائي إلى اليونان. "هل أقرأها أنا لك في رحلتنا؟". نظر إلي مليا كعادته عندما يشك أنه لم يفهم مقصدي بالضبط إلا أنه وافق، فأخذتها



fb/mashro3pdf

في حقيبتي وغادرنا وسط دعوات واحتفال والديه بنا، إذ رافقونا حتى الباب، ثم في البلكونه المطلة على الشارع حتى تحركت السيارة.

كان صامتا ونحن نأخذ طريقنا إلى خارج المدينة. كان تقلب مزاجه السريع الذي لم أنجح بعد في توقعه يوترني، وأظل أحاول أن أكتشف السبب أو أسأله، بطريق مباشر او غير مباشر، فلا يجيب. أشار لي على الطريق المتجه لمعبد دلفي الذي قال أني يجب أن أزوره. وعندما وصلنا لطريق السفر السريع أردت أن أغير الجو الحذر الغريب الذي ساد السيارة فعرضت عليه أن أبدأ في القراءة. أخرجت الكراسة ، واستبدلت نظارة الشمس بنظارة القراءة. شعرت أنه يراقبني، وعندما نظرت إليه وأنا أرتدي نظارة القراءة ابتسم ، إذ كان يعجبه شكلي المثقف بالنظارة وأنا اضحك وأقول أنها علامة تعدي عمر الأربعين. أمسكت بالكراسة وبدأت في القراءة.

**( ثلاث وردات جافة بلون أصفر، وعقد فل وقرنفل علقته على مسمار في حجرتي، وصاجات نحاسية مازالت في كيسها الشفاف، وعلامة صفحة من البردي أنقلها من كتاب أنتهي منه إلى آخر، أمرر أصابعي على رسمها الفرعوني الملون وأتذكر ذات مساء في خان الخليلي، وحلق لولي بداير من الذهب أصبح له معنى جديد بعد أن حللته أنت من أذني ذات ليلة وصباح باكر، وسور حديدي مشغول بدرابزين خشبي عريق لسلالم رخامية عريضة تنيره شبابيك عالية ضخمة مشرعة دائما. كيف تقدمني، بهدوء تام وثبات، كحامي، ونحن نهبط، دون أن يلتفت، في ذلك الصباح الباكر. والمدخل الواسع المهجور بالسقف المرتفع والبلاط المربع المغطي بالتراب ، شهد لهفته يومها وأنا أنصرف وشهد تحفظه يوم سفره، وأنا أرقبه صامتة. كانت حلاوة استمتعت بها، ولو لليلة، هكذا قلت لنفسي. كان يجلس هناك في مواجهتي، يقول "كلي لكي اليوم". لا أريد أن**



fb/mashro3pdf

أفكر كم عناها فقد استمتعت بأن يقولها إلى أقصى حد. كان توتري لأنـي أريد أن أترك لديه انطباعا يكون حقيقتي. أخـذت أردد لنفسـي محاولـة تهدئتها "فقط كوني نفسك". أرضاني أن يعاملني كسيدة يحـرص أحـدهم على راحتها. أدركت كم أفتقد ذلك. الكورنيش الملاصق لماريوت، وتلـك الفتاة الصغيرة تبيع الزهور، لم أدر من أين ظهرت في الواحدة صـباحا. ونشوتي ،غير مصدقة، بأول هدية منذ زمـن طويـل. أتشـمم القرنفلـة الحمراء الملفوفة بالسيلوفان وهو يبتسم للفتاة بكل عينيه واضعا العملـة الورقية مطبقة في يدها الممدودة. الرصيف المحاذي لنادي الجزيرة بعـد أن عبرنا الشارع مهرولين، يدا في يد، ليسري دفء لم يمكننا تجاهلـه، فوضعت يدي في ذراعه، فأبقاها، ضاغطا بذراعه عليها في جنبه، طـول الوقت، حانيا، وفخورا. والميدان المواجه للأوبرا خاليـا إلا مـن بعـض العسكر، وهو يشير لي على ما أعرف من مبان وفنادق. رأسانا متقاربين، ننظر في نفس الاتجاه، وأنا أبتسم ، ثم أقول في وقت واحد اسم المكـان الذي يحاول وصف مكانه لي، فيكتشف أني أعرف، ربما أفضل منه، كـل ما قال، فننطلق ضاحكين بصوت عال رن في سكون الليل. الأسدان علـى مدخل الكوبري لهما معنى آخر، والكوبري الشاغر الذي لم أره أبدا مـن قبل شاغرا له معنى آخر، والليل والأضواء تبرق على صفحة النيل، وريح خفيفة باردة تقشعرني ، فألتصق به أكثر. دفء وسعادة الشعور باستمتاع رجل جميل بي وبقربي منه واهتمامي به. ميدان التحرير، هادئـا ولكـن ليس خاويا تماما. عربات ميكروباس قليلة، عمـال وعسـاكر مرهقـون، يلفتون وجوههم إلينا بلا مبـالاة. ونحـن، بصـوت خطواتنـا السـريعة المتوافقة الإيقاع نقطع الميدان، نتحدث ونتحدث، لا نتوقف، نتكلم عن أي شيء وعن كل شيء. شوارع وسط البلد، ساحرة في المسـاء المتـأخر. والتمثالان في الميدانين اللذين مررنا بهمـا، رجـلان عظيمـان يقفـان



fb/mashro3pdf

**وحدهما، عاليان، في سكون الليل. الساعة الثانية والثلث صباحا، لا أصدق نفسي، مشينا ساعة وثلث، في هذه الشوارع الخالية، وأنا أمسك في ذراع رجل جميل، محتمية، مستدفئة، ومستمتعة. ظللت أكرر: هذا لم يحدث لي أبدا، أبدا من قبل. وهو يبتسم في ثقة ، سعيد أنه أسعدني.)**

السيارة تمضي بسرعة نسيتها مع اندماجي في القراءة. أشعر بصوتي معبرا يؤثر فيه وينقل إليه شحنة الكلمات التي ملأتني وأنا أكتبها. تزايد مع الوقت تركيزه وهو يسمع، وانفعاله بما أقرأ. يلتفت لينظر مرارا، إليّ وإلى الكراس الذي أقرأ منه.

**(طرقات خان الخليلي المهجورة في الليل، تدفعك لتذكر صخبها في الصباح، كما لو أن شاغليها يتركون أرواحهم تهيم ليلا هناك. مشي وراءه معارفه واثقين من قدرته على قيادتهم لما يريدون شراءه. السلالم الضيقة، يتبعني صاعدا ويتقدمني هابطا: أصول معاملة السيدات. يعتني بي، بالذات، رغم وجود الآخرين، فأزهو. ينظر بطرف عينه لآخر يحدثني، ثم وفي أول فرصة يسحبني بعيدا، يجلسني على كرسي في صدر المحل. يروح ويأتي فيدس في يدي بعلامة كتاب من البردي المرسوم بزخارف فرعونية، وقبل أن أنطق يدير ظهره ويبتعد، ثم يعود فيدس في يدي بكيس شفاف به صاجات نحاسية: هذه لكِ. قالها آمرا، كسيد مطاع يمارس كرمه، لن يبالي بأي اعتراض. لم أعترض، تركت نفسي لنشوة تقبل هدية كرم من رجل اشتقت اليها. الصخب في الفيشاوي ورائحة الشيشة وصحبة الآخرين التي لا نريدها دفعتنا للخارج. ميدان الحسين في المساء المتأخر في ازدحامه الذي لا يتوقف، ونحن نقف قبالة بعضنا، منجذبان بشدة. نمتلئ براحة و ثقة في بعضنا بلا تاريخ سابق يبررها. فلنمش في الطرقات المجاورة للجامع الحسيني. ظلمة وشوارع ملتفة ضيقة وحياة أناس يعيشون هناك منذ قرون، وحوائط قديمة تحمل تاريخا تشكو الإهمال، ألمسها في تعاطف حنون. أشعر أننا، أنا وهو، من**



fb/mashro3pdf

**حضارات مختلفة إلا أن رابط العراقة بيننا كبير. عندما جلسنا في مقهى نجيب محفوظ أبهجني أن أستمع لغناء حي. صحيح أن العازف والمغني من الصنف التجاري إلا أن مزاجي وجلسته جواري وذراعه ممتد على ظهر كرسي جعلاني أنطلق معهما في الغناء كما لم أفعل منذ وقت طويل. وفي الميدان العريق خرجت لنا بائعة زهور نحيلة ذات وجه معروق مميز. واحدة من الشخصيات التي تصلح لأن تكون في رواية، والتي تجدها دائما تجوب الميدان العريق. لف عقد الفل والقرنفل حول معصمي "لتصطحبك رائحة زكية عند عودتك لمنزلك" هكذا قال. وغمزت لي بائعة الزهور: "هذا رجل نضيف" أضافت أن عندها خبرة في الرجال. أبتسم لها، وله، ولا أترجم ما قالت).**

قاطعني "انتظري، أرجوك ، أود أن أعرف متى كتبت هذا الكلام؟، كيف تذكرت كل هذه التفاصيل؟ بهذه الدقة!!" .كان متحيرا، ولكن معجبا، وكنت أشعر بالزهو بنفسي.

**(أثر فيَ بشدة أن ينقل لي في مكالماته مراحل طريق عودته من سانت كاترين، بتفاصيل شاعرية عن عذوبة جمال الطبيعة "شمس بلون شعرك"......)**

قاطعني قائلا كمن يحدث نفسه "أذكر ذلك اليوم، تماما، أذكره تماما". أطلت النظر إليه. كان كطفل مندهش. بدا لي أن تجربة الاستعادة جديدة عليه، تمتعه وتربكه في نفس الوقت. ربت على كتفه، وأبقيت ذراعي على كتفيه واستكملت.

**(رصيف المدرسة اليونانية أذرعه لأخفي ارتباكي منتظرة إياه بعد وصوله من سانت كاترين حيث كان يزور الراهب اليوناني عالم النباتات الذي اعتزل الحياة فوق قمة الجبل. يخرج من البوابة، جميلا مبتسما فاردا ذراعيه، يحتضن بكفيه كفي الأيمن الذي مددته، ثم يقلبه ويميل برأسه منحنيا ليقبل يدي في ابتهال. ندخل الحديقة المغلقة من كسر في**



fb/mashro3pdf

السور متجاهلين موعد الإغلاق. تقتصر علينا نحن الاثنين فقط، متشابكي الأيدي. الزهور الصغيرة والنباتات النائمة ينيرها القمر بدرا. خارج الأسوار البعيدة على مرمى العين تتزاحم السيارات بأضوائها، إلا أن حولنا وداخلنا وما بيننا سكون وتواصل. جلسنا على الكرسي الخشبي في طرف الحديقة، نتحدث عن الفروق الثقافية والدينية بين مجتمعينا، نحاول أن نتخطى تأثير مضايقة الشابين الذين لاحقانا لنستعيد الحالة الرائقة التي كنا فيها قبل دقائق. وفي اليوم التالي كان شم النسيم بمذاقه الخاص في القاهرة. شوارع خالية، محلات مغلقة، وانتباه كل الناس منصرف تماما لأماكن أخرى فتصبح القاهرة هي مكاني الأثير. أجلس منتظرة على مقعد خشبي تحت ظل وارف لأشجار قديمة في المدرسة اليونانية ذات العز الغابر. شعري مرفوع وبلوزتي بلون ربيعي فاتح عليها عقد من أحجار كبيرة شفافة بألوان مبهجة، وبنطلوني يبرز بتحفظ جمال جسدي. أجلس باسترخاء، ساقا على ساق، وذراعاي ممدودتان بجواري على حرف مسند المقعد الخشبي، أتساءل مع نفسي عن غرابة أطواره أن يخرج وهو يعرف أني قادمة، إلا أني أنتظر في صبر. عندما أتى أخيرا، كانت بيده صحبة بديعة من القرنفل المحمل بالأريج والألوان، ونظرة إعجاب خفضت رأسي لها إذ لم أتعود مواجهة مثلها. قلت أني أحضرت إفطار شم النسيم. بيضتان، صبغتهما بلون أصفر طبيعي بورق البصل، وخبز خاص جدا من القرية، وقطعة من الجبن الأبيض. انصاع بعد عناد لما طلبت، جلس، فأكلنا إفطاري في الهواء الطلق تحت الشجرة، ثم أخذ يدي وصعدت معه. يعد إفطارا ثانيا بعناية، وأنا أراقبه يروح ويجئ وأشعر بغرابة ومتعة أن أجلس ورجل يهتم بي ينسق لي المائدة. "تملكين روحا خفيفة تماما، والأجمل أنك لا تدرين". "أريد ما تريدينه أنت. قولي لي إذن الآن: ماذا تريدين؟". كان القرب محتما. باقترابه مني، بلمسته، تلمسني دنيا أخرى. ورغم ارتباك الاكتشاف فقد كانت الرقة هي العنوان. وعلى الباب، وأنا



fb/mashro3pdf

ارتدى سترتي وهو يحاول مساعدتي فأسبقه، فيطلب مني أن أتركه يساعدني، أن أحاول تعود عطاء الآخرين بعد أن قضيت كل حياتي الماضية أعطي ولا أهتم بنفسي.

ما زلت أنتظر، إلا أني لا ألومه، فقد ظل يتصل كل ساعة بالضبط ليؤجل الموعد قليلا، ثم قليلا. عندما تركت التاكسي أمام نادي اليخت وضوء النيل الشتوي ساعة العصر يسطع على المكان كان ينتظرني. قبل يدي ومضيت جواره صامته نعبر إلى المركب العائم للنادي اليوناني. لم يكن لدينا ما نقوله؟ ظللنا ننقل أعيننا ما بين صفحة النيل والوجوه حولنا والطعام الذي لمسناه بالكاد على المائدة حتى قررنا، في صوت واحد، أن نمضي. كنت امشي جواره وأتساءل مع نفسي: هل أعلق يدي بذراعه كليلة الماريوت؟ لماذا أشعر بالحرج اليوم؟! كنا نختلس النظر لبعضنا ونحن نمشي فنقترب ونبتعد. قررنا أن نقضي بعض الوقت في كازينو قصر النيل. كان النيل تحتنا بديعا والضّفة الأخرى بدأت تتلألأ بالأنوار. المكان ذو الذوق الفاسد يناسب الحبيبة من طبقة أثرت فجأة والضيوف العرب، بمناضده الرخامية العالية وكراسيه المبطنة بالأحمر القطيفة والجرسونات المبتسمين ببلاهة مقززة وماكرة، والمصورين بكاميراتهم العتيقة معلقة في رقابهم يعرضون خدماتهم لتسجيل لحظة. غطسنا في الكراسي ذات الكسوة الحمراء، وحجبتنا المنضدة الرخامية العالية عن بعضنا. قلت لنفسي: اليوم يبقى كل منا في عالمه. كلما سألته لأعرف عنه تهرب وقلب مركز الاهتمام علي. وعندما كرر، بلهجة العارف، معجبا بوهم أن لكل إنسان قصة حب وحيدة كبيرة في حياته لا تنتهي مهما حدث، وانه يعرف بالتأكيد من هو حبي الوحيد، فاض بي وانطلقت، لدهشته، أحكي بانفعال جزءا يسيرا من تجربة كلما تحدثت عنها أدركت كم كانت غنية، بكل أنواع المشاعر والخبرات، وكيف أن الألم والإحباط المتكرر قادران على إنهاء أية أسطورة مهما كانت في الأصل كبيرة.



fb/mashro3pdf

خرس هو عن الكلام ناظرا لي. توقفت عن الكلام. لا شيء يجعلني أستمر في هذا المونولوج ذي الشجون، لا المكان المسطح بلا عمق الذي نجلس فيه، ولا الحبيبة اثنين اثنين حولنا، ولا جمال النيل والهواء البديع الذي يهب، ولا عينيه اللتين اتسعتا في فضول يحاول أن يخفيه وهو يرقبني في دهشة اكتشاف شيء اختلف عما توقع، ولا ما نويته مسبقا بألا أتحدث معه عن تعقيدات تجربتي، فصمت. أدرت وجهي متأملة لصفحة النيل تحتنا. سعدت أني استطعت أمامه الآن أن أعبر عن نفسي بشكل أفضل، أن أتكلم عن تلك القصة التي شغلت حياتي لسنوات وسنوات، دون مرارة، ودون رومانتيكية أحلام العودة أو الاسترجاع. أحسست أني أتحسس طريقا أسلم. تأملت كيف ينضج المرء أكثر مع كل نقلة، كيف يعرف ذاته أكثر ويحافظ دائما على جزء منها خارج أي تجربة، جزء لا يمس، كغور بحر سحيق يظل جماله خافيا، فقط للذات وحدها انكشافه.

ونحن نمشي على كوبري قصر النيل كان الوضع مختلفا تماما عن أول مرة قطعناه فيه في الساعات الأولى من الصباح. كل هؤلاء الخلق يروحون ويغدون على الكوبري، وسيارات، ولا مكان لقدم إلا بصعوبة. كل ذلك جعلنا غريبين، فهل نحن إلا غريبين؟!. وأنا أتركه في التاكسي الذي سيكمل به طريقه لمصر الجديدة طلب مني بإلحاح أن أترك له نفسي تماما اليوم التالي إذ ينوي أن يأخذني في رحلة، وأنه سيتصل بي في الغد ليخبرني عن التفاصيل. فرحت باقتراحه رغم شكي في جديته إلا أنه بحلول اليوم التالي كانت الرغبة والأمل في تلك الرحلة قد بلغا بي مبلغ اللهفة على التصديق. ظللت أنتظر طوال الصباح. كلما مضى الوقت زاد الرجاء. حتى انتصف اليوم فعرفت أني وقعت في نفس الغلطة مرة أخرى. أنتظر وأنتظر. نفضت غضبي وبدأت برنامج يومي. أصررت عندما اتصل بعدها أن أوضح له أن ما أغضبني أنه حتى لم يستعن أن يتصل ليلغي اتفاقه. تحدث كثيرا عن الظروف التي منعته من تحقيق ما وعد، وأنا



fb/mashro3pdf

أكرر في هدوء أني أفهم، ما لا أفهمه هو أنه لم يعتذر، وأنه وضعني في الانتظار. كنت حادة في إصراري على أن أوضح منطقي. اتصل بي بعدها في المساء المتأخر ليسمعني أغنية مفضلة لديه ذات معاني جميلة عن الحياة فأثار مشاعري رغم اندهاشي أن يكون بين ناضجين أغاني في التليفون، إلا أني قلت لنفسي لم لا؟ ما لم يحدث لك في مراهقتك ربما يحدث لك الآن. ذهبت للنوم وأنا ابتسم.

المجد الغابر تشي به أركان وساحات المستشفى اليوناني بالعباسية. روح إغريقية أستشعرها في المدخل ذي الأعمدة، والحدائق المربعة تفصل المباني القليلة المهملة على الجانبين. ولكن هل يمكن أن تعيش مستشفى وتؤدي خدماتها بمجد غابر؟ هل هو حلم مستحيل يتعلق هو به؟ أم أنه يعرف ما يقول؟ تساءلت بيني وبين نفسي وأنا أنظر إليه يجلس وراء المكتب المصنوع من لوح خشب عريض محمول على أرجل غليظة، أمامه أوراق مبعثرة، ووراءه شارة نبيلة لمنظمة (أطباء العالم)، وأصدقاؤه يحاولون مساعدته على إنجاز مهمة لمحاولة تحديث المستشفى . كان يدفعني أمامه وهو يوصلني لسيارتي أمام المستشفى. لم يستطع أن يظهر مشاعره الحقيقية، فاستبدلها بعكسها. كنا نضحك، أنا وهو ودكتور آليو، أباه في القاهرة كما دعاه، وهو يحكِّمه إن كان يجب أن يعاقبني، "ولكن لماذا؟!" قلت وأنا ابتسم، قال إنه سبب لن يفصح عنه.

"اليوم أريك في القاهرة مكانا لم تره من قبل". الطريق الصاعد إلى المقطم ذكرني بتلك الليالي التي اعتدنا فيها صعود المقطم في الأمسيات الحارة. تلك كانت أيام مضت، ومضينا نحن، أقصد هؤلاء، من كنَّاهم، معها. تغير المكان، امتلأ بالمباني والمحال بعد أن كان شبه مهجور حتى وقت قريب. أتلمس الطريق لكورنيش المقطم عبر ذاكرة غائمة. وقفنا كتفا بكتف نتأمل المنظر البديع، الفضاء الممتد المرصع بالأنوار ومساحات الظلام، نتناقش عن الطرق والأماكن، ما نعرف و ما لا نعرف. الهواء



fb/mashro3pdf

الرائق يهب فيدغدغ الحواس، إلا أنه حولنا ووراءنا تبعنا كلما مشينا صبية وشباب جائع. كلماتهم الماجنة واقترابهم المقلق وانشغالهم بنا جعلنا نمضي متلمسين طريق العودة. الصباح الباكر في اليوم التالي تذكرت أنه يوم تغيير الساعة من التوقيت الشتوي للصيفي. خفت أن يفقد موعده لو أنه لا يعرف. أدرت رقمه مطمئنة لقوة الحجة التي أبرر بها استجابتي لرغبة قوية أن أسمع صوته يحدثني. أجد نفسي أقود سيارتي إليه في شوارع الجمعة الخالية، أنتظره في الميدان الواسع المليء بضوء النهار البديع. جلس جواري يتأملني وقال أنه اكتشف أني نهارية. أسعدني انه اكتشف ذلك. قال أنه يود مكانا على النيل، واختار مكانا فاخرا. حاولت أن أوضح له أنه لا فارق لدي بين فاخر وبسيط، بل بالعكس، أحيانا الأماكن البسيطة روحها وطعامها يكون أفضل. أصر، فقلت لنفسي: لم لا؟ فلأجرب. قدت السيارة لشيراتون الجزيرة كما طلب. المكان فاخر، والطعام فاخر، والمحيطون من الأغنياء، والجرسونات مدربون. الشبابيك الزجاجية النظيفة اللامعة تحجزنا عن النيل وهواءه، حولنا هواء مكيف برائحة عطرية خفيفة مخلوطة برائحة طعام متنوع وقهوة فاخرة. واضح أنه يحب ويستمتع بالأجواء الفاخرة. أجلس هناك أمامه بعد أن تناولنا إفطارنا من البوفيه المفتوح وهو يدخن السيجار، وأنا سارحة أنظر للنيل وأفكر كيف تعودت وأحببت نوعا من المتع يختلف عن متع هذه الأماكن الفاخرة، متعا تقترب أكثر من قلب الأشياء. عندما أوصلته يومها للمستشفى ظل وهو لا يتوقف عن الحديث يداعب بحنان رقبتي ومنابت الشعر فيها، طرف عمودي الفقري وحوله. يظل يؤخر خروجه من السيارة أمام باب المستشفى ، نظرته لي تربكني فأدفعه دفعا لمغادرة السيارة وأمضي وحدي مسرعة عائدة لعالمي.

ذهبنا للقائه صديقتي وأنا. عندما تركنا السيارة ومشينا معا متجهتين للمطعم شعرت أننا سيدتان، ناضجتان، جميلتان. وفكرت كيف مرت بنا



fb/mashro3pdf

حياتينا؟ رغم اختلاف الظروف، كيف مر بنا كل ما مر، وخضنا كل ما خضنا. كيف احتفظنا بأنفسنا إلى الآن. وقف عندما رآنا وأشار بيده في وسط حديقة المطعم فرأيناه على البعد. نظرنا لبعضنا ونحن نبتسم إذ لا نصدق أنه حافظ على موعده هذه المرة. بدا أصغر في العمر، إذ كان شعره مصففا بكريم مثبت. يلبس قميصا خفيفا، دون بدلة كما تعودت أن أراه في المرات السابقة. سلمت عليه هي أولا، كفا بكف، ذراعا بذراع، مع قبلات على الوجنات، كما هي العادة في بلادهم. وعندما جاء دوري مددت يدي وأنا أتساءل هل سيقبلها كما تعودت، إلا أنه لم يترك لي وقتا للتفكير إذ اختطفني، كفا بكف ذراعا مع ذراع، وقبلني على الوجنتين ، بقوة أربكتني، طأطأت وقد رأيته يبتسم بعينيه المطلتين داخل عينيّ. بالطبع دار أغلب الحوار بلغتهم التي لا أفهمها. لم أتضايق إذ توقعت ذلك، وشغلت نفسي بمراقبة زبائن المطعم والعاملين فيه والديكور وأصناف الطعام على الموائد الأخرى والمنطقة القديمة الجميلة المحيطة. كان يتحدث معها بكياسته التي أحبها، وطرف عينيه يراقبني. وبين حين وحين يعلق عليّ: "هي تسافر بعينيها، بالتأكيد عرفت كل القصص بمراقبتها لكل شيء حولها". كانت صديقتي تتكلف الأهمية كعادتها مع من تريد أن تكسب إعجابهم، وكان هو حذرا معها. عندما طلبت أن أجرب السلطة اليونانية وقد بدت شهية تقدم لزبائن آخرين أخذ يراقبني بحب ملأ عينيه فاربكني وهو يردد لصديقتي أترين كيف تأكل؟، كعصفور. راح يزيح قدمي بقدمه تحت الطاولة ليلفت نظري، أو يخفي حقيبتي ثم يسلمها لي في التو، وأنا أبتسم متقبلة دعاباته اللذيذة. ونحن نغادر تقدمتنا صديقتي ووجدنا نفسنا متجاورين. مد ذراعه نحوي ولمّا أدرك أنه لا يستطيع احتضاني أمام الجميع في الشارع القاهري، أخذ يقرص جانبي في غيظ ويقلدني وأنا أتأوه وأحاول الابتعاد. أوصلناه إلى حيث يسكن وانطلقنا. في الجمعة التالية، عندما أوشكت على دخول الميدان الواسع من الجهة الأخرى أخذت عيناي تبحث عنه حيث اتفقنا أن ينتظرني. لففت الميدان



fb/mashro3pdf

وأنا أتلفت فربما ألمحه قادما من اتجاه سكنه. أوقفت السيارة وخرجت أنظر مرة أخرى. لا، لم يأت، سيتأخر كالعادة. درت حول السيارة، وجلست على المقعد الآخر وقدماي للخارج على الرصيف وحاولت الانشغال في قراءة كتاب صغير وأنا سارحة: سيأتي الآن فيقف أمامي فأرفع رأسي فيقبل يدي أم هل أقف لأحتضنه كما أتمنى؟ فاجأني، كالعادة، بما لم أتوقع فأتى من ناحية باب السائق. فتح الباب وانهبد على الكرسي ونظر إلي بكل عينيه بشقاوة وهو ينهج كما لو كان قد أتى جريا. عرفت بعدها عندما أصر على شراء باقة من الورد الأصفر صغير الحجم في نهاية لقاءنا أنه فعلا كان يجري، إذ اتجه أولا لبائع الزهور على الجانب الآخر من الميدان، ولما وجده مغلقا، استكمل الجري في اتجاهي. لم أستطع إلا أن أبتسم وأقبل عليه معانقة. احتفظ بي أطول مما أردت وبدأت أخشى أن يلحظ الناس القليلون في الميدان فانتزعت نفسي ضاحكة وسألته إن كان يحب هو أن يقود فالتفت للأمام متحمسا ليكتشف سيارتي العتيقة التي أبدى إعجابه بها من قبل. عشرون عاما عمر هذه السيارة، واليوم أصبح لها معنى جديدا. جلست كسيدة بجواره، وهو يقود السيارة بتمكن في طريق الاسماعيلية ونحن نتبادل الحديث. عندما عدنا قلت هذا يكفي، سأعود لبيتي. أصر هو أن نتناول العصير في محله المفضل وأخذ في وصف كيف يركبون الصينية على شباك السيارة!. أذعنت له بعد مقاومة. نقف على الرصيف تغرقه الشمس أمام دكان العصير. عمال المحل يعرفونه ويحيونه في ود، يعرفون طلباته مقدما ويعتنون. أنظر إليه وهو يحدثهم، وهو يتجه بتؤدة مبتسما لصانع العصير داخل المحل ويديه في جيوبه. نتحدث ، ونضحك، وننظر لبعضنا في شوق. أخذ كلانا في ارتشاف العصير. يقول أنه يتمنى أن يشربه من شفتاي، فأقترب منه، وقد ملأت عيناي شقاوة التصميم، فيرتبك ويفزع، فأبتعد وأذرع الرصيف بضحكة مجلجلة.

fb/mashro3pdf

في الليلة الأخيرة قبل أن يغادر القاهرة، كنا نجلس على مقعدين متجاورين في بيت الأصدقاء. لم أصدق أننا نتبادل الحوار في رسائل مكتوبة على ورقة أمامنا حتى لا يتنبه المحيطون بنا، كما يفعل المراهقون. يشكرني على مجيئي الآن فأكتب له أني كان يجب أن أراه قبل أن يسافر، فيكتب ليخبرني كم أبدو جميلة، فلا أعرف كيف أرد. وعندما جاء الوقت لأعود لبيتي طلبت منه أن يصحبني حتى سيارتي. شعرت بسقف المبنى القديم أعلى وأعلى وهو يقربني بجذبة من يده القوية، فنقبل بعضنا، سكرى باقترابنا ذلك الذي انتظرناه طويلا. لا نقوى على التوقف رغم تحسبنا لمرور أحدهم في أية لحظة. يحملني، فأرتبك، إذ لم أتخيل أني يمكن أن أُحمل. يجلسني أمامه على السور الخشبي، يميل بي في الفراغ ، يهددني أنه سيلقيني من الدور الثالث، ويتمادى في ارعابي حتي أقر في النهاية بثقتي فيه، وانه لابد يستحقها. أهمس بمشاعري، فيقول أنه هو أكثر. يسرح لثوان ثم يقرر فجأة، فيعيدني للأرض، محتفظا بيدي، قابضا عليها، ويميل ليأخذ سترتي وحقيبتي اللتين سقطتا، ثم يقودني وراءه ، وأنا مستسلمة. وقفت بباب الحجرة أتساءل عما سيحدث الآن وقد دخل هو ليضع حقيبتي والجاكت من يده. عاد فوجدني في مكاني فقال هامسا "لماذا لم تدخلي؟، تريدين أن تحملي للداخل، أليس كذلك؟!". لم أحر جوابا، فقط ظللت أنظر إليه، وهو يميل فيحملني على ذراعيه كطفلته. يستدير فيدخل الحجرة ويغلق الباب بقدمه. يتقدم لباب آخر يتلوه مباشرة سرير صغير يلفه الظلام، فيضعني عليه بعناية رقيقة ويبدأ في خلع ملابسي بهدوء ورقة التعامل مع الأطفال، قطعة قطعة وأنا مستسلمة. أغمضت عينيّ وفي لحظات وجدته فوقي. اجتاحتني رائحته التي أحب كثيرا، فاستقبلته بجسدي واحتضنته بذراعيّ بقوة شوقي. كانت مراقبتي له، لنفسي، للحظة، أقوى من انغماسي فيها. ظل يحاول أن يجذبني لأغوص معه. كان استمتاعه يبدو واضحا فزهوت بعد أن شككت في



fb/mashro3pdf

نفسي طويلا وكدت أفقد كل الثقة. "هل تنير ضوء؟!" همست في أذنه الجميلة القريبة من فمي. رفع رأسه ناظرا إلي في تساؤل، فقلت وأنا أدقق لأتبين ملامحه في الظلام: "أود أن أراك". مد يده للأباجورة فانبعث ضوء باهت أنار وجهه، ففاضت مشاعري.

غفونا وكل منا يتشبث بيد الآخر. وعندما اقترب الفجر هاجمتني اليقظة فظللت أحملق في السقف وأنا أفكر، أفكر في نفسي، في جسدي ذلك المستريح جواره، في أنفاسه المنتظمة الهادئة، نفس مستقرة جمالها يشع من استرخاء قسمات وجهه. تذكرت شكوته المستمرة من عجزه عن النوم في ليال كثيرة. ثم هاجمني الواقع. قمت جالسة وقد ضايقني الخاطر، فاستيقظ هو أيضا وحاول التسرية عني. وقفت في وسط الحجرة وقد احترت، هل أذهب الآن، في هذه الساعة الليلية، كيف سأقود السيارة، كيف سأدق باب العمارة، كيف، كيف. "مستجدة أنت في مثل هذه المغامرات" هكذا قلت لنفسي ساخرة. ابتسمت، فابتسم لي هو أيضا دون أن يدري سبب ابتسامي. متعبة ، ألقيت بنفسي على السرير الآخر في الحجرة، فوجئت أن رائحته تسكن ذلك السرير. رفعت رأسي وسألت "أتنام هنا في العادة؟" أجاب بنعم بهزة من رأسه فدفنت وجهي في الوسادة والملاءة البيضاء. انتصب واقفا عند رأس السرير الذي أنام عليه. تأملته للحظة. يبدو أن كلانا يشترك في الشعور بالراحة في العري، نتحرك فيه، بلا مشاكل، بلا خجل أو حذر. مددت ذراعاي له وقد انزحت لحرف السرير حتى يرقد جواري، فأقبل، فوقي مباشرة. وفي هذه المرة كان سندس الحس الذي نجح في جذبي إليه بديعا. زها، وزهوت، وأغرق الدمع أعيننا. بهمة، رفع بعيدا الكمودينو الفاصل، ودفع السرير الآخر ليلتصق بالذي أرقد عليه. أراد أن ينام جواري، دون أن يضايقني. همس أنه يفهم أني بعد كل تلك السنوات التي عشتها في وحدة لم أعد معتادة أن أنام جوار أحد. أسرني مرة أخرى، هكذا قلت لنفسي. لم يشفق، ولم يتعال،



fb/mashro3pdf

**فقط تفهم. تأملت وجهه وقد سقط مرة أخرى في النوم، ممسكا بيدي عبر حدي السريرين المدفوعين جوار بعضهما. كيف استطعت منع يدي من أن تلمس وجهه، بهذا القرب، بهذه الرقة. إلا أني لم أرغب في إيقاظه. هدوء أنفاسه المنتظمة، شعره الأسود الفاحم، أذنه، ساحرة، على جانب وجهه.**

**لم يستوقفني عندما قررت، وبدأت أستعد للمغادرة. فقط ظل ينظر وقد سند رأسه على كفه مستلقيا على السرير. كان شجنه من فقدي المقترب واضحا، إلا أنه لم ينبس بكلمة. وعندما أنهيت استعدادي تبعني عندما اتجهت للباب وفتحته، فأغلق الباب بهدوء مرة أخري، أمسك بكتفي ودفعني برقة للحائط، ودون أن يتكلم مال بكل ثقله عليَ للحظات واضعا جانب وجهه على كتفي، دون أن يطوقني، ثم ابتعد فالتقت عينانا. تنفس كلانا بعمق. فتح الباب وسبقني للخارج. ناولني من المطبخ قطعة توست جافة، فتذكرت شوقي لكرم رجولي، لأن يريد رجلي أن يزودني بما أحتاج، أن يعطيني، يمنحني. أشار إليَ ثم تقدمني، دون أن يلتفت، متوقعا إياي وراءه. خطوته الواثقة، ورجولته تحميني. أراقبه أنا بطرف عيني، ونحن نهبط السلالم الرخامية العريضة. ودون كلمة، التقت شفتانا عند الباب، التقت أعيننا، بحديث ثقيل. انتزعت نفسي ومضيت مسرعة، دون أن ألتفت).**

لم يتوقف خلال الطريق إلا لدقائق ليشترى حلوى القديس الراعي لسائقي السيارات الذي قال أنه سيزور كنيسته في طريق عودته. يرسم السائقون علامة الصليب وهم يمرون بالكنيسة، حتى سائقو الدراجات البخارية. كنت قد لاحظت على جانبي الطريق في بعض الأماكن تلك النماذج الصغيرة التي تمثل كنائس تعلوها الصلبان وتقوم على أربع قوائم. صناديق صغيرة بحجم قفص الطائر من الحديد أو الخشب والزجاج، يضعها من نجا من حادث طريق، أو يضعها الأهل للترحم على من قضى بالحادث. بداخلها ثقاب وشموع وسراج مملوء بالزيت وبخور، مسبحة



fb/mashro3pdf

وربما إنجيلا صغيرا. وهكذا تجد كثيرا من تلك التذكارات الصغيرة في الأماكن التي قد تكثر فيها حوادث الطرق: ملتقى طرق أو انحدار مفاجئ لجبل. أحيانا في بعض الطرق المستقيمة عند مداخل المدن حيث يحلو للشباب أن يتسابقوا. توقف في محطة للبنزين فمشيت قليلا لأقف فوق جسر صغير ظله على جدول ماء رائق تحته. حول الجدول هضبتان معشوشبتان تزينهما الزهور الملونة كبقع مفرحة هنا وهناك. التناقض بين الجمال الرائق الصافي الذي أراه بعيني وبين المشاعر السلبية التي تملأ السيارة أتى بالدموع إلى عيني ووضعني في حيرة مرة أخرى. كان الوقت غروبا عندما عرج بي لزيارة أديرة (ماتايورا) التي زرتها في زيارة سابقة لليونان ولم أتوقع أن أراها أبدا مرة أخرى فعرفت أن كل شيء ممكن مرة أخرى وأنه لا يجب أن نكون بهذا التأكد أبدا. مازال الكهف معلقا بالجبل، تهتز في الهواء بجواره المناديل والأوشحة الملونة التي يعلقها المتدينون على الشجرة النابتة من وسط الجبل احتفالا بعيد سان جورج.

وصلنا في النهاية لقرية (بريفولي) حيث تسكن الصديقة وعائلتها. الناس لهم شكل مختلف، وحتى لونهم مختلف. يختلف أهل هذه المنطقة عن اليونانيين، فهم جبليون رعاة، يعيشون في قراهم عند السفح في الشتاء، ثم ينتقلون لقرى أخرى على الجبال طوال الصيف. يتحدثون لغة أخرى غير اليونانية هي خليط بين اللاتيني والروماني والإيطالي. البيت القديم الذي دخلناه مع آخر خيوط ضوء النهار يتألف من دورين مبنيين بالحجر هو بيت أم صديقتنا التي رحلت عن الحياة منذ أقل من شهرين وقد تعدى عمرها المائة. البيت مليء بزخارف لا تنتهي: مفارش ومخدات مشغولة وستائر من الدانتيل، أكلمة قديمة ذات ألوان زاهية وزخارف خاصة بتلك المنطقة على الحوائط وعلى الأثاث وصور قديمة لأقارب من أزمنة قديمة يلبسون ملابس لم تعد تراها في اليونان إلا في المتاحف وعلى طوابع البريد التي تستعرض الملابس الشعبية للأقاليم المختلفة. استقبلونا باحتفال: هي



fb/mashro3pdf

وزوجها وابنها وابنتها وأخاها وزوجته وابنه. أرتني الحجرة التي سأنام فيها وتركتني عندما قلت أني متعبة تماما وخرج الجميع للعشاء في مطعم قريب. تحت شباك الحجرة التي تقع في الدور الأول قهوة ذات ثلاث موائد فقط على مدخل حارة ضيقة ذات سلالم تقود لبيوت على هضبة أعلى، تنطلق منها طول الوقت، ليلا ونهارا، موسيقى البوزوكيا. ظللت أراقب اهتزاز الستارة البيضاء المشغولة بخيوط الكروشيه بهواء الليل البارد الذي اختلف كثيرا عن طقس أثينا الحار الملوث الخانق. أفقت بعد منتصف الليل عليه وهو يفتح الباب بهدوء شديد. ألقى نفسه بكامل ملابسه على السرير الآخر في الحجرة وتنهد بصوت موجع أحضر الدموع إلى عيني إلا أني أدرت ظهري ولم أنطق بحرف. في الصباح استيقظت قبله فذهبت للحمام حيث اغتسلت وغيرت ملابسي وعندما عدت وجدته في انتظاري مبتسما!. تعجبت. قال أن الأشياء يجب ألا تنتهي هكذا فجأة. سألني إن كنت أحب أن أمشي معه في الغابة القريبة. مشينا متجاورين. ساعة لم نتبادل فيها أي حوار. وعندما عدنا كان الجميع يتناولون الإفطار فجلسنا معهم. هو يتكلم ويضحك مع الجميع وفي نفس الوقت يضع الجبن والطماطم على الخبز ويصمم على إطعامي بيده أمام الجميع كأن هذا هو الشيء الطبيعي غير المستغرب!. ذهب الجميع بعد الإفطار إلي بقعة على النهر اختارتها العائلة لأن بها شلالات جميلة تشتهر بها تلك المنطقة. في الطريق البديع كانت بيوت القرى الصغيرة تبدو كما لو كانت في حفر في الجبل تظهر فقط عندما نلف مع الطريق الصاعد أو الهابط. كانت البيوت على البعد تبدو أقرب لبعضها، كما لو أنه ليس بينها فراغات، كما لو كانت متلاصقة. عندما وصلنا للبقعة المختارة كانت مياه النهر الصافية تجري بقوة، تظللها في بعض الأماكن الأشجار الوارفة. المناطق التي لا يغطيها الظل تلمع بالشمس المنعكسة عليها، كفضة، كذهب. تجد أنه في مجرى واحد تبدو



fb/mashro3pdf

حركة الماء في الأماكن المشمسة كما لو كانت أسرع من حركة الماء في المناطق الظليلة. النهر في وادي ضيق تحيط به جبال مليئة بالأشجار. أوقفوا السيارات وأخذنا طريقنا على الأقدام في اتجاه منطقة الشلالات وهو يمسك بيدي بقوة ويعينني بحدب. تركت المجموعة لدقائق لأقضي حاجة وراء الأشجار. التوت قدمي وأنا عائدة. أهذا ما يحدث بمجرد أن يترك يدي؟! هل سيأتي للبحث عني؟ منعني كبريائي من الاستسلام للفكرة. هببت واقفة. أجلس معهم على صخور ملساء كبيرة يظهر نصفها فقط وقدماي في الماء المثلج ، أتركهما للماء مستسلمة. الماء جاري بعنف، في اتجاهات تتضاد باستمرار، بقية جسدي تغرقه شمس قوية. أشعر بخدر. يتلاشى بالتدريج إحساسي بحدود جسدي، وتبطئ حركة العقل، إلى أن أسقط في النوم. أستيقظت لأجد رأسي كادت تسقط مائلة وأنا أسند ظهري على الجسر الخشبي الذي عبرنا عليه لهذا المكان. هاجمني الراهن فجأة فأدركت أين أنا، وكيف وصلت لتلك الصخرة بعد أن خلعت صندلي وصففته على الجانب في الظل ثم قفزت بحذر على جزر الصخور المستديرة الملساء المغطاة بالطحالب الزلقة. سمعت صوتهم فمشيت وحدي لأنضم للمجموعة. وجدت الجميع جالسين على مفرش زاهي الألوان تحت شجرة للراحة وتناول الطعام الذي كانت تحضره النساء في العائلة. وضعت إحداهن الجبن في أطباق وأخرى تقشر الطماطم وتقطعها ثم تنثر عليها الزعتر البري الجاف وتصب فوقها زيت الزيتون بوفرة. أخذني من يدي لنمشي قليلا جوار امتداد النهر حتى وجدنا أنفسنا نشرف على وادي صغير ينتهي على بعد أمتار بحائط من الأشجار المتلاصقة. كنا نقف جنبا لجنب، ننظر في اتجاه واحد، نراقب قطيع الغنم الذي ظهر فجأة من ظلام تزاحم الشجر مع راعيها الشاب وكلابه. الكلاب تعرف واجبها جيدا، تأخذ مراكزها حول القطيع. وقفنا، يدا بيد، نراقب بلا حركة تذكر.



fb/mashro3pdf

عند الظهر، أحضر أشياءه من الحجرة ووضعهم في السيارة دون أن ينظر إليّ وأنا أقف بجوارها. أدار المحرك وأخرج يده من الشباك محييا الجميع. تحرك بالسيارة قليلا ثم توقف. خرج من السيارة واقفا بجوار بابها المفتوح دائرا بعينيه باحثا عني. عندما أشرت بيدي مودعة قطب بين حاجبيه ودخل السيارة بسرعة وانطلق دون كلمة مثيرا غبار الشارع. على مائدة عشاء من اللحم المشوي الذي تشتهر به هذه المنطقة ظل زوج صديقتي يتحدث بلا انقطاع باليونانية عن أزمة السويس وكيف انتقل بعدها مع عائلته لليونان والصديقة تحاول ملاحقته في الترجمة لي، فتقدر أحيانا وتيأس أحيانا أخرى وأنا أشعر بالقشعريرة تغزوني، وبالوحدة والغربة. ظل الشعور بالبرد والغربة يلازمني طوال تلك الزيارة. كان الوقت عيد العذراء ماري في أغسطس والاحتفالات تقام بأشكالها المتعددة في كل القرى. الكنائس الخشبية الصغيرة التي تميز تلك المنطقة مزينة والناس من كل الأعمار يتجمعون في الميادين المليئة بالمطاعم في القرى القريبة التي نزورها. موسيقى ورقص جماعي وموائد ممتدة تجلس إليها العائلات المحتفلة والجميع يعرفون ويحيون بعضهم البعض. أخذتني الصديقة لمدينة ميتسفو الأثرية القريبة وفي الطريق تحدثت عن الحياة النباتية في الجبال المحيطة والتي تختلف باختلاف الارتفاعات ورأينا الجبل الذي سماه الناس بجبل البيضة لأنه يشبهها. أرتني المكان الذي كانت تقام فيه مسابقات الرقص السنوية وأسهبت في كيف كان الرجال يلاحقونها بعد أن ترقص هناك بكل مشاعرها. أرتني مصانع الخشب وعرجنا على محلات التذكارات فاشتريت صينية خشبية مزخرفة وأطباق ملونة وعصا بيد تشبه قرن الخروف يستعملها رعاة الأغنام. السيارة تمضي بنا في طرق جبلية تطل على غابات أشجار كثيفة. اخفض رأسي لأنظر من زجاج السيارة الأمامي على قمم الأشجار التي تحيط جذوعها بالسيارة. قمم تليها السماء مباشرة، وكأنها هي من تحمل السماء. كانت الأشجار كأنها أفراد، يقفون



fb/mashro3pdf

متراصين جنبا لجنب، كأنه مجتمع ، حياة لا تعرف الأعمار أو العصور. ألتقط الصور ولكن هيهات أن تعبر الصور عن كلية الإحساس الذي تعطيه الغابة. أتوحد وأذوب مع الطاقة المنبعثة من الاشجار الواقفة، الأوراق التي سقطت وستموت ببطء، ستصبح جزءا من التربة. الظلال تغطي، تفترش، فالأوراق لا تنفذ إلا القليل من الشمس القوية. كانت صديقتي تتحدث عن الجفاف الذي بدأ يغزو الغابات هناك. سألت عن أشجار بيضاء تماما ليس عليها ورقة واحدة، عرفت أنها ماتت. وعندما أعجبني بشدة لون أصفر بديع يغطي المنحدرات الجبلية المؤدية للطريق سألتها وانقبضت عندما عرفت أنها أعشاب أو نباتات تعاني من الجفاف في طريقها للموت. كانت الصديقة خلال رحلة السيارة تسألني عنه بشكل غير مباشر. تسأل عن أحداث جانبية تستشف بها أي شيء عن علاقتنا. تنصحني ألا اترك نفسي لأي معاناة مهما كان سببها. "آه .. إذن كان متدفق العاطفة معك ؟". قلت "ليس فقط في الحب، ولكن في الكره أيضا. انفعاله متقد في كل شيء. أنا لست معتادة على ذلك، تلك الحدة، تلك الفورة...". حكيت لها كيف اعتنى بي وكيف أسعدني ذلك كثيرا فقاطعتني بسرعة بصوت حذر أنه هو هكذا دائما، مع كل أصدقائه، يُشعر كل واحد منهم أن هذه المعاملة خصيصا له، وخاصة النساء، حتى مع الراهبة في المستشفى اليوناني بالقاهرة التي كان يعاملها بمنتهى الرقة، وكيف قالت له هي أن يرحم الراهبة، فهي امرأة أيضا. لم أحب تعبير وجهها. قلت: "ربما ما أسرني أن هذه هي أول مرة يعتني أحدهم بي بهذا الشكل". وافقت على كلامي وأضافت أنها بالعكس، كان في حياتها كثيرا من الرجال الذين تسابقوا للعناية بها. التفت إليها فتجاهلت نظرتي. كانت توحي لي طول الوقت أنه يتصل بها، أنه يحتاجها، أنها مهمة في حياته. تقول صديقاتها عنها إن مبدأها أن تكون حول الرجل طوال الوقت، تمده بما يحتاج قدر المستطاع، ليتعود ويكتشف بعد قليل أنه لا يستطيع الاستغناء عنها. يسمونها المرأة العنكبوت. تقول "لا تأخذي الأمر

fb/mashro3pdf

بجدية، لا تستثمرين فيه. تعرفي على رجال آخرين، من نفس ثقافتك". ضحكت قائلة "هل ترينهم في طابور أمامي؟!". قالت "أنت جادة أزيد من اللازم. تمشين دون ابتسامة صغيرة تحمل أكثر من معنى. ضعي نفسك في المجتمعات حيث يمكن أن تقابلي فيها من يعجب بك ويعجبك". بدت جادة ومخلصة، ولكني لم أسترح لكلامها وطريقتها. وفي طريق العودة وقرب الخروج من الغابة أوقفت السيارة على جانب الطريق لننظر للغابة تحتنا وفوقنا، بالأشجار فائقة الطول وصوت خرير الماء يأتي من بعيد. قالت: والآن هيا اشحني بطارياتك قبل أن تعودي غدا لأثينا.

هل يمكن استرجاع الشعور باللحظة ، كما كان، أم أنه بانقضائها تتلاشى؟. البلكونة الواسعة، وهو يحضر أشياء الإفطار. يروح ويجيء، يلمسني كأنما بلا قصد. لا أقوم بأي رد فعل. هو يقول أنه يقوم بأصول الضيافة وفقط. كنت أشعر كالسكرانة، كالمخدرة، إلا أن حساسيتي كانت في أوجها. صوت الريح، أحسها على ذراعي ووجهي ورقبتي، صوت الحمام، يلتقط الفرافيت التي ألقيها إليه. هو يقول عنهم أصدقائي، وأرد أنهم يثقون في، فيبتسم في شك. أجد نفسي في وضع الذي يدافع عن نفسه. وضع سخيف. حاولت تجنب الوقوع في أي خطأ في حياتي، فلم أحيا. والآن؟!. طعم الخوخ مخلوطا بالزبادي، وأنا أميل فوق الطبق، أضع الملعقة في فمي، وهو ينظر، يراقبني. أشعر تحت نظرة عينيه أني في بقعة ظل وسط هجير الشمس القاسية. أستمتع، ولا أنظر له كثيرا.

ربما أستحق. لقد كذبت عليه في البداية بالفعل دون سبب واضح. أعجبتني اللعبة. أن أبدو الساذجة. أبدو المظلومة. شكلي سيصبح أفضل، وربما أصبح أكثر جاذبية. ما الذي جعلني إذن أتكلم ونحن في تلك التافرنا على البحر؟! أردت أن استعرض صراحتي، ربما أردت أن أحكي حكاية مشوقة تجعلني أقل مللا. هل أتيت هنا بصدق كاف؟!. لا أعرف. اقبلي إذن حكمه، ثم عودي لعالمك.



fb/mashro3pdf

في الطريق إلى "دلفي" حكى لي أنه رأى يوما في هذا الطريق نفسه قطيعا من الخنازير البرية. تمنى أن نصادفه فأراه أنا أيضا. أسمعه كأن من بعيد، بعيد جدا، فقد بعثت فيّ دلفي والغابة حولها شعورا بالغوص في الذات لدرجة الوحدة العارمة، لدرجة أن أحتاج للبكاء الذي لا يأتي. كل ماضيّ، تاريخي، وأساطير المكان تنتصب الآن أمامي وتغرقني. على الدرجات الحجرية الملساء الصاعدة مضيت وراءه أجاهد أنفاسي المتلاحقة، سني حياتي، ما مر بي، والنبوءة تدوي في أذني. هذه المرة، في هذا المكان، لن يمكنك تجاهلها "وحيدة كنت، وحيدة ستظلين، وحيدة كنت، ووحيدة ستظلين". أنظر. تقف الدموع على حافة عيني وقلبي مثقل، فهل أندم، أم أدير ظهري وأمضي لأبدأ من جديد. أطلال عطايا مدن اليونان لآلهة المعبد تذكرني بالثمن الذي يجب أن يدفع. هناك دائما ثمن ما، نتجاهله، جميعا. هل لأنه مهما عظمت أو حقرت القرابين الممنوحة، ستكون النبوءة هي هي؟!. الأحجار المبعثرة لا تغير من الأمر شيئا، سواء تراصت فوق بعضها في بناء له وظيفة، أم بعثرتها الزلازل المتعاقبة، فما شهدته الأحجار محفور فيها، وسيظل. النباتات البرية تنمو حول الأحجار والأعمدة، بشكل آسر. أشجار صغيرة تجاور أخرى طويلة، تصل الأرض بالسماء، أو تحاول. وعشب بريّ، اخضر ويابس، فهل تدفئ الأعشاب قلب الأحجار بعد كل ما مر بها عبر السنين والقرون، ولو قليلا. أكتم آهة، تود لو تمزق قلبي، لو تزهق روحي، فأستريح. أتجمل أمامه، بشق النفس، فأتصرف بالرزانة المعهودة، التي طلبت مني دائما. أستكملها كما يجب، دون أن يدري أحد كالعادة بما يجري داخلي. نمر بالمسرح الصغير، الأحجار المتدرجة. هل بقت أنفاس من جلسوا عليها، يشهدون كوميديا، تراجيديا ، توتر مؤدين وقفوا باندماج شديد وإحساس بالواجب حيث أقف أنا الآن في وسط المسرح. أنظر من مكاني هذا إلى حيث يشير هو بأصبعه. إذن هذا هو مركز الأرض، حيث التقى النسران اللذان أرسلهما زيوس؟!! .



fb/mashro3pdf

آه ، مركز الأرض، فلتواجهي إذن. تدوي في أذني: "واجهي أكثر، عـري نفسك أكثر"، تجاوبها آهات تألمي من الثقل. "أكثر، أكثر" فأرد أنا صـاغرة طائعة: "حاضر، حاضر، وهل هربت أبدا من قدري من قبـل؟!. "أكثـر، أكثر"، فأرد: "حاضر، حاضر، فقط قليلا من الرحمة، سأفعل، سأفعل، وهل هربت أبدا من قبل؟! فقط آمل في بعض الرحمة. هذا المكـان يعتصـرني عصرا. لماذا أترك نفسي دائما لأن أعتصر هكذا؟! ألـم يكفنـي؟!. "إذن، تودين أن ترهقي حسك أكثر؟!، هه؟! تفضلي، الثمن معـروف، سـتدفعينه طائعة، أليس كذلك؟!". سألني: "أنمضي أكثر؟ هل تقدرين؟ أم نكتفي هنـا؟ تعرفين أننا نستطيع دائما أن نتوقف، نتوقف ونعود أدراجنا ، يعتمـد ذلـك على قدرتك على الاستمرار". أنظر إليه وقد أغشى العرق عينـيّ. أكمـل هو: "ربما تفضلين استخدام ما تبقى لك من طاقة في تلمس طريق العـودة من حيث أتيت. ربما تكون هذه هي الحكمة... هل تسمعينني؟ هل تنصتين إلي؟!". أشير برأسي بلا كلمات، وأمضي صاعدة، تـارة رافعـة رأسـي، وتارة ناظرة إلى حيث تهبط قدماي، كما لو كنت أحاول غرسهما لتثبتـاني ولو للحظة، فاطمئن، ولو للحظة. صوته محذرا يأتيني مرة أخرى، فـأرفع رأسي وأنظر إليه. يقول: "ربما تكون نصف ساعة أخـرى أو أكثـر!". لا أعلق. يعاجلني قائلا: "ليس من أجلي، بل من أجلك أنت. هل ستستطيعين؟ هل ستقدرين؟!". نعم ، نعم ، أقولها لنفسي قبل أن أقولها لـه وأنـا أنظـر لقدميّ تتبادلان المواقع أمام عينيّ الغائمتين، والشمس تنفح فـوق رأسـي، تسكرني، فتثقلني أكثر، كأنه لا يكفي ثقل القلب. مقاعـد سـاحة الألعـاب الحجرية تتراص، تمتد تحت الجبل. كان يجلس عليهـا المتفرجـون، مـن يريدون متابعة الألعاب. الكر والفر، تنافس المتنافسين، تشاحنهم، بجـد أو بهزر، كالحياة. جلست على حجر يواجه مباشرة مقاعد المتفـرجين علـى الناحية الأخرى من ميدان الألعاب. وهكذا، أخرجت نفسـي كالعـادة مـن المواقع المعتادة المألوفة. فمن مكاني أنا لست بلاعبة في الحلبـة، ولسـت



fb/mashro3pdf

بحكم لأجلس في الكبائن الحجرية المخصصة لمن يستطيعون أن يصدروا أحكاما، ولست حتى على مقاعد المتفرجين. ظل الجميع أمامي، وهو منهم، يغدون ويروحون في مضمار الألعاب. قفز بعد أن جرى قليلا لمقاعد المتفرجين. ظل يصعد الدرجات الحجرية، يصعد ، يصعد، حتى وصل لأعلاها فجلس، ينظر للمضمار، ينظر لما تحته. عندما أتى لحيث أجلس زودني بالماء. فتح الزجاجة وقربها لشفتي لأشرب دون أن أطلب. يعرف، كالعادة. سألني إن كنت أريد شيئا آخر. سألني إن كنت قد اكتفيت، ثم تركني، تركني لحالي، وخرج من الملعب. لم يجلس بجواري على ذلك الحجر الذي اخترته ، حجر اللا دور. الطريق الهابط سهل، دائما، أليس كذلك؟! نقطعه، وقد استرحنا لما أنجزناه. ننظر لما سبق أن رأيناه في طريق صعودنا حين نمر به مرة أخرى، فنهز رؤوسنا : هذا مر علينا، وهذا أيضا. ثم نكر الطريق، ولأنه طريق هابط فكره سهل، تراك ، تراك ، تراك ، ثم تجد نفسك هناك، حيث بدأت. هل اعتصر قلبك شيء؟! هل سمعت نبوءة ما؟! هل فصد العرق من جبهتك فأعمى عينيك؟! هل تلاحقت أنفاسك محاولا استكمال تحدٍ ما، التحدي أن ترى كل شيء؟! ما تعتقد أنت بفهمك القاصر أنه كل شيء؟! ثم تصل للنهاية فتستريح، معتقدا أنك أديت مهمتك. لم يبق معي وقد أدرنا ظهرنا لأحجار دلفي إلا النبوءة. لم تعد تدوي في أذني، بل استقرت في قلبي، تعوم فوق سطح الدم. هادئة وادعة. ركنت وركن قلبي للسكون بعد أن تعب مما تركته له بيدي، وليس رغما عني. في طريق العودة من دلفي، دخلنا مدينة جميلة ذات بيوت قديمة وكنيسة صغيرة بمذبح خشبي مشابه لكنيسة بريفولي. تناولنا غداءنا في مطعم داخل البحر بجوار ميناء صغير عليه مراكب ويخوت صغيرة. كراسي من القش والخشب، ومفارش زرقاء وأصص زرع ضخمة فيها شجر بأوراق صغيرة خضراء كثيرة، والجرسون الشاب بلون عينيه الأزرق الشفاف، وقوافل الأسماك تقبل على ما نلقيه من فتات الخبز



fb/mashro3pdf

وزجاجة الأوزو الثانية وتعليقه الذي لم أرد أن أفهم سببه: "احترسي من الأوزو. ربما تحتاجين بعده رجلا، ولا يوجد رجال!". جرحت ونظرت إليه نظرة أعتقد أنه فهمها. أخذت أكتب وهو يراقبني معجبا ومتحفزا في نفس الوقت. يهاجمني بلا سبب وأشعر بالتعاسة فألهي نفسي بالكتابة فتوجعني أكثر: (أما أنا فعرافة دلفي قالت لي: "مكتوب عليك ، ستظلين وحدك ، أبداً". علي أن أتقبل وأكون ممتنة. ممتنة للحياة أن منحتني قليلا من الظل في وسط هجير طويل، ليكون كزاد لوحدتي القادمة. لا تتصرفي كالأطفال. تقبلي قدرك ببسالة. كنت دائما شجاعة. هذه المرة آلامي شديدة: علي أن أغلق نفسي مرة أخرى ..على صحرائي).

في طريق العودة من دلفي في هبوطنا من أعلى الجبل متجهين للمدن التي أراد أن يريني إياها مررنا بحقول ممتدة من أشجار الزيتون العجوز. عمرها مئات الأعوام وجذورها ممتدة في الأرض بمثل عمرها الطويل، تفرش مسطح الأرض تحتها كله بالظل. المنطقة منحت أسمها "كالاماتا" لنوع زيتون خاص تنتجه. تمضي السيارة بسرعة في طريق ضيق يخترق غيطان الزيتون فلا ألمح إلا جذوعها العملاقة ولا أحد إطلاقا حولها. تدور السيارة وتبتعد أو تقترب من حقول الزيتون كأنها تحاورها. بحر من الاخضرار الفضي يجاور زرقة البحر اللازوردية. اخضرار تألفه عيناي، كأنه جزء منها. وقعت في النوم لدقائق وعندما شعرت بسرعة السيارة تبطئ، اعتدلت جالسة لأنظر فمد يده بسرعة ليغطي عينيّ. أراد أن يفاجئني. "جالكسادي"، المدينة الجميلة. نواعير وشلالات مياه، قلعة عالية، وكنائس صغيرة معلقة في الجبل المطل على المكان كحائط. كان هناك من يحاول تسلق الجبل، نراقبه وأعيننا لأعلى. كان يتسلق قليلا ثم يسقط نفسه قليلا بهدوء ممسكا الحبل بقوة معترفا بصعوبة المهمة. عبر هو عن احترامه لمن يحاول تلك المحاولات المستحيلة وأردت أنا أن أخبره عن فيلم

fb/mashro3pdf

"سبع سنوات فى التبت" والحوار بين الفتاة التبتية ومتسلق الجبال الألماني عن معنى تحدي تسلق الجبال في الثقافتين، ولكني آثرت الصمت. كنت متعبة وقلبي ثقيل واللحظة غير مناسبة. وجد هو كلبا بنيا صغير السن. قال إنه يعتقد أنه يحتاج لصديق. قال إنه يحب الكلاب فقلت وأنا استدر عطفه: "في الأبراج الصينية أنا كلب، فهل تحبني إذن؟!". نظر إلي بعين غائمة قائلا: "الحب كلمة كبيرة لا يجب اللعب بها". أدار وجهه فاصلا نفسه. جري معه الكلب هنا وهناك ثم قرر أن يعزمه على لحم سوفلاكي. طلب مني أن أحافظ على الكلب ولا أدعه يمضي حتى يسرع للمحل القريب. جلس الكلب جواري وأنا مستندة على السور الحجري وورائي المياه المنسابة. جاء كلب آخر، كبير جدا. جلس جوارنا قليلا ثم قام ليمشي فتبعه الصغير. وجد الكلب الصغير صديقا له فتركني رغم محاولاتي استبقائه، واختفى في لحظات. عندما عاد بسوفلاكي اللحم الساخن في عصا صغيرة في يده غضب عندما لم يجد الكلب: "لا تستطيعين حتى أن تحتفظي بكلب صغير وتجعليه ينتظر جوارك؟!". ظللنا نبحث عنه في الشارع والشوارع المحيطة. ثم دخلنا مقهى. تركني فيه لأشرب قهوة مثلجة فقد كنت أكاد أسقط في النوم. أجلس وحدي أنتظره وهو يبحث عن الكلب. عندما عاد اقتسمنا مربى الوشنة التي قُدمت إليّ مع القهوة وغادرنا المقهى نبحث بأعيننا عن الكلب حولنا. ينظر إليّ بلوم. يبدو أنه يهوى لومي ويستمتع به. لا ألقي بالا أحيانا، وأتضايق أحيانا أخرى. لطالما سعيت لإرضاء من لا يرضى. تحركنا بالسيارة ، ثم فجأة: وجدت له الكلب رغم صعوبة الرؤية ، فقد عم الظلام الآن. وجدته يلعب مع صديقه الأكبر في الحجم على كومة من الرمال المعدة للبناء في شارع جانبي قريب من المقهى والميدان حيث شلالات المياه. أوقف السيارة بعد سلسلة من الخناقات الصغيرة مع قادة السيارات الآخرين لأنه أراد أن يقف بالسيارة فجأة ويعطل المرور، وخرج جالسا علي الرصيف مطعما صديقيه باللحم. فتحت الباب وجلست وقدماي



fb/mashro3pdf

خارج السيارة أتأمله. عاد للسيارة راضيا. ظللت أكرر: "هل رأيت كيف وجدته لك؟! هل رضيت عني لأني أنا من وجدته لك بعد أن لمتني لأني ضيعته؟!". لم يرد. تأملت للحظة ما أفعل، فصمت. كان طريق العودة مزدحما، فالأثينيون عائدون من إجازاتهم. أخذ يخرج رأسه ورقبته من شباك السيارة ليأخذ نفسا عميقا وليطس الهواء وجهه فيوقظه ولو قليلا. ثم لم يعد يحتمل أكثر فأوقف السيارة فجأة على جانب الطريق وقال إنه لابد أن يغفو قليلا ليستطيع استئناف القيادة بعد أن تأخر الليل. ألقى برأسه فجأة كحجر في حجري لينام قليلا. اعتذر بكلمات سريعة دون أن ينظر إليّ. قال إن كرسيه مكسور وأنه يريد أن يبتعد عن أضواء السيارات في الطريق لينام. همهمت "لست محتاجا للاعتذار". كان رأسه يثقل بالتدريج كلما دخل في النوم. شعره الأسود بين أصابعي، أتخلله، وأنا أميل لأنظر لوجهه. آه لو أستطيع أن أثبت اللحظة. آه لو نظل هكذا. ظللت أنهل ناظرة لوجهه، أتأمل تكوين عظام الوجه، العيْب الخلقي في صغر فكه وانضغاطه للداخل، جبهته العالية، وخط الشعر الأفقي الحاد، الشعر الأسود القوي النابت في ذقنه وشاربه، أذنيه، دقيقتين مليئتين بالرجولة، أود دائما أن أجري أصابعي على حرفهما الرقيق، وأنفه، بطوله المبالغ فيه الذي يسخر هو نفسه دائما منه، وشفتيه، رفيعتين، مزمومتين، أود أن أقبلهما. أنتظر من دقيقة لأخرى. سيفتح عينيه فجأة، ثم يعتدل بسرعة، كأنه لم يكن هناك منذ لحظة. سيدير الموتور وينطلق فورا. وهذا ما حدث. شكرني، دون أن ينظر لي. ولم أرد.

في الصباح أصر أن أقرأ له ما كتبت عن دلفي. كنت كقماشة مبلولة تنعصر. كنت أرتعش. أراحني أنه استمع وشعر بي. فتح الباب وخرج فجأة كمن يهرب وفي الظهيرة عندما عاد أخذني من يدي ليريني أنه اشترى طاقم من الخزف وضعه في حمامه لفرش الأسنان والصابون عليه طائر أزرق، ليتذكر، كما قال. أخبرني أيضا أنه اشترى لي هدية تركها على

fb/mashro3pdf

ناحيتي من السرير. طلبت منه أن يحضرها. فتحتها ونحن نجلس متجاورين على الكنبة في الصالة. كانت الهدية ثلاث طيور خشبية بيضاء مختلفة الأحجام كل يقف على قائم واحد تحته قاعدة خشبية عريضة. لم ينتظر تعليقي وغادر بسرعة عندما ناداه والده ليخبره عن حرائق في غابات اليونان في منطقة يسكنها بعض أقاربهم. تسمرت أمام نشرة الأخبار في التليفزيون أنظر. ألسنة النار تضيء ظلام الليل. الأشجار في الخلفية صامدة تحيطها ألوان النار البراقة. نراها واقفةً الآن، إلا أني أعرف أنها ستحترق دون أن يبقى لها اثر بعد قليل. تتطاير أشياء سوداء وقطع من اللهب فوق قمم الأشجار التي تظهرها الصورة من بعيد فوق هضاب منخفضة. تقترب الصورة فنرى النار وقد أمسكت بغصن يحمل الكثير من الأوراق. تركز الكاميرا لبضع ثوان فتسمع صوت طقطقة الاحتراق. عندما ظهرت على الشاشة صور المنازل القريبة من حريق الغابة وقد صورت في الصباح التالي انهرت جالسة على الكرسي أمام التليفزيون. أبواب وشبابيك بلا مصاريع، يحيط بها الهباب وأراضي البيوت تمتلئ بالرماد وبقايا النفايات البائسة. دخان أسود ورمادي مازال يملأ السماء ويغلف كل شيء وأناس منكسي الرأس يتنقلون في بطء بين الأطلال وقد غطى الهباب ملابسهم وأيديهم ووجوههم. يلقي بعضهم بنفسه على الأرض وينشج. يتقابلون فيحتضنون بعضهم البعض ويبكون. ظللت مسمرة في مكاني وقد وضعت كلي كفيّ على فمي. كنت في عالم آخر. أغلق التليفزيون وجلس جواري دون أن ينطق بكلمة لمدة طويلة. قال فجأة: "فلنخرج، أريد أن أريك شيئا في هذه المنطقة". أحضر ملابس اختارها لي وأراد أن يغير لي ملابسي كالأطفال. اندهش من رد فعلي العنيف الرافض. كنت أوده من كل قلبي فلم أحتمل لمسته. غادر البيت فوقعت في النوم ولم يعد هو إلا في المساء المتأخر. غير ملابسه وحذائه استعدادا للرياضة. تأملته فلم يعطني فرصة وأخذني للخارج في تمشية. كان مساء متأخرا، ربما بعد الثانية



fb/mashro3pdf

عشرة بنصف ساعة أو تزيد. القمر كاملا، بدرا ساطعا. يمسك بيدي بقوة، كعادته، ويجرني وراءه، وأنا أتبعه، نصف نائمة، يهدني التعب، إلا أن متعتي بجواره ملتصقة بذراعه تهدهدني. نجتاز الشوارع الخالية. كان يريد أن يريني كل الأشياء الحلوة، التي يراها حلوة. البيوت التي تعجبه، السينمات الصيفية، البارك الهادئ بأشجاره النائمة. يسكتني دون أن أكون قد تكلمت واضعا أصبعه أمام شفتي، لننصت معا لصوت وشوشة مياه بعيدة. نصل للكوبري الصغير الذي يتوسط البارك فننظر للأسفل محاولين رؤية مياه النهر الذي بالكاد نسمع صوت وشوشة مياهه. يحملني مقربا إياي من السور: "هل ألقيك الآن؟!". اضحك في دلال أستمتع به وأستغربه من نفسي. نصف نائمة أتبعه، وهو يتنقل بخفة بين أرجاء البارك المفتوحة أبوابه على الشارع المحاذي. يهجم علي مرات عدة فيحملني. أترك نفسي له، فينزلني مبتسما، منتصرا. يحتك جسدي بكل جسده، وهو ينزلني من أعلى ببطء وثبات، حتى يُقترب الوجهان، الشفتان، العينان، فنطوق بعضنا. عندما عدنا نمت على سرير صديقه نيكوس الذي تركه في الشرفة الواسعة. أسمع خروشة صغيرة. أفتح عيني فأجد الحمامتين اللتين ألفتا شرفتنا تقفان على السور. تتحركان يمينا وشمالا، تنتظران. أشعر أن تلك التحولات المباغتة في تصرفاته تجاهي لها علاقة به وليس بي. يترك نفسه لشعور ملح في لحظة، بغض النظر عن الشخص أو الظروف. إنها تفاعلات داخله هو ولكن عندما يصبح عدائيا لا أعرف كيف أتصرف. لا أعرف ما تمثله له هذه التجربة، فهو محير. ما نوع تجاربه؟ ماذا تعلم؟ كيف ينظر للأمور؟ يبدو من تصرفاته معي أن إرادته قوية إلا أني أعتقد أنها ليست هكذا في كل امور حياته التي هي أقرب للبوهيمية. ربما تكون تلك الارادة نوعا من الدفاع عن النفس، من المحافظة على ذات حساسة تخاف الجرح. لن يكون صعبا أن يستأنف حياته بعد ان أغادر. سيغلق الباب ورائي ويستكمل. وهذا هو بالضبط ما يجب أن أفعله أنا أيضا.



fb/mashro3pdf

في الأيام التالية أخذني إلى كل الأماكن. أعلى قمة في أثينا حيث كنيسة بيضاء صغيرة لنرى المدينة كلها، يدير وجهي وهو يقف ورائي بيديه الاثنين ليريني الأماكن وينطق أسماءها ببطء ووضوح. يشير لمكان آخر، ويديرني لأراه، بيديه الاثنين. يدير رقبتي وكتفاي ووسطي. بذراعيه يكاد يحملني ليديرني في الاتجاهات المختلفة. أكروبوليس حيث كل السحر. نصعد للقمة المجاورة للأكروبوليس لرؤية أثينا في المساء. نمر على مونستراكي والبلاكا والميناء والحي الراقي في كيفسيا. ثم متحف الأركيولوجي ومتحف بيانكي حيث يتركني ثم يعود ليأخذني. عندما يأتي يختبئ في مكان ليراقبني، ثم يظهر ورائي، أو على الرصيف الآخر. يحب أن يفاجئني. أقول أني أثق أنه يستطيع دائما أن يحدد مكاني، يجدني، في أي مكان مهما كان. كنت أؤمن بذلك، وهو أيضا. سمعني أتحدث عن الأراجوز فبحث وعرف مكان المتحف وأصر على أخذي هناك. فيلا صغيرة تحوي مجموعة أشهر لاعب للكاراكيوز في خيال الظل في اليونان وأباه من قبله. بدأت أندمج، أصور، أتأمل. وأتى صاحب المتحف وقالت الموظفة الصغيرة أني محظوظة. ظلت سيارته تحمل بقية اليوم رائحة لم أفهم كنهها. أتشمم نفسي، الأكياس التي أحملها، ربما أخذت رائحة من الكرسي الذي جلست عليه في انتظاره آكل جاتوه الشكولاته الردئ الذي اشتريته، مفتقدة إياه واختياره لي لأفضل الأنواع في كل شيء. ظل يراقبني مبتسما وأنا أتشمم كل شيء ثم أخبرني في النهاية أن الرائحة لقطة، ثم كلب مصابين حملهما في سيارته، واحدا بعد الآخر لينقلهما لطبيب، بعد عراك. لم يستطع احتمال احتياجهما للمساعدة. وتلك كانت النتيجة. حاول التخلص من الرائحة: نظف المكان، ونثر اسبراي معطر و أبقى الزجاج مفتوحا طوال الوقت، بلا فائدة. وفي المساء أخذني في جولة بالسيارة بالقرب من البارك الذي مشينا فيه قبلها ليلا. عدنا لنفس الأماكن. يقول: "وهذه هي السينما الصيفية، أتذكرين؟، الكافيتريا الملحقة بها، أتذكرين؟، الملعب ومكان



fb/mashro3pdf

جلسنا جنبا إلى جنب ننظر للظلام، مدخل الحديقة التي استمعنا فيها لوشوشة النهر الضعيفة". ينظر لي ويقول: "أتذكرين؟!". اتجهنا للطرف الآخر للمدينة وهو يحاول بالتليفون حجز مقاعد في إحدى الحفلات الغنائية ولا يجد. وقفنا خارج السور مع الآخرين الذين لم يجدوا بطاقات دخول مثلنا وهو يقول إنه لا يحب هذه الطريقة، يقصد أن نقف بالخارج دون تذاكر أو مقاعد، وأنالا أدري ان كنت أحببت من قبل شيئا اكثر من وقفتنا هناك، نستمع للمغنية "ديمترا"، وأنا احتضنه، بذراعي وبقلبي، وهو يهمس في أذني بترجمة كلمات الأغاني الجياشة بالمشاعر. قريبا ساحرا عاطفيا متحكما في نفسه.

وفي الليلة الأخيرة أتى لوداعي كل أصدقائه الذين قابلتهم معه منذ وصلت. خاريس الذي أتى من جزيرة كلها من المجانين كما يقول الآخرون، والذي سيغادر قريبا ليعود لحياة البحارة. يسألهم عمن سيتطوع للعناية بشجرة النارنج الوحيدة أمام بيته ومن سيخزن دراجته البخارية. ونيكوس الممثل الشاب الذي يسكن مع امرأة أكبر منه في العمر في قصة حب مستحيلة، وأندريا الوحيد منهم الناجح في عمله والمستقر عائليا الذي يظهر إعجابه بي في كل مناسبة، ونيقولا شاعر الأغاني العجوز. كانت أمسية جميلة ساهم فيها الطعام الذي قضيت بعد الظهر في تحضيره، والأوزو، والشموع التي أنارت المكان على المائدة وفوق أركان سور الشرفة وتدليله لي أمام الجميع مما أثار قفشاتهم عليه وضحكهم. انصرف الأصدقاء واحدا بعد الآخر وبقى الشاعر إذ وعده هو أن يوصله لبيته بعد أن يغفو قليلا. "هل تفتحين قلبك لي؟" قال نيقولا الشاعر العجوز بمجرد أن أصبحنا وحدنا وبيننا شمعة كبيرة تصغر ودموعها تسقط حولها على المائدة. أتناول دموعها الساخنة لأشكلها بين أصابعي رغم الألم. "لا تدعي أحدا أبدا يعرف أنك غير سعيدة. امضِ في الحياة ورأسك إلى أعلى. ليست الحقيقية؟! ، ما المشكلة؟!، تمثيلا؟!، فلتمثلي ، ادعاءً؟! فلتدعي، لم لا؟، بهذا



fb/mashro3pdf

ستصبحين سعيدة. صدقيني. بعضا من الماكياج لا يضر. ارفعي رأسك. لا تبعثري أو تشتتي نفسك في هذا وذاك. أنت هنا الآن، ولكن هذه ليست حياتك العادية، ليست حياتك اليومية، أليس كذلك؟ إذن خذيها كمصدر لتجديد الطاقة، لتعودي لحياتك أكثر راحة وحيوية. هذه هي وظيفة الرحلة، تغيير. لو أننا نعيش هذا التغيير طوال الوقت ستصبح الحياة صعبة ثم أنه سيصبح بعد قليل هو (العادي)، فلن يفيد. الرحلة تعطيكي طاقة وحلم تواجهين به ويصبرك على حياتك اليومية التي لابد أن تعودي إليها. تعتقدين أن تجربتك السابقة حطمت فيك شيئا؟! لا أعتقد أن هذا صحيح، فمن أين إذن أتى هذا الامتياز والتفرد الذي أراه أمامي الآن إن كنت محطمة؟!. يا صديقتي: ما لا يقتلك يقويك، يغنيك، أليس كذلك؟! وإذا لم نقع في الخطأ أبدا: فهل ستسمى حياتنا تلك حياة؟!. تعتقدين أن لا أحد يعجب بك؟!، إذن، هزي ذيلك قليلا، تصرفي كامرأة. لا تعرفين كيف؟!. تعلمي، راقبي ونفذي، لماذا كل هذه الجدية؟!، ما زلت صغيرة، ولكن انتظري: أنت لم تعودي صغيرة جدا، لذلك لابد من الحذر، من الانتباه للوقت، للزمن. لا تضعي لنفسك أهدافا مستحيلة: سيكون الاحباط واليأس عندها هو النتيجة، ولا تحزني لأن الآخر لم يفهم، أو لأنه لم يستبقيك، فهذا يعني أنه ليس الشخص المناسب، ليس بعد. ولكن عليك أن تشكري الحياة لأنها أعطتك تجربة. اقلبي الصفحة، وانفتحي للحياة".

كان غارقا في النوم عندما اقترب منه الشاعر العجوز في رفق. انتبه في لحظة وقفز واقفا. كان الوقت قرب الفجر وقد انطلقت الكلاب الأثينية في نباح جماعي هستيري آخذة دورها بعد توقف حشرات الأشجار عن الصفير. فتح حنفية البلكونة التي يستخدمها لسقي الزرع، فغسل وجهه ورأسه محاولا افاقة نفسه، ناثرا الماء الذي أغرق به شعره الأسود الكثيف الواقف كالإبر بنفضة عنيفة كنفض الكلاب لفروتها. بدا وجهه كما لو كان قد مر بمعاناة أليمة في نومته القصيرة. لم أدر مدى عمق نومه ليسمع أو لا



fb/mashro3pdf

يسمع حديثنا الهادئ الصاخب عن حياتي وحيرتي. وجه خرطوم الماء من على بعد نحو الصبارة الضخمة الوحيدة في ركن البلكونة ليسقيها. قبل أن يغادر استحلفني ألا أمس أيّاً من الأطباق أو أدوات المائدة المتسخة، وأن أذهب مباشرة للنوم. أومأت برأسي دون مقاومة فأنا مرهقة تماما، بدنيا وعصبيا. حياني الشاعر العجوز بنظرة ذات معنى قائلا "هل ستتذكرين ما قلته لك؟". أومأت بتأثر وقد عنّ عليَ البكاء. أشحت بوجهي فغادرا في لحظة، إذ التفت فلم أجدهما ولم أسمع صوت اقدامهما على السلالم. كنت خائرة القوى فلم أستطع إلا أن أفعل ما طلب مني. لم يبق إلا ثلاث شمعات تسكب دموعها. وضعت كفي حول اللهب وملت فشعرت بحرارتها، تنفست بعمق وتنهدت. أطفأتها الواحدة بعد الأخرى وأنا أنقل قدميّ ثقيلتين عبر أركان البلكونة حيث ثبت هو الشموع في بداية السهرة. لم أشعر به عندما عاد أو وهو يستعد للنوم، فقط شعرت ببرودة جسده نصف المبتل وهو ينسل جواري في الفراش. كانت تلك آخر ليلة ننام جوار بعضنا. تنهدت وفتحت عيني بصعوبة. كان الضوء خافتا تماما إلا أنه لم يمنعني من رؤية وجهه ناظرا إلي متأملا وقد أسنده على كفه. تعجبت قليلا من توتر ملامحه، إلا أني كنت متعبة لدرجة كبيرة فلم أسأله. فقط مددت ذراعاي لأحتضنه وجفناي ينسدلان رغما عني مستسلمة للنوم. كان عاريا. فوجئت، إذ لم يرقد جواري عاريا منذ ليلة المسرح. كنت بين النوم واليقظة وهو يحدثني بهمس وأنفاسه تلفح وجهي، عن حديثه في السيارة مع الشاعر العجوز. تعجب من السرعة التي يحبني بها الناس، وكيف أوصاه أن يترفق بي والا يدع العمر يمضي سدى. كان رقيقا وحزينا وهو يحاول احتضاني، يقبلني قبلات افتقدتها طوال الأيام والأسابيع الماضية. استقبلته بجسدي وانا نصف نائمة وضغطته إلى صدري، وعندما كاد يترك نفسه لأحاسيسه تنبه فجأة، تشنج، أمسكني من ذراعيّ وهز أكتافي: "أود لو أضربك، أكسرك، أود لو أقتلك". كان صوته الهامس ملتاعا يكاد يبكي "إلا أني لا أستطيع، لا



fb/mashro3pdf

تهونين عليَ، ومع ذلك ما زلت لا أتخيل، أنـت؟، أنـت؟، بكـل قـدرك وقيمتك؟،كيف تركت نفسك؟، كيف فعلت ذلك بنفسك؟ وبي؟ كيـف؟ كيـف هانت عليك نفسك؟، أجيبي ...، أجيبي". تشنج جسده فوق جسدي وتفصـد بعرق بارد. كان جسدي ما زال بين النوم واليقظة مسترخيا تماما. شـعرت بدموعي ساخنة تنساب منَ زوايا عينيّ تبلـل جوانـب وجهـي وشـعري والوسادة. وبلا حرف أو صوت أرخيت ذراعيّ اللتين كانتا تحتضناه فوقعتا جوار جسدي هامدتين وأشحت بوجهي، فانقلب راقدا على جانبـه معطيـا ظهره إياي. لماذا أحتمل كل ذلك، لماذا؟. قمت جالسة. تلمسـت طريقـي حافية في الظلام الدامس نحو الشرفة. وصلت للسور فأمسكته بكفيّ بقـوة لأشعر ببرودته تسري لذراعيّ وقلبي. رفعت رأسي وتنفست الهواء البارد. نظرت للسماء. تلمع النجوم اليوم بشكل خاص. (يقول لي لماذا تحدقين في النجوم؟ هل تودين أن تجدي نجمة تحبينها أكثر من الأخريـات فتجعلينهـا نجمتك المفضلة؟ وأقول نعم، طالما فعلت ذلك في أوقات اليأس والصعاب). قربت كرسيا وجلست مسندة رأسي وذراعيّ على السور مستسلمة بشـيء من المتعة لهواء الليل البارد. قضيت جزءا كبير من الليل مسـتندة علـى سور البلكونة، رأسي تتوسد ذراعي. سكون تام. حتى حشرات أشجار أثينا قد سكنت هي الأخرى. غفوت تعبة. يئست من كل شيء. هان كل شـيء. قلت لنفسي كما يقول الفرنسيون "ما سيحدث سيحدث". قمت بعد أن هـدني التعب والنعاس. مشيت في الظلام حتى السرير. رقدت جواره وأنا أذكـر نفسي أن هذه هي آخر مرة، آخر مرة. غطست في النـوم بـلا مقـدمات. عندما استيقظت كان ضوء النهار يفترش الحجرة. كنت أدرك أين أنا إلا أن فكرة أن هذا هو آخر يوم لم تقفز لعقلي إلا عندما تلفت فلم أجده جـواري. قمت أجري، أبحث عنه. كل تلك الأيام، ما كان أجمل أن أستيقظ كل يـوم، فأجده جواري، نائما أحيانا، أو مستيقظا ينظر إليّ فأبتسم له بفرح. ثم يقوم قبلي فيرفع قدمي ليقبله قبل أن يخرج من الحجرة. وجدتـه فـي الصـالة،



fb/mashro3pdf

يجلس على الكنبة وبيده كراسة مذكراته. كان يلبس بلوزة حمراء أضفت لونا على وجهه وعينيه اللتين ملأهما ألم ما. ألقيت بنفسي عليه أحتضنه. كان شاقا في تلك اللحظة أن أتخيل أن كل ذلك سينتهي: متعة واطمئنان قربه، وأزمة تضارب مشاعره تجاهي، تعتصره وتؤلمني. كنت أبكي على كتفه، أضع خدي على كتفه فأشعر به ساخنا حنونا، فابكي أكثر وأكثر. وهو يقرأ لي ما كتبه عن حلم والدته. رأتني أحمل على ذراعاي عناقيد العنب الطازجة من ألوان وأنواع عدة. دققت باب شقتها لأعطيها بعض من العنب وأطلب جبنا. عرضت عليّ جبنا أبيض فرفضت، فأعطتني جبنا اصفر. أخذته وصعدت إلى شقته. قلبت ما كان في حقائبي، وما كان معلقا في الدولاب، وما كان في أكياس مشتريات اللحظة الأخيرة، قلبت كل ذلك على السرير في كومة كبيرة ووقفت أنظر. هذه أول مرة أكون بهذا الاهمال وعدم التنظيم. ابتسمت لنفسي. سأتوقف عن أن أقول أول مرة. كفاني ما لقيت في هذه الرحلة من سخرية من هذه الجملة. نعم التنظيم مفيد، ولكن هل يساوي الوقت الذي كنت أضيعه في ترتيب الحقائب لعائلتي بكل هذا التنظيم؟!. المطلوب الآن أن أقوم بالمهمة بسرعة لأنتبه لأشياء أهم. أمسكت بزجاجتي الأوزو الصغيرتين، تنامان في قعر الدرج. لماذا أكتب دائما عن أشياء؟ أعاجزة أنا عن التذكر دون (أشياء) تجعل المواقف تطفو على سطح ذاكرتي فتدق دقا. الزجاجتان نفس صنف الأوزو، نفس المقاس، نفس اللون، نفس الغطاء، نفس، نفس، نفس ، بالضبط، إلا أن ذكراهما ليومين مختلفين تمام الاختلاف. كان يكركب في أشياء لا أدريها في الصالة، ويأتي كل فترة لينظر ماذا أفعل، أو ليستعجلني لأنه كما قال لم ينته مني بعد، إذ مازال لديه لي برنامج. ثم ظهر فجأة من فتحة الباب وفي يده الكاميرا وأخذ يصورني، وأنا أبتسم في خجل. كنت سعيدة ومتألمة في نفس الوقت، أتساءل مع نفسي عن قدرته على إسعادي واتعاسي. القدرة علي جعلي أزهو وأثق في نفسي، والقدرة على جعلي أرتبك تماما. تنبهت أني يجب أن



fb/mashro3pdf

أبدأ في طهو السمك الذي كنت قد اشتريته. أخرجته من الثلاجة وبدأت أعده للطبخ. كان يراقبني بحب استطلاع طفولي. يبدو سعيدا أن امرأة في بيته تطهو له. كنت أجلس بجوار المائدة أقشر البطاطس، وأدعي السرعة، وأضحك مفسرة له أني أحاول بإسراعي أن أكسب إعجابه، إذ إني عادة بطيئة تماما. كان يصورني بالفيديو، وأنا أمثل دون أن انظر إليه كيف أقشرها عادة بطريقة التصوير البطيء وأنا سارحة في ملكوت آخر. كلانا يتصرف بادعاء أن كل شيء عادي، إلا أنه لم تكن تلك هي الحقيقة. كان بكائي في الصباح بحرقة قد أربكه كثيرا. هدأني ثم أخذني من يدي للشرفة بعد أن أعد مائدة الإفطار. نظرت للمائدة، للكرسيين ينتظران، للشمسية التي تظللهما، للحمامتين تحومان حول السور في انتظار استقرارنا لتتجرآن على الاقتراب. لم أدر إلا وأنا على كتفه مرة أخرى، أبكي، أنشج، وهو يحتضنني، يحاول في ارتباك إسكاتي. أبكي انتهاء شيء، أبكي فرصا ضائعة، أبكي قلقي من العودة، من مواجهة الكثير. أبكي خيبة أمل، أبكي خشيتي أني سأفتقده. بكيت كما لم أبكِ من قبل. تركت نفسي. ألقيت تعبي، ألمي واحباطي، تحديات الحياة. شكوت قسوته، وقسوة الدنيا. أبكي وأبكي. كان ضوء الصباح مؤنسا، والشمس على حرف السور تشهد، تطهر. أجلسني، وراح يدللني وهو ينظر إليّ في حنان. كنت أزدرد اللقيمات، لأجله، وهو يطعمني في فمي، كطفلته، وأنا أحاول التحمل، والتماسك.

وفي السيارة في طريقنا للمطار، يقودها بسرعة جنونية إذ تأخرنا كالعادة، بدأ يهاجمني بعدوانية. سمعت لدقائق وأنا أنظر لكفيّ على حجري يتقلصان. لم أطق أكثر فأسكته بحدة. "كفى، كفى". قلت أن هذا دوري وانطلقت أتكلم وأتكلم حتى وصلنا إلى المطار. "لماذا يجب أن أتحمل كل هذا التعذيب، وحتى اللحظات الأخيرة؟!. لماذا هذا الكبر، الجبروت؟ هل حقيقة لا تستطيع أن تتخيل أو تضع نفسك في مكان الآخر؟! لا تتخيل أن تمرض؟! تمرض فعلا، أو أن ترهقك الحياة إلى درجة المرض؟! تفقد



fb/mashro3pdf

توازنك فتقع، تتسخ. ثم يكون عندك الشجاعة، القدرة أن تقوم، تنظف نفسك، تطهرها، تغفر لها، وتنسى. أنت أعطيتني عناية وتدليلا لم أرهما في حياتي. لكن كيف أنسى أنك كنت بهذه القسوة، نحوي ونحو نفسك. كيف أتجاهل أنك أصدرت حكما ولم تستطع أن تحكّم إحساسك، أذنيك، عينيك، قلبك؟! أن تتخلى عن الشك الذي قلب الحياة القصيرة لجحيم؟!. لماذا لم تستطع كل تلك الأيام معا، كل تلك الليالي أن تدع نفسك لتعرفني؟! ولكن هل وددت أنت أبدا أن تعرفني؟! أن تقترب؟! بعد دقائق ستفرقنا آلاف الأميال. سيعود كلانا لروتين حياته، لتحديات يومه الصغيرة، وسنستمر. والآن ، ماذا عن هذه القصة؟! هل نتقابل يوما مرة أخرى وبيننا شمعة يتراقص لهبها مع نسيم أثينا الليلي، أو أفتح لك باب بيتي في القاهرة وقد ملأت المائدة بأصناف الحلوى التي أتقن صنعها وأحببتها أنت. أم هل أبعدك، أنحيك جانبا من داخلي حتى لا أتألم أكثر، حتى لا أدخل في دوامات خرجت منها سابقا بجهد جهيد".

كان الوقت في الصباح الباكر وقت كنت أستعد للذهاب لعملي. دق جرس الباب وفوجئت بوفاء أتت من المطار مباشرة لبيتي قبل أن تتجه لعائلتها. جلسنا متقابلتين على الكنبة في حجرة النوم وضوء الصباح الساطع يحثنا أكثر وأكثر على المصارحة. شعرت كما لو كنت على كرسي الاعتراف، كدورق يصب ماءه مدرارا لن يتوقف حتى ينتهي فيستريح. آه، يريحني الإفضاء. أشعر أني فتحت صندوق الكلام وأنه لا يريد أن ينغلق مرة أخرى. أتحدث طول الوقت، كما لو كنت أتحدث مع نفسي. أتحدث لأصدق نفسي. وهي تستمع، دهشة تارة، ومعجبة تارة، وحاسدة أخرى. تقول أن أي تطور أحسن من الخمول. مواتها في الخليج مع ذلك الزوج، كأنه ورطة حياتية تتقبلها كقدر يتناقض مع كل ما عاشته في بدء حياتها مما كان يبشر بحياة حافلة بالغنى والعمق. ظلت تتأملني صامتة وأنا أتكلم.



fb/mashro3pdf

"حبيبتي. آنِ أوانك. عيشي اللحظة، عيشي حياتك. عبري عن نفسك أكثر. اعطفي وحنّي عليها، شجعيها. من يفعل ذلك لك إن لم تفعليه أنت لنفسك. وتعلمي الدرس الذي فشلت في تعلمه من قبل: إن العلاقات، كلها بلا استثناء، إلى انتهاء، ماعدا علاقتك بنفسك. أما ما مضى، فإن كل تجربة تشفي التي قبلها، تمحيها، تجعلك تتعدينها. آه يا حبيبتي. طالما اعتقدت أن عذابك بلا نهاية".

يقول الطالع في برجي اقرأه على الإنترنت "حاول أن تنظر للأشياء كما هي، وليس كما تريدها أن تكون. برجك يريد أن يحول تجربة عاطفية سريعة أو غير متعمدة إلى تعهد والتزام. حاذر، فكلما استثمرت أكثر يكون ألم فرصة خيبة الأمل المتوقعة أكبر. أنت كنت في الموقف نفسه من قبل. قبل أن تأخذ الخطوة القادمة استفد وخذ عبرة من دروس الماضي".

fb/mashro3pdf

# ١١

آثار أقدام، لا يوجد غيرها، في مساحة رمل الصحراء الممتدة أمامي كخطوط شعر مسرح بكر تمتد للانهائي لم تُمس أبدا من قبل. أثر الخطوات، مهما كان، سيبدو متواضعا إذا نظر إليه في محيطه من بحر تموّج الرمال الشاسع . آثار وحيدة، تمتد منحدرة مع انحدار تل الرمال، تبدأ و تنتهي أمام خيمتي. وجدتها في الصباح، كما هي، تماما، كما لو أن الزمن لم يمض. لتذكرني بالليلة الماضية. أبتسم، لنفسي وله وللشمس التي تشرق، ولهواء الصباح الطلق، يصدم وجهي الذي أخرجته من فتحة الخيمة.

بالأمس دار الحديث، تحت النجوم. سألته عن آثار الحيوانات والطيور القليلة التي رأيتها منذ أن وصلنا للمكان. (البدو يعرفون الكثير عن قص الأثر. كل ما أعرف تعلمته منهم. يعرفون الفرق بين أثر المرأة والرجل، صغير السن والشيخ، أوزان الناس المختلفة، أطوالهم ... يعرفون حتى إن كانت المرأة حبلى). وقف فجأة بطوله الفارع ليشرح. رفعت رأسي وعلقت عيناي به مستمعة. (سنجرب الآن: سأمشي أنا هكذا، فلتمشي أنت أيضا ، فلننظر الآن، ما معنى ذلك؟). بدا كمدرس يحاول أن يصل لمستوى عقلية تلاميذه. (عمق أثر المرأة أكبر عند كعبها. عند الرجل أثر مقدمة قدمه يكون أعمق. من طول القدم نعرف طوله، بالتقريب، ومن عمق الأثر

fb/mashro3pdf

نعرف ثقله). أجمل مختصرا، خشية أن نمل (نستطيع أن نحكي حكاية كاملة من قص الأثر).

أنا أيضا أستطيع أن أحكي، حكاية كاملة، من قص الأثر. خرجت من الخيمة في الصباح الباكر وقررت اقتفاء الأثر، كما حدثنا عن البدو بالأمس. ها هما: أثر رجالي، وأثر حريمي. الأثر الهابط من التل غير الصاعد. الرائح غير الآتي. الأثران في الذهاب يبعدان عن بعضهما مترا على الأقل. في العودة تجاور الأثران، بل اختلطا أحيانا. أهبط مع تل الرمال الذي ينحدر فجأة. أطرق برأسي متأملة الأرض الساكنة. أنظر خلفي. المخيم والسيارة فوق التل عن بعد يصغران بالتدريج. الآثار ساعية لعمق أكبر في الوادي الممتد. آثار الأقدام أمامي تمتد لمسافة طويلة، طويلة.

بدا لي الوادي في الظلام كأنه بلا نهاية. أما هو فكان يمشي كأنه في حديقة بيته. انتقلت ثقته إلي، فتركت نفسي أحث السير بجواره نخترق الظلام ، بلا قلق. نمشي ونمشي. أقلق مرور الزمن السائق فبدأ يرسل إشارات ببطاريته ليطمئن، جاوبها هو بإشارات مماثلة ثم تابعنا السير. هل كنا نتحدث؟ الأحرى أن أقول: هل توقفنا عن الحديث؟! حتى ونحن صامتان كنا نتحدث. كان الحديث كله همسا. فرغم فسحة الفضاء، ورغم امتداد الأرض وبعد المسافة عن أي قريب يمكن أن يسمعنا، كنا نهمس. المكان فرض الهمس، أوحي به. رغم خلو المكان فهو مليء. حركة الأشياء في المحيط هي الاستثناء، إلا أنك رغم ذلك تشعر بحركة دائبة، مستمرة، حولك. حركة الطاقة. حركة سرعتها مريحة. كان كل شئ يهمس: لون الليل، لمعان النجوم ، هدوء الريح ، فوجدنا أنفسنا نهمس ، نحن أيضا. أرى أثراً لأقدامي واقفة في المكان، وأقدامه تتحرك، خطوتان يمينا، مثلهما يسارا، شمالا، جنوبا، كأنه يرقص حولي، رقصة ما غامضة. مبتسمة أرقبه وهو يشرح موقعنا، بالضبط وبدقة، كما أكد. يذكر اسم هذا

fb/mashro3pdf

الجبل البعيد، وهذه السلسلة الجبلية الأقل ارتفاعا، وهذا الممر. هذا يعني أن من هنا للحدود الليبية ذلك العدد من الكيلومترات. ردد منذ وصلنا بعد أن تخطينا صعوبات كثيرة، أنه يسمى هذا المكان(المنزل) إذ بانعزاله لصعوبة الوصول إليه فإن له حرمته. ولأنه يحبه فقد عرفه على مرات رحلات عديدة أتم المعرفة. كان يبدو كمن لا يريد أن يتوقف عن الكلام، عن كل شيء وأي شيء، مداريا ارتباكا ما. شعرت بعذوبته فلزمت الصمت. (حقيقتي أكونها هنا، إذ أصبح غير من ترينه بالمدينة. أود لو أريكِ الصحراء التي أعرف، أثق ساعتها أنك ستحبينها ، كما أحبها).

عندما تخرج للصحراء، فأنت تغادر ما تعرف، إلى مجهول. تضع جانبا ما تعودت، ما تعلمته، تنفتح لتقبل جديد، ربما يغير حياتك، إذ لن تعود أبدا ما كنته من قبل. تشعر في بدء مواجهة الصحراء لأول مرة كما لو أنها تبعثرك، فلا تترك حجرا على حجر. تعجز عن التفكير، بياض تام. صور مشوشة، ظلال غامضة، لا تدل على شيء، لا تجد لها معنى، إنها الوحدة الكاملة. هل تعاني؟ تتألم؟ إنها مواجهة الذات. أنصت، ولا تدع أي حواجز، عندها تتعرف على الحقيقة. فما بعثرتك الصحراء إلا لتكتشف في النهاية تكاملك الحقيقي الكامن فيك، تكتشف إلى أين تمضي، وما الذي كنت تبحث عنه. هل جربت بعض الطرق؟ كل الطرق؟ هل اكتشفت، بعد، طريقك الخاص، حقيقتك؟. فلتؤدي إذن ما خلقت من أجله، ولتتقن ما تعمل. ففي الصحراء تتعلم أنه لا مجال لأنصاف الحلول. صفاء مطلق. كل شيء شديد النقاء. رهافة تعز على الإدراك الكامل. تسمع أصواتا، تحدثك مباشرة، تحمل حكمة. تكتشف فيما بعد أن تلك الأصوات أتت من داخلك أنت. الصحراء فقط أعادتك إلى نفسك، لتدرك قيمتها، وتصدقها. كل حياتك الماضية تصبح كما لو كانت ذكرى بعيدة مبهمة. ذاك الظلام الذي ظللت تخوض فيه لاعنا إياه في كل لحظة إذ تتزايد كثافته كلما خضت فيه، ربما كان ظلمة تأتي من قلبك أنت. إذن: هيا، فلتبددها. تكتشف أن الحياة هشة،



fb/mashro3pdf

كما أنت نفسك، إلا أن قتالها من أجلك يمكن أن يصبح ضاريا، فقط إذا أنت اخترتها، اخترت الحياة.

هنا، في الصحراء، لكلمة "الطريق" معنى أعمق. لا يمكن معرفة الطريق بحسابات عقلية وعلمية فقط، مهما كانت معداتك. هنا لابد أن تُصغي بتواضع، تُصغي للطبيعة، لكل الدقائق والتفاصيل، مهما تفهت في نظرك، مهما بدت مملة. بإمكانك أن تجعلها صديقا أو عدوا، حسب احترامك لها. لابد أن تسمع لمن يعرفون، بحدسهم، مهما بدو أقل منك في كل شيءٍ بحسابات الحضر. مقاييسك ستختلف هنا، شئت أم لم تشأ. هنا لابد أن تُصغي، بانتباه كامل، لداخلك، ذلك الذي لا وقت لديك له في المدينة، أن تتقبل أن يتغير، أن تصغي لحواسك الأخرى، لقوانين أخرى. وها أنا أقول لك: إن لم تصغ، فالغلطة بموتة، هذا هو حكم الصحراء، فهل ستقبله؟. الطريق يصبح طريق حياة، نجاة، أو طريق نهاية، لا ثالث. قلبك يصبح، يوما بعد يوم، خليطا، من أصلب ما في الدنيا، وأرق ما في الدنيا. (هل تودين رؤية عجائب السراب، حيث تصير الصحراء، على البعد، بحيرات ماء ضخمة، تعكس صورة الجبال المحيطة ، تختفي لتعود). من يعرف الحياة سيدرك أنه كلما اقترب فسيكتشف الحقيقة: لا تصدق كل ما تراه عينيك، فقط صدق قلبك، تسلم.

هنا يلف أثر الأقدام الذاهبة حول بعضه، يصنع دائرة. وكأن الصوت لا يخرج منا: "أود لو أحتضنك". بتقدمنا في صحراء الليل والنجوم، بدأت تسقط تحفظات الحديث. رغبة ما في كشف النفس، في اكتشاف الآخر. طلبت أن نجلس، إذ شعرت بالتعب. أثر جلوسنا زحزح الرمال قليلا، تجاوره آثار أقدام، فالمرء يجلس على مقعدته ويوقف بجوارها قدماه مثني الركبة، ثم يفرد الساق فيظهر أثر الكعبين وسحبة السمانة تؤدي لهما. تحدثنا لساعات، عن كل شيء، بصدق، وحساسية. ما مضى، محيط حياتينا، آلام نسعى جاهدين لتجاوزها. الأحلام. كم أمنية قيلت في السر



fb/mashro3pdf

وقت سقوط نجمة نتابعها بأعيننا، وقد هوى يومها الكثير. أثر قدمين يتجهان لصخرة صغيرة على بعد ثلاثة أو أربعة أمتار، وأثر طرطشه سائل بين القدمين المغروستين قليلا. أردت أن أقضي حاجة ألحت ، نتيجة الجلوس على الرمال التي لحقتها برودة الليل الذي أوغل. ابتعدت أمتارا قليلة. ضايقني أن سيسمع لا محالة صوت ما سينساب مني. طلبت منه أن يدير وجهه، فضحك، إذ لن يستطيع، حتى إن حاول، أن يرى أي شيء في الظلام الدامس. (في ظهر اليوم التالي ، ظلي الذي بدا جزء منه من وراء الأحجار الضخمة التي اتخذتها ساترا، جعله يدرك ما أفعل. سمعت الخطوات عن بعد فرفعت صوتي قليلا أتساءل عن القادم. كنت شبه متأكدة أنه هو. لم يرد، فقط أتى، ووقف ينظر. رأيتني في عينيه. كل شئ اكتسب ألوانا جديدة: الشمس والرمال، والحجران الأبيضان اللذان وضعتهما تحت قدمي وأنا أستحم، وجسدي أبلله بصب الماء القليل النادر. جسدي ذلك المشرع، عاريا، وقد اكتسى لونا ذهبيا، حيا، من الشمس، ومن عينيه). آثار أصابع، أيدي، تغترف من الرمال، وبجوارها جبال رمال صغيرة حيث تركت الرمال لتنساب، تتسرب ببطء من بين الأصابع. "أشك أنني قادرة على الحب مرة أخرى، إذ سيظل جزء مني دائما بالخارج، يتفرج. جزء أحافظ عليه ألا يمس. أشعر أني أظلم من يتعلق بي لأني أعرف أنني لن أفتح، بعد الآن، كلية لأحد. ما هو الحب؟!. لو كان هو فعلا ما كنت أفهمه في السابق، أن نفتح أنفسنا تماما، أن نعرضها تماما، أن نعطي كل شيء، فهذا ما لا أقدر على تكاليفه الآن، بعد كل ما مررت به". كان سكون ليل الصحراء التام سكونا ضاغطا، كتفريغ الهواء، وأنا أتحدث بما يأتي مباشرة من قلبي، كما لو كنت أتحدث إلى نفسي. "الكتابة: ماذا تعني لي؟ هي بصراحة شاغلي الأول الآن. عندي مشاريع كثيرة، ناقصة، كلها عن ما مر بي، بشكل ذاتي، فهل تهم أحداً غيري؟!. أشك أحيانا أن ما أكتبه عن تجارب صغيرة خاصة يهم أحدا غيري. لكني وبرغم ذلك أود أن أكتب



fb/mashro3pdf

عنها، كطريق لتطهير النفس، طلبا لشفاء، ربما يؤدي بي للسكينة، للنمو، للنضج ، على نار هادئة. طريق صعب، يؤدي لوحدة ضارية، أعرف، ولكنه اختيار، أعد له نفسي". صوتي هادئ ، ولكن مثقل. "كنت لسنوات، كفاقد النطق، يعرف كل شيء عن الكلام ، ولا يجرؤ على فتح فمه".: أتكلم منشغلة بذاتي، ملتفة بنفسي، لا أرى وجهه إذ كان الظلام دامسا. قلت ضاحكة: "هل تعرف أنك تظهر في القصة التي أكتبها الآن؟. هي قصة عن علاقة مضطربة برجل، عذب نفسه وعذبني بتقلبه وعقده، فاختلط عندي ما أعرفه وأحبه عن ثقافة وأساطير بلاده بأحداث تلك الرحلة التي قضيتها معه متراوحة طوال الوقت بين السعادة والمعاناة. قررت نهاية القصة حتى قبل أن أبدأ فيها. سأجعل نهايتها في الطائرة، عائدة من رحلتي، وقد هدني الضغط العصبي والإجهاد فسقطت في النوم بمجرد أن وجدت مكاني. سأجعل النهاية وأنا أحاول جاهدة بصعوبة بالغة فتح عيناي لأستمع لذلك المصري الشاب الذي يجلس جواري، ويحاول بكل الطرق إيقاظي وجذب انتباهي، إذ يخرج من حكاية مشوقة، ليدخل في أخرى، كأسلوب ألف ليلة وليلة، ولكن بموضوعات علمية، سياسية، معاصرة تماما". قام فجأة، تحرك على ركبتيه، فأصبح ورائي، احتضن ظهري، أحاط رقبتي وكتفي، احتواني، يهزني بهدهدة، أنفاسه العميقة على خدي وهو يقول: "ما أجملها، ما أجملها".

أثر قادم من الغرب، أقدام تتوقف، تتردد، دوائر عناق، أقدام تختلط ببعضها، أقدام تمضي. هل نعود الآن؟ نتفرق؟! هل نستطيع أن نفترق الآن؟!. اتبع الأثر، وانتبه. ستجد أثرا ليس بآثار أقدام. أثرا ممتدا، دليل فرد الجسد، تمدده على الأرض. راقدة أراقب نفسي، كما لو كنت أتعرف عليها، ساكنة تماما، أنتظره في خشوع. يقترب، يقبل باطنهما برقة آسرة، ينظر في عيني، يتلمس طريقه. وجهه، وقد أضاء في عيني رغم الظلام



fb/mashro3pdf

الدامس، تحيط برأسه نجوم السماء اللامعة، نزلت من عليائهـا. أغمضت عيني، وتركت نفسي ، فذبت.

في الصباح كان المنظر هو هو كالمساء السابق، كصورة ثابتة لحالة ميتافيزيقية. في الليل كانت السماء مفروشة ببساط من النجـوم الدريـة، صغيرها وكبيرها، لامعها وخجولها: طريق اللبن، ومجرة الدب، ومجموعة المغرفة، التي انتظرنا ظهورها عندما يتقدم الليل. ظللنا ننقل أعيننا، وهو يشير لي، كخبير، مادا ذراعه في اتجاه السماء مشرعا السـبابة، نراقب حركة المجرات مع دوران الأرض مع مرور الساعات وقد استلقينا جنبا إلى جنب على ظهورنا فوق الرمال الصلبة ، وافـرة الحنـان. الأرض، تحتنا، تمتد أمامنا، في وعينا، إذ لا نراها لسوادها، لسكنى الظلام بهـا، إلا أننا بالتأكيد ندرك وجودها، من انبثاق تلك الكتل البيضاء غيـر المنتظمـة، على مسافات في الظلمة. في الصباح، كان اللون لون أصفر كالح، يقطعه رمادي مبيض، يمتد، كالقدر، لا فكاك، لا تقهره حتى تلك الجبال البعيدة، إذ خضعت للون نفسه. شمس قاهرة، إلا أنها في الصباح الباكر كانت تـدّعي الرحمة، تتحرك مع الساعات في سماء زرقتها اختلطت باللبن، لا تشـوبها شائبة، إلا من صقور تحوم. الليل هنا، كما الصباح، كلاهما يضعانك أمـام نفسك. الفارق هو أن الصباح أحضر أمامك كـل شـهودك، وإذ لا يوجـد غيرهم، فلا مهرب. هم هناك، منذ الأزل، أحجارا، تتحور أشكالها بحـوار مع الرياح والرمال، ببطء يعززها. تتفرق على الأرض المنبسطة. يبتعـد كل منها عن الآخر، ليس عن اختيار، ولكن بقدر مرسوم. ولأن توافقك مع الحياة اكتشاف حلو يتجدد، تجد أنهم أصدقاء: الصباح و المساء.

ظللت أقص أثر ليلة الأمس لساعات في الصباح الباكر قبل أن يستيقظ الآخرون. ثم جلست هناك في ظل صخرة أخذت شكل شجرة، أتأمل. رأيته



fb/mashro3pdf

من على بعد. لن أشير، لن أرفع صوتي بالنداء، لن أتحرك. فقط سأنظر، وسيدرك، سيشعر بي، أثق في ذلك. وهكذا كان. حدد مكاني، فورا، في الوادي. توقف، ورفع يده. عينان حادتان، فطرة سليمة، وحس متيقظ في الصباح كما في المساء. في ليلة أخرى، لمحني على الفور. رآني كظل أسود على المساحة البيضاء في الصحراء التي يحفظها كظهر يده كما يقول. كنت أجلس في الوادي، وسط ظلام تضيئه حولي الأرض الحجرية ناصعة البياض. أراقبهم عن بعد، يتحركون حول مكان المخيم، فوق التل الرملي المحاط بصخور ضخمة، جاثمة، متفرقة. أتاني، ودون أن يتكلم، مال على ساقي، فقبل ركبتيّ. احتضنت وجهه فاستكان لصدري.

أثران يؤديان لخيمتي. دخلت أنا الخيمة، وبقت ركبتاه مغروزتان أمامها. تحدثنا بهمس. سألني إن كنت في حاجة لشيء؟. قال إنه لا يرغب ولكنه مضطر لتركي الآن. أثار أقدامه، وحدها هذه المرة، تتجه للغرب، حيث سيقضي بقية ليلته في كيس نومه بجوار السيارة.

اقتفاء أثر الليلة كان بمثابة استرجاعها كاملة، بشكل مذهل. كأن الزمن لم يمض. تساءلت كيف سأعود، بعد كل هذا، لأعيش حياتي العادية اليومية. تذكرت عندما حاول التعبير عن حالته عندما يعود من الصحراء بعد قضاء فترة هناك. وحشة؟! غربة؟!. (تترفع عن كل التوافه، فلا تطيق صبرا على ما تبلد عليه سكان الحضر. تجد نفسك تحمل الصحراء في قلبك، أينما ذهبت. تتصبر، تتجمل، وتنتظر. تمضي بين البشر، في زحام الشوارع، مفتقدا تلك الثعالب الصغيرة، تحبها وتفرح بها وتندهش أنك تكسر ما تربيت عليه من أفكار ثابتة. تجيء في الليل، تألفك، ويا للعجب، تقترب منك، بشرط أن تطمئنها بسكونك التام، لتأكل طعاما تركته لها على صخرة قريبة، وتشرب ماء، تعرف، بقلبك قبل أي شيء آخر، أنها تهفو إليه).

fb/mashro3pdf

يقرأ والأوراق على ركبتيه، وذراعاه معقودان على صدره المشدود، لا يحركهما إلا ليقلب الصفحة. لا أجد تعبيرا على وجهه، فأنقل عيني لصفحة النيل على يميني. أنهى القراءة فلم يرفع رأسه بل قلب الأوراق وبدأ يقرأ من البداية مرة ثانية، ثم ثالثة، منتقيا هذه المرة فقرات معينة ليعيد قراءتها. ثني الأوراق وظل ينظر لها على ركبتيه. لم يرفع رأسه لينظر إلي. قال: "هل أستطيع أن أحتفظ بتلك الوريقات؟". قلت: "نعم، بالتأكيد". وقف دون أن ينظر إلي، ودون كلمة أدار ظهره ومضى. اختفى، في الصحراء. زحمة الحياة أضاعت صوتي الذي وددت لو يناديه. فهلا توقفت عن قص الأثر، أي اثر، وكل أثر، ملاحقة الماضي، اجتراره، ففي داخلي أنا نشب الخصام، وفي داخلي أنا يجب أن يتلاشى، لأبدأ من جديد، فغدا هو أول يوم فيما تبقى في العمر من بقية.

٢٠١١

درية الكرداني

doriaelkerdany@gmail.com

fb/mashro3pdf

رقم الإيداع : ١٤٢٨٤ / ٢٠١١
الترقيم الدولي (I.S.B.N): 977 - 221 - 153 - X

fb/mashro3pdf

# عندما يتحول العشق إلى كابوس!

قط لم تتناول كاتبة مصرية من قبل بالتحليل العميق الذي نجده في هذه الرواية، علاقة امرأة معطاءة بفنان عظيم ذي ذات متضخمة.. قصة بديعة عن امرأة أحبت وعانت.

"الصورة يلفها الظلام، فلا أرى تفاصيلها، ولكن أميز الرمال الذهبية التي تحتل أغلب مساحة الصورة، وأترك البحر لخيالي، يشم رائحة هوائه، ويسمع صوته، يملأ العين والقلب. أتذكرها الآن فأتذكر السلام والسكينة على شاطئ هادئ كالذي شهد طفولتي وشبابي. زاره معي الفنان مرة يتيمة لأجد بعدها أنه رسم هذه الصورة الوحيدة لبحر غير بحر الإسكندرية الذي عشق رسمه هادئا أو هادرا دون شاطئ أو رمال. تنظر للصورة، ولكن ليس بعينيك فقط، بل بكل كلك، فتجد أبعادا أخرى أضافها الفنان، ككل صوره، لما كنت تعتقد أنك تعرفه حق المعرفة. الرمال الذهبية تصبح رمالا فائقة النعومة والدقة والخطر، تعطيك الأمان لترتاح وتسترخي فتتحرك بهدوء مرعب لتبتلعك، وأنت سعيد. تفقد كل ما لك وعلى وجهك ابتسامة خدر. تحيطك الرمال الناعمة من كل جانب، تغلق أذنيك وعينيك وأنفك. تستلذ بالخدر، وتنتهي. هل كان خائفا من الرمال الناعمة؟، هل كنت أنا؟ لم يسع الوقت أن أعلق هذه الصورة واحترقت عن آخرها فلم أجد لها أثرا".

دار الثقافة الجديدة

تصميم الغلاف أحمد مراد

fb/mashro3pdf